# لن تعـــرف

حوار يتناول تاريخ مصر بالكامل

## الجزء الأول

يقلم
محمد عرموش

## ١. مقدمة

## بسم الله الرحمن الرحيم

- هذا الكتاب عبارة عن حوار بين شخصين ، أحدهما يحاول إقناع الآخر أنه لن يتمكن من معرفة ما سيحدث وأنه حتماً سيموت دون أن يشهد نهاية الأحداث التي يعيشها ، وأن كل ما عليه هو أن يسجل موقفه مما يحدث وأن ينصر الحق في حدود استطاعته دون انتظار مشاهدة الحق ينتصر فعلي مر التاريخ انتصر الحق علي الباطل ثم عاد وانتصر الباطل ثم عاد وانتصر الحق وهكذا ، إنها دورة لا تنتهي في تاريخ البشرية ، وقد يعيش الإنسان في بداية هذه الدورة أو خلالها أو في نهايتها ثم تبدأ دورة جديدة قبل أن يموت بقليل ويتمني أن يعرف ما سيحدث ولكنه يموت دون أن يعرف

وكان ما يلي نموذج لهذا الحوار :

- وإذا لم ينتصر الحق ؟
- أنت لست مسئول عن النتائج ، أنت تحاول فقط ، فليس علي المرء أن يصل إلي نهاية الطريق فالمهم أن يموت وهو يسير علي الطريق الصحيح
- ولماذا يحدث دائماً هذا الصراع بين الحق والباطل ؟ اعذرني فقد يبدو سؤالي ساذجاً
- ليس ساذجاً لأن له إجابة واضحة ومهمة جداً ألا وهي تسجيل المواقف المختلفة للبشر من هذا الصراع
- هل مطلوب مني أن أسجل موقفي من هذا الصراع دون أن أشارك فيه ؟
- أنت تشارك فيه بالفعل علي قدر استطاعتك وإمكانياتك وعلاقاتك ومواهبك
- ولمن يسجل الناس مواقفهم من كل حدث من الأحداث ؟
- يختلف ذلك من شخص إلي آخر ، فهناك من يسجل موقفه أمام نفسه احتراماً لها وهناك من يسجل موقفه أمام من حوله من أبناء وأصدقاء وعائلة ومجتمع محيط به وهناك من يسجل موقفه للتاريخ
- ومن علي صواب في كل هؤلاء ؟
- لا أحد ، لأن أي موقف أو عمل تقوم به يجب أن يكون خالصاً لله وحده لأنه هو الباقي سبحانه وكل هؤلاء إلي فناء
- فهل يمكن أن يكون تسجيل موقفي لله وللتاريخ والمجتمع وباقي هؤلاء ؟
- إن الله لا يقبل أن تشرك معه أحد في أي شئ سبحانه وتعالي ، فقط إعمل له وحده وسيكفيك كل هؤلاء لأنهم جميعاً من مخلوقاته ويخضعون لإرادته
- هذا يعني أن لا أنتظر أي رد فعل أو مقابل أو أجر من أي شخص وأنتظر الحساب في الآخرة ؟
- بالتأكيد لأن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي وبالتالي فالاختبار مستمر ومواقفك هي إجاباتك علي أسئلة هذا الاختبار إلي أن تموت وساعتها سينتهي الامتحان

- **ولكنني لا أعرف متي سأموت فكيف لي أن أجيب علي جميع الأسئلة وأسجل جميع المواقف في الوقت المتيسر لي ؟**
- **لابد أن تستعد دائماً للموت وتتذكره حتي تأمن وتعيش سعيداً**
- **كيف أعيش سعيداً مع ذكر الموت دائماً ؟**
- **إن ذكر الموت يجعل كل المصائب هينة وكل المشاكل بسيطة وكل الحياة لا تساوي شيئاً فهي إلي زوال**
- **وكيف تستقيم الدنيا وكيف نعمرها مع ذكر الموت ؟**
- **إن ذكر الموت مقصود به ذكر الآخرة والذي يؤدي بك دائماً إلي ذكر الله وأن تظل في معيته سبحانه وتعالي ليطمئن قلبك بذكره وتأنس بطاعته وتنعم بتقواه ، وإن إصلاح الدنيا ليس غاية في حد ذاته ولكنه وسيلة لإصلاح آخرتك فالتزامك أنت وغيرك بتقوي الله سيؤدي إلي إتقان العمل والصدق والأمانة والإخلاص وحسن الخلق والعطف علي الضعفاء والإنفاق علي الفقراء واليتامي وإكرام الجار والضيف وإماطة الأذي عن الطريق وغير ذلك مما أمر به الله سبحانه وتعالي من أعمال الخير دون انتظار أجر من أحد فتخيل معي كيف ستكون أحوال الدنيا إذا التزم الناس بتقوي الله في جميع سلوكياتهم**

**واستمر الحوار بينهما علي هذا النحو ، إلي أن استعرض معه تاريخ مصر بالكامل ليوضح له الأمثلة العديدة علي أشخاص حاولوا نصر الحق ثم ماتوا دون أن يشاهدوا نتيجة ما حاولوا تحقيقه**

**والجزء الأول من هذا الكتاب يتناول تاريخ مصر منذ العصر الفرعوني وحتي نهاية العصر الأيوبي**

**وقد تم إدراج جميع المراجع التي تم الاستعانة بها أثناء الحوار**

# بسم الله الرحمن الرحيم

## ٢. الأخبار المحيرة

جلس عمرو وأمامه مجموعة كبيرة من الصحف والمجلات وبعض القصاصات التي احتفظ بها من قبل وقام بتشغيل جهاز الحاسب ( الكمبيوتر ) وظل يقلب في جميع الملفات التي احتفظ بها عليه وظل يتصفح المواقع الإخبارية علي شبكة المعلومات الدولية (الانترنت) والبوابات الإلكترونية المختلفة ومواقع التواصل الإجتماعي ، كل هذا ليحاول معرفة ماذا يحدث في وطنه وفي العالم من حوله ليحلل الأحداث ويحاول استنتاج ما قد يمكن حدوثه في المستقبل القريب دون جدوي

فقام بتشغيل التلفاز وشاهد العديد من البرامج الحوارية والتحليلية إلي أن أصابه الإحباط واليأس فهو يريد أن يعرف ما سيحدث ويتمني أن يعيش حتي يري بعينه كل ما يتمني حدوثه ، كما كان يشاهد النهايات السعيدة في العديد من الأفلام والمسرحيات والمسلسلات فهو يحب النهايات السعيدة عندما ينتصر الحق علي الباطل

وبعد تفكير عميق ومحاولات جادة لقراءة ما بين السطور لمعرفة ما دار وما سيدور ، لم يصل إلي أي نتيجة مرضية ، أو منطقية فهو كلما يمسك بأول الخيط ويبدأ في الاستيعاب ويكوِّن صورة معينة لما يحدث إذا بشئ ما غير متوقع يقلب كل ما رتبه من أفكار رأساً علي عقب ، فماذا يفعل ؟

في النهاية قرر الاتصال بشخص يثق في منطقه وأفكاره ومعلوماته لعله يساعده للوصول للحقيقة وليحاول معه استنتاج ما يمكن أن يحدث ، وكان هذا الشخص أكبر منه سناً وواسع الإطلاع ويعشق القراءة وكم اختلف معه كثيراً في العديد من الآراء ووجهات النظر ، ولكنه في النهاية لم يجد غيره ليحدثه ويستوضح منه ما حدث مؤخراً وأصابه بكل هذه الحيرة ، ومع أنه مر بهذه المواقف من قبل واحتار كثيراً من قبل ولكن هذه المرة وجد أن الأحداث تتلاحق بشكل عجيب وغير منطقي بالمرة فاضطر اضطراراً للاتصال بهذا الشخص الذي يختلف معه في عدة آراء ومع ذلك يثق فيه كل الثقة ويفترض دائماً فيه حسن النية ، وهكذا تم اللقاء بين عمرو والأستاذ مدحت في المكان المفضل بالنسبة لهما علي شاطئ النيل بالقاهرة وجاء الأستاذ مدحت ومعه جهاز الحاسب اللوحي (التابلت) الخاص به والذي يحتوي علي مجموعة كبيرة جدا من الكتب ومعظمها كتب تاريخ ليقرأ منها ما يحتاج من فقرات إذا احتاج إليها أثناء الحوار ، كما أحضر عمرو معه أيضاً جهاز الحاسب (اللاب توب) الخاص به وبعض الأوراق لتدوين ما يحتاج من ملاحظات أو أسئلة واستفسارات أثناء الحوار ومن حسن الحظ أن مكان اللقاء تتوفر فيه خدمة الاتصال بالانترنت للموجودين به وكل هذا ساعد علي أن يكون الحوار مثمراً إلي حد ما بالنسب لعمرو

## ٣. بدء الحوار

**وبعد أن تبادلا التحية والسلامات والسؤال عن الصحة وما إلي ذلك دار بينهما حوار طويل ولكنه لم يتم في لقاء واحد فتعددت اللقاءات كلما أتيحت الفرصة**

**عمرو : أين أنت يا أستاذ من كل هذا الذي يحدث ؟ ألا تهتم ؟**

**الأستاذ مدحت : بل أهتم بالطبع ، ومن الذي لا يمكنه الاهتمام بما يحدث ؟ ، ولكنني لا أستطيع أن أصل للحقيقة الكاملة**

- **مع كل هذه الصحف والقنوات والمواقع الإخبارية لا تستطيع معرفة ما يحدث ؟**
- **ليت كل ما ذكرته كان مصدراً واحداً للأخبار يستمع إليه المرء أو يقرأه ويرتاح من كل هذه الضوضاء الإخبارية إذا جاز التعبير**
- **ولكن المصدر الواحد قد يكون متحيزاً لاتجاه معين أو رؤية خاصة أو وجهة نظر محددة**
- **عموماً يا صديقي العزيز ، إن الصورة لن تتضح علي أي حال إلا إذا قمت بتجميع كل مكوناتها وقمت بترتيبها في أماكنها مثل اللعبة المعروفة التي تقوم بوضح كل جزء أو قطعة صغيرة من الصورة بجوار بعضها وفي مكانها الصحيح حتي تتضح الصورة بالكامل ، فكيف لك أن تفعل ذلك ونصف عدد القطع تقريباً ليس معك ؟**
- **ألا تكفي القطع المتوفرة حالياً لتكوين صورة عامة عن الموقف ؟**
- **إذا كوّنت صورة ستكون مشوهة وناقصة وغير واضحة وبالتالي لن تتمكن من تحليلها التحليل السليم**
- **وما الحل إذن ؟**
- **الحل هو أن تعرف أنك لن تعرف**
- **لن أعرف ماذا ؟**
- **لن تعرف أبداً ما الذي سيحدث وبالتالي لا تشغل بالك به كثيراً**
- **ولكنني أريد أن أشاهد الحق ينتصر علي الباطل**

## ٤. الصراع بين الحق والباطل

- **علي مر التاريخ انتصر الحق علي الباطل ثم عاد وانتصر الباطل ثم عاد وانتصر الحق وهكذا ، إنها دورة لا تنتهي في تاريخ البشرية ، وقد يعيش الإنسان في بداية هذه الدورة أو خلالها أو في نهايتها ثم تبدأ دورة جديدة قبل أن يموت بقليل ويتمني أن يعرف ما سيحدث ولكنه يموت دون أن يعرف**
- **أنت تحاول تغيير الموضوع حتي لا تفكر معي لاستنتاج ما سيحدث**
- **أنا أحاول أن أجعلك ترتاح من التفكير فيما سيحدث لعدم جدوي ذلك ، فهذا ليس من شأنك ، فهو شأن المختصين وصناع القرار سواء بالداخل أو الخارج**
- **فما شأني إذن ؟**

- شأنك هو أن يكون لك موقف ومبدأ لا يتغير فتنصر الحق دائماً ما استطعت إلي ذلك سبيل
- وإذا لم ينتصر الحق ؟
- أنت لست مسئول عن النتائج ، أنت تحاول فقط ، فليس علي المرء أن يصل إلي نهاية الطريق فالمهم أن يموت وهو يسير علي الطريق الصحيح
- ولماذا يحدث دائماً هذا الصراع بين الحق والباطل ؟ اعذرني فقد يبدو سؤالي ساذجاً
- ليس ساذجاً لأن له إجابة واضحة ومهمة جداً ألا وهي تسجيل المواقف المختلفة للبشر من هذا الصراع
- هل مطلوب مني أن أسجل موقفي من هذا الصراع دون أن أشارك فيه ؟
- أنت تشارك فيه بالفعل علي قدر استطاعتك وإمكانياتك وعلاقاتك ومواهبك
- ولمن يسجل الناس مواقفهم من كل حدث من الأحداث ؟
- يختلف ذلك من شخص إلي آخر ، فهناك من يسجل موقفه أمام نفسه احتراماً لها وهناك من يسجل موقفه أمام من حوله من أبناء وأصدقاء وعائلة ومجتمع محيط به وهناك من يسجل موقفه للتاريخ
- ومن علي صواب في كل هؤلاء ؟
- لا أحد ، لأن أي موقف أو عمل تقوم به يجب أن يكون خالصاً لله وحده لأنه هو الباقي سبحانه وكل هؤلاء إلي فناء
- فهل يمكن أن يكون تسجيل موقفي لله وللتاريخ والمجتمع وباقي هؤلاء ؟
- إن الله لا يقبل أن تشرك معه أحد في أي شئ سبحانه وتعالي ، فقط إعمل له وحده وسيكفيك كل هؤلاء لأنهم جميعاً من مخلوقاته ويخضعون لإرادته
- هذا يعني أن لا أنتظر أي رد فعل أو مقابل أو أجر من أي شخص وأنتظر الحساب في الآخرة ؟
- بالتأكيد لأن الصراع بين الحق والباطل لا ينتهي وبالتالي فالاختبار مستمر ومواقفك هي إجاباتك علي أسئلة هذا الاختبار إلي أن تموت وساعتها سينتهي الامتحان
- ولكنني لا أعرف متي سأموت فكيف لي أن أجيب علي جميع الأسئلة وأسجل جميع المواقف في الوقت المتيسر لي ؟
- لابد أن تستعد دائماً للموت وتتذكره حتي تأمن وتعيش سعيداً
- كيف أعيش سعيداً مع ذكر الموت دائماً ؟
- إن ذكر الموت يجعل كل المصائب هينة وكل المشاكل بسيطة وكل الحياة لا تساوي شيئاً فهي إلي زوال
- وكيف تستقيم الدنيا وكيف نعمرها مع ذكر الموت ؟
- إن ذكر الموت مقصود به ذكر الآخرة والذي يؤدي بك دائماً إلي ذكر الله وأن تظل في معيته سبحانه وتعالي ليطمئن قلبك بذكره وتأنس بطاعته وتنعم بتقواه ، وإن إصلاح الدنيا ليس غاية في حد ذاته ولكنه وسيلة لإصلاح آخرتك فالتزامك أنت وغيرك بتقوي الله سيؤدي إلي إتقان العمل والصدق والأمانة

والإخلاص وحسن الخلق والعطف علي الضعفاء والإنفاق علي الفقراء واليتامي وإكرام الجار والضيف وإماطة الأذي عن الطريق وغير ذلك مما أمر به الله سبحانه وتعالي من أعمال الخير دون انتظار أجر من أحد فتخيل معي كيف ستكون أحوال الدنيا إذا التزم الناس بتقوي الله في جميع سلوكياتهم

- ما أريد أن أعرفه الآن هو الحق لكي أنصره وأسجل موقفي كما تقول ، وحتي إن لم أتمكن من نصره أو لم أري النتائج ولكن علي الأقل أريد أن أعرف إلي أي جانب أقف
- أولاً يجب أن تعلم جيداً أنه من المستحيل أن يحدث صراع بين حق وحق ، لأن الصراع دائماً يكون بين حق وباطل أو بين باطل وباطل ، وهناك عدة وسائل يمكنك من خلالها معرفة أين يكون الحق ، وكذلك لا تعرف الحق بأهله ولكن أعرف الحق تعرف أهله كما قيل
- نعم لقد سمعت هذه المقولة من قبل ولكنني لا أفهمها جيداً
- مثال علي ذلك ما حدث لأحد الأجانب عندما قرأ عن الإسلام واقتنع به أي عرف الحق وأسلم ، وعندما حضر إلي بلاد المسلمين الذين هم أهل الحق ، أنكر عليهم الكثير من التصرفات فقال الحمد لله أنني أسلمت قبل أن أري المسلمين
- تقصد أن القراءة عن الحق ومحاولة معرفته بنفسي من وسائل معرفته ؟
- بالتأكيد ولكن هناك وسائل أخري ، فمنها أن تتابع أين تتجه سهام الأعداء لتعرف أين يكون الحق
- ولكن كيف أعرف الأعداء من الأصدقاء وسط كل هذا الجدل ؟
- ستجد الأعداء يكرهون الحق ويكرهون ما أنزل الله وستجدهم لا يذكرون الله إلا قليلاً ويتحايلون علي مخالفة منهجه سبحانه وتعالي ومخالفة أوامره ولا يلتزمون بالكثير من أوامر رسول الله صلي الله عليه وسلم
- ولكن هناك من يذكرون الله ويلتزمون بالسمت الإسلامي ومع ذلك لا أشعر أنهم علي الحق ، بل إنني أكاد أجزم أنهم يستغلون الدين لأغراض أخري
- هذا قد يكون صحيح ولهذا يجب عليك معرفة الحق لتعرف هل هم من أهله أم لا ، وعلي كل حال لا أعتقد أن من يخالف أوامر الله في أقواله وأفعاله وهيئته واهتماماته ويجهر بالمعاصي ويهوِّن من أمرها وينهي عن المعروف ويأمر بالمنكر ويفعل كل هذا ، لا أعتقد أنه علي حق ، فلماذا تنكر علي من تظاهر بالإسلام ما يقول ولا تنكر علي الآخر ما يقول ؟
- أنا أريد فقط أن أعرف أين الحق لأقف إلي جانبه وأنصره
- بقي أن تدعو الله بنية صادقة ليلهمك الصواب والطريق المستقيم ، وأن لا تيأس من الدعاء ، أما من يخدعك في الله فأن تنخدع له بنية صادقة تلقي الله عليها خير من أن يجرك أحد إلي طريق يبعدك كل البعد عن الله ، وتذكر دائماً أن الجنة قد حُفَّت بالمكاره وأن النار قد حُفَّت بالشهوات كما ورد هذا المعني عن النبي صلي الله عليه وسلم

- كل هذا لأنني طلبت منك أن أعرف وجهة نظرك في الأحداث وما الذي يمكن حدوثه في المستقبل القريب ؟
- المؤكد حدوثه هو أننا سنموت بلا شك كما مات من قبلنا وكما سيموت من بعدنا وأن الحياة الدنيا قصيرة مهما طالت وأن الإنسان كما قال الشاعر هالك ابن هالك وذو نسبٍ في الهالكين عريق ، وأن كل هذه الأحداث ستنتهي حتماً وسنتركها ونمضي وسيتبقي فقط مواقفنا منها لنحاسب عليها ، وكما ورد في الأثر أن الدنيا سوق أُقيم وانفض ربح فيه من ربح وخسر فيه من خسر
- أعرف أنك قد قرأت العديد من كتب التاريخ فهل هذا كل ما تعلمته منها ؟
- من المؤكد أن هذا أهم ما تعلمته منها أن الجميع قد هلكوا ، ولكن هناك أيضاً عبر ودروس أخري تعلمتها من التاريخ تفيدني في فهم العديد من الأمور
- حسناً . لقد وصلت أخيراً إلي ما أقصده من هذا الحديث ، وهو كيف تفهم الأحداث الحالية من قراءاتك السابقة في التاريخ ؟ وما هي الدروس والعبر التي تنطبق علي ما يحدث الآن ؟
- ولكن لم يكن هذا سؤالك ، فقد كنت تسأل عما سيحدث أو ما أتوقع حدوثه
- سوف أحاول أن أعرف ما سيحدث بعد أن أعرف ما حدث والدروس المستفادة منه
- علي أي حال سوف أخبرك بخلاصة ما تعلمته من دروس التاريخ ولك أن تُسقطه علي ما تشاء من أحداث ، وأول درس تعلمته أن أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد
- ماذا تقصد ؟

## ٥. أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد

- أقصد أن الضوابط والقيم والمبادئ التي يلتزم بها الأفراد في علاقاتهم لا تلتزم بها الدول في علاقاتها كالصدق والأمانة والإيثار والتعاون والشفافية وكل الأخلاق الحميدة ، تستبدلها الدول بمبدأ واحد فقط هو المصلحة ، فالمصالح وحدها هي التي تحكم العلاقات بين الدول ولا مكان للأخلاق ، فالأمن القومي لأي دولة له الأولوية الأولي في التعامل مع باقي الدول فقد تخادع وتمكر وتجند العملاء بل وقد تعلن الحرب أيضاً للحفاظ علي كيانها وأمنها ومصالحها
- هذا الدرس معروف بالطبع وبدون حتي أن نقرأ التاريخ
- قد يكون معروف حالياً للبعض ولكنه لم يكن معروف في أوقات سابقة فمثلاً تعرض عرابي لخدعة كبري وصدّق حياد القناة وأن الجيش البريطاني سيلتزم به ولكن تم احتلال مصر ويحضرني هنا بعض ما كتبه الكاتب الكبير يحيي حقي عن هذا الموضوع حيث قال : وإذا جئنا لعرابي وجدناه هو أيضاً لسوء الحظ غير ملم بالموقف الدولي الإلمام الواجب لرجل مثله يقود أمته وسط الأعاصير ليس هناك دليل قاطع علي أنه فهم سياسة إنجلترا نحو قناة السويس وكيف تحولت من معارضتها إلي الطمع فيها ثم إلي اتخاذ العدة للاستيلاء عليها ، لم يمد بصره إلي أوروبا ليعرف كيف تقف من إنجلترا إذا أزمعت

غزو مصر منفردة ، لم يحاول البحث عن نصير حتي لو حكم من أول الأمر أن لا نصير له – --كان ينبغي ان يكون ملما كل الإلمام بالموقف الداخلي في فرنسا ليزن بميزان صحيح قيمة وعد دي ليسبس له بأن انجلترا لن تخرق حياد القناة من أجل ذلك وقع في خطأ عسكري جسيم هو عدوله عن ردمها ، لم تجد إنجلترا في عرابي خصماً ذا دهاء يجيد المناورة ، بل رجلاً طيباً يؤمن بأن الاعتداء جريمة وبأن الشجاعة تغلب المدفع ، فلما وقعت النكبة فسرها بأنها من تصاريف القدر – – ولم يتزلزل اعتقاده في أنه قام بواجبه في الدفاع عن كرامة شعبه وحقوق بلاده ، وإذا كانت حكمته موضع درس فإن إخلاصه فوق الشبهات

- هذا عن عرابي فهل لديك أمثلة أخري ؟

## ٦. أمثلة علي خطورة الجهل بالموقف الدولي

- بكل تأكيد هناك العديد والعديد من الأمثلة تؤكد مدي خطورة الجهل بالموقف الدولي وافتراض حسن النوايا ، ونعود أيضاً إلي الأستاذ يحيي حقي حيث أضاف قائلاً : وفي السنوات الأولي للاحتلال البريطاني نسيت مصر الدرس الذي تلقاه محمد علي ثم عرابي علي يد فرنسا وتعلقت آمال بعض قادتها من جديد بهذه الصديقة التي تعد ثم تخلف بل قد تنحاز للعدو ، حسب هؤلاء القادة أن الوعود المعسولة في الخطب الرنانة والاجتماعات الخاصة لها قيمة المعاهدات الرسمية ، – – – أما الوفد المصري فقد أدرك من الموقف الدولي القدر الضئيل الذي يلزمه فلم يتلكأ في تحويل قضية مصر عن النطاق الدولي المأمول إلي علاقة ثنائية بينها وبين إنجلترا فشد الرحال إلي لندن للمفاوضة ، بعد أن وجد جميع أبواب مؤتمر الصلح مغلقة في وجهه ، بعض رسائله أعيدت إليه دون أن تُفتح ، وقد أصيبت مصر بخيبة أمل قاسية جاءت هذه المرة من أمريكا لا من فرنسا ، هتفنا في المظاهرات إلي أن بحت الأصوات بحياة ويلسون وميثاقه المؤلف من ١٤ نقطة ، من بينها نقطة تعترف بحق كل شعب في تقرير مصيره ، فإذا بنا نعلم ذات يوم أن أمريكا اعترفت بالحماية البريطانية ، إنني لا أنسي إلي اليوم سخونة وجهنا في ذلك اليوم من أثر تلك الصفعة ، وقد كنا نكون في منجي من الإحساس بهذه الصفعة المؤلمة لو أن أحد بصرنا بحقيقة هامة كثيراً ما غابت عن قادة أفريقيا وآسيا وهي أن القانون الدولي موضوع لمصلحة دول حضارة أوروبا الغربية وحدها – – – إن ويلسون حين نادي بحق كل شعب في تقرير مصيره كان لا يقصد شعوب آسيا وأفريقيا بل شعوب أوروبا – – إنه لم يخن مصر ، بل مصر هي التي أساءت فهمه

- حقاً إن هذا الدرس ليس معروف للجميع فأنت تري الآن من لايزال يعتمد علي الغرب لتنفيذ وعوده البراقة بحماية حقوق الإنسان وتحقيق إرادة الشعوب في الحرية والديموقراطية وتجد العديد من المخدوعين بالغرب يعتقد أنهم سينصرون الحق كما حدث للوفد المصري كما ذكرت

- ولكن للحق فيجب أن تجدر الإشارة إلي أن سعد باشا زغلول قد فهم الحقيقة ولكن بعد أن ضاع وقت طويل بلا طائل
- هل حقا قال الكلمة الشهيرة مفيش فايدة ؟
- لقد قال كلام بهذا المعني تقريباً عندما اكتشف أن المصالح الاستعمارية مقدمة علي المبادئ الديموقراطية ، ودعني أقرأ لك فقرة ممتعة عن هذا الموضوع من كتاب ممتع للأستاذ جمال بدوي
- لا مانع ، فما هو اسم هذا الكتاب ؟
- الكتاب اسمه في محراب الفكر ، وهذه الفقرة توضح الكثير من الأمور التي كانت تحدث في ذلك الوقت ، حيث قال : لم تتمتع مصر بالديمقراطية مثلما تمتعت بها الشعوب الأوروبية ولم يكن طريق الديمقراطية مفروشاً بالورود رغم أن النهج الديمقراطي يقضي بنقل السلطة إلي الشعب بالوسائل السلمية وليس الثورية وتبدد الأمل الذي تطلعت إليه مصر عشية انتهاء الحرب العالمية الأولي واستطاع المعسكر المعادي للديمقراطية أن يعمل علي تعطيلها وخنقها عن طريق التآمر والدس والانقلابات ورغم أن هذا المعسكر كان يضم أشتاتاً من عناصر متنافرة إلا أن إرادتهم اتفقت علي حرمان الشعب المصري من ممارسة حقه في الديمقراطية ولو بحثت عن الأصول الفكرية والنظرية لهذه العناصر فسوف تكتشف أنهم ينتمون إلي الفكر الغربي الديمقراطي وأنهم من دعاة تقليد النظم الأوروبية بزعم أن فيها الخلاص والأمل في نهضة مصر
- شئ عجيب حقاً أن يعادي الديموقراطية من يدعي الانتماء إلي أفكارها ، وماذا كتب أيضاً ؟
- فأقطاب حزب الأمة الذين روجوا للديمقراطية الليبرالية بلسان رائدهم أحمد لطفي السيد تنكروا لمبادئهم عندما وضعوا في محك التجربة ، وازداد عداؤهم للديمقراطية عندما لفظتهم الجماهير في الانتخابات وتربصوا بالدستور كيد المنون ، واشتركوا في الانقلابات التي دبرها القصر لتعطيل الحياة النيابية ، ورأينا الملك الجالس علي العرش –أحمد فؤاد– الذي تلقي تعليمه في المدارس الأوروبية وقضي شطر حياته الأولي في العواصم الغربية يتنكر للحياة الديمقراطية التي عايشها شاباً ويأبي أن يكون ملكاً ديمقراطياً علي شعب حر ، ورأيناه يستعيد التقاليد الأوتوقراطية التي ورثها عن أبائه ، أما الاحتلال الإنجليزي فصار يمثل الضلع الثالث في هذا المثلث المعادي للديمقراطية رغم انتسابه إلي بريطانيا العظمي التي دخلت التاريخ علي أنها أم الديمقراطية والنموذج المثالي لكل دولة تتطلع إلي الحياة النيابية الدستورية ، ونشأت من هذه القوي (ضفيرة) متشابكة المصالح والأهداف لإخماد رغبة الشعب المصري في الانطلاق والتحرر من التبعية والعبودية
- سبحان الله ، إن هذا المثلث مكون من الليبراليين والملك والإنجليز وقد يكون مفهوم موقف الملك والاحتلال ولكن موقف الليبراليين غير مفهوم إلا إذا كانوا يدّعوا أنهم ليبراليين علي خلاف الحقيقة

- عندما أذنت شمس الحرب العالمية الأولي علي المغيب خيل إلي الأمة المصرية أنه قد آن الأوان كي تنال حقها في الاستقلال يحدوها الأمل في أن تجد المساندة من الدول الأوروبية ذات التقاليد العريقة في الحرية ، ولكن المحن التي تعرض لها الكفاح الوطني المصري كشفت عن زيف الشعارات والمبادئ التي رفعتها هذه الدول وتبين أن إيمانها بالديمقراطية والحرية هو إيمان عنصري يقتصر علي الشعوب البيضاء أما الشعوب المقهورة فلا يحق لها أن ترتفع إلي مستوي الدول الحرة
- لقد أصاب الأستاذ جمال بدوي كبد الحقيقة كما يقال ، فماذا كتب أيضاً ؟

## ٧. المصالح الاستعمارية أقوي من مبادئ الديمقراطية

- كانت بريطانيا قد فرضت حمايتها علي مصر عشية اندلاع الحرب وتحولت مصر بمقتضي الحماية إلي محمية بريطانية تحكم بقرارات من دار المعتمد البريطاني بالقاهرة ، وبلغت المهانة إلي حد تعيين الأمير حسين كامل سلطاناً علي مصر بقرار إداري من قصر الدوبارة ، وتكررت نفس المهانة في تعيين السلطان أحمد فؤاد ، وكان من شأن هذا الإذلال أن يوغر صدور المصريين ويدفع زعماءهم إلي السعي من أجل إزالة وصمة الحماية ، فلما أعلنت الترتيبات لعقد مؤتمر الصلح في باريس وجدها زعماء الحركة الوطنية فرصة لعرض قضية مصر علي المؤتمر علي أمل أن ينتزعوا من الدول الأوروبية المنتصرة قراراً برفع الحماية وشجعهم علي ذلك إعلان الرئيس الأمريكي ويلسون مبادئه الشهيرة في مساندة الدول المقهورة وعلي رأسها حق تقرير المصير وتقدم نفر من الساسة المصريين هم سعد زغلول وعلي شعراوي وعبد العزيز فهمي إلي دار المعتمد البريطاني يوم ١٣ نوفمبر ١٩١٨ طالبين الإذن لهم بالسفر إلي باريس ولكنه رفض السماح لهم بهذا الحق بحجة إنهم لا يمثلون الأمة وأدي هذا الرفض إلي استفزاز المشاعر الوطنية واستنهاض الهمم لتحرير التوكيلات التي تحولت إلي حركة شعبية عارمة أعطت ثقتها في هذا (الوفد) باعتباره ممثلاً عن شعب مصر وبدلا من أن تعترف بريطانيا –أم الديمقراطية– بشرعية هذه التوكيلات ضربت ضربتها باعتقال سعد زغلول وأعضاء الوفد يوم ١٨ مارس ١٩١٩ وفي اليوم التالي اندلعت الثورة في كل أنحاء البلاد وأعربت الجماهير المصرية عن غضبتها علي الاحتلال بكل ما تملك من وسائل السخط – – وتصدت قوات الاحتلال للمتظاهرين وتساقط الشهداء في كل مكان واضطرت الحكومة البريطانية إلي الإفراج عن سعد وصحبه من منفاهم في مالطة والسماح لهم بالسفر إلي باريس ولحق بهم بقية أعضاء الوفد واكتمل عقد الوفد في عاصمة النور والثقافة والديمقراطية ومهبط أفكار فولتير وروسو ومونتسكيو وغيرهم من آباء الليبرالية الديمقراطية ، يحدوهم الأمل في أن تقف أوروبا الديمقراطية إلي جانب الحق المصري ، ولكن ، ، وقع ما لم يكن في حسبانهم ووجدوا هذه الدول تتنكر لمبادئها وتدوس شعاراتها وتنصر الظالم علي المظلوم وأصدر مؤتمر الصلح قراراً يعترف فيه باستمرار الحماية البريطانية علي مصر ، وكانت تلك أول صدمة واجهت الوفد المصري ، أما الصدمة الثانية فكانت في تراجع الرئيس الأمريكي عن مبادئه واعترافه

بالحماية البريطانية وتبين أن كلامه عن حق تقرير المصير للشعوب المقهورة لم يكن سوي شعار زائف يضحك به علي العالم ، وكشف العالم الغربي الحر عن وجهه القبيح وسقطت الأقنعة التي خدعوا بها السذج الذين لم يفطنوا إلي الفجوة الهائلة بين المبادئ والتطبيق ، وتبين أن المصالح الاستعمارية أقوي من مبادئ الديمقراطية وأن المدنية الأوروبية لا تتورع عن استخدام نفس الأساليب والأخلاقيات التي كانت سائدة في العصور الوسطي ، لقد أصيبت الحركة الوطنية المصرية بصدمة لا يمكن إنكارها ولقد أعرب سعد زغلول عن خيبة الأمل في السياسة الأوروبية في رسالة بعث بها إلي محمود باشا سليمان رئيس حزب الأمة ووكيل الوفد يقول فيها : منذ وصولنا باريس وجدنا جميع الأبواب موصدة في وجوهنا وكل الجهود والمساعي لم تؤد إلي نتيجة ، إن مهمة الوفد قد انتهت ولم يبق أمل في الحصول علي الاستقلال التام ، وإن كل قول عدا ذلك يعد مغالطة وأن عمل الوفد الآن ما هو إلا تنظيم للهزيمة ، كانت كلمات سعد تعبيراً عن المرارة وخيبة الأمل في دول أوروبا التي باعت مبادئها من أجل مصالحها

- لهذا يقول بعض الناس حالياً أن سعد قال مفيش فايدة ؟
- بالتأكيد فكلامه يحمل هذا المعني ، ولكن الأستاذ جمال بدوي يضيف فيقول : ولكن سعد زغلول الزعيم الذي حنكته التجارب والمحن لم يستسلم للهزيمة وازداد اقتناعاً بأن الكفاح الحقيقي في مصر وليس في أوروبا وأن عبء الاستقلال يقع علي عاتق المصريين أنفسهم وليس علي عاتق الأوروبيين أو الأمريكيين
- أشكرك جداً علي هذا الدرس فسوف يفيدني كثيراً عندما أحوال معرفة ما سيحدث
- لماذا لازلت مقتنع أنك ستعرف مع أني أكدت لك أنك لن تعرف ؟
- ما عليك إلا أن تذكر مشكوراً الدروس من التاريخ واترك لي الباقي ، إذن لا يجب التعويل علي الغرب وما يدّعيه من مبادئ فما الدرس الثاني ؟

## ٨. كي تعيش شعوب في رفاهية تعيش شعوب أخري في بؤس

- الدرس الثاني الذي تعلمته من قراءة التاريخ يتلخص في أنه كي تعيش بعض الشعوب في رفاهية ورخاء لابد أن تعيش شعوب أخري في بؤس وفقر ، ولكي تنعم بالحرية لابد أن تعاني شعوب أخري من القمع والعبودية
- هذه النقطة تحتاج إلي بعض التوضيح إذ ما الذي يمنع أن تعيش بعض الشعوب في رفاهية وحرية دون قهر وإذلال شعوب أخري
- تقوم الدول الكبري باستنزاف ثروات الدول الضعيفة واستغلال إمكانياتها وقد أخذ هذا الاستغلال أشكال عديدة فكانت قديماً تقام إمبراطوريات ضخمة تسيطر علي العديد من الشعوب وتسومها سوء العذاب

وتُسخّر طاقاتها لخدمة مصالحها ثم تطور هذا الاستغلال ليصبح ما يسمي بالاستعمار ثم الامتيازات الأجنبية أما حالياً فقد أصبحت الدول الضعيفة سوق لمنتجات الدول الكبري ومعمل تجارب لأسلحتها وفئران تجارب لأدويتها ومدفن لنفاياتها النووية ومكان لإقامة المصانع الملوِثة للبيئة والتي لا تسمح الدول الكبري بإقامتها علي أراضيها وقد يصل الأمر إلي استغلال الفاسدين للإتجار بالأعضاء البشرية وغير ذلك من أساليب الاستغلال القذرة

- وكيف تسمح هذه الشعوب الفقيرة بكل هذا ؟
- إن هذه الشعوب مغلوبة علي أمرها وتخضع لأنظمة حاكمة تسلبها إرادتها وتشغلها بمشاكل الحياة وأمور أخري وتحرص علي عدم الاهتمام بالتعليم وعلي عدم نشر الوعي بالإضافة إلي الإعلام الموجه الذي يحذر الشعوب دائماً من المؤامرات الخارجية التي تستهدف الوطن
- بالمناسبة ، ما رأيك في موضوع المؤامرات الخارجية ونظرية المؤامرة ؟

## ٩. المطرقة والسندان

- تعيش بعض شعوب العالم الثالث أو معظمها بين المطرقة والسندان ، وهما قوتان تعتمد كل واحدة منهما علي الأخري في وجودها واستمرارها ، وهما قوي المؤامرات الخارجية وقوي الاستبداد الداخلي وهما حقيقتان لا يمكن تجاهلهما أو التهوين من شأن أي منهما فمن المستحيل أن تنجح المؤامرة من الخارج في إثارة أي شعب علي النظام الحاكم إلا إذا كان هذا الشعب يعاني من الاستبداد الداخلي ، وكذلك من الصعب جداً أن يجد الاستبداد الداخلي مبرراً لوجوده واستمراره دون أن يحذر الشعب من وجود مؤامرة خارجية قد تؤدي إلي ضياع هذا الشعب ، والطريف أن كلاهما صادق بالفعل فكلاهما حقيقة لا مفر منها ، ويكون الشعب بين مطرقة الاستبداد الداخلي وسندان المؤامرة الخارجية فيستسلم لأحدهما وغالباً ما يكون تمسكه بالاستبداد الداخلي كأهون الخيارين الذي أحلاهما مر ، وخاصة عندما يري تأثير ما حدث لمن اختار الاختيار الثاني فيجد دولاً تحولت إلي أطلال وشعوباً تحولوا إلي لاجئين
- هذا يعني صحة نظرية المؤامرة وقد أضفت إليها استعانتها بوجود استبداد داخلي ، ولكن ما الذي يبدأ أولاً المطرقة أم السندان ؟
- أعتقد أن الاستبداد الداخلي يبدأ أولاً فيُضعف من كيان الدولة ويُفقر شعبها لأنه عادةً يرتبط بالفساد فالمستبد لص فاسد يريد تحقيق مصالحه هو وعصابته علي حساب الشعب ، ومن هنا تستغل الدول الأخري هذا الموقف فتساعده علي تدعيم مركزه في مقابل تحقيق مصالحها
- أي أن هذه الدول تمتص دماء الشعوب المقهورة وتتقاسمها مع أنظمة فاسدة مستبدة تحكم هذه الشعوب
- بكل تأكيد فكما قلنا أن الدول بلا أخلاق وأن المصالح فقط هي التي تحركها وأن من مصلحة الشعوب الحرة أن تعيش شعوب أخري مقهورة ، وقد قرأت في كتاب سقط النظام في أربعة أيام للأستاذ محسن

محمد ما يؤكد أن وجود فساد في دولة ما قد يكون مصلحة دولة أخري حيث كتب ما ملخصه : ويجتمع رؤساء البعثات الأميريكية في الشرق الأوسط ، ، اعترف الحاضرون بانتشار الفساد في هذه الدول ولكنهم وجدوا أن الاستقرار في مصر ودول الشرق الأوسط أهم من الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي ، وخافوا من معارضة الفساد وما قد تؤدي إليه وعلي هذا الأساس انتهي قرار الدبلوماسيين إلي ضرورة مساعدة نظام حكم الملك فاروق اقتصاديا مهما كانت درجة فساد هذا النظام ، وقال الدبلوماسيون إن النظام السياسي فاسد ولا يمكن إصلاحه ولكن من مصلحة الولايات المتحدة المحافظة عليه

- من مصلحة الولايات المتحدة المحافظ علي الفساد ؟
- نعم إذا كانت معارضته قد تؤدي إلي نتائج ضد مصالحها
- ولكن ماذا يحدث إذا قام شعب بثورة علي هذه الأنظمة الفاسدة ؟
- إن الظلم وحده لا يولد الثورة فلابد من الإحساس بهذا الظلم أولاً كي تقوم الثورة ، فقد يكون هناك شعب مظلوم ولكنه لا يشعر بحجم المأساه التي يعيشها نتيجة لأمور كثيرة يعمل النظام علي استمرارها
- مثل ماذا ؟
- كما قلت انخفاض مستوي التعليم وغياب الوعي مع الإلهاء بأمور تافهة ونشر ثقافة الاستهلاك فلا يهتم الشعب إلا بما يُفرض عليه فرضاَ ، وخذ مثلاً علي ذلك من أشهر وأوضح الأمثلة وهو مباريات كرة القدم والمشاكل التي تحدث بين الأندية والإعلام الرياضي المريض كل هذا يأخذ الشعب إلي طريق بعيد جداً عن مشاكله الحقيقية
- ولكن الاهتمام بالرياضة وكرة القدم موجود في دول كثيرة متقدمة
- كرر الكلمة الأخيرة التي قلتها من فضلك
- متقدمة
- بالفعل متقدمة أي حلت مشاكلها ونظمت حياة مواطنيها وضمنت لهم الطعام الصحي والعلاج المناسب والعمل والسكن وجميع احتياجات المجتمع ثم تحولت إلي الرفاهية ، إن الاهتمام بكرة القدم رفاهية لا نملكها ، وبالتالي تتحول إلي خطة إشغال كبري لإلهاء الشعب بانتصارات لا تحل مشاكله الحقيقية ، بل إنني أؤكد لك أن من يقوم بذلك يرتكب جرائم في حق الشعب بحجة أنه يرفع روحه المعنوية
- وماذا أيضاً ؟
- الفن يا عزيزي وما أدراك ما الفن إنه من أكبر الكوارث في المجتمعات المتخلفة لأنه يزيدها ضياعاً ويجعلها تنحرف عن الطريق الصحيح بما تقدمه من أعمال هابطة تنشر الفجور والعري والألفاظ النابية بين الشباب ناهيك عن الإيحاءات الجنسية ، كما أنها تعمل علي الإساءة لكل ثوابت المجتمع الأخلاقية

فتنتج أجيالاً مشوهة قد فقدت هويتها وتمسكت بقشور الحضارة الغربية ويكفي مثلاً علي ذلك أن مسرحية واحدة أفسدت الطلبة في المدارس ومسرحية أخري أفسدت الأولاد في البيوت وهكذا

- أليس الفن يرصد ما في المجتمع من مشاكل ؟
- إن هذا رفاهية أيضاً لا نحتاجها حالياً فليس هناك مجتمع سوي أصلاً كي ترصد ما فيه من مشاكل ، فعليك أولاً أن تقيم المجتمع الذي نحن في حاجة إليه علي أساس متين ثم ارصد ما شئت بعد ذلك ، إن الفنان الذي ينشر هذا النوع من الأعمال الفنية يرتكب جرائم في حق هذا الشعب تستمر لأجيال عدة وتحتاج إلي مجهود ضخم لإزالة آثارها
- فماذ غير كرة القدم والفن ؟
- هرم الحاجات المختل والغباء الجماعي المقترن بالذكاء الفردي
- وما هو هرم الحاجات وكيف أصبح مختل ؟ وماذا تقصد بالغباء الجماعي ؟

## ١٠. هرم الحاجات المختل

- هرم الحاجات هو هرم مدرج تخيّلي له قاعدة كبيرة وأعلاها قاعدة أصغر منها ثم أصغر كلما ارتفع لأعلي وهكذا ، وهذه القواعد تعبر عن الأولويات والحاجات الأساسية التي تتدرج في الأهمية كلما زاد ارتفاع الهرم ، بحيث لا يمكن الصعود إلي درجة أعلي إلا بعد المرور علي الدرجات الأقل منها وهكذا
- أراك قد أسهبت في الوصف أكثر مما يستدعي وكان يكفيك أن تذكر هرم سقارة المدرج المعروف لتصل للمعني المطلوب ، المهم فما القاعدة الكبري الأساسية في هذا الهرم أو ما هي الحاجة الأساسية الأولي في هذا الهرم ؟
- الأمن والأمان بالطبع هي القاعدة الأولي والحاجة الأساسية ، فأنت إذا كنت تتضور جوعاً مثلاً وتمسك بيدك قطعة من أشهي أنواع الطعام هل يمكنك أن تتناولها وهناك حيوان مفترس يطاردك ؟
- وكيف أستطيع أن آكل طعاماً إذا كنت أنا طعام لغيري ؟
- إذن نحن متفقون جميعاً أن الأمن هو المطلب الأساس والقاعدة الأولي للهرم فلا يمكن أن تفكر في أي حاجة أخري أثناء وجود خطر علي حياتك ، أما بعد أن تبتعد عن الخطر وتتواجد في مكان آمن سوف تحتاج بالتأكيد إلي الطعام والشراب وهي القاعدة الثانية في هذا الهرم ثم تأتي الحاجة إلي المأوي وهكذا تتدرج حاجاتك طبقاً للأولويات فهناك الحاجة إلي العلاج والتعلم والحاجة للعمل والكسب والحاجة إلي الزواج والإنجاب والحاجة إلي العدالة والكرامة وقد يختلف هرم الحاجات بعد ذلك من شخص إلي آخر أو من بيئة إلي أخري ولكن يظل الأمن والطعام والمأوي هم الثلاثة حاجات الأساسية لجميع البشر
- عظيم جداً فما هو الاختلال الذي تقصده ؟
- الاختلال يحدث عندما تعتقد أنك في حاجة لأشياء لست في حاجة إليها بالفعل أو علي الأقل هناك ما هو أنت أكثر احتياجاً إليه

- وهل يحدث هذا لأحد ؟
- بالتأكيد هناك من يعتقد أنه في أمس الحاجة لأشياء معينة ويبذل مجهود غير عادي بل وقد ينفق كل ما يملك من الأموال ليحصل عليها برغم أنه في الواقع يعاني من نقص حاد في حاجات أخري قد يؤذيه غيابها ويفقد ما يملكه من مال من أجل لا شئ
- وهل هناك من يعبث بهذا الهرم متعمداً ؟
- بكل تأكيد ، لأن العبث بهرم الحاجات يجعلك تسيطر علي المجتمع وتقوده في أي اتجاه تريد لتحقق مصالح معينة قد تكون داخلية أو خارجية أو كليهما
- وهل يختلف هرم الحاجات للشعوب عن هرم الحاجات للأفراد ؟
- إن كل دولة لها حاجات استراتيجية كأمنها القومي والاكتفاء الذاتي من الطعام والدواء والسلاح وكل شعب يحتاج لتنفيذ القانون علي الجميع والقضاء علي الفاسدين والمستغلين وتوفير الكرامة الإنسانية والحرية وحقوق الإنسان ولكن في النهاية حاجات الشعوب تعتبر امتداد لحاجات الفرد ولكن بمقياس رسم أكبر وفي النهاية فإن تحقيق حاجات الدولة الحقيقية يؤدي إلي تحقيق حاجات أفرادها بلا شك
- وهل هناك من يعبث بهرم الحاجات للدولة كلها ؟
- بالتأكيد هناك دول تعبث بهرم الحاجات لدول أخري لتجعلها في حاجة دائمة لها بل إنها تضيف إلي هذا الهرم حاجات غير مهمة لتسيطر بها علي دول وشعوب أخري فتثير الفتن والمشاكل والحروب بين الدول وتبيع لها السلاح مثلاً وهي ليست في حاجة إليه في الأساس ، وبالعبث بهرم الحاجات يتم ترويج العديد من المنتجات الاستهلاكية التافهة كالموضة مثلاً
- ولكن بالنسبة للسلاح ألا تحتاجه الدول علي أي حال ؟
- تحتاجه بالطبع ولكن من المؤكد أن إنتاجه أفضل من امتلاكه بالشراء ، لأن في ظل التطور التقني (التكنولوجي) والعلمي الرهيب والغير مسبوق لا يمكنك أن تثق في أي سلاح تستورده من الخارج سواء طائرات أو مدمرات أو غواصات أو رادارات وصواريخ أو أي معدات لأنك لا تعرف كيف تمت برمجتها وهل يمكن لمُنتجها التحكم فيها بعد بيعها أم لا وهل سيكون السلاح فعال إذا قمت باستخدامه ضد مصالح الدولة المنتجة له ، فضلاً عن احتياجك الدائم لصيانته وتوفير قطع غيار له وما إلي ذلك
- هذا يعني أن عدم إنتاج السلاح يعبر عن عدم وجود سلاح من الأساس
- الأهم من السلاح هو الغذاء فما جدوي انتاج أو امتلاك سلاح وأنت تعتمد علي دول أخري في غذاءك وملابسك وسياراتك وأجهزة اتصالاتك ودواءك وكل ما تستخدمه من تكنولوجيا في بيتك وعملك ومصنعك ومستشفياتك إلخ
- معني هذا أن الدول المنتجة لكل هذا تتحكم في الدول المستهلكة
- فهل له معني آخر في رأيك ؟

- **أفهم من هذا أن كل شعب لابد أن يعرف جيداً احتياجاته الحقيقية ويعتمد علي نفسه في توفيرها بالتدريج ولكن هل سيسمح له أعداءه بهذا ؟**
- **السبيل الوحيد لتحقيق كل هذا هو بناء الإنسان وتعليمه فهو الذي سيقوم بكل هذا ، أما تدمير الشباب وتحويلهم إلي مسخ مشوه تافه لا يعرف أي ثوابت أو مبادئ ولا يهتم إلا بأتفه الأمور ويجهل تماماً هويته وتراثه وتاريخه وتراه غزير المعلومات عميقها في كل ما يختص بكرة القدم العالمية أو المحلية والأعمال الفنية المختلفة وتراه مع كل هذا عبداً لشهواته منجذباً إلي الغرب الذي يذله ويدمر أوطانه ويشعر بدونية وهزيمة نفسية بشعة علي الدوام أمام الغرب معتقداً أن التغريب هو التحديث**
- **وما الفرق بين التغريب والتحديث ؟**
- **هناك فرق كبير ولتوضيح ذلك سأقرأ لك مقتطفات من كتاب ودخلت الخيل الأزهر لمحمد جلال كشك لأنه شرح هذا الفرق بأسلوب رائع حيث قال : اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : التحديث لا التغريب ، ولكي يتحقق التحديث لابد من رفض التغريب ، بل نزعم أنه بقدر الإصرار والنجاح في رفض التغريب يكون النجاح في تحقيق التحديث ، تمسكت اليابان بدينها – – وتمسكت بنظامها الملكي – – وبينما كان يجري التحديث بأعلي معدل عرفته دولة إلي النصف الثاني للقرن العشرين ، كان الياباني محتفظاً بحياته العائلية والاجتماعية وتقاليده وتراثه ، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب ، ويأكل علي الطبلية بالعصي ، محتقراً الجنس الأبيض ، مقتنعاً بإصرار متزايد أنه خير أمة علي ظهر الأرض ، محتفلاً بأعياده القومية ، – – ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون ، وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي وظلت علي احترامها للزوج وخلع حذائه بيديها ، واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة تحرير المرأة لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت علي استقلالها ، لأنها عرفت أن المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة ، وبعكس ما بُذل من جهد في بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكة والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط أن حاول اليابانيون الأكل علي الطريقة الغربية ، فالأمة التي تُلقَّن أنها بحاجة إلي أن تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ، ويستحيل أن تنجز أي تفوق ، التحديث : هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب ، إنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب ، وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث هو إرادة قومية ، وتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كان البلد مستقلاً ، أو في طريق تحرير الإرادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها ، لكن يُشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة بأن تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وأن أصالتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة ، أما التغريب ، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ، ومن ثَم فلابد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، وإعادة**

تشكيل المجتمع علي الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية ، مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب ، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلي النزوح إلي عالم المتفوقين ، المجتمع المُغرَّب هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة ، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلي أحدث الموضات الغربية ، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة – مستوردة – في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه ، ويملأون صفحات من ورق مستورد تطبع بحبر مستورد وبآلات مستوردة حول قضايا –الغرب – علي بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهاريسيا والكوليرا وكل تراكمات التخلف ، كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياه ، ظلت علي تخلفها ، بل وأخطر من ذلك أن التغريب يقضي علي روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قِبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً وأقل كلفة ومخاطر ، من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا ، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات فكرية تهدف إلي إقناعنا بأنه لا تحديث إلا بالتغريب

- بمناسبة هذا الكلام ، تذكرت كيف قامت بريطانيا بشن الحروب قديماً لاستعمار العديد من الدول الإسلامية وغير الإسلامية حتي أنه كانت الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس ، فإذا غربت الشمس عن مكان يرفرف فيه العلم البريطاني أشرقت الشمس في مكان آخري يرفرف فيه العلم البريطاني وعليه الصليب البريطاني الشهير ، أما الآن فهذا العلم موجود بدون قتال أو سيطرة فتراه موجود علي ملابس شبابنا وسياراتنا وملصقاتنا ، فكيف تم لهم ذلك ؟
- بالفعل إن أعلام الدول الكبري منتشرة في كل مكان بل وقوانينهم أيضاً وتقاليدهم وأعرافهم التي لا تناسبنا كل هذا منتشر بدون قتال أو تكوين إمبراطوريات ، إنه الغزو الفكري للأمة يا عزيزي بكل ما تحمله الكلمة من معاني فهو يدفعك لتعيش حياة الغرب دون أن تمتلك أدوات التقدم والتحديث
- حسناً . هذا عن هرم الحاجات المختل ، فماذا عن الغباء الجماعي ؟

## ١١. الغباء الجماعي

- إن الغباء الجماعي هو السبب الأساسي في كل ما يعانيه المجتمع ، ففي مجتمعات الغباء الجماعي الكل يحاول أن يدفع العربة في الاتجاه الذي يوافق مصالحه فقط فمنهم من يدفعها من الخلف ومنهم من يدفعها من الأمام بل إن هناك من يدفع العربة من الأجناب متصوراً أنها ستتحرك في الاتجاه الذي يرغب فيه ، والنتيجة الحتمية أن العربة لن تتحرك أبداً في أي اتجاه ، الكل يدفع دون أن يكلف نفسه حتي مشقة النظر إلي وضع العربة وأين توجد مقدمتها فهو لا يري سوي هدفه هو فقط والعربة بشكل عام ، أما مكانه بالنسبة للآخرين ومكانهم بالنسبة له وبالنسبة للعربة كل هذا لا يكون واضحاً في

مجتمع الغباء الجماعي ، في حين أن الجميع يدفع العربة في مجتمع الذكاء الجماعي في اتجاه واحد فقط فهي دائمة الحركة وتمر علي جميع الأهداف والأماكن حسب أولوياتها وترتيبها والكل ينتظر في اطمئنان لتأكده من أن العربة حتماً ستمر بالمكان الذي يرغب فيه ، هذا هو الفرق ، الإحساس بالأمان والاستقرار نتيجة للذكاء الجماعي ، والإحساس الدائم بعدم الثقة في الغد في مجتمع الغباء الجماعي فالجميع يتصور أنه علي حق وأنه الوحيد الذي يعمل عملاً محترماً مفيداً أما الآخرين فلا يهتم بما يفعلون بل إنه يحتقر أحياناً ما يفعله الآخرون ، في مجتمع الذكاء الجماعي كل عمل محترم مهما صغر فالكل يشعر بعمل الكل والكل يستفيد من أعمال الآخرين لأن الجميع يدفعون العربة في الاتجاه الصحيح ، ولا يهم نوع العمل طالماً أنه يخدم الجميع دون تفرقة أو محسوبية أو وساطة

- أفهم من كلامك أن في هذا النوع من المجتمعات لا تحتاج لمعرفة أي شخص في أي مكان لتنهي مصالحك
- بالضبط ، لأن ما تقوله يُسمي الذكاء الفردي ، فعلاقاتك ومعارفك وأموالك ونفوذك وخبراتك الشخصية كلها تحتاجها لتنفيذ ما تحتاجه لأن المجتمع لن يقف بجانبك ، فأنت مثلاً لابد أن تفهم في أمور كثيرة كالكهرباء والسباكة والميكانيكا وبعض الأمراض والأدوية بل وتساعد أولادك في مذاكرة دروسهم ، فأنت تفعل كل شئ بنفسك لنفسك ولأسرتك مما يجعلك تفهم في أمور كثيرة فيزداد ذكاءك الفردي وكل هذا لا يحتاج إليه أي شخص يعيش في مجتمعات الذكاء الجماعي فهو يتسم بالغباء الفردي وهو سعيد به لأن المجتمع يحل له كل مشاكله وليس عليه غير أن يقوم بعمله ليخدم المجتمع علي أكمل وجه ، أما من يعيش في مجتمع الغباء الجماعي فقد لا يجد الوقت والجهد ليقوم بعمله لأنه مشغول دائما بإتمام أعمال الآخرين التي لم تتم بشكل كامل
- علي فكرة لا يجب أن نلوم أحد علي الإطلاق في مجتمع الغباء الجماعي لاستخدامه ذكاءه الفردي فهي ثقافة عامة سائدة في المجتمع بل يفخر بها الكثير من الناس فهي في نظرهم جدعنة أو شهامة فكيف أكون أعمل في مكان ما وأعز أحبابي وأصدقائي يتعثرون فيه ؟ هذا لا يمكن حدوثه ، فالذكاء الفردي يا عزيزي قد يوقف قطار مثلاً في محطة لا يجب أن يقف فيها بل من الممكن أن يقف في مكان ليس فيه محطة أساساً ، والذكاء الفردي قد يُدخل بضائع إلي البلد لا تحتاجها أو لا تصلح للاستخدام أو أدوية أو قطع غيار أو أغذية أو أي شئ ليس في صالح المجتمع ، والذكاء الفردي قد يعطي شهادات دراسية بل قد تصل إلي شهادات عليا لمن لا يستحقها ، وكل واحد في مكانه باشا كبير والجميع في حاجة إليه ، وعندما يذهب إلي مكان آخر أصبح في حاجة إلي من في المكان الآخر ، وعليه أن يقوم بما يرضي الباشا الآخر ، وهنا نجد روح الانتقام إلي حد ما تسود مجتمع الغباء الجماعي ، فكل منهم ينتظر الآخرين عند حضورهم إلي ملعبه ليشبع غروره ويريهم سلطاته وإمكانياته فيعذب المجتمع نفسه بنفسه ولكن من المسئول عن نشر هذه الثقافة في المجتمع ؟

- إن هذه الثقافة بالطبع تخدم أصحاب المصالح ولا تحتاج إلي مجهود كبير لنشرها ، فكل ما عليك فقط هو تنفيذ القانون علي البعض وعدم تنفيذه علي البعض الآخر فيصبح القانون الوحيد الذي يطبق علي الجميع هو قانون الجاذبية الأرضية فقط
- ولكن أليس تطبيق الذكاء الجماعي في المجتمع ممكن دون مبادرة من أعلي أو إشراف حكومي مثلا فيقوم الجميع بأعمالهم دون رقابة من أعلي ؟
- هذا يعيدنا إلي بداية هذا الحديث وهو الاستعداد للقاء الله سبحانه وتعالي والعودة إلي منهجه فهذا وحده يكفي ليتقن كل شخص عمله دون انتظار مصلحة في المقابل فيخدم الجميع بنفس الجودة والسرعة ابتغاء مرضاة الخالق عز وجل
- هذا صحيح بل أعتقد أيضاً أن الاستعداد للموت والحساب سيجعل الكثيرين يزهدون في كثير من أمور الدنيا وبالتالي سيكون هرم الحاجات الخاص بهم متوازن ولن يسيطر عليهم أحد أو يذلهم ويتحكم فيهم ولكن هل سيسمح لهم حكامهم بهذا ؟
- أعتقد أنك لن تقع تحت طائلة القانون إذا لم تشاهد مبارة كرة قدم أو لم تدخل السينما أو المسرح أو إذا لم تقم بشراء السلع الاستهلاكية التافهة أو إذا توقفت عن مشاهدة البرامج التافهة أو شراء الصحف والمجلات الصفراء أو عدم متابعة الأعمال الفنية في شهر رمضان مثلاً وغير ذلك من العادات السيئة التي قد تساق إليها ، فكل هذا لا يجرمه القانون
- ولكن إذا لم أفعل كل هذا فكيف أقضي وقتي ؟؟
- لقد سبق أن قلت لك أن الحياة قصيرة جدا ولا وقت لديك لتضيعه فيما يغضب الله ، وهناك العديد من الأمور يمكنك أن تفعلها ولا تنسي أن الاستئناس بالناس إفلاس
- ولكنك حتي هذه اللحظة لم تخبرني أو تقص علي معلومات تاريخية لأحللها وأفكر فيها جيدا لأتوقع بقدر الإمكان إلي أي اتجاه تسير الأحداث في المستقبل القريب
- ألم تكفيك كل هذه المناقشات لتعلم إلي أي اتجاه تسير الأحداث ؟
- أنت حدثتني عن مشاكل المجتمع وليس تاريخه وأنا أود أن تحدثني عن ملخص عام لتاريخ مصر بالكامل بدون تفاصيل حتي أستطيع أن أقيّم الأمور وأحللها
- علي العموم إن معرفة التاريخ ستكون مفيدة علي أي حال وخاصة إذا ابتعدنا عن التفاصيل ، فكم من مناقشات عقيمة دارت حول خلافات علي التفاصيل التي تترك الحدث التاريخي نفسه والدروس المستفادة منه وتركز علي تفاصيل تافهة لا تجدي نفعاً
- حسناً فلنبدأ إذن ولكن من حقي أن أقاطعك للاستفسار عن الغامض من الأمور
- لك هذا ، بل من حقك أن تسأل ولكن من حقي أيضاً أن امتنع عن الإجابة إذا لم أكن أعرفها
- لا مانع

## ١٢. لم يحكم المصريين مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة

- يجب أن تعرف أولاً أن المصريين لم يحكموا مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة تقريباً فقد يعرف الكثيرون أن المصريين قد استعادوا حكم مصر بعد ثورة يوليو سنة ١٩٥٢م وبالتحديد بعد حوالي سنة كاملة من قيام الثورة حيث تم إنهاء حكم أسرة محمد علي وإعلان الجمهورية سنة ١٩٥٣ م ولكن قد لا يعرف البعض متي كانت آخر مرة حكم فيها المصريون مصر قبل هذا التاريخ ، ويمكن اعتبار أن الملك نقطانب الثاني ( نختنبو الثاني ) هو آخر حاكم مصري حكم مصر ، وهو آخر ملك من ملوك الأسرة الثلاثين الفرعونية التي تعتبر آخر أسرة فرعونية في التاريخ المصري ، وقد انتهي حكم هذا الفرعون الأخير علي يد الفرس حوالي سنة ٣٤١ قبل الميلاد ، وليس معني هذا أن العصر الفرعوني نفسه كان خالياً من الحكام الغير مصريين فقد حكم مصر خلال العصر الفرعوني علي فترات متباعدة الهكسوس والليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس سواء بالاحتلال المباشر أو بالهجرات السلمية الكثيفة ولكن كان المصريون يحررون مصر ويعودون للحكم في كل مرة خلال العصر الفرعوني . ، ولكن الذي طرد الفرس عندما أعادوا احتلال مصر لم يكن المصريون هذه المرة ، بل طردهم الإسكندر المقدوني الشهير حوالي سنة ٣٣٢ ق م وتلاه في حكم مصر أسرة البطالمة ثم تبع البطالمة الاحتلال الروماني لمصر سنة ٣٠ قبل الميلاد ثم تعرضت مصر لغزو فارسي في أواخر حكم الرومان سنة ٦١٨ م ثم استعادها الرومان مرة أخري سنة ٦٢٧م ، إلي أن تم فتح مصر سنة ٦٤٠م أثناء الاحتلال الروماني لها ، وكان فتح مصر في عهد دولة الراشدين ثم تلتها الدولة الأموية فالعباسية ثم تأسست في مصر الدولة الطولونية سنة ٨٦٨م ثم الإخشيدية سنة ٩٣٥م ثم حكم مصر الفاطميون سنة ٩٦٩م وتلاهم الأيوبيون سنة ١١٧١م ، ثم دولة المماليك البحرية سنة ١٢٥٠م ثم المماليك البرجية سنة ١٣٨٢م ، ثم الحكم العثماني لمصر سنة ١٥١٧م ثم جاءت الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م لمدة ثلاث سنوات ، ثم حكم مصر محمد علي باشا وأسرته من سنة ١٨٠٥م وقد قامت بريطانيا باحتلال مصر خلال عصر أسرة محمد علي حوالي سبعين سنة من سنة ١٨٨٢م ، ثم انتهي حكم أسرة محمد علي بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ، وبالتالي لم يجلس علي عرش مصر حاكم مصري منذ عهد نقطانب الثاني إلا بعد قيام ثورة يوليو ، أي منذ سنة ٣٤١ قبل الميلاد إلي سنة ١٩٥٣ م وبالتالي تكون المدة بالكامل ٢٢٩٤ سنة كاملة
- لقد وعدتني بعدم ذكر التفاصيل فلماذا تصر علي قول تواريخ محددة ، فكان يكفي أن تقول حوالي ٢٢٠٠ سنة أو ٢٢٩٠ سنة ولن يكون هناك فرق كبير في المعني
- أنت محق تماماً فهذا الرقم تحديداً قد يعرض قائله لمشاكل جدلية لا داعي لها وخاصة أن آخر فرعون مصري قد حكم الوجه القبلي فقط وترك للفرس السيطرة علي الشمال لمدة حوالي عامين قد يحسبها

البعض فترة حكم وقد لا يعترف بها ، كما أنه كانت محاولة للاستقلال تمت بعد ذلك وإن لم تستمر كثيراً ولكن الدقة تحتم ذكرها

- أرأيت أن التفاصيل ستقودنا إلي ضياع العبرة من الأحداث والبحث عن أمور لن تكون مفيدة ، ولكن قد يكون من المفيد أن نعرف لماذا لم يحكم المصريين كل هذه الفترة ؟
- إن الإجابة علي هذا السؤال لها عدة أبعاد منها مثلاً ابتعاد المصريين عن الجيش منذ عصور البطالمة والرومان كما يقول الأستاذ جمال بدوي ومنها عدم أهمية جنسية الحاكم في العصور الإسلامية وهو ما أسماه الدكتور جمال حمدان بالسيولة السياسية في العالم الإسلامي
- حسناً فلتقرأ لي مشكورا وجهات النظر المختلفة ، ولنبدأ بموضوع السيولة السياسية لأنه مصطلح غريب بالنسبة لي

## ١٣. السيولة السياسية في العالم الإسلامي

- إليك بعض ما كتب د جمال حمدان عن هذا الموضوع : ( – – – فرغم أن مصر ستفقد استقلالها مرات طوالاً في العصور الوسطي لإمبراطوريات أو خلافات واسعة ، فكثيراً ما سنجابه بها تتحرك في الميدان الدولي كقوة لها وزنها الخاص ، ولا ينقصها الحكم الذاتي ، أو قد تفقد استقلالها لأسرة حاكمة أجنبية ، ولكنها من داخل تلك الأسرة تتصرف كدولة مستقلة دولة داخل الدولة كما قد نقول وتبرز فيها من جديد خصائص شخصيتها الاستراتيجية الكامنة ولا مفر لنا لهذا من أن نعد مسألة السيادة أو التبعية في تاريخ مصر الإسلامية مسألة نسبية أو خاصة تستلزم الاستدراك أو التحفظ في الحكم . والواقع أن العصر الإسلامي الوسيط عموماً يمتاز سياسياً بخاصية فريدة ، بدونها قد نخطئ فهم الخريطة السياسية كلها ، تلك هي " السيولة السياسية " غير العادية فلقد كان العصر عصر الدين ، عصر القومية الدينية ، وكان الإسلام هو العقيدة والعصبية ، والجنس والجنسية ، والوطن والوطنية جميعاً ، وكان روح العصر أن ينتقل المسلمون بحرية وبلا قيود داخل دار الإسلام أو الكومونولث الإسلامي ، كذلك غلبت فكرة الوطن المحلي علي الوطن الإقليمي فكان المسلم ينسب إلي بلدته أكثر مما ينسب إلي بلده ، فيقال البغدادي ، أو البصري أو السامرائي ولا يقال العراقي ، ويقال الدمشقي أو الحلبي أو الطرابلسي ، أو المقدسي ولا يقال السوري ، والقاهري أو السكندري لا المصري ، والقابسي ، الوهراني ، والفاسي ، لا المغربي وهكذا ، أما من الناحية السياسية فلم تكن الوحدات الجغرافية الإقليمية بنواتها الطبيعية المحددة ، ولا كانت فكرة الوطن والوطنية بمعني القومية الحديث والولاء الضيق ، ظاهرة متبلورة أو جامدة ، بل كانت غير واضحة متميعة داخل فكرة الوطن الإسلامي الكبير ومتداخلة معها بصورة شبه هلامية ، بالتالي كان العالم الإسلامي وعاء ضخماً أو هيكلاً أخيراً تقوم فيه الدول المختلفة وتتعدد ، وتتنافس وتتصارع ، ولكنها أساساً تقوم علي أصل أو أساس شخصي أو أسري بحت – أي حكومة عائلة بعينها– أو حاكم بعينه في الاعتبار الأول ، ولقد تستقر علي نواة إقليم

جغرافي كامل ، أو محدد بعينه أو أكثر ولكنها ممكن دائماً أن تنتقل أو تتمدد إلي أيما أبعاد أقليمية جغرافية يستطيع أن تصل إليها نفس تلك الأسرة الحاكمة بلا تحديد سوي قوتها السياسية وطاقتها التوسعية ، وبلا أي عائق أو حرج قومي ما بقيت في إطار الوطن الإسلامي الكبير نفسه ، بعبارة أخري للدول السياسية الإسلامية أبعاد أو مستويات ثلاثة تتداخل وتترجرج بسهولة وبلا تحديد واضح فهي علي المستوي القاعدي حكومات شخصية ، ودول شخصية ، وإمبراطوريات شخصية ابتداء وانتهاء ، وهي علي المستوي الجغرافي لا ترتبط بنواة إقليمية إلا عشوائياً وكما اتفق ، وهي علي المستوي الأعلي والنهائي لا ترتبط إلا بحدود العالم الإسلامي الكبير نفسه ، أخيراً إنها باختصار شديد دول شخصية لا جغرافية ، من هنا كان الحكام يتحركون من قطر إلي قطر أو يفتحون أو يضمون قطراً من قطر دون حساسيات إقليمية أو قومية حادة ودون أي مدلول أو محمول استعماري . الاستثناء الوحيد – وبعنف وضراوة عند ذلك – كان في حالة الكفار من وثنيين أو غير مسلمين كالتتار والصليبيين ويبدو أن الظاهرة نفسها وبرمتها كانت تسود داخل أوروبا المسيحية المعاصرة حيث كان الجرمان يحكمون في إيطاليا أو إنجلترا ، أو الفرنسيون في ألمانيا ، أو الإسبان في هولندا ... إلخ ، ليس هذا فحسب ، الأكثر منه ، وما قد يبدو لنا اليوم الأغرب ، أن هذه الدول ، تماماً مثلما سلم البطالسة أنفسهم من قبل للرومان ، كثيراً ما كانت تسلم نفسها بنفسها لبعضها البعض ، ربما بكثير من الصراع السياسي والصدام العسكري ، ولكن بغير حساسيات قومية حادة تستثار أو تتراكم ، وبلا نعرات إقليمية تثلم أو تمتهن ، وإنما الأقوي والأقدر علي المحافظة علي الإسلام والعصبية الإسلامية في وجه الخطر الأجنبي ، أي الكفار "كالتتار والصليبيين" هو ببساطة الذي يُدال إليه وربما يُستدعي استدعاء من جانب المُدال منه لكي يقوم بالمهمة المقدسة التي تعلو علي الطرفين جميعاً )

- إن كلام الدكتور جمال حمدان في غاية الأهمية حتي أنني لم أرغب في مقاطعتك رغم الحاجة لذلك عدة مرات لشدة تركيزي مع ما تقرأ ولكن يمكنني الآن الاستفسار أو مناقشة بعض الأمور في هذا الكلام الرائع ، فهل المقصود من كلامه بقيام الدول علي أساس شخصي بحت الأسر الحاكمة مثل العباسية والأموية ؟
- أعتقد ذلك وقد يكون يقصد معهم أيضاً الطولونية والإخشيدية في مصر والحمدانية في الشام وغيرهم
- بالفعل إن بدون معرفة هذه الخاصية الفريدة المسماة بالسيولة السياسية لن نستطيع أن نفهم كيف تعددت الصراعات داخل الأمة الإسلامية دون أي حساسيات قومية أو مدلول استعماري كما قال ، ولكني لاحظت أنه أكد علي أن مصر لها شخصية متميزة تفرض نفسها علي كل هذا ولها وضع خاص جداً وسط هذه الصورة الهلامية علي حد تعبيره
- بالفعل لقد استقلت مصر أكثر من مرة وسط كل هذا ولكن طبقاً لمصطلح الاستقلال الإسلامي علي حد تعبير الدكتور محمود الحويري عندما قام بتعريف هذا المصطلح

- وهل هناك استقلال يختلف عن الاستقلال المعروف حالياً ؟

## ١٤. الاستقلال في المصطلح الإسلامي

- هذا ما كتب عنه د محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطي حيث قال : الواقع أن الاستقلال في المصطلح الإسلامي يختلف عما نفهمه في الوقت الحاضر من تحقيق السيادة الخارجية ، بمعني ألا يكون علي الدولة نفوذ غير نفوذ أبناءها ، وأن هذا الاستقلال لا يشوبه أي تدخل في شئون الدولة الداخلية أو أي قيد علي مكانتها في المجتمع الدولي ، أما في العصور الوسطي ، فإن العالم الإسلامي كان يؤلف وحدة روحية ووحدة سياسية برئاسة الخليفة إمام المسلمين ، وكان الناس لا يعترفون بحكم لا يعترف به خليفة ، ولا ينظرون إلي من يغفل أمر الخلافة إلا نظرتهم إلي الخوارج الذين يشذون عن رأي الجماعة ، وللوالي أن يعطي نفسه من السلطات الداخلية ما طاب له ، وله أن يورث الحكم لأولاده علي الصورة التي يراها ، وليس عليه إلا أن يعترف بالخليفة إماماً للمسلمين ويعترف به الخليفة حاكماً شرعياً علي البلاد التي يحوزها ، ومن هنا ينبغي أن نضع في الاعتبار أنه لم يكن من الممكن أن يستقل أحمد بن طولون بمصر نهائياً عن الخلافة العباسية - - - وبمعني آخر كان ظهور الدولة الطولونية في مصر يمثل انتقالاً من عصر التبعية المطلقة إلي عصر الاستقلال بالصورة التي عرفناها - ومن ثم لم يعد للخليفة العباسي أي نفوذ سياسي في مصر فيما عدا أنها اكتفت بذكر اسمه في الخطبة ونقشه علي السكة ، كما دأبت مصر علي إرسال جزء من الخراج إلي بغداد عن طواعية ، تعبيراً عن انتماءها الديني للإسلام الذي يجسده الخليفة من ناحية ، وكدليل ارتباط تقوم عليه وحدة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها كانت جميع الدول المستقلة في العالم الإسلامي تحرص عليه من ناحية أخري
- معني كل هذا مما فهمته أن الشعب المصري لم يكن يعنيه من الذي يحكم مصر منذ أن تم فتحها طالما أنه مسلم ومعين من خليفة المسلمين أو علي الأقل أقره علي ذلك
- في الحقيقة ليس الشعب المصري فقط بل الأمة كلها ، وكان أي شخص يمكنه أن يتحرك من بلد إلي بلد آخر في بلاد الإسلام دون أن يشعر بأي حرج أو حاجة إلي إذن خاص من أي جهة
- كما يحدث حالياً في الاتحاد الأوروبي ؟
- بكل تأكيد ومع ذلك فقد كان يتفوق علي الاتحاد الأوربي بأمور كثيرة فليس فقط عملة واحدة وسياسة خارجية واحدة وعدم وجود تأشيرات بين الدول بل إن الأمة الإسلامية كانت لغة واحدة وشريعة وقوانين واحدة وتتميز بوجود حق لابن السبيل وهو المسلم الغريب عن وطنه كما أكد هذا المعني الدكتور حسين مؤنس في معرض حديثه عن رحلات ابن بطوطة حيث قال : وقد ذكرنا أن ابن بطوطة خرج لرحلته بمال قليل ، فكيف استطاع أن يقوم بهذه الرحلات الطويلة وهو لم يكن بتاجر يبيع ويشتري ويسد نفقات الرحلة علي الطريق ؟ - الجواب علي هذا السؤال يكشف عن ناحية من أجمل نواحي

الحضارة الإسلامية ، وهي ناحية ترابط الأمة وتآخيها وتعاون أفرادها بعضهم مع بعض ، واجتهادهم في المحافظة علي وحدة أمتهم وسلامة دار الإسلام ، ذلك أنه كان هناك دائماً عالمان إسلاميان : عالم السياسة ، وكله خلافات وحروب ومكايد ، وعالم الأمة نفسها ، وهي وحدة متماسكة مترابطة كما ذكرنا – – فهذا الرجل قطع العالم الإسلامي كله من المغرب إلي اندونيسيا – – دون أن يشعر أنه خرج من بلده أو فارق أهله ووجد في كل مكان من يستقبله ويؤويه ويقدم إليه الطعام ، لا علي سبيل التكرم والتفضل بل لأنه كان هناك تنظيم محكم وضعته الأمة وقامت علي رعايته وتنفيذه دون تدخل الدولة – – وقد فعلت الأمة ذلك تنفيذاً لما نص عليه القرآن الكريم مرة بعد مرة من رعاية ابن السبيل وإكرامه وإطعامه ، وابن السبيل هو المسلم الغريب عن وطنه – – وقد أحصيت ست آيات علي الأقل في القرآن الكريم أوصي الله سبحانه فيها المسلمين بابن السبيل ، وجعل له نصيباً في أموال الناس – – لهذا حرصت الأمة وهي القيمة الحقيقية علي الدين علي تنفيذ هذا التوجيه القرآني العظيم ، فأقامت الزوايا والربط ودور الضيافة في كل مكان ورحلة ابن بطوطة أكبر دليل علي ذلك

- حتي لا يأخذنا الحديث بعيداً عن موضوعنا فقد وصلنا إلي نقطة مهمة جداً في الإجابة علي السؤال الخاص بعدم حكم المصريين لمصر كل هذه المدة وهذه النقطة تتمثل في السيولة السياسية في العالم الإسلامي ولم تكن تختص بها مصر وحدها ، وقد ذكرت لي أن الأستاذ جمال بدوي كان له رأي آخري فما هو ؟
- يري الأستاذ جمال بدوي أن السبب وراء إبعاد المصريين عن الحكم هو ببساطة إبعادهم عن الجيش وتعمد عدم تجنيدهم كمقاتلين منذ عصر البطالمة
- فماذا كتب عن هذا الموضوع ؟

## ١٥. إبعاد المصريين عن الجيش

- إليك رأي المؤرخ الكبير جمال بدوي حيث يتساءل ويقول ( -- هل صحيح أن المصريين خانعون أذلاء يصفقون لكل طاغية ويهللون لكل مستبد ولا يميلون إلي مقاومة الظالمين ويتركون هذه المهمة إلي القوي الغيبية إلي أن تدركهم رحمة السماء ؟ ) ويجيب الأستاذ جمال بدوي علي هذا التساؤل بأن هذه التهمة لا أساس لها من الصحة بل أشاعها عن المصريين الاستعمار ونشرها وروج لها كتاب الغرب الموالين لبلادهم وحكوماتهم ويقول أيضاً ( – – والقارئ المدقق للتاريخ يكتشف أن المصريين لم يكفوا عن مقاومة الظالمين ، ولم يقصروا في مقاومة الغزاة – ثورات كثيرة قامت في العصور الفرعونية المتأخرة عندما وقعت مصر تحت حكم أجانب تسللوا إليها عن طريق الهجرة والإستيطان ثم انقضوا عليها عندما حرموا علي أبناء البلاد دخول الجيش وجعلوه مقصوراً علي المرتزقة الأجانب – ماذا تنتظر من شعب أعزل يتكون جيشه من المرتزقة والمغامرين الذين لا تربطهم بالبلاد حمية الإنتماء أو

صلة الدم أو اللغة أو الدين ؟ وسيظل حكام مصر منذ الإغريق والرومان والعرب والترك والشركس يحرصون علي إبعاد المصريين عن الجيش إلي أن يأمر محمد علي فيكسر القاعدة -- )

- لقد تم الإطاحة بالفعل بحكم أسرة محمد علي علي يد الجيش المصري الذي أسسه محمد علي ،
- ومن أفضل الأمثلة علي حرص القادة الغرباء علي تحريم التجنيد علي المصريين ما حدث في معركة رفح في عصر البطالمة فهذه المعركة قد ألهبت حماس المصريين وبثت فيهم الروح مرة أخري وهي قصة سوف نتناولها إن شاء الله خلال الحوار إذا اتيحت الفرصة لذلك
- ولكن هذا لا يضع في الاعتبار موضوع وحدة الأمة الإسلامية والسيولة السياسية فلماذا لم يتم تجنيد المصريين خلال العصور الإسلامية ، هل كان هذا لنفس السبب وهو إبعادهم عن شئون الحكم ؟
- مصطلح التجنيد نفسه لم يكن متبعاً في العصور الإسلامية الأولي فقد كان الأساس في حشد الجيوش هو الدعوة للجهاد فيجتمع المقاتلون من مختلف الجنسيات لتلبية داعي الجهاد
- فلماذا لم تستمر الدعوة للجهاد في جميع العصور الإسلامية لحشد الجيوش لقتال أعداء الأمة ؟
- إن الإجابة علي هذا السؤال ستدفعنا للحديث عن بعض الصراعات علي الحكم والتي كانت في النهاية تتطلب امتلاك جيوش للاعتماد عليها في هذه الصراعات ، فأنت إذا دخلت في صراع علي الحكم فالدعوة للجهاد هنا لن تكون مناسبة ، ولكن قتال أعداء الأمة هو الذي يمنحك فرصة الدعوة للجهاد ، ولقد شارك العديد من المصريين في هذا النوع من الجهاد بالفعل أما المحافظة علي الأنظمة الحاكمة وعلي الدولة بشكل عام علي مر التاريخ فقد نشأ عنه فكرة امتلاك المماليك

## ١٦. فكرة الاعتماد علي المماليك

- كم كنت أتمني أن يتطرق حدينا إلي موضوع المماليك ، ولكن هل يمكن أن يكون انخفاض روح الجهاد سبباً في الاعتماد علي المماليك في القتال ، فقد تدعو للجهاد فلا تتمكن من حشد الجيش المناسب للموقف ، ولا يوجد وقت لبث روح الجهاد والعدو علي الأبواب وخاصة بعد ظهور أعداء غير تقليديين مثل التتار والصليبيين ؟
- لقد فكر بالفعل الملك الصالح نجم الدين أيوب في شراء العديد من المماليك لتحقيق أهدافه في التصدي للحملات الصليبية ، بل وقد ارتبط اسمه بنشأة المماليك عموماً في مصر
- فهل كانت فكرة المماليك بدعة أيوبية لم تكن موجودة من قبل ؟
- المماليك عموماً ليسوا بدعة ايوبية ابتدعها الملك الصالح نجم الدين ايوب فقد تم الاستعانة بهم قبل ذلك أيام العباسيين والطولونيين بل والفاطميين أيضاً ولكن إذا خصصنا الحديث عن دولة سلاطين المماليك في مصر فقد ارتبطت بداية هذه الدولة بالمماليك البحرية الذين أعدهم الملك الصالح للقتال ، أما ما قبل ذلك من عمليات شراء للمماليك في العصور السابقة فقد كتب عنها المستشرق السير وليم موير في كتابه "تاريخ دولة المماليك في مصر" ( اتخذ خلفاء بغداد منذ أجيال عدة عادة سيئة هددت

عرش خلافتهم بالزوال وهي جلب الألوف من العبيد ذوي الأسماء الحوشية من قبائل التركمان والمغول واستخدموهم حرساً لهم ومادة لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدي الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثون أن يصبحوا ذوي الأمر والنهي في بيت الملك يشعلون نيران الفتن والقلاقل حتي عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك سبيلهم في ذلك خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من قبلهم ، وقد نحت دولة الأيوبيين بعدهم هذا النحو إذ كانوا غرباء في البلاد فاحتاجوا إلي الاعتزاز بأمثال هؤلاء ، إن القبائل المقهورة في أواسط آسية كانت لا تري غضاضة في بيع أفلاذ أكبادها للنخاسين الذين كانوا يعدونهم حسن المستقبل والسعادة في الغرب وقد سهل عمل النخاسين ما كان يذاع عن الثروة الكبيرة التي يمكن الحصول عليها بأقل جهد ، لذلك لم يقتصر الأمر علي سبايا الحرب وأسارها بل كان يتدفق علي البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء علي شرائهم أحياناً بأثمان باهظة ) ، انتهي كلام المستشرق وهناك العديد من التحفظات عليه فمنها أنه لم يدرك أن العرب قاموا بتأسيس دولة إسلامية وليس دولة عربية والفرق كبير جداً لأن القومية الإسلامية تسع جميع الجنسيات في جميع مناصب الدولة فكل من دخل الإسلام يمكنه أن يصل إلي قيادة الجيوش الإسلامية والوزارة والسلطنة أيضاً كما حدث لغير العرب ، ولا ننسي أن دولة الروم ودولة الفرس علي سبيل المثال كانت جيوشهم من الفرس والروم فقط أما جيش المسلمين منذ بدايته كان يشمل خالد العربي وبلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي ، أما التحفظ الثاني أن الأيوبيين لم يشتروا المماليك لشعورهم بالغربة وكيف يحدث ذلك وهم مسلمون وسط أمة إسلامية ، ولقد قرأت لك ما كتبه هذا المستشرق للدلالة فقط علي وجود فكرة المماليك قبل عصر الملك الصالح بكثير ، وقد حققوا للإسلام العديد من البطولات والانتصارات دون أن يكونوا عرباً ولكنهم دخلوا في العديد من الصراعات علي السلطة ، ولكن دعني أسألك ، ما هو أول شئ يجول بخاطرك عندما تستمع إلي كلمة (المماليك) ؟ وما هو انطباعك عنهم ؟ وهل هذه الكلمة من الكلمات سيئة السمعة بالنسبة لك ؟

- قد تُذكره البعض هذه الكلمة بالصراعات علي السلطة ، والبعض تذكره هذه الكلمة بالعنف والتآمر وقد يتذكر البعض أيضاً الانتصارات والأمجاد والحروب الشرسة وآخرون سيتذكرون الآثار الرائعة والعمارة الضخمة الفخمة وهناك من سيتخيل ذلك العصر كما قرأ عنه دولة مرهوبة الجانب تنعم بازدهار اقتصادي وحضاري وعلمي
- لاشك أن كل هؤلاء علي حق بشكل أو بآخر ، فعصر المماليك عصر ثري جداً بالأحداث بل هو مزدحم بالملاحم والبطولات والمآسي أيضاً ، ولكن عن أي نوع من المماليك نتحدث ؟ البحرية أم البرجية أم العثمانية ؟ فليس من الإنصاف أن نضعهم جميعاً في سلة واحدة إذا جاز التعبير ،
- وما هو وجه الاختلاف بين كل نوع وآخر ؟

- يختلف المماليك باختلاف برامج الإعداد الخاصة بكل نوع منهم فالمماليك البحرية مثلاً وهم النوع الأول من المماليك في مصر من ناحية الترتيب التاريخي ، كان لهم برنامج إعداد خاص ، كما أنهم كانوا يجلبون صغاراً لا يعرفون شئ عن العلاقات الاجتماعية الطبيعية فلا يوجد أب يعطف ويرعي ويوجه ولا أم حنون ترحم وتربي ولا أشقاء أو عائلة من أي نوع ، وكذلك ليس لهم وطن سوي مصر فهم لا يعرفون غيره ولا ينتمون لسواه وانقطعت كل صلاتهم بجذورهم وأوطانهم وعائلاتهم ، فهم مثل عجينة طرية ساذجة يمكن وضعها في أي قالب وتشكيلها علي الوجه الذي تريده ، أو الذي يريده الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي كان السبب في إحضارهم إلي مصر وبني لهم قلعة بجزيرة الروضة وقام بتخصيص من يعلمهم ويؤدبهم ويدربهم ليكونوا قوة يستعين بها علي قتال الأعداء وما أكثرهم ، وتخيل معي أن تمتلك جيشاً خاصاً بك تشكله كما تشاء وتوجهه إينما تريد
- ولكن لماذا فكر الملك الصالح في هذا الحل ؟ وما هي المشكلة أساساً التي تحتاج إلي حل ؟
- لقد كان هذا الملك من ملوك الدولة الأيوبية في مصر وهذه الدولة تحديداً كان قدرها منذ اللحظة الأولي هو مواجهة الصليبيين منذ عهد مؤسسها الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي وحتي نهايتها فكانت تصد الحملات الصليبية التي لم تتوقف خلال العصر الأيوبي بالكامل فلم تكد تنتهي حملة حتي تبدأ حملة أخري جديدة وكأن هذه الدولة تواجدت في تلك الفترة من التاريخ لمواجهة الحملات الصليبية ، حتي أن الحملة الصليبية السابعة التي كانت فرنسية خالصة وبقيادة ملك فرنسا آنذاك الملك لويس التاسع استهدفت دمياط ولم تتوجه إلي بيت المقدس الذي هو أسمي أهدافها ، فلقد أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من القاهرة ، فسقوط الدولة الأيوبية هو السبيل الوحيد لاحتلال بيت المقدس ، وكان الملك الصالح يعي ذلك جيداً وأدرك طبيعة وحجم المشكلة واحتاج لحل لها ، وكان الملك الصالح قد أعد برنامج خاص ومميز للمماليك منذ صغرهم ، فكما يقول الدكتور محمود الحويري في كتابه الممتع (مصر في العصور الوسطي) : (- فأول ما يبدأ به تعليمه ما يحتاج إليه من القرآن الكريم وكانت كل طائفة لها فقيه يحضر إليها كل يوم ويأخذ في تعليمها كتاب الله تعالي ومعرفة الخط والتمرن بآداب الشريعة وملازمة الصلوات والأذكار - - - فإذا صار إلي سن البلوغ أخذ في تعليمه أنواع الحرب من رمي السهام ولعب الرمح ونحو ذلك فيتسلم كل طائفة معلم حتي يبلغ الغاية في معرفة ما يحتاج إليه وعندما ينتهي المملوك من تدريبه ويثبت جدارته ويصير محارباً كفئاً ينقل إلي خدمة السلطان ويتدرج في الرتب حتي يصير من الأمراء -) ، وهكذا قرر الملك الصالح أن يتعلم مماليكه تعاليم الدين وفنون القتال ، فأصبح للمماليك معلمان أو مربيان لكل طائفة منهم أو الأدق أن نقول قدوتان أحدهما دينية والأخري عسكرية ، وقد أصبح كل منهما له شأن عظيم في حياة المماليك ، ولكن لا تنسي يا عزيزي فنحن نتحدث عن المماليك البحرية وهم النوع الأول من المماليك الذين لا نريد أن

نضعهم في سلة واحدة مع غيرهم ، فبعد ذلك لن يأتي المماليك صغاراً لتشكلهم بل كباراً يعرفون أوطاناً أخري ولهم جذور ارتبطوا بها كما أن برنامج الإعداد قد يكون مختلفاً

- ما فهمته من هذا الكلام أن الملك الصالح قد جمع بين امتلاك مقاتلين وبين الدعوة للجهاد فقد أسسهم علي أساس ديني يجعل الجهاد بالنسبة لهم هدف في حد ذاته
- لقد كانت معركة المنصورة مع الصليبيين من أهم الأمثلة علي نجاح فكرة الملك الصالح للتصدي بالمماليك لجيش لويس التاسع ، وكانت بعد ذلك معركة عين جالوت تتويج لهذا النجاح حيث تصدي المماليك للتتار وبدون قيادة أيوبية
- مرة أخري لا أريد أن يخرج بنا الحوار عن الموضوع ، وبالتالي لابد من بلورة ما نصل إليه من حين لآخر ، أو بمعني أدق بلورة ما فهمته أنا من كلامك ، فما فهمته حتي الآن أن ابتعاد المصريين عن الجيش أدي إلي ابتعادهم عن الحكم ، واختلفت وجهات النظر عن سبب هذا الابتعاد فمنها تعمد عدم تجنيدهم خاصةً في العصور الغير إسلامية ثم انتشار فكرة المماليك في العصور الإسلامية والصراعات التي دارت داخل هيكل الأمة الإسلامية وموضوع السيولة السياسية في العالم الإسلامي ومصطلح الاستقلال في الإسلام وما شئت من أمور أخري ، ولكن ما يهمني الآن أن رسالتك قد وصلت وهي أول معلومة تريدني أن أعرفها عن تاريخ مصر وهي أن المصريين لم يحكموا مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة ، فما هي الأحداث التاريخية المهمة التي تريد أن أعرفها في تاريخ مصر والأمة بشكل عام ؟
- إذا كنت لازلت مصر علي معرفة تاريخ مصر فلا مانع من ذلك ولكن سيستغرق سرده وقتاً طويلاً بلا شك
- حتي إذا ذكرته بدون تفاصيل ؟
- بالتأكيد فلمصر تاريخ متصل عبر آلاف السنين لم يتوقف لحظة ، فمهما أغفلنا التفاصيل فالأحداث مزدحمة ومتلاحقة ومرتبطة ببعضها ومع ذلك سوف أحاول أن أقصه عليك باختصار شديد وإن شئت فقل بسطحية شديدة إذا جاز التعبير ، ولكن حاول أنت أن تقنع بهذا ولا تدفعني لشرح الأحداث إن استطعت
- لا أستطيع أن أعدك بذلك خاصة في الغامض من الأمور ولكن سأحاول علي أي حال

## ١٧. ملخص العصر الفرعوني

- سنبدأ بملخص تاريخ الفراعنة علي أي حال وهو تاريخ يمكن تبسيطه كالآتي : ينقسم العصر الفرعوني إلي ثلاثة عصور رئيسية : عصر الدولة القديمة – عصر الدولة الوسطي – عصر الدولة الحديثة ، وتسبق هذه العصور الثلاثة عصر يسمي بالعصر العتيق ويلي كل عصر من هذه العصور فترة اضمحلال ، الاضمحلال الأول بين الدولة القديمة والدولة الوسطي ، والاضمحلال الثاني بين الدولة

الوسطي والدولة الحديثة ، والاضمحلال الأخير في نهاية الدولة الحديثة ونهاية العصر الفرعوني بالكامل

- أعتذر عن المقاطعة ولكني تذكرت الآن أن هذا التقسيم موجود بالفعل في تسلسل عرض الآثار في المتحف المصري بميدان التحرير (الدولة القديمة والدولة الوسطي والدولة الحديثة)
- بالفعل ، وقد قام المؤرخ المصري القديم (مانيتون) بحصر عدد الأسر في العصر الفرعوني ، فذكر أنه مكون من ثلاثين أسرة فرعونية ، موزعة علي العصور الفرعونية المختلفة ، والأسرة الفرعونية تعني عائلة حكمت مصر فترة معينة وتبدأ بمؤسس لهذه الأسرة ثم يتبعه ويليه أبناءه ثم أحفاده حتي يظهر مؤسس آخر لأسرة جديدة وهكذا
- وهل يختلف عدد الملوك في كل أسرة عن الأخري ؟
- بالطبع يختلف عدد ملوك كل أسرة عن الأخري في أغلب الأحيان فمثلاً عدد ملوك الأسرة الثامنة عشرة عبارة عن ١٤ ملك وعدد ملوك الأسرة الرابعة عبارة عن سبعة ملوك بينما تكونت الأسرة الثامنة والعشرون من ملك واحد فقط
- وكيف كانت تنتهي كل أسرة لتبدأ أسرة جديدة ؟
- عادةً ما ينتهي حكم أي أسرة لعدة أسباب أهمها هو انتهاء نسل الذكور في هذه الأسرة فيأتي مؤسس جديد لأسرة جديدة ، ويشترط أن يتزوج من إحدي أميرات الأسرة الملكية السابقة حتي تجري الدماء الملكية في عروق أبناءه فيكتسب شرعية الحكم لأسرته
- فهل يمكن أن تذكر لي توزيع عدد الأسر علي كل دولة من الدول الثلاثة وعصور الإضمحلال مع ذكر أشهر ملوك كل عصر مشكوراً ؟
- العصر العتيق ( عصر تأسيس الدولة ) : يتكون من أسرتين فقط ( الأولي والثانية ) من حوالي سنة ٣١٠٠ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م ، وأشهر ملوك هذا العصر هو الملك مينا موحد القطرين والفرعون الأول في الأسرة الأولي
- طبعاً لقد اتفقنا أنه لا يوجد تاريخ دقيق في هذه العصور السحيقة
- بالتأكيد فتاريخ بداية العصر الفرعوني نفسه مختلف في عدة مراجع
- سأتركك تكمل هذا التلخيص الرائع ولكن اسمح لي أن نتكلم عن الملك مينا لأهميته في تاريخ مصر
- إذا تكلمنا عن الملك مينا لأهميته كما تريد فسوف تطلب نفس الطلب عن ملوك آخرين في العصر الفرعوني وسيطول الحديث
- لا توجد مشكلة إذا تكلمنا عن بعض ملوك الفراعنة المشهورين في بضع دقائق ، وأعتذر مرة أخري ، ولنكمل فقد وصلنا للدولة القديمة

- الدولة القديمة ( عصر بناة الأهرام ) : من الأسرة الثالثة إلي الأسرة السادسة من حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م إلي حوالي سنة ٢١٨٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وصاحب الهرم المدرج بسقارة والملك سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة وكذلك خوفو وخفرع ومنقرع أشهر ملوك الأسرة الرابعة وأصحاب الأهرامات الثلاثة بالجيزة وبدون أن تقاطعني فسوف أذكر لك معلومات مختصرة عن بعض ملوك الدولة القديمة وعن أهراماتهم ، ودعني أكمل الحديث عن الاضمحلال الأول ( عمت الفوضي البلاد ) : من الأسرة السابعة إلي الأسرة العاشرة من حوالي سنة ٢١٨٠ ق م إلي حوالي سنة ٢٠٦٠ ق م ، ثم الدولة الوسطي ( عصر الاهتمام بالسياسة الخارجية ) : يتكون من الأسرة الحادية عشرة والأسرة الثانية عشرة فقط من سنة ٢٠٦٠ ق م إلي سنة ١٧١٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١١ ( منتوحتب ) الأول والثاني وهكذا وملوك الأسرة ١٢ ( امنمحات وسنوسرت ) الأول والثاني وهكذا ، ثم الاضمحلال الثاني ( تخلله احتلال الهكسوس لمصر ) : من الأسرة ١٥ إلي الأسرة ١٧ من سنة ١٧١٠ ق م إلي سنة ١٥٦٠ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك سقنن رع والملك كامس الذين كافحوا الهكسوس ولم يتمكنوا من طردهم ، ثم الدولة الحديثة ( عصر الإمبراطورية المصرية ) : من الأسرة ١٨ إلي الأسرة ٢٠ من سنة ١٥٨٠ ق م إلي سنة ١٠٨٥ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك أحمس الأول وهو أول ملوك الأسرة ١٨ وطارد الهكسوس ، ومن أشهر ملوك هذا العصر ملوك الأسرة ١٨ بشكل عام مثل الملكة حتشبسوت والملك تحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية المصرية والملك امنحوتب الرابع ( اخناتون ) والملك توت عنخ آمون والملك حور محب وأشهر ملوك الأسرة ١٩ الملك سيتي الأول والملك رمسيس الثاني والملك مرنبتاح وأشهر ملوك الأسرة ٢٠ الملك رمسيس الثالث ثم الاضمحلال الأخير (نهاية الفراعنة وتخلله حكم مصر ملوك ليبيين ونوبيين وآشوريين وفرس علي فترات مختلفة): من الأسرة ٢١ إلي الأسرة ٣٠ من سنة ١٠٨٥ ق م إلي سنة ٣٤١ ق م وأشهر ملوك هذا العصر الملك شاشنق الأول وهو مصري من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة ٢٢ ومن أشهر ملوك هذا العصر أيضاً الملك بعنخي وهو مصري نوبي مؤسس الأسرة ٢٥ ، والملك بسماتيك الأول مؤسس الأسرة ٢٦ ، أما الملك ( نقطانب الثاني ) ويطلق عليه ايضا اسم ( نخت نبف ) الثاني أو ( نختنبو ) الثاني فهو آخر ملك في الأسرة الثلاثين الفرعونية أي أنه آخر فرعون مصري تقريباً
- بالتأكيد قد لاحظت ما أنا فيه من حيرة بسبب محاولاتي لعدم مقاطعتك بسبب كل هذه الأسماء اللامعة التي ذكرتها ، فهل أثقل عليك إن طلبت معلومات عن بعضها ؟
- لقد لاحظت بالطبع اهتمامك ببعض أسماء الملوك وأنت محق بالطبع فكما قلت لك قلما تجد دولة مثل مصر لها تاريخ متصل بهذا الطول والامتداد فليس من الممكن أن نذكر مثل هذه الأسماء ولا نتحدث

عنها وبالمناسبة وحتي لا تنسي ، لقد ماتوا جميعاً هم ورجال دولتهم وشعوبهم وأعداءهم وحلفاءهم ولم يبق منهم أحد فسبحان الحي الذي لا يموت

- أشكرك لأنك التمست لي العذر علي اهتمامي بمعرفة معلومات عن بعض ملوك الفراعنة ، وعلي تذكيري بالموت أيضاً وأرجو أن تحدثني عن بعض ملوك الفراعنة ولنبدأ بالملك مينا إذا سمحت

## ١٨. الملك مينا

- يُعد الملك مينا أول شخصية بارزة في تاريخ مصر بل إن مصر لم تصبح دولة موحدة إلا في عهده فهو كما نعلم جميعاً موحد القطرين وهو الملك الأول في الأسرة الأولي الفرعونية وقد وردت عدة أسماء للفرعون الأول موحد القطرين منها ( مني = مينا= منا = نعرمر = نارمر ) وقد استخدم الدكتور سيد توفيق اسم "مني" للفرعون الأول كما ورد في تاريخ مانيتون وبردية تورين وقائمة أبيدوس بأن الفرعون الأول هو "مني" بمعني الخالد أو المثبت وهو مؤسس الدولة والجد الأكبر لجميع ملوك الفراعنة تقريبا ويقول عنه سليم حسن أنه قد كانت له مهابة في قلوب الفراعنة الذين خلفوه حتى أنهم ألهوه بعد موته وبقيت عبادته زمناً طويلاً حتى أنه بعد عشرين قرناً من وفاته وجد تمثاله محمول في مقدمة كل تماثيل الملوك الآخرين في احتفال ديني في عهد رمسيس الثالث في معبده ويقول سليم حسن أن ملوك الأسرة الأولي يبلغ عددهم سبعة فقط واستمروا نحو ٢٠٠ سنة من سنة ٣٢٠٠ ق م إلي سنة ٣٠٠٠ ق م والملك مينا قد وضع أساس متين لكل من جاء بعده من الفراعنة فالنظام الحكومي والإداري الذي كانت تسير عليه البلاد في عهده بقي نحو ٣٠٠٠ سنة لم يطرأ عليه تغيير إلا نادراً
- أعتقد أن هذا النظام الحكومي موجود حتي الآن وليس فقط ٣٠٠٠ سنة
- أما كلمة فرعون فقد أتت من اللفظ المصري القديم "برعو" أي القصر العظيم وتعتبر لوحة الملك مينا من أهم الآثار الفرعونية الموجودة حالياً واللوحة توضح معاركه لتوحيد القطرين ، وظهوره بتاج الوجه القبلي علي أحد أوجه اللوحة وبتاج الوجه البحري علي الوجه الآخر ، وقد عثر عليها العالم البريطاني كويبل في هيراكونبوليس بالقرب من إدفو وهى من حجر الشيست الأخضر. وتعتبر لوحة نارمر من أول اللوحات التاريخية، كتبت ورسمت في عهد الفرعون نارمر الذي وحد الوجهين المصريين
- هل يمكن شرح المرسوم علي هذه اللوحة ؟ فقد بحثت عنها وهي أمامنا الآن علي شاشة الكمبيوتر
- حسناً فلتتأمل معي أولا الوجه الأول من اللوحة : في أعلى اللوحة نجد وجهان لإمرأه لها أذنى وقرنى بقره وهى الإلهه حتحور وبين والوجهين نجد واجهة القصر "السِرخ" ونقش بداخله اسم نعرمر. وفي الصورة اسفلها نجد الفرعون مصورا بحجم كبير يلبس تاج مصر العليا(الجنوبية)الأبيض ويمسك بيده سلاحه ليضرب به أحد أعدائه الشماليين (التي تميزه باروكة الشماليين)، وخلف الملك حامل صندل الملك ومعه وعاء من الماء. وأمام الملك نجد الإله حورس في هيئةالصقر وهو يقدم للملك رأس أسير

وجسمه عبارة عن علامة الأرض عند المصريين القدماء ويخرج منها نبات البردى أى دليل على أنها أرض الشمال ومعنى ذلك أن حورس يقدم للملك أرض الدلتا ليحكمها ويبسط عليها نفوذه. بعد ذلك نجد في أسفل اللوحة اثنان من الأعداء يهربان وبجوار كل منهما اسم مقاطعته (بوتو وسايس) كل منهما ينظر ورائه دليلاً على قوة ما يهربان منه، وبجوارهما رسما لحصنهما الذي استولى عليه نارمر. ثانياً الوجه الثاني : نجد أولا في أعلى الصورة المنحوتة نفس وجهى المعبودة حتحور وبينهما السِرخ، أسفلها منظر يصور انتهاء الحرب ويمشى الملك في موكب النصر المتجه لمعبد مدينة بوتو المقدسة، وهنا يلبس الملك التاج الأحمر تاج الدلتا وورائه حامل الصندل وأمام الملك كبير وزرائه وفوقه كلمة "سات" يعنى وزير، وأمام الوزير حملة الأعلام. ومن الأعلام نستنتج أن مصر القديمة كانت أول من يكوّن حكومة مركزية في التاريخ، حيث يرجع تاريخ تلك اللوحة وهذا الحدث إلى ٣١٠٠ سنة قبل الميلاد. ونجد على أقصى اليمين مجموعة من الأسرى مقطعة رقابهم وموضوعة بين أقدامهم ونرى أن جميع الأسرى أقدامهم مواجهة لبعضها ما عدا إثنين منهم، وذلك تمييزاً لهما ويعتقد أنهما قائدين من الشمال. أسفل هذا المشهد نجد صورة لحيوانين خرافيين متشابكة الأعناق ليشكلوا بؤرة الصلاية لطحن كحل الملك وفى نهاية اللوحة نجد الملك مصوّرا على هيئة "ثور" قوي دليلاً على قوته يدمر أحد حصون الأعداء ويطأ بقدمه أحد الأعداء

- من الواضح أن الملك كان يقاتل بشراسة وعنف لم تشهده البلاد من قبل وقد قام بالتمثيل بالجثث ووضع رأس كل قتيل بين ساقيه ، وهي رسالة لكل من تسول له نفسه أن يفكر في عصيان الملك
- بالتأكيد فقد وضع مينا القوانين والقواعد التي ستطبق علي عصره وما بعده من عصور ويجب أن نتذكر أن هؤلاء القتلي هم من أهل مصر أيضاً ولكنهم كانوا يعيشون في الشمال أي في الوجه البحري أي أنهم ليسوا من دولة معادية لمصر بل هم نصف مصر الشمالي
- الطريف أنه قد قامت حروب طاحنة بين شمال وجنوب الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحديث حتي أصبحت علي الحالة التي عليها الآن ، فهل الحروب لتوحيد الدولة أمر حتمي حدث في عدة أماكن من العالم القديم والحديث ؟
- علي أي حال لقد وضع مينا القانون فأنت إذا خالفت مينا فأنت لا تخالف شخص الملك مينا بل إنك تخالف القانون وسيصبح هذا هو الطبيعي والدائم في مصر بعد ذلك فالحاكم هو القانون بل هو مصر نفسها فإذا أسأت له أو انتقدته فأنت تسئ إلي مصر وتنتقدها فمصر ستصبح هي حاكمها ، فهل كان مينا نتيجة طبيعية لمجتمع البيئة الفيضية كما وضحه د جمال حمدان عندما أكد أن الري قد أضاف سيد آخر للفلاح بالإضافة للطبيعة
- ماذا تقصد بمجتمع البيئة النهرية ؟

- سوف أذكر لك ما كتبه د جمال حمدان عن هذا الموضوع بعد أن أنتهي من الكلام عن الملك مينا فهذا الملك قد فرض نفسه علي كتاب التاريخ المصري بل افتتح هذا الكتاب كأول ديكتاتور مؤله علي عرش مصر وأول شخصية بارزة لدي المصريين الذين قدسوه قديماً واحترموه حديثاً
- هل للبيئة الفيضية دخل في قيام أول حكومة في التاريخ ؟

## ١٩. علاقة البيئة الفيضية بنظام الحكم في مصر القديمة

- فلتستمع إلي ما قاله الدكتور جمال حمدان عن هذا الموضوع : حيث كتب ما ملخصه : الحقيقة الكبري في كيان مصر هي أنها بيئة فيضية ، لا تعتمد علي المطر في حياتها ، وإنما علي ماء النهر ، وقوامها هو زراعة الري – – ومن هنا بالدقة يبدأ كل الفرق في حياة المجتمع النهري وطبيعته ، ففي البلاد التي تعيش علي الأمطار مباشرةً يختزل المجهود البشري إلي حده الأدني ، فبعد قليل من إعداد الأرض والبذر ، يتوقف العمل أو يكاد حتي الحصاد ، وبين هذا وذاك فليس هناك من يحفر الترع والمصارف أو يقيم الجسور والسدود وأهم من هذا كله أن ليس هناك من يمكنه أن يحبس عنك المطر أو أن يتحكم في توزيعه ، من هنا فقد تكون الطبيعة سيدة الفلاح ولكن الفلاح بعد ذلك سيد نفسه ،
- كلام منطقي جداً
- أما في بيئة الري فالأمر مختلف كل الاختلاف – – لابد من مجهود بشري ضخم أي لابد من شبكة غطائية كثيفة من الترع من كل مقياس ابتداء من قنوات الحمل وقنوات التغذية إلي مساقي الحقول حتي تزرع ، ثم ما جدوي تلك الشبكة إذا لم تسيطر علي أعناقها ورءوسها بالنواظم والقناطر والسدود ؟ أعني أي جدوي فيها بغير ضبط النهر ؟ ، وأكثر من هذا ما جدوي الجميع بغير ضبط الناس ؟
- ما المقصود بضبط الناس ؟
- إن زراعة الري إذا تُرِكت بلا ضابط يمكن أن تضيع مصالح الناس المائية في مواجهة بعضها البعض مواجهة متعارضة دموية ، ذلك أن كل من يقيم علي أعلي الماء يستطيع أن يسئ استعماله إما بالإسراف أو بحبسه تماماً عمن يقع أسفله أي أن كل حوض علوي يستطيع أن يتحكم في حياة أو موت كل حوض سفلي وكل من يقع علي أفواه الترع يستطيع أن يهدد حقوق المياه لمن يقع علي نهايات الترع ، كذلك يمكن للمحاباة والتحيز أن تسخو بالماء لمن تريد وتقبضه عمَّن تريد ، المحصلة إذن واضحة : بغير ضبط النهر يتحول النيل النبيل إلي شلال حطم جارف ، وبغير ضبط الناس يتحول توزيع الماء إلي عملية دموية ويسيطر علي الحقول قانون الغاب والأدغال ، في ظل هذا الإطار الطبيعي يصبح التنظيم الاجتماعي شرطاً أساسياً للحياة ويتحتم علي الجميع أن يتنازل طواعية عن كثير من حريته ليخضع لسُلطة عامة أعلي توزع العدل والماء بين الجميع ،
- سُلطة الحكومة ؟

- سُلطة عامة أقوي بكثير مما يمكن أن تتطلبه بيئة لا تعتمد علي نهر فيضي في حياتها ، وبذلك لا تكون الطبيعة وحدها سيدة الفلاح ، وإنما بين الاثنين يضيف الري سيداً آخر هو الحاكم ،
- أضاف الري سيد آخر هو الحاكم ، تحليل رائع وبعد
- فإذا ما التفتنا إلي مصر القديمة بصورتها الفرعونية فستجابهنا هذه الملامح ، ملامح المجتمع الهيدرولوجي إلي حد نادر المثال ، فقد عُد فرعون ضلعاً أساسياً في مثلث الإنتاج إلي جانب الضلعين الطبيعيين الماء والشمس
- لذلك عبدوا الحاكم والشمس والنهر ، فماذا عن المجتمع
- هذا عن الحكومة أما عن المجتمع فهو أساساً مجتمع تعاوني منظم – – وهنا نجد في القرية المصرية في صميم تركيبها وسيكولوجيتها وزراعتها قدراً كبيراً متوطناً ومتأصلاً من التعاونية والمشاركة التلقائية ، فهي خلية بشرية متلاصقة متلاحمة
- لقد اتضح لي أهمية دور الحاكم في مصر القديمة ،

## ٢٠. أول حكومة في التاريخ كانت في مصر

- فليس من المستغرب أن أول حكومة في التاريخ كانت في مصر كما يوضح د جمال حمدان في موضع آخر من كتابه القاهرة حيث كتب ما يلي : ( --- فالبيئة كما رأينا فيضية ، والمجتمع مجتمع هيدرولوجي ، ولهذا أصبح الري مرادفاً للتنظيم ، والتنظيم المركزي ، الذي يخضع فيه الجميع طواعية لسلطة عامة مطلقة . وإن كان هذا من أقوي عوامل ظهور الوحدة السياسية المبكرة في مصر ، كما أنه علم الشعب "أن" النظام أساس الحضارة ، إلا أن هذا أيضاً بدأ دور الحكومة الطاغي وأرسي نواة الموظفين الثقيلة ، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصراً أصيلاً في مركب الحضارة المصرية ، بل ثقلا عنيدا في موكبها .
- البيروقراطية عريقة في مصر بكل تأكيد
- أصبحت مصر مجتمعاً حكومياً كما نقول ، فالحكومة وحدها هي التي تملك زمام المبادرة وإمكانيات العمل ، العمل الكبير علي أية حال ، وقد كان لهذا قيمته في بعض المراحل – – ، ولو أنه ربما خلق في جميعها شيئاً من روح التواكل والتكاسل والسلبية وخنق ملكات المبادأة وحوافز التلقائية في السكان ، وهنا ، مرة أخري ، نجد أن الحكومة المركزية الأولي في التاريخ ليست ميزة صافية بلا شوائب ولا كانت مكسباً بلا ثمن ، والذي يتعمق تاريخ مصر الاجتماعي ستروعه ولا شك تلك البيروقراطية العاتية التي تمتد علي طوله بغير انقطاع ، حتي لتشكل نغمة دالة عليه وملمحاً أساسياً آخر من ملامحه ، فالبيروقراطية في مصر قديمة قدم الحضارة الفرعونية ، مع الأهرام تبدأ ، وفيها تتلخص ،--- ويكفي بعدها أن نري صور كبار الموظفين علي النقوش والآثار القديمة وأن نعرف أخبارهم المتواترة في البرديات والسجلات العديدة حتي ندرك خطورة الدور الذي لعبته الهيئة البيروقراطية في القديم ، بل إن

شئت رمزاً بليغاً ، ففي النحت تجده ابتداء من تمثال الكاتب حتي تمثال شيخ البلد فهذه جميعاً نصب تذكارية وتاريخ محفوظ أو محفور للبيروقراطية الفرعونية الثقيلة

- من هنا يمكن القول أن الشعب المصري يحتاج أو احتاج حاكماً قوياً علي طول تاريخه ، وحاجة الشعب إلي هذا الحاكم القوي تفوق كثيراً حاجة هذا الحاكم للشعب أليس كذلك ؟
- نعم فهناك تناسب طردي بين قوة الحاكم وإحساس الشعب بالأمن ، فكلما كان الحاكم قوياً كلما شعر الشعب بالأمن ، فهو دائماً يحتاج إلي المبادرة من أعلي ، ودائماً ينتظر ما سيحدث لا ما سيصنعه هو ، فهو لا يصنع شيئاً من تلقاء نفسه بل عليه أن يتلقي التوجيهات من أعلي ، من حاكم ترنو إليه الأبصار وتتعلق به الآمال ، وإذا تأملنا الآثار الفرعونية في طول البلاد وعرضها سنجد أن أروعها وأكثرها تم بناءه في فترات السيطرة الكاملة للحكومة المركزية في الثلاث دول القديمة والوسطي والحديثة ولن نجد آثاراً بهذه الروعة في فترات الاضمحلال خلال العصر الفرعوني ، فلم تحدث إنجازات معمارية يمكن مقارنتها بما حدث في هذه الدول الثلاث
- وهل استمرت هذه الظاهرة بعد الفراعنة ؟
- إذا تركنا العصر الفرعوني واستعرضنا عصر البطالمة ثم العصر الروماني في مصر سنجد الإنجازات تتحقق في فترات حكم الأقوياء فقط ، وحتي بعد فتح مصر وانضمامها إلي العالم الإسلامي سنجد أن رغبة الحاكم في حدوث أي أعمال ضخمة تكون هي المحركة للأحداث ، لأن المبادرة تأتي من أعلي غالباً ، فتأمل وراجع معظم الإنشاءات والمشروعات الكبري في تاريخ مصر منذ عصر الفراعنة كالأهرامات والمعابد قديماً والأعمال المعمارية الضخمة في العصر المملوكي وعصر أسرة محمد علي وحفر قناة السويس وبناء السد العالي وكذلك الانتصارات الكبري في تاريخ مصر ، وحتي الهزائم والانكسارات والإخفاقات ستجد أن المحرك للأحداث غالباً لا يكون الشعب ، بالرغم من أن الشعب هو الذي يصنع كل هذا ولكن ليس من تلقاء نفسه في معظم الأحوال
- إلي هذا الحد ينعدم دور الشعب كمحرك للأحداث ؟ حتي بعد انتهاء أسباب حاجة الشعب للحاكم كأحد أضلاع مثلث الحياة إذا جاز التعبير ؟

## ٢١. النقطة السوداء في الاستمرارية المصرية

- للأسف لقد استمرت هذه الظاهر حتي بعد انعدام وجود المبرر لوجودها ، وقد تكلم عن هذه الاستمرارية الدكتور جمال حمدان فقال : – فعلي طرفي النقيض الأقصي والمطلق من مصر الاقتصادية ، وعلي خلاف مصر الاجتماعية ، إلي حد بعيد ، لم تكد مصر السياسية تتغير أو تعرف التغير ، فهي إن لم تكن بعيدة تماماً عن التغير فإنها بلا نزاع آخر وأقل ما يتغير في مصر ، إنها قمة الاستمرارية والثوابت وقاع الانقطاع والمتغيرات في مصر ، لكنها للأسف والأسي بالطبع أسوأ استمرارية وشر الثوابت علي وجه اليقين والإطلاق ،

- يا له من وصف
- ذلك أنها النقطة السوداء والشوهاء في الاستمرارية المصرية جميعاً ، مثلما هي الوحيدة التي لم تعرف الانقطاع أو التغير قبل العصر الحديث وبعده ، إنها الاستمرارية السلبية بامتياز ، مثلما هي قمة سلبيات الاستمرارية بيقين ، والسؤال ببساطة هل تغيرت مصر المعاصرة عن مصر الحديثة ، والحديثة عن القديمة ، في قضية التركيب الاجتماعي – السياسي ونظام الحكم والسلطة ، وإلي أي حد ؟ ، التغير الجوهري في الشكل ، أما الجوهر فلم يكد يتغير ، وهذا الجوهر هو الطغيان الشرقي ، الطغيان الفرعوني ، بكل أعمدته التقليدية ،
- ألم أقل لك أنني أشعر أن مينا قد وضع نظام مستمر حتي الآن ؟ أكمل القراءة من فضلك
- فهو الخط المستمر والقاسم المشترك الأعظم ، الذي يجري خلال تاريخ مصر كله منذ مينا
- لم أكن أعرف أنه سيقول ذلك
- المتغير الوحيد هو الشكل ، – – فقديما كان الفلاحون عبيد فرعون ثم عبيد السلطان ، وحديثاً فإذا لم نكن قد صرنا حقاً أو نوعاً عبيد الرئيس ، فنحن يقيناً مازلنا بين فراعنة وفلاحين ، ورعايا لا مواطنين ، – – – وبمزيد من التوضيح ، فنحن في مصر الحديثة قد بدأنا حياتنا النيابية العصرية بالأخذ بالنموذج الغربي الديموقراطي البورجوازي الليبرالي المتعدد الأحزاب ، بل وذلك منذ وقت مبكر نسبياً تحت – الخديو اسماعيل – وقبل كثير من الدول الأخري ، غير أن ذلك لم يكن للأسف إلا كقشرة وطلاء وواجهة ديموقراطية شكلية بحتة لخلفية اجتماعية محض إقطاعية طبقية رجعية ، ولأرضية استبدادية غاشمة من الحكم المطلق والطغيان المعهود ، فالحرية كلمة مستوردة لم تدخل قاموس السياسة المصرية إلا منذ الطهطاوي والمثل الفرنسي ، ولكن كأسم لا كفعل ، فالقاعدة الأصولية في مصر ، والتي لا تزال مرعية بأمانة – – هي أن كل من يختلف مع الحاكم فهو خائن بطريقة أو بأخري ، أو علي الأقل فإنه هو الحقد الذي لم يجد له قط علاجاً ،
- لأن مصر أصبحت هي حاكمها بالفعل منذ أيام مينا
- ذلك أن الرأي – كالقوة وكالفعل – ملك للحاكم فقط وحكر عليه وحده ، أما المعارضة فلم تعرفها مصر منذ الفرعونية – – إلا رمزاً وإلا شكلاً والرأي الآخر لم يوجد إلا في نفس صاحبه فقط – – من هنا جميعاً فإن هذه الديموقراطية البرلمانية المستوردة ليست إلا غلافاً جذاباً وقناعاً براقاً للديكتاتورية الأصيلة والأصلية ، لذا يمكننا – والديموقراطية أكثر شئ نسبية إن لم تكن أكثر شئ مطاطاً – أن نسميها بحق الديموقراطية الشرقية كمرادف محلي أو عصري للطغيان الشرقي ويمكنك أيضاً أن تسميها ديموقراطية العالم الثالث – – – وما هي إلا الغراب يقلد مشية الطاووس – –
- الغراب يقلد مشية الطاووس ، يا له من تعبير ، أعذرني للمقاطعة ولكن رغم عني أكرر ما يعجبني من تعبيرات بليغة ، فلا تلقي لي بالاً واستمر

- وكما في دول الشرق الأوسط والعالم المتخلف ليس ثمة شئ في سياسة مصر الخارجية اسمه الشعب من الوجهة العملية ، ولا أوهام في هذا أو انفعال ، فصناعة السياسة الخارجية وتشكيلها وتوجيهها هي عملياً وواقعياً بغض النظر عن الشكليات السطحية المموهة حكر لرجل واحد هو الحاكم – – – وأنه حاكم مطلق خارجياً كما هو داخلياً ، ولا يكاد يوجد حاكم في العالم القديم أو الحديث ينفرد بوضع سياسة بلده الخارجية كحاكم مصر ،
- يا لها من مأساة
- وقد عبر بعض المعلقين الأمريكيين مؤخراً علي هذه الظاهرة بقولهم إن السياسة الخارجية في هذا الجزء من العالم سياسة شخصية أساساً ، الدور الشخصي للحاكم هو الدور المحوري إن لم يكن الأوحد فيها ، وفي هذا بالدقة تكمن جذور المأساة العظمي ، فمكان مصر ومكانتها الدولية كقوة سياسية ، انتصارها وهزيمتها مصيرها وبقاؤها – – إلخ كل أولئك بين يدي شخص واحد – – – – لقد تغيرت مصر الحديثة والمعاصرة في جميع نواحي الحضارة المادية واللامادية والحياة الاقتصادية والاجتماعية بدرجات متفاوتات ، وذلك علي الأقل بحكم العصر والحضارة الحديثة المُعدية ، تماماً مثلما تغير كل العالم الثالث ولربما تفوقت مصر في مدي هذا التغيير ، غير أنها من أسف لم تكد تتغير من ناحية نظام الحكم ، ففي هذا لا جديد تحت الشمس
- سبحان الله ، نحن لم نتكلم في تاريخ مصر حتي هذه اللحظة إلا عن الملك مينا فقط ، فكيف وصل بنا الكلام إلي كل هذا ، فهل عصر الملك مينا قد تكرر في جميع عصور التاريخ المصري مع تغيير اسم الحاكم فقط ؟
- علي أي حال كان من الطبيعي أن يستغرق الكلام عن الملك مينا كل هذا الوقت لأن البداية والتأسيس يحتوي علي تفاصيل كثيرة مطلوب توضيحها أما بعد ذلك فسيكون الكلام عن باقي الفراعنة أكثر وضوحاً دون الحاجة إلي كل ما قد قيل عن الملك مينا
- حسناً فمن الفرعون الذي سنتحدث عنه بعد الملك مينا ؟
- أعتقد أن الملك زوسر هو الذي يستحق أن ننتقل للحديث عنه فهو ثاني شخصية بارزة في التاريخ الفرعوني رغم أنه مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية
- لقد ذكرت أن الملك مينا كان أول شخصية بارزة وتقول الآن أن الملك زوسر هو ثاني الشخصيات البارزة في تاريخ مصر فماذا تعني بالشخصية البارزة ؟
- أراك تريد أن نبتعد مرة أخري عن موضوع الحوار
- وما المشكلة أن نبتعد مرة واثنان وألف مرة ، فما جدوي الحوار إذا لم يكن ثرياً بالمعلومات والمناقشات حتي نصل للهدف المقصود منه ؟
- حسناً ، كما تشاء ، ولكن دعني قبل أن أجيب أن أسألك أنا سؤالاً واحداً

- تفضل

## ٢٢. أهمية الشخصيات البارزة في التاريخ

- كم شخص وُلد ولادة عادية جداً ثم مر بطفولة عادية جداً ثم تلقي تعليم عادي جداً ثم مارس مهنة عادية جداً ثم تزوج من إمرأة عادية جداً ثم أنجب منها أطفال عاديين جداً ثم مضي به العمر حتي مات ميتة عادية جداً ؟
- أعتقد أنه لا أحد يستطيع الإجابة ،
- فإذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات العادية التي تواجدت علي الأرض من عهد آدم عليه السلام حتي اليوم لن نستطيع بل أعتقد أنه من المستحيل فالله وحده عز وجل هو الذي يعلم ( لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾)[1]
- ولكن لماذا تسأل سؤال تعرف أنه بلا إجابة ؟
- لأننا إذا حاولنا أن نحسب عدد الشخصيات الغير عادية التي وردت في تاريخ البشرية فسوف نستطيع لأن الشخصيات البارزة قد فرضت نفسها علي كتب التاريخ لأنها بمشيئة الله غيرت وجه التاريخ ويأتي في مقدمتهم بالطبع الرسل والأنبياء ثم أشهر الخلفاء والقادة والزعماء والسلاطين والملوك وغيرهم من الذين نستطيع أن نحسب عددهم بل ولدينا معلومات كثيرة عنهم وعن السيرة الذاتية لكل منهم وإنجازاتهم وانتصاراتهم وأهم الأحداث التي كانوا سبباً في حدوثها ولقد كتب عن هؤلاء العديد من المؤرخين والمفكرين والأدباء وغيرهم
- فماذا كُتِب عنهم ؟
- سأقرأ لك إن شاء الله كل ما قرأته عنهم ولكن تذكر أننا وصلنا للحديث عن الملك زوسر
- لا تقلق فإنني أدون العديد من الملاحظات والنقاط أثناء الحوار
- يقول الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش ( إذا ابتعد المسافر عن مدينة أخذت تظهر له من بعيد الأمكنة العالية منها وكلما أوغل في الابتعاد وأمعن في السير صار لا يري إلا أكثر الأمكنة إصعاداً في الجو كذلك الناظر في التاريخ كلما ابتعدت به قافلة الزمن لا يلمح إلا الشخصيات البارزة )
- هذا صحيح فمن المؤكد أنه كان يعيش في نفس توقيت حياة هؤلاء القادة العديد من الشخصيات ولكننا لا نعرفهم حالياً فمثلاً في عصر الملك مينا موحد القطرين أعتقد أنه كان هناك العديد من الشخصيات بل وصفوة القوم كما يقال في كافة المجالات ثم استمر ذكرهم مع مينا لمدة معينة ثم بعد فترة ما ظل الناس يتذكرون مينا ومعه مثلاً عشرين من حاشيته وكبار رجال دولته ثم بعد فترة أطول أصبح الناس يتذكرون مينا ومعه خمسة فقط من أشهر رجال دولته وهكذا ، اما الآن فلا أحد يعرف سوي مينا فقط وأنه موحد القطرين ،

---

[1] ٩٤ ، ٩٥ سورة مريم

- إلا إذا كان هناك متخصص في الآثار والتاريخ الفرعوني فقد يعرف شخصيات عاشت في زمن مينا من مقابرهم وآثارهم التي تم اكتشافها أو سيتم في يوم ما ، أما جميع المصريين حالياً فيعرفون اسم الملك مينا جيداً ، وإذا عدنا إلي الكتاب الممتع صقر قريش للكاتب علي أدهم سنجده قد ذكر أوصافاً أخري لهذا النوع من القادة حتي أنه كتب ما قاله أحد الأشخاص في الأندلس لرسول عبد الرحمن الأموي الملقب بصقر قريش ، وأعتذر لك بسبب اللفظ الذي ذكره كما اعتذر كاتبه لأن هذا الشخص قال عن هؤلاء : أنه إذا بال أحدهم في وادي لغرق من فيه ،
- لعله تعبير يحمل من المبالغة ما لا يطاق
- فلا شك أن لدي هؤلاء القادة البارزين جميعا القدرة علي التأثير في جموع الجماهير والشعوب وأهدافهم واضحة أمامهم تماماً ويسيرون في اتجاهها بلا تردد ومن أفضل ما قرأت عن طبيعة رؤية القادة لأهدافهم كتاب مدهش اسمه ( من هدي القرآن ) للأستاذ أمين الخولي رحمه الله وهو عبارة عن أحاديث إذاعية تم طباعتها بعد ذلك في كتاب ويتحدث أمين الخولي عن القادة الرسل بشكل عام مستمداً من كتاب الله عز وجل الهدي القرآني الذي يوضح طبيعة القادة الرسل فيقول الكاتب ( إنما القادة أصحاب الرسالات قوم عمر الإيمان أفئدتهم وغمر اليقين أرواحهم فهم يتمثلون أهدافهم التي يسعون إليها مجسمة محققة لا يساورهم في ذلك شك ولا تخالج أنفسهم ريبة وهم لهذا يقدمون نحوها في ثقة المشاهد لا يثني عزمهم عما يطلبون أي شئ لأنه دان منهم وعلي منال أيديهم في رأي العين فكل صعب عند الناس هو عندهم هين وكل عسير علي الناس هو عليهم يسير ... ) هكذا تحدث عنهم أمين الخولي وهو محق بكل تأكيد لأنك لو تأملت ما كان يهدف إليه أحد القادة البارزين ستجد من حوله لا يتخيلون إمكانية تحقيق ما يريده ويعتبرون أنها أحلام
- لقد فهمت ما يعنيه الكاتب فبينما هذا الشخص البارز يري بالفعل أهدافه محققة أمامه ويتقدم نحوها نجد ذهول جميع من حوله وتعجبهم من إصراره إلي أن يتأكدوا بالفعل ويشاهدوا بأعينهم ما كانوا يعتبرونه أحلام قد تحقق
- الطريف أنهم هم الذين حققوه تحت قيادته
- المدهش حقاً أن المتغير الوحيد في أي فترة من التاريخ هو ظهور هذا الشخص علي مسرح الأحداث فقط ، فلم يحدث أي جديد في أي شئ ، فهو نفس الشعب ونفس الأرض ونفس النهر ونفس الإمكانيات والبيئة ،
- نعم لقد وصلك المعني تماماً فكل شئ ثابت وكل ما حدث أن ظهر منتوحتب الثاني أو بطليموس الأول أو ابن طولون أو محمد علي ، علي سبيل المثال لا الحصر ، فأنت تري الأمور والأحداث تسير في اتجاه معين ثم تغير اتجاهها بمشيئة الله علي يد أحد هؤلاء ، فكأن القدر أو إن شئت فقل أن القدر بالفعل يضع شخص معين بمواصفات معينة في مكان معين وزمان معين وله طموح وعزيمة وإرادة

ليغير مجري الأحداث تماماً ولا يشك لحظة في عدم حدوث ما يريد لأنه كما ذكرنا يراه محققاً بالفعل وكل دولة من الدول قامت علي أكتاف أحد هؤلاء وكل هذا طبعاً بمشيئة الله سبحانه وتعالي وتحضرني هنا أبيات من الشعر كتبها أبو العتاهية في مدح أحد خلفاء بني العباس بعد أن استقرت له الخلافة

أتته الخلافةُ مقهورةً تكاد تجرجر أزيالها

فلم تكُ تصلحُ إلا لهُ ولم يكُ يصلحُ إلا لها

ولو ذهبت لأميرٍ سواهُ لزلزلت الأرضُ زلزالها

## ٢٣. الملك بيد الله سبحانه وتعالي

- حقاً إنها إرادة الله أن تصل الخلافة إلي هذا الأمير ومن المستحيل أن تذهب لغيره ، فمن كان مقدر له أن يصل للحكم بمشيئة الله ليكون سبباً لأحداث أرادها الله عز وجل فمن المستحيل أن يصل للحكم غيره ،
- وقد يسلط الله بعض الحكام علي بعض الشعوب وقد يهب الملك لمؤمن وقد يهبه لكافر ومثال ذلك الملك الذي كان علي عهد سيدنا إبراهيم عليه السلام كما في الآية الكريمة {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَآجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رِبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ }٢ فتأمل معي الآية الكريمة في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ستجد أن المولي عز وجل أعطي المُلك لهذا الملك الكافر (آتَاهُ اللّهُ الْمُلْكَ) وبالتالي لن ينازعه فيه أحد لأنها إرادة الله سبحانه وتعالي ، فقد يحصل علي المُلك المؤمن وقد يحصل عليه الكافر بل وليس الكافر العادي فقط إذا جاز التعبير بل شديد الكفر والمدعي الألوهية والعياذ بالله ، {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاء وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاء وَتُعِزُّ مَن تَشَاء وَتُذِلُّ مَن تَشَاء بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}٣ ، ومن الأمثلة شديدة الوضوح أيضاً أن فرعون كان له مُلك مصر وقد ذكر المولي عز وجل قصة فرعون مع سيدنا موسي عليه السلام في أكثر من موضع بالقرآن الكريم فعندما قرر فرعون مثلاً أن يقهر بني إسرائيل {وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}٤ ، ورد علي لسان سيدنا موسي تعليقاً علي ما قاله فرعون {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللّهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ لِلّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ}٥ ومن هنا يتضح أن سيدنا موسي عليه السلام يعلم جيداً أن الأرض لله يورثها من يشاء وأن الملك في ذلك الوقت كان لفرعون بمشيئة الله وعلي المؤمنين أن يصبروا علي قضاء الله لأن العاقبة للمتقين في النهاية هذا والله أعلي وأعلم ،

---

[٢] (٢٥٨) سورة البقرة

[٣] (٢٦) سورة آل عمران

[٤] (١٢٧) سورة الأعراف

[٥] (١٢٨) سورة الأعراف

- ولكن أعتقد أن أي شخصية بارزة في التاريخ لا يشترط أن يأتي بعدها شخصيات بارزة من الأبناء أليس كذلك ؟
- بكل تأكيد فلو تأملنا أي أسرة حاكمة من التي حكمت مصر سنجدها تبدأ بأحد هؤلاء الرجال من مؤسسي الدول ثم يتولي الحكم بعده أكبر أبناءه مثلاً أو أكبر أفراد العائلة من بعده وقد عاصر بالطبع تأسيس الدولة ثم بعد ذلك يموت ويتولي الحفيد
- الذي ولد وفي فمه ملعقة من الذهب كما يقال
- بالطبع فهو أمير ابن أمير ولم يعاصر الكفاح والنضال ويتصور أن ما هو فيه أمر واقع وقد يحيا حياة الترف والرفاهية ويدمر كل ما صنعه أجداده وهناك العديد من الأمثلة علي ملوك أقوياء خلفهم ملوك ضعفاء سنجدها بكثرة في التاريخ

## ٢٤. ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء

- وطبعا الآباء لهم دور كبير في إعداد الأبناء للقيام بدورهم خير قيام وهم السبب الرئيس فيما سيصير عليه أبناءهم بعدهم
- بكل تأكيد فمثلاً الملك فيليب ملك مقدونيا قام بإعداد ابنه الإسكندر الأكبر الشهير ليتولي الحكم من بعده بل إنه قد جعل أرسطو شخصياً معلما له بالإضافة إلي التدريب علي القتال بمعرفة أفضل القادة المتخصصين وما إلي ذلك من الأمور التي يحتاجها القائد ليصبح علي مستوي الأحداث ، وسنجد في تاريخ مصر الكثير من الأسرات الحاكمة التي بدأت بملوك وقادة علي أعلي مستوي ثم تدهورت الأحوال بعد ذلك كما حدث مثلاً في عصر الأسرة ١٨ الفرعونية وفي عصر البطالمة وفي عصر الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وعصر المماليك بل إن أسرة محمد علي نفسها أكبر دليل علي ذلك فقد بدأت بداية قوية علي يد مؤسسها محمد علي باشا الذي اقتبس من الغرب أصول الحضارة وليس مظاهرها وقشرتها الخارجية فلما تولي الحكم أبناءه بدأت تسوء الأمور في مصر ووصل بها الحال أن تورط أبناءه في الديون وتقليد الغرب في مظاهر الحضارة فقط حتي وقعت مصر تحت الاحتلال البريطاني ،
- هل لديك كتابات عن أولاد محمد علي ؟
- نعم فلقد وصف الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني أولاد محمد علي وصفاً ساخراً حيث قال في كتابه الممتع (مصر من تاني) ما يلي : ( ترك – محمد علي باشا – وراءه حكاماً دون المسئولية جهلة ومتعاظمين وعلي درجة عالية من التفاهة ورأوا أن محمد علي أضاع حياته في ما لا يجدي وقضي العمر في ما لا ينفع وأن الحاكم الفذ هو الذي يستمتع بالسلطة ويهنأ بالسلطان ومر سعيد وعباس ومصر في حالة أكثر انحطاطاً مما كانت عليه أيام المماليك فأغلقت المصانع أبوابها وتحول الجيش إلي أداة للزينة أيام التشريفة ووقت خروج المحمل وفي تشييع جنازات العظماء ، ثم جاء

الخديوي اسماعيل وهو رجل طموح ولكنه في الوقت نفسه كان يحسب حساباته بدقة ولقد رأي أن محمد علي تعرض للهلاك عندما خرج يتحدى الغرب ولذلك قرر أن يهادن الغرب – وما دام الغرب قوياً فلابد من أن يكون السبب هو نمط الحياة التي يحياها الغرب فقرر أن يتحول بمصر إلي الحضارة الغربية ، وهنا أخطأ اسماعيل في الحساب لأنه لم يدرك أن الحضارة ليست عملية تجميل فحسب – ولذلك سنراه يغرق في الديون حتي أذنيه ليجعل من القاهرة قطعة من أوروبا ولقد نجح اسماعيل في ذلك بالفعل ، شق الشوارع والميادين وبث النافورات والتماثيل وأقام المتاحف والمعارض ومد الجسور علي النيل وشيد القصور الملكية علي أرقي هندسة العصر وافتتح داراً للأوبرا وداراً للتمثيل وألف مجلساً للشورى وجعل من اللغة الفرنسية لغة رسمية للصالونات والنوادي في عاصمة مصر ، ولكن بصره لم يمتد إلي أبعد من القاهرة وعينه لم تلحظ وجود فلاحين يعيشون في الريف عيشة أكثر تعاسة من عيشة الكلاب ، فلم يكن الريف في نظره إلا مخزناً للطعام ، ومستودعاً للبشر المستعدين دائماً للخدمة والصبر !! ) ، ونفهم مما سبق أن أبناء وأحفاد محمد علي باشا باستثناء أكبر أبناءه إبراهيم باشا قد نشأوا نشأة لم تؤهلهم إلي حد ما ليكونوا مثل محمد علي في علو همته وقدرته علي تحديد الأولويات واستغلال الإمكانيات ، وقد يسوقنا هذا للحديث عن الحرمان من الرفاهية وأثره في نشأة وإعداد الملوك بشكل عام

## ٢٥. دور الآباء في إعداد الأبناء للحكم

- هل الحرمان من الرفاهية أحد وسائل إعداد الحكام ؟
- كان الملوك قديماً يحرصون علي تدريب أبناءهم علي الرماية وركوب الخيل والسباحة واستخدام الأسلحة المختلفة وكانت رحلات الصيد من أهم وسائل تقوية الأبناء ورفع مستواهم في التحمل والصبر فهو يخرج في رحلة الصيد متعرضاً للعديد من الأخطار سواء الخاصة بأحوال الطقس من حر شديد أو برد قارص وقد ينام في أي مكان ويتعرض لمقابلة حيوانات مفترسة أو زواحف قاتلة ،
- وهل من المعقول أن يترك أولاده يتعرضون للخطر هكذا ؟
- بالطبع لا فقد كان الملوك يرسلون من يتابع هؤلاء الأبناء وينقذهم من هذه المخاطر ولكن هذا الوسط عموماً الذي يتواجد فيه الأبناء كفيل بأن يجعله صلباً ويتحمل قسوة العيش ويشتد عوده بعيداً عن قصور وحدائق أبيه مما يجعله بالتأكيد مستعداً لتولي شئون الحكم ،
- هذا قديماً فماذا عن العصر الذي نعيش فيه حالياً ؟
- وحتي في العصر الحديث إذا لم تتوفر فرصة الصيد بهذا الأسلوب فإن ما تبقي من ملوك هذا العصر يلحقون أبناءهم بالكليات العسكرية حيث يتعلمون الانضباط فالطعام بمواعيد والنوم بمواعيد والتدريب الشاق بعيداً عن الرفاهية ، فالحرمان يفجر الطاقات الكامنة في الأبناء بل وفي الشعوب أيضاً فالشعب عندما يتم حرمانه من بعض ما يحتاجه مما يلزمه للحياة ستجده يحاول أن ينتجه بطريقة أو بأخري ،

وكما يقال الحاجة أم الاختراع ، فإذا قمت بحل جميع مشاكل أبناءك بنفسك دون أن تتركهم يحاولون سوف تقتل فيهم الطاقات الكامنة

- لقد تذكرت الآن مثال قد يكون من أفضل الأمثلة علي فوائد الحرمان تأكيداً لكلامك وهو ما يقوم به الفلاح عندما يتوقف لفترة عن ري بعض أنواع المحاصيل مما يؤدي إلي تمدد جذورها في كل مكان بحثاً عن الماء فتزيد مساحة الامتصاص لديها ، وبعد فترة يقوم بعملية الري والتسميد فيغذي النبات بكمية أكبر من السماد التي يمتصها كلها لزيادة مساحة الامتصاص لديه ، أما إذا وجد النبات المياه قريبة دائماً فلن يحتاج إلي مد جذوره إلي أي مكان فيظل محتفظ بمساحة امتصاص صغيرة وبالتالي لن يحصل علي سماد كثير فينعكس ذلك علي الثمار ،
- كذلك البشر أيضاً إذا لم يتعرضوا للحرمان فلن يحتاج أحد منهم الطاقات الكامنة بداخله ،
- ولكن هل كان محمد علي لا يدرك هذه الحقيقة ؟
- حتي لا نظلم محمد علي باشا في هذا الشأن تجدر الإشارة إلي أنه كان حريصاً علي تربية أبناءه تربية عسكرية ولكن أحفاده بعد ذلك لم يكن مسئولاً عن تربيتهم فضاع استقلال مصر علي أيديهم وسوف أروي لك قصة سعيد باشا ابن محمد علي مع قناة السويس لتوضح الكثير من الأمور
- بالفعل لقد سمعت من قبل عن سعيد باشا والمكرونة وقناة السويس فما حقيقة هذا الموضوع ؟
- هذه القصة رواها العقاد في كتاب اسمه ضرب الإسكندرية في ١١ يوليو وهو كتاب يوضح العديد من الأمور عن قناة السويس منذ بداية فكرة المشروع إلي أن قام الإنجليز بضرب الإسكندرية واحتلال مصر ، وإليك ما كتبه العقاد : كان " محمد سعيد باشا " في صباه يميل إلي البدانة وكان أبوه " محمد علي باشا " حريصاً علي تربية أبنائه علي الحياة العسكرية والنشأة الرياضية ، فكان يحتم علي الصبي " محمد سعيد " أن يسبح ويعدو كل يوم مسافات طويلة ، ويأمر له بالقليل من الطعام الذي لا يسمن ولا يشبع ، وكان " ماثيو دليسبس " والد " فرديناند " صديقاً لمحمد علي ، يحبه من عهد وساطته عند الباب العالي في اختياره للأريكة المصرية ، وكان يأذن لأبنائه في زيارة القنصل لتوثيق عري المودة وإتقان اللغة الفرنسية ، فكان محمد سعيد يجد في دار القنصل شبعه من المكرونة التي كان مشغوفاً بأكلها ، وكان صحبته لفرديناند الصغير خير شفيع للمهندس الفرنسي فيما بعد لاستجابه رجائه " الخاص بحفر قناة السويس " بعد طول تردد فيه علي أيام أبيه ،
- بالطبع لم يوافق محمد علي علي مشروع قناة السويس
- نعم بالطبع ، وأُتفق أيضاً أن فرديناند دليسبس هذا كانت تربطه بالإمبراطورة " أوجيني " صلة قرابة ومودة ، فلولا المكرونة وهذه المصادقة التي ربطت بين دليسبس وبلاط فرنسا لما استطاع الرجل أن ينجح حيث أخفق غيره ، ولحبط العمل كله بعد الشروع فيه لولا اليد القوية التي كانت تنقذه من ورطة

بعد ورطة في بلاط باريس ، إلا أن دلسبس قد استخدم كل ما في جعبته من الوسائل لإقناع سعيد باشا بفوائد مشروع قناة السويس ، –

- أي أنهم حاولوا إقناع محمد علي بهذا المشروع كثيراً ؟
- بالتأكيد فجميع المحاولات لإقناع محمد علي باشا بحفر قناة السويس باءت بالفشل لعلم محمد علي أن هذه القناة قد تجر إلي مصر أطماع الدول الكبري ، ولم يتم إقرار المشروع إلا في عهد سعيد باشا ثم تم افتتاحها في عهد الخديوي اسماعيل
- ثم تم احتلال مصر في عهد الخديوي توفيق ،
- وهكذا ضاع استقلال مصر علي يد أحد أحفاد محمد علي باشا ، فمحمد علي وأمثاله من القادة البارزين في تاريخ مصر صنعوا حضارات وأقاموا دول وإمبراطوريات وعرفوا كرجال دولة كيف يستغلون إمكانيات مصر وإمكانيات هذا الشعب الذي ربما لا يعرفها عن نفسه
- وهل هذا الشعب يتصف بصفات لا يعرفها عن نفسه ؟

## ٢٦. وصف الشعب المصري

- هذا ما قاله أحد علماء الحملة الفرنسية علي مصر في كتاب وصف مصر وهو يصف الشعب المصري
- إنه كتاب موسوعي ضخم ، وكم كنت أود أن أعرف بعض ما فيه
- إليك بعض ما ورد في كتاب وصف مصر عن طبيعة الشعب المصري : ( يوجد في مصر – شأنها في ذلك شأن بقية بلدان الشرق – خليط مضطرب من العادات والتقاليد ، تعود إلي أصول متنوعة ، وتنتج عن أسباب كثيرة ، وهل كان يمكن للأمر أن يكون علي نحو آخر في بلد يمكن القول بأن كافة الأمم قد اختلطت فيه ؟
- وهل كان علماء الحملة الفرنسية يعرفون تاريخ مصر ؟
- بكل تأكيد فالمتخصصون منهم في ذلك يعرفونه جيداً فقد درسوا كل شئ عن مصر قبل حضور الحملة كما سنري إن شاء الله
- ماذا كتبوا أيضاً ؟
- يقول الكاتب : فالعادات إذن تتنوع بنفس الطريقة التي تشكلت بها فئات السكان ، بمختلف أديانهم وأصولهم ، – – – ولا يمكنك أن تكشف ما يعتمل في نفس المصريين عن طريق ملامحهم ، فصورة الوجه ليست مرآة لأفكارهم ، فشكلهم الخارجي في كل ظروف حياتهم يكاد يكون هو نفسه ، إذ يحتفظون في ملامحهم بنفس الحيدة وعدم التأثر ، سواء حين تأكلهم الهموم أو يعضهم الندم أو كانوا في سعادة عارمة ، وسواء كانت تحطمهم تقلبات غير منتظرة أو كانت تنهشهم الغيرة والأحقاد ، أو يغلون في داخلهم من الغضب ، أو يتحرقون للانتقام ، فليس ثمة مطلقاً فعل منعكس : إحمرار في الوجه أو شحوب مفاجئ ، يستطيع أن يشي بصراع تلك العواطف العديدة التي تهزهم ، ويمكننا أن

نلتمس أسباباً عديدة لهذا الجمود المذهل في الملامح ، قد لا يكون الطقس بعيداً عن هذه الحالة ، – – ومع ذلك فإن الأسباب الرئيسية لذلك تكمن بالتأكيد في شكل التربية ، وفي الاعتقاد بالقضاء والقدر المنتشر بين كافة الناس ، كما تعود في النهاية إلي تعودهم أن يكونوا علي الدوام عرضة لنزوات الطغاة الذين يعم ظلمهم البلاد ، ففي كل يوم تنشأ أخطاء وبشاعات جديدة ، تصبح الغفلة معها بالنسبة للمصريين – والشرقيين عموماً – نوعاً من الحيلة لمواجهة هذا العسف ، فعندما يُعاقب الإنسان علي حركة أو بسبب نظرة أو أحياناً لمجرد الاشتباه ، كما لو كان ارتكب جريمة ، فإنه يصبح وقد اكتسب مقدرة عميقة علي الاستيعاب والتمثل بحيث تصبح هذه الأمور الجائرة حالات عادية ، لذا فلا ينبغي علينا أن نبحث عن مصدر آخر لأسباب هذا النوع من التسليم المستعذب للألم الذي يميز الشرقيين علي وجه العموم ، فالشكاوي والصيحات أمور لا فائدة منها أمام إرادة الطغاة

- إلي هذا الحد وصل التحليل العميق للشخصية المصرية ؟
- ويعرف المصري كيف يمشي وقد أغضبه الألم ، وكيف يموت تحت عصا القواس دون أن يقول كلمة ، فهذه إرادة الله ، والله أكبر والله غفور ، وتلك فقط هي الكلمات التي تأتي علي لسانه عندما يبلغه نبأ نجاح لم يكن يأمله ، وهي نفسها التي تفلت منه عندما يبلغه نبأ كارثة كبري ألمت به ، ويبدو خمول المصريين الملتصقين بمدنهم أمراً بالغ التناقض مع تقاليدنا ، حتي لنظنهم في البداية بلهاء أو معتوهين ، فتحركاتهم وأحاديثهم وأبسط حركاتهم بل ومسراتهم ، كل ذلك يشي بعدم اكتراث مذهل ،
- ألم يشعر علماء الحملة الفرنسية بأي مشاعر إيجابية تجاه هذا الشعب ؟
- بل اكتشفوا بالطبع بعض المزايا فهو يستمر فيقول : وبرغم ذلك فتحت هذا القناع من السلبية البادية علي ملامحهم يكمن خيال ملتهب ، وسوف يكون من الظلم أن ننكر عليهم كل حساسية ، فعادة الصمت تجعل أحاسيسهم علي العكس – وحيث يمكنهم بذلك تركيزها – أكثر حدة ، كما أنها تعطي لأرواحهم دفعات من النشاط تجعلهم في بعض الأحيان قادرين علي الإتيان بأفعال بالغة الجرأة ، وفضلاً علي ذلك فإن الفكر يكسب بعمق ما كان يمكن أن يفقده لو كانت الروح متوقدة ، إن ملكة الانتباه ، والقدرة علي التذكر تذهب إلي أبعد مدي عند هؤلاء الناس الذين نخالهم غارقين في بلادة مطلقة – – – – إن كل شئ في هذا الشعب يقدم صورة من التناقض الواضح مع عاداتنا نحن الأوروبيين ، وهذا الاختلاف بلا جدال من صنع الطقس ومن صنع الأنظمة المدنية ، والمعتقدات الدينية كذلك ، كما أن غيبة القانون تكاد تشل مختلف ضروب الصناعة ، – – ومن جهة أخري يمكن القول بأن كل فروع الصناعة بلا استثناء فريسة للاستبداد ، وفي نفس الوقت فإن التجارة مزدهرة ، وليس ذلك لأنها تلقي تشجيعاً من الحكومة ، ولكن لأن موقع مصر وثراء منتجاتها يهيئان للتجارة معيناً لا ينضب ، وهذه الحرفة هي المجال الوحيد الذي يمكن أن يعد المصري بمستقبل زاهر ، فهي تقوده إلي الثروة في بعض

الأحيان ، وهي – في هذا الصدد – الحسنة الوحيدة التي بقيت لهم ، حيث إن صفتهم كمواطنين قد أغلقت أمامهم طرق المجد والمراكز الكبري في وطنهم ،

- يالله من شعب مسكين بالفعل
- انظروا إذن إلي أي حد تضاءل سكان واحدة من أجمل بقاع الأرض تحت هذه السيطرة الأجنبية وغير المشروعة ؟ إن الكوارث التي تنال منهم اليوم سوف تظل تثقل عليهم ، طالما ظلت هذه العصا الغليظة لمستغليهم غير الجديرين تدور عليهم ،
- مستغليهم غير الجديرين يا له من تعبير
- ولسوف يظل المصري عبداً بائساً سلبياً خاملاً تدور به دوامات الشك دون أن يفكر في وضعه المحزن ، ولربما تكون بلادته تلك هبة من القدر ، إذ بفضلها لن يعذبه علي الإطلاق ذلك الإحساس بالآلام والمخاطر التي تهدده بلا انقطاع ) ،
- فماذا عما ذكرته من صفات لا يعرفها الشعب عن نفسه ؟
- لنتأمل معاً كلمات جي دي شابرول أحد علماء الحملة الفرنسية الذين قاموا بتحليل عميق لشخصية الإنسان المصري والتي وردت بالجزء الأول من موسوعة وصف مصر ترجمة زهير الشايب حيث كتب بالنص ما يلي : ( – – وهذا يبرهن علي ما سبق أن قلناه من أن إصلاح مساوئ نظام الحكم سوف يؤدي – بسهولة فائقة – إلي أن يرد لهذا الشعب كل الفضائل التي فقدها ، بل التي لا يظنها هو نفسه كامنة فيه ، كما أن ذلك سوف يوقظ فيه كل مشاعر النبل والهمة ، وعظمة الروح التي خنقتها إلي حين تلك الأنظمة الشيطانية التي يرزح تحت نيرها ، إذ تعمل هذه الأنظمة الخبيثة علي تدمير أخلاقيات الأفراد بشكل محزن – – – ) ،
- كان هناك من يدفع الشعب المصري دفعاً لهذه السلوكيات وتدمير أخلاقه تدمير ممنهج فإذا كان هذا وصف الشعب المصري أثناء الحملة الفرنسية فكيف تراه الآن ؟

## ٢٧. العاطفيون

- ربما أهم ما يميز المصريين كما أراهم حالياً أنهم شعب عاطفي إلي أبعد الحدود ، فلا يجب أن تسأل المصري عن رأيه في موضوع ما أو في شخص ما ولكن يمكنك أن تسأله عن مشاعره تجاه هذا الموضوع أو ذلك الشخص ، فالمصري لا يؤيد ولا يعارض ولكنه يحب ويكره فإذا أحب نسي أو تناسي أي إساءة ممن يحب ، والعاطفة قد تكون مشكلة كبيرة جداً في بعض المجتمعات فهي قد تضع شخص في غير مكانه الصحيح وقد تزيح أيضاً شخص من المكان الذي يناسبه فلا مكان هنا للقياس المنطقي بل المشاعر وحدها هي التي تتحكم وتأمر بل لا أريد أن أبالغ وأقول أن العاطفة قد تطيح أيضاً بالفطرة السوية
- في رأيك هل من الممكن أن ينعم شعب عاطفي بممارسة الديموقراطية ؟

- فإذا فكر مجتمع عاطفي في ممارسة الحياة السياسية علي الطريقة الديموقراطية فإن الأحزاب التي سيشكلها المجتمع ستتلخص في أشخاص فهذا حزب فلان وهذا حزب علان فاجتماع الناس لن يكون حول مبادئ للحزب بل حول شخص يحبونه فنحن كما يقول الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر ألفنا أن نكون رعايا لا مواطنين ، فنحن نحب الشخص الذي نثق به ونلتف حوله وترنوا إليه أبصارنا وتتعلق به آمالنا وقلوبنا وننتظر توجيهاته لنفعل أشياء نستطيع أن نفعلها بدون توجيهات ولكننا دائماً نحتاجها ونحتاجه ،
- وهذا يذكرنا بالبيئة الفيضية والمبادرة من أعلي والشخصيات البارزة
- نعم وقد يحب الشعب المصري بعض ظالميه من الحكام لأنه شعب ودود وعاطفي ويتأثر بطول العشرة حتي مع من يسئ إليه
- فماذا عن حبه للوطن ؟
- أما العاطفة الوطنية أي حبنا للوطن فقد يصل بنا إلي نتائج لن أستطيع أن أصفها كما وصفها المفكر الكبير د جمال حمدان في كتابه الموسوعي الممتع شخصية مصر وتحديداً في الجزء الأول حيث يقول : ( ، ، – – – فنحن كشعب – لابد لنا بصراحة أن نعترف – لا نحب فقط أن نمجد أنفسنا بحق وبغير حق ، ولكننا أيضاً نحب أن نسمع عن أنفسنا ما يريضينا ويعجبنا أو يرضي إعجابنا بذاتنا الوطنية وبشخصيتنا القومية ، بل إننا لنكره أشد الكره أن نسمع عن عيوبنا وشوائبنا ، ونرفض بإباء أن نواجهها أو نُواجه بها ، ولا تكاد توجد فضيلة أو ميزة علي وجه الأرض إلا وننسبها إلي أنفسنا ونلصقها بها ، وأيما رذيلة أو عيب فينا – إن هي وجدت علي الإطلاق – فلا محل لها لدينا من الإعراب أو الاعتراف ، وإن اعترفنا بها علي مضض واستثناء فلها عندنا العذر الجاهز والمبرر والحجة المُقنعة أو المُقنّعة ، ، ومن طريف ما يلاحظ في هذا الصدد أننا ، حين نرجع مثلاً فيما نكتب عن أنفسنا إلي كتابات الرحالة والمؤرخين العرب في العصور الوسطي أو الكتاب الأجانب المعاصرين ننتخب منها فقط تلك الإشارات الطيبة والمرضية ونحشدها حشداً كفضائل مصر مهملين ببساطة شديدة كل الإشارات العكسية أو المعاكسة التي أوردها الكاتب نفسه والتي قد تكون أضعاف الأولي كماً وكيفاً ، ليس هذا فحسب أو ليت هذا فحسب فما أكثر بعد ذلك ما نقلب عيوبنا عن عمد إلي مزايا ونقائصنا إلي محاسن ، بل أسوأ من ذلك قد نتباهي ونتفاخر بعيوبنا وسلبياتنا ذاتها ، – – – ويبدو عموماً أننا كلما زاد جهلنا بمصر كلما زاد تعصبنا لها ، بل الملاحظ أننا كلما ازدادت أحوالنا سوءاً وتدهوراً كلما زاد تفاخرنا بمجدنا وعظمتنا – – –
- مصر أم الدنيا

- أياً ما كان ، فنحن معجبون بأنفسنا أكثر مما ينبغي وإلي درجة تتجاوز الكبرياء الصحي إلي الكبر المرضي ، ونحن نتلذذ بممارسة عبادة الذات في نرجسية تتجاوز العزة الوطنية المتزنة السمحاء إلي النعرة الشوفينية الساذجة البلهاء أو الهوجاء ،
- وما الذي أدي لكل هذا ؟
- وبديهي أن هذا الشعور يرجع في حالتنا إلي ميراث القرون والأجيال الكاتمة الكئيبة من الاستعمار والتبعية والاستبداد والمذلة والتخلف والفقر ، ومن هنا جميعاً تبدو الهوة هائلة والتناقض فاحشاً إلي حد السخرية بين واقعنا وحقيقتنا وبين ادعاءاتنا وطنطناتنا
- وماذا أيضاً ؟
- الكلام لازال للدكتور جمال حمدان : حتي عن مستقبل مصر نحن إما متفائلون بإسراف يدعو إلي السخرية والإشفاق أو متشائمون إلي حد متطرف قابض للنفس ، ففي النظر إلي مستقبلنا نلاحظ غالباً أن هناك من جهة خطر المتفائلين إما بسذاجة أو بخبث شديد أولئك الذين يفضلون خداع النفس لراحة البال علي مواجهة الحقيقة المرة (في عينها) ، ومن جهة أخري خطر المتشائمين المنذرين الذين أفقدهم التوتر حس النسبية الصحيح هم أيضاً ، باختصار مصر إما بخير دائماً ، أو في خطر أبداً ، وكلا الحكمين لا يري أو يضع الحقائق في حجمها الطبيعي السليم ،
- ألم يكتب د جمال حمدان شيئاً عن خصائص الشخصية المصرية نفسها وما يتسم به الشعب من صفات

## ٢٨. خصائص الشخصية المصرية في رأي د جمال حمدان

- لقد أورد بالطبع الدكتور جمال حمدان في كتابه الممتع شخصية مصر قائمة بخصائص الشخصية المصرية ، وذكر أنها (- - قائمة مربكة بقدر ما هي مقلقة فادحة ، ولكن بصفة عامة علي أية حال فلعل هناك شبه اتفاق علي بعض خصائص أساسية تعد أركان أو أقطاب تلك الشخصية ، أولها دائماً التدين ، وثانيها حتماً المحافظة ، وثالثها باستمرار الاعتدال ، ورابعها غالباً الواقعية ، وخامسها أحياناً السلبية ، وبهذا الشكل تبدو السلسلة كمتوالية تنازلية إلي حد ما ، تتدرج نسبياً من الموجب إلي السالب أو من القوة إلي الضعف ، وبذا أيضاً تتابع منطقياً فيما بينها ، بحيث تؤدي كل واحدة منها إلي تاليتها ، التي تترتب بدورها علي كل سابقاتها ، وفيما عدا هذا ، فلأن خاصية الاعتدال بالذات تمثل نقطة الوسط والارتكاز بين تلك الخصائص والنواة النووية في قلبها ، فلعل لنا من قبيل اليسر والتبسيط الأكاديمي أن نتخذ منها المظلة الجامعة والعنوان الرئيسي العريض الشامل لها جميعاً ، فأما التدين إذا أردنا تفصيل ما أجملنا ، فسمة مصرية أصيلة وقديمة قدم الأديان ، بل سابقة هي للأديان ، ولعلها هي التي منحت المصري قوة داخلية ومقاومة خارجية وصلابة غير عادية ضد الكثير من الأخطار والمحن والمآسي التي تعرض لها عبر التاريخ ، سياسية كانت أو إجتماعية ، خارجية أو

داخلية ، من استعمار الغزاة أو قهر الطغاة ، غير أن هذه الخاصية –يخشي البعض– كانت أيضاً مهرباً إلي حد ما من الصدام مع تلك الأخطار والتحديات ، ومن ثم قد في النهاية تفضي بنا إلي خاصية السلبية وتؤكد تشخيصها ، ومهما يكن ، فإن التدين والنزوع الديني إذا جاز أن يرد في دوافعه إلي الزراعة طبيعة الحضارة الزراعية ، علي الأقل جزئياً ، فلعله أن يكون بدوره دافعاً جزئياً مثلها وبجانبها إلي الصبر والدأب والجلد والتحمل ، وهي الصفات التي تبدو عريقة القدم والجذور في التاريخ المصري ، ويكاد يجمع الكل بلا تردد علي إلتصاقها الشديد بالانسان المصري عامة والفلاح المصري خاصة ، أما المحافظة ، بل والمحافظة الشديدة كما يشدد العقاد ، فتعني أن المصري مقيم علي القديم والتراث والتقاليد والموروثات ، ولا يقبل الجديد بسهولة ، وهذا يعني بدوره أنه تقليدي مقلد ، غير ثوري غير مجدد ، بل إنه –عند العقاد أيضاً– إذا ثار علي الإطلاق فإنما ليحافظ علي القديم والموروث ، أي أنه – للغرابة والدهشة ، وبصيغة نقيض النقيض – ثوري من أجل المحافظة ، ومن المحافظة وعدم الثورية ، علي أية حال خطوة قصيرة ومنطقية إلي الاستقرار ، فالاستقرار نتيجة المحافظة ولكنه بالمقابل يعود فيدعمها ، ومن هذه الحلقة المفرغة أو اللولب الصاعد يتحقق الاستمرار إلي أبعد حد وينتفي التغير إلي حد بعيد ، وهكذا تنتهي الدائرة مرة أخري لتعود بنا حيث بدأنا بالمحافظة علي القديم وعدم التجديد ، ، إلخ

- بالمناسبة هناك العديد من الأمثلة الشعبية الشهيرة تؤكد جميع المعاني التي ذكرها الدكتور جمال حمدان فمن المؤكد أن هذه الأمثلة لم تنشأ من فراغ ، مثل اللي نعرفه أحسن من اللي ما نعرفوش ، وامشي سنة ولا تخطيش قناة ، والباب اللي ييجي منه الريح سده واستريح ، واصبر علي جار السوء يرحل أو تيجي مصيبة تأخذه وهكذا
- وإذا كان ثمة من مصل مضاد نوعاً لهذه المحافظة المستمرة أو الاستمرار في المحافظة ، المستمرة أو الاستمرارية في المحافظة ، فهو الاعتدال ، وإن كان هذا نفسه غير بعيد عن المحافظة ، إن لم يكن حقاً امتداداً مباشراً لها ، فالاعتدال المغروس المركوز في طبيعة المصري ، أياً كان أصله ، فيبتعد به عن التطرف الشديد يميناً ويساراً ، يبتعد به ضمناً وديالكتيكياً ولحسن الحظ عن التطرف في المحافظة ، بذلك يوفر له هامشاً معقولاً من المرونة والتلاؤم والتغيير والحيوية ، التي تضمن له علي أقل تقدير القدرة علي التطور البطئ ، التطور خطوة خطوة بالجرعات الصغيرة ، وبالتالي تضمن له البقاء الطويل علي المدي البعيد ،
- الحمد لله فسوف يتطور المصري في النهاية ولو ببطء
- وأخيراً وبحكم الاعتدال كان المصري العادي أو المتوسط أميل في الغالب إلي الوداعة والهدوء والدماثة والبشاشة ، وإلي الشخصية الاجتماعية الودود ، السلسة السهلة المنطلقة extrovert غير المنغلقة أو

المعقدة ، كما كان أجنح إلي التعاون منه إلي التنافس ، وفي الوقت نفسه أبعد شئ عن العنف والقسوة والدموية والمزاج الحمراوي الدموي

- نحمد الله علي ذلك أيضاً وعلي كل حال
- ومن الاعتدال بعد هذا نقلة لا شك قصيرة ومباشرة إلي الواقعية ، فالانسان المصري رجل عملي ، علمته البيئة والتجربة ، أي الجغرافيا والتاريخ ، احترام الواقع والالتصاق به وعدم الانفصال عنه أو التناقض معه ، فهو إلا في القليل النادر لا يهرب من الواقع سواء بالتدين المفرط (الدروشة) أو بأحلام اليقظة والتمني المجنحة (الغيبيات) أكثر كثيراً مما يتصادم معه ويتحداه ، وهو من ثم مطيع بالضرورة ، أكثر مما هو متمرد بالطبع ، فإذا ما عجز عن تغيير الواقع فإنه في العادة أو في النهاية يخضع له ويرضخ للأمر الواقع ، إلا أنه حينئذ قد يسخر منه للتعويض والتنفيس ، من هنا تأتي شهرته الداوية في السخرية التعويضية والتعويض بالتعريض بالواقع دون التعرض له ، وهو بدوره التناقض الخفيف الذي أفضي به في نظر البعض إلي الشخصية الفهلوية smart التي تعوض عن عجزها العملي بالتذاكي المفرط smartig واصطناع اللامبالاة أو إدعاء الحلم والتخفي وراء العقل والتعقل
- اللامبالاة وصف يشبه وصف علماء الحملة الفرنسية
- والنموذج المثالي أو التقليدي في ذلك هو علاقة الفلاح المصري بالسلطة والحكومة ، فهو يكرهها ويخشاها منذ قال الجبرتي (والمصري يكره الحكام في كل صورة حتي أدناها) إلي أن حدد العقاد علاقته بالحكومة كعلاقة عداوة مريبة ، لكنه مع ذلك يقبل بها وقد يتملقها ، إلا أنه حتماً يسخر منها ويتندر بها سراً وعلناً
- كل هذا مفروغ منه
- ولقد يعود بنا هذا السلوك أو التصرف الواقعي إلي صفة الاعتدال كنوع من الإفراط في العقل ، إلا أنه أدعي وأفضي إلي السلبية كالنتج النهائي لكل الخصائص السابقة وكالحلقة الأخيرة في سلسلتها المترابطة المتداعية ، فالمحصلة النهائية لتلك المتوالية التنازلية من التدين إلي المحافظة إلي الاعتدال إلي الواقعية إنما هي منطقياً شخصية سلبية نوعاً أكثر منها إيجابية جداً ، فهو –المصري العادي أو المتوسط– في الأعم الأغلب وفي أغلب الآراء يتجنب الصدام ويتحاشاه لاسيما في المواقف العدائية وبالتالي يؤثر السلامة علي المواجهة والسلام علي الصراع – – – – –
- كل هذه الخصائص في الشخصية المصرية ؟
- تلك في عجالة سريعة مقتضبة ولكنها مركزة الخصائص الرئيسية الخمس التي تميز الشخصية المصرية في أغلب الآراء ، وإن جادل أو عدل البعض في بعضها أو كلها بدرجات متفاوتة ، ثم اختلفوا أكثر في تقييمها وتأويلها سلباً أو إيجاباً وقوة أو ضعفاً ، بحيث سنجد دائماً في الحساب الختامي الرأي

المضاد والحكم ونقيضه وفي النهاية الصورة الوردية والصورة القاتمة ) ، هذا ما كتبه د جمال حمدان وننتقل الآن إلي ما كتبه العقاد عن طبيعة المصري

- رائع

## ٢٩. الطبيعة المصرية في رأي العقاد

- يقول العقاد في كتاب عن الزعيم سعد زغلول اسمه (سعد زغلول سيرة وتحية) ما يلي : طبيعة المصري موضع دراسات كثيرة جنسية ونفسية واجتماعية وسياسية يقوم كثير منها علي الإشاعة والغرض وقليل منها علي التحقيق والإنصاف ، وليس ذلك لغموض أو تعقيد فيها فإن هذه الطبيعة واضحة سهلة ليس في الأمم العريقة كافة –فيما نعتقد– أمة أوضح منها وأسلس ولكنها قد احتجبت طويلاً لما أحاط بها من أقاويل الأمم المنافسة لها أو الموتورة منها ، وقد طال عهد مصر بمراس المنافسين والجيران الموتورين وطال إعراضها عما يصمونها به ويفترونه عليها ، حتي وقر في الأذهان وأصبح التعرض له بالتفنيد والتصحيح كالتعرض للحقائق المقررة والوقائع المكررة تبدو عليه شبهة الغرض والمحاباة من حيث لا تبدو علي تلك الأقاويل المفتراة ، ونحن نرجع إلي الصفات الكثيرة التي تواترت بها أقاويل الأمم الناقمة أو الأمم الحاسدة فنستعرضها صفة صفة ونحاول أن نجد فيها ما يقنع السامع أو ينفي عنه الشك والتردد فلا نجد بينها صفة واحدة تطرق الأذهان من ناحية الإقناع ، ولا نعجب لشئ عجبنا من سرعة الأكاذيب في النفاذ إلي الآذان وسرعة الأوهام بعد ذلك في الاستقرار بالأخلاد حتي إذا جاء دور التفنيد والتصحيح كان العجب الأكبر أن تلك الأخلاد التي استقبلت الأوهام بالإذعان والاستسلام تنقلب فجأة من السلاسة والهوادة إلي التصعب والتشدد في وجه الحقيقة ، كأنما الأوهام صديق مسالم ينزل بها نزول النصير المأمون الجوانب المحمود العواقب ، أما الحقيقة فهي عدو مهاجم يدك الحصون ويبدل المعالم ولا يطرق العقول أبداً دون أن تلتفت له وتثور عليه ،
- الأكاذيب المريحة تريح الناس أكثر من الحقائق المتعبة
- ورأس الأكاذيب علي الطبيعة المصرية أنها طبيعة أمة لا تحكم نفسها بنفسها ولا تبال غارة الأجنبي عليها ، فمن من أعداء المصريين يشك في هذه الأكذوبة ؟ أو يكلف نفسه وهو يقذفهم بها أن يضاهي بينهم وبين غيرهم ليعلم مقدار الشبه في هذه الخلة بينهم وبين أبناء الأمم الأخري ؟ علي أنها كما قلنا رأس الأكاذيب وأيسرها تفنيداً عند النظر القريب فضلاً عن النظر البعيد ، فليس شأن المصريين في هذه الخلة بمخالف لشأن الأمم كافة في العصور القديمة إذ هي كلها مزيج من غالب ومغلوب وأصلاء وغرباء ، لا تدري من أحقهم بوصف الوطني ومن أحقهم بوصف الدخيل ، إذا مضي عليهم جيلان أو بضعة أجيال ، ولقد كانت هذه الأمم جميعاً لا تبالي من يحكمها من أبناء البلاد أو غير أبناء البلاد ، لأنها كانت منهوبة مظلومة علي كلتا الحالتين ، وكانت تطيق الحاكم حتي يجاوز بها حد الطاقة فتثور

عليه وتمالئ أعداءه – – – وقد أبطأت الإنسانية طويلاً قبل أن تخترع الديمقراطية أو الفكرة الوطنية ، وقد أصيبت جميع الأمم بما أصيب به المصريون من جراء هذا الإبطاء الذي لا ذنب فيه علي أحد

- واضح أن طبيعة الشعب المصري قد تناولتها وجهات نظر مختلفة سواء من علماء الحملة الفرنسية أو د جمال حمدان أو من العقاد

## ٣٠. أكذوبة الاستبداد الشرقي في رأي جمال بدوي

- وإليك أيضاً ما كتبه الأستاذ جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي ، ولعلك تحاول المقارنة بين ما كتبه علماء الحملة الفرنسية وما كتبه جمال حمدان والعقاد وجمال بدوي مع حفظ الألقاب وتحاول أن تكوّن بنفسك فكرة عامة عن طبيعة هذا الشعب والظروف التي مر بها علي مر التاريخ
- ماذا كتب الأستاذ جمال بدوي عن أكذوبة الاستبداد الشرقي ؟
- تحت هذا العنوان كتب الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع (في محراب الفكر) ما ملخصه : هل صحيح أن الطغيان داء شرقي متوطن مثل البلهارسيا والانكلستوما ، وأن شعوب الشرق علي خلاف الشعوب الأوروبية يتقبلون الطغيان بدون شكوي أو تذمر لأنهم – في رأي أرسطو – مهيئون بطبيعتهم لأن يكونوا عبيداً ، وأن الرق بالنسبة لهم نافع بقدر ما هو عادل ، إن هذه المقولات التي أطلقها أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد جرت مجري الحقيقة المؤكدة لدي فلاسفة الفكر السياسي حتي مشارف العصر الحديث والأعجب أن تري أصداءها علي ألسنة مفكري الديموقراطية المحدثين مثل مونتسكيو الذي انتهي إلي أن الاستبداد نظام طبيعي بالنسبة للشرق لكنه غريب وخطر علي الغرب ، وأن الحكومة المعتدلة هي أصلح ما يكون للعالم المسيحي الغربي بينما الحكومة المستبدة هي أصلح ما يكون للعالم الإسلامي ، وبذلك انشطر العالم في نظر فلاسفة الغرب إلي قسمين ، قسم شرقي مهيأ بحكم طبيعته لأن يحكم حكماً استبدادياً لأنه في مرتبة الحيوانات أو العبيد ، وقسم غربي له أنظمة سياسية خاصة تجعل طبيعة الاستبداد أمراً صعباً ، فإلي أي مدي يمكن قبول هذه الأقوال التي انتقلت إلينا عبر المؤثرات الثقافية التي جعلت منها مسلمات لا تقبل النقض أو النقد واستقبلتها تربتنا العقلية عن رضا دون إدراك لمخاطرها علي وجودنا الإنساني وما تزرعه في نفوسنا من يأس وإحباط واستسلام إلي الواقع واعتبار الاستبداد قدراً مقدوراً لا فكاك منه شأن العلل الوراثية ، نحن الشرقيين لا ننكر أن مجتمعاتنا القديمة عانت في بعض مراحلها التاريخية من حكم الطغيان ولكن من قال إن الشعوب الأوروبية في عهودها القديمة والوسيطة والحديثة أيضاً لم تتعرض لحكم الطغيان ؟ ولم تعان من القهر والاستبداد مثلما عانينا ؟ إن الحقيقة العلمية والتاريخية تشهد بأن الطغيان داء إنساني يفرض نفسه عندما تتهيأ له ظروف تاريخية معينة ، مثل الأنفلونزا تصيب الإنسان إذا تعرض لتيارات الهواء بصرف النظر عن كونه مصرياً أو ألمانياً أو استرالياً وليس من الحقائق العلمية في شئ أن يكون الطغيان حكراً علي الشعوب الشرقية (المتخلفة) وأن تبرأ منه الشعوب البيضاء (المتحضرة) لأن الحضارة

الغربية في قمة ازدهارها لم تمنع ظهور أشد طغاة العصر الحديث من أمثال هتلر وموسيليني وستالين وسالازار ، ولكنها النظرة العنصرية الخبيثة التي صاغت الفكر الأوروبي منذ عصر أفلاطون وأرسطو حتي عصر هيجل وماركس ، نعم نحن نعترف بأن الطغيان في الشرق أقدم منه في الغرب لسبب تاريخي لا دخل لنا فيه وهو أن الشرق أقدم وأعرق وأسبق ، ففي مصر قامت أول حكومة مركزية في التاريخ بينما كانت الجزر اليونانية في طور الطفولة فكان من الطبيعي أن تعرف مصر الأنظمة السياسية وأن تنحرف هذه الأنظمة إلي ممارسة الطغيان ، فلما بلغت المدن اليونانية مرحلة البلوغ والنضج تطورت أنظمتها السياسية وسري عليها ما سري علي دول الشرق ، وعرفت اليونان الطغيان مثلما عرفته مصر ظهر فيها ما يعرف في التاريخ باسم عصر طغاة الإغريق الذي يبدأ باعتلاء الطاغية كبسليوس عرش مدينة كورنثة عام ٦٥٠ قبل الميلاد وخلال قرن ونصف قرن من الزمان اكتوت المدن اليونانية بنار نخبة من عتاة الطغاة ، بل إن فقهاء اللغة يعودون بلفظ طاغية إلي جذور إغريقية – – ومعني ذلك أن اليونان التي تزهو علي العالم بأنها مهد الديمقراطية لم تسلم من جحيم الطغيان شأنها في ذلك شأن مصر وغيرها من بلاد الحضارات القديمة وظهر فيها جيل من الطغاة قبل ثلاثة قرون من ظهور أرسطو الذي دفعه التعصب العنصري إلي جعل الطغيان صناعة شرقية بحتة ، وسار علي دربه المؤرخون الذين كتبوا عن الإسكندر الأكبر تلميذ أرسطو فقالوا إنه لم يكتسب صفة الطغيان إلا بعد أن جاء الشرق فرضع الطغيان من منابعه الأصلية وزعموا أن الفاتح المقدوني ظل يتمادي في طغيانه حتي جعل من نفسه إلهاً متأثراً بفكرة تأليه الحاكم في مصر ونسي هؤلاء المؤرخون أن فكرة تأليه الاسكندر نشأت معه منذ ولادته وأن أمه أوليمبياس غرست في عقله أنه ليس ابن فيليب المقدوني ولكنه ابن الإله زيوس كبير آلهة اليونان ، فلما جاء الإسكندر إلي مصر فاتحاً وقع في حبائل كهنة آمون الذين خدعوه وأفهموه أنه ابن الإله أمون – – –

- حتي الإسكندر وقع في هذه الخدعة ؟
- الدكتور جمال حمدان في كتابه الجليل شخصية مصر في البداية لم ينكر أن الطغيان أو الاستبداد هو النغمة الحزينة في تاريخ مصر وأسوأ خط في دراما الشعب المصري ولكنه لا يلبث أن يتساءل هل هذا يعبر عن حقيقة شخصية مصر الاجتماعية الكامنة ؟ أهو يعني صفة موروثة أم مكتسبة خالدة أم عارضة ؟ ثم هل تنفرد به مصر أم يشاركها فيه غيرها ؟ ويجيب الدكتور جمال حمدان بأن ظاهرة الطغيان التعسة لم تقتصر علي مصر لا انفردت مصر بها سواء في الماضي البعيد أو القريب فإن الإمبراطوريات الاستبدادية في التاريخ القديم تفوق الحصر : بابل وآشور وفارس وفينيقيا ، الهند والصين وكل حضارات العالم الجديد ، إلخ ، أما اليونان وروما التي جعل البعض منها أسطورة الديمقراطية ومنبع الحرية فقد كانت علي العكس تماماً مثالاً بشعاً للاستبداد والظلم والتعذيب بل كانت مجتمعات العبودية الكلاسيكية وفي الإمبراطورية الرومانية بالذات كان الإمبراطور الطاغية – قيصر –

يؤله كفرعون في مصر ولم يكن أقل منه طغياناً وبطشاً أما أوروبا في العصور الوسطي فقد كان المجتمع الإقطاعي نظاماً استبدادياً سافراً وكان الفلاح الأوروبي قنأ يعني عبدا ، – – أي أن الرجل الأوروبي كان أسوأ حالاً وحظاً من الإنسان المصري سواء في العصور القديمة أو الوسطي وحتي بالنسبة للرقيق الذي لم ينتشر في مصر نسبياً مثلما انتشر بأوروبا فقد كان يعامل برفق نوعاً إذا ما قيس بنظيره الأوروبي ، ويري د جمال حمدان أن الاستبداد أو الطغيان حقيقة عرفتها معظم البلاد في معظم العصور علي اختلاف بيئاتها والفروق بين البشر أقل بكثير من التشابه الأساسي بل لقد كان تاريخ العالم حتي وقت قريب هو في الواقع الحكم المطلق والاستبداد بصورة أو بأخري وأن ما عرفته مصر في أغلب تاريخها من الطغيان إنما كان للأسف روح العصر وليس لحسن الحظ روح المكان وهو إذا كان قد طال في مصر بعد أن كان صفي في أوروبا مثلاً لعدة قرون فذلك بفعل الاستعمار الدخيل الآتي من أوروبا نفسها .

- كل هذه القراءات عن طبيعة الشعب المصري وعلاقته بالاستبداد قد زادتني حيرة علي حيرتي ، فلنعد مرة أخري للتاريخ فهو أكثر بساطة من كل هذا
- هل كتبت آخر نقطة قد وصلنا إليها ؟
- بالطبع إنه الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة الفرعونية في الدولة القديمة
- حسناً ، سنكمل سرد الأحداث ولكن أحب أن أؤكد لك قبل استكمال الموضوع أن علماء الحملة الفرنسية ونابليون ود جمال حمدان والأستاذ العقاد والأستاذ جمال بدوي ماتوا جميعاً دون أن يعرفوا ما حدث في مصر والعالم بعد وفاتهم وكذلك سنموت نحن أيضاً دون أن نعرف ما سيحدث
- أفهم ما تعني بالطبع فهو محور حديثك من البداية
- أما إذا تحدثنا عن الملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة فبطبيعة الحال كان عهده بداية للدولة القديمة
- بعد انتهاء العصر العتيق طبعاً ؟
- نعم إنها بداية الدولة القديمة وقد بدأ عصر الدولة القديمة حوالي سنة ٢٦٩٠ ق م بالأسرة الثالثة وفي الحقيقة عصر الدولة القديمة يتميز أنه عصر بناة الأهرام لذلك ستجد أسماء عديدة في هذا العصر تعرفها ويعرفها معظم الناس حالياً مثل مؤسس هذه الأسرة وهو الملك زوسر الذي بُني في عهده هرم سقارة المدرج الشهير وعلي فكرة هذه الأسرة مكونة من خمسة ملوك فقط أولهم الملك زوسر وهو يعتبر من الشخصيات البارزة التي تحدثنا عنها وقد دام ملكه حوالي ٢٩ سنة علي عرش مصر وهو صاحب أول هرم في التاريخ وبالرغم من أنه كان علي الأرجح ابنا لآخر ملوك الأسرة الثانية فقد اعتبره القدماء مؤسساً لأسرة مالكة جديدة ولقد حكم الملك جُسر" زوسر" طبقاً لما ورد في تاريخ مانيتون ٢٩ سنة رأت فيهم مصر نهضة شاملة

- أولاً لماذا نطقت اسمه بحرف الجيم ؟ ثانياً لقد ذكرت اسم مانيتون هذا أكثر من مرة فمن يكون وما قصته ؟
- أولاً جوسر هو الاسم المستخدم في كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر من أقدم العصور حتي الفتح العربي والمكون من قسمين كتب أحدهما الدكتور سيد توفيق والآخر الدكتور سيد الناصري وقد تم استخدام كلمة جوسر بتعطيش الجيم وهو اسم يعني المقدس في اللغة المصرية القديمة ، أما موضوع مانيتون فهو أحد أهم مصادر التاريخ الفرعوني بالإضافة إلي حجر بالرمو وبردية تورين وثبت أبيدوس وغيرهم وكان يجب أن أذكرهم لك من بداية حديثنا عن الفراعنة

## ٣١. أهم مصادر التاريخ الفرعوني

- حسناً فما هي أهم مصادر التاريخ الفرعوني ؟
- سنبدأ بحجر بالرمو وقد تم تسمية حجر بالرمو بهذا الاسم نسبة لمدينة بالرمو الإيطالية الموجود بها أكبر قطعة من هذا الحجر بعد تحطمه ويوجد في المتحف المصري بالقاهرة أربع قطع صغيرة اشترت مصلحة الآثار ثلاثة منها في عام ١٩١٠ وعثر أحد خفراء المصلحة فيما بعد علي القطعة الرابعة ملقاة بين الخرائب في منف أما القطعة السادسة فهي الآن في لندن في متحف الجامعة
- لماذا تتواجد آثار بهذه الأهمية خارج مصر ؟
- أعتقد أن هناك من أخذها من مصر أثناء فترات الاحتلال وما أكثرها في تاريخ مصر وكذلك هناك من حكام مصر من أهدي بعضها لبعض حكام العالم فضلاً عما تم تهريبه من محترفي سرقة الآثار ولكن ليس هذا موضوعنا لأنه يطول شرحه
- حسناً فما المعلومات المتوفرة لديك عن حجر بالرمو ؟
- لقد ورد في صفحة ٦٣، ٦٤ بكتاب مصر الفرعونية "لأحمد فخري" عن هذا الحجر ما يلي : ( في أواخر أيام الأسرة الخامسة المصرية أو ربما في أوائل الأسرة السادسة كان يقوم في معبد من معابد العاصمة في منف حجر لا يقل طوله عن مترين ويزيد ارتفاعه عن سبعين سنتيمتراً نقش وجهاه بنقوش في سطور رأسية كتبت فيها أسماء جميع من حكموا مصر منذ أيام ما قبل الأسرة الأولي مع مدة حكم كل منهم ، مقسماً إلي سنوات وأهم ما حدث في كل سنة ولأمر ما حُطِّم هذا الحجر إلي قطع صغيرة عُثِر حتى الآن علي ستة منها أكبرها وأهمها موجودة في صقلية منذ ١٨٥٩ ونقلت إلي متحف مدينة بالرمو في عام ١٨٧٧ وما زالت هناك حتي الآن
- فماذا عن بردية تورين ؟
- أما بردية تورين فقد ورد عنها في صفحة ٦٥ بنفس المرجع السابق ما يلي : ( حصل علي هذه البردية الرحالة الإيطالي دروفني في أوائل القرن التاسع عشر وقيل إنه عثر عليها في منف وكانت البردية في حالة جيدة عندما تسلمها دروفني ولكنها تهشمت بعد ذلك ونقلت إلي إيطاليا عقب الحصول

عليها ووضعت في متحف تورين منذ ذلك الوقت وكانت تحتوي هذه البردية علي أكثر من ثلاثمائة اسم من أسماء الملوك وتحت اسم كل منهم عدد سنوات حكمه وهي تبدأ بالآلهة الذين حكموا مصر – – وتنتهي بأسماء الملوك قبيل الأسرة الثامنة عشرة )

- يعجبني أن معك مصادرك تسعفك بقراءة ما تحتاجه ولكن بالتأكيد سرعة وصولك للكتب والصفحات المطلوبة تعني أنك متعايش معها بشكل شبه مستمر
- أنا يا صديقي دائماً ما أهرب إلي التاريخ وأعيش في الماضي فهو يريحني نفسياً عندما أعرف أن كل هذا إلي فناء
- وبالطبع مانيتون قد مات أليس كذلك ؟ أردت فقط أن نخفف قليلاً من جدية الحديث
- نعم يا صديقي لقد مات مانيتون بكل تأكيد وقد كتب عنه أحمد فخري ما يلي : ( كان مانيتون كاهناً مصرياً في معبد في سمنود واشتهر بعلمه ومعرفته لتاريخ مصر ولغتها وأراد بطليموس الثاني " حوالي ٢٨٠ ق م " أن يستفيد من علمه وذلك بتكليفه بكتابة تاريخ لمصر استقي مصادره مما كان في المعابد ومكاتب الحكومة من وثائق ومما يبعث علي الحزن أن تاريخ مانيتون الأصلي فُقِد في حريق مكتبة الإسكندرية ولم يعثر حتي الآن علي أي نسخة كاملة أو ناقصة منه وكل ما وصل إلي أيدينا ليس إلا مقتطفات من ذلك التاريخ نقلها المؤرخ اليهودي يوسيفوس – – ووصل إلينا أيضاً من تاريخ مانيتون جداول بأسماء الأسرات والملوك وعدد سني حكمهم في مؤلفات بعض الكتاب وخاصة جوليوس الإفريقي "٢١٧ ميلادية " ولكن أفضل النصوص وأدقها هو ما جاء في الكتاب الذي قام بجمعه جيورجيوس سينكلوس )
- حسناً فهل هناك مصادر أخري بخلاف حجر بالرمو وبردية تورين وتاريخ مانيتون ؟
- ومن مصادر التاريخ الفرعوني أيضاً ثبت الكرنك وثبت أبيدوس وثبت سقارة وما يسمي بنصوص الأنساب وكلها تحتوي علي أسماء ملوك وأحداث شهدتها فترات حكمهم ولكن كل مصدر منهم إما أنه تهشم وفقدت منه معلومات مهمة أو أن كاتبه كان له مقاصد خاصة في كتابته وبالتالي حذف أسماء بعض الملوك أو فترات كاملة من تاريخ مصر كانت لا تعجبه فمثلاً ثبت أبيدوس ( أهمل ملوك إهناسيا الأسرتين التاسعة والعاشرة ولم يذكر إلا ملكين فقط من ملوك الأسرة الحادية عشرة – – ولم يذكر ثبت أبيدوس أي ملك من ملوك عصر الفترة الثانية –الاضمحلال الثاني– بما في ذلك ملوك الهكسوس الذين كانوا في نظر ملوك مصر أجانب مغتصبين لحرية البلاد ، ويبدأ بعد ذلك بملوك الأسرة الثامنة عشرة فيسميهم جميعاً إلي أن يصل إلي الملك امنحوتب الثالث فيتبعه بحور محب آخر ملوك الأسرة وأسقط "إخناتون" و "سمنخ كا رع" و "توت عنخ آمون" و "آي" لأنهم كانوا في رأيه ملوكاً مارقين وخارجين علي ديانة آمون وكذلك فعل بالملكة حتشبسوت لأن خروجها علي التقاليد واغتصابها العرش لنفسها جعلها ملكة غير شرعية في نظر الأجيال التالية ) ، ويضيف الدكتور أحمد فخري ما يلي : (

ومهما قيل عن نتائج الحفائر وما ظهر منها حتي الآن فلا يزال أمامنا الكثير من المناطق الأثرية في مصر الوسطي مازالت تحتفظ بأكثر ما أبقي عليه الزمن من مخلفاتها ، حتي طيبة نفسها عاصمة الإمبراطورية فإنه لم يتم حفرها أو بحثها البحث العلمي الكافي ، ولهذا يمكننا القول بأنه ما زال أمام علم الآثار المصرية وقت طويل ربما يمتد إلي أكثر من بضع قرون قبل أن يستطيع علماء الآثار أن يقولوا بأنه لم يعد هناك مزيد من البحث ، وقبل أن يقول المؤرخون أنهم قد قالوا كلمتهم النهائية في تاريخ مصر ، وأنه لم تعد هناك فجوات في ذلك التاريخ )

- سبحان الله القائل : ( أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ) الآية ٨٢ سورة غافر

## ٣٢. الملك زوسر

- نعود إلي الملك زوسر وأسرته الثالثة ( وليس من شك في أن أهم الآثار التي وصلت إلينا من عصر الأسرة الثالثة هي تلك المجموعة الهرمية التي أمر الملك جسر "زوسر" ببنائها بسقارة – – ومن الطريف أن الملك جسر قبل أن يبدأ في بناء مجموعته الجنائزية في سقارة سار علي نهج من سبقوه من ملوك الأسرتين الأولي والثانية فبني مقبرته الأولي علي شكل مصطبة كبيرة الحجم وهي من الطوب اللبن– – أما مقبرته الثانية بسقارة ونقصد بذلك الهرم المدرج فقد ترك تشييدها لوزيره الشاب أيمحتب وهو المهندس الذي استخدم الحجر علي نطاق واسع لأول مرة – – وقد خلد هذا البناء الضخم مهندسه أيمحتب )
- هل كانت المقابر علي شكل مصاطب قبل زوسر ؟
- نعم ويكون السؤال أكثر دقة إذا قلت قبل إيمحوتب ذلك المهندس العبقري
- يبدو أن موضوع المقابر الفرعونية كان له أهمية خاصة فهل ممكن أن تحدثني عن أهمية المقابر في ذلك العصر ؟

## ٣٣. بناء قبر جيد في الدنيا يضمن لك حياة جيدة في الآخري (اعتقاد فرعوني)

- بكل تأكيد فبناء قبر جيد في الدنيا يضمن لك حياة جيدة في الآخرة وهو اعتقاد فرعوني معروف وستلاحظ أن المصري القديم كان يعتقد أن ما يوجد في مقبرته من صور حياته اليومية والطعام والشراب والأثاث كل هذا هو الذي سيضمن له السعادة في الآخرة
- من الطريف أن هذا ينطبق ظاهرياً فقط مع قول الشاعر " لا دار للمرء بعد الموت يسكنها – – – إلا التي كان قبل الموت يبنيها ، فإن بناها بخير طاب مسكنه – – – وإن بناها بشر خاب بانيها " وهذا الشعر بالطبع يعبر عن وسيلة البناء التي تعبر عن الأعمال الصالحة في الدنيا ورضا المولي عز وجل وليس ما كان يفعله المصري القديم من صور وتماثيل وتحنيط لأن كل هذا لا ينفع بشئ في الآخرة إنما الذي يبقي هو العمل الصالح ودعاء الأبناء والصدقات الجارية والله أعلم

- بكل تأكيد أما المصري القديم فقد كانت رغبته أن يتم بناء المقبرة في حياته ، فهداه تفكيره إلي عمل المدخل الموصل إلي حجرة الدفن علي شكل أحدور خارج البناء العلوي لكي يسحب عليه الجثمان ليستقر في حجرة الدفن ، ثم يسد مدخل الحجرة بكتلة من الحجر ويملأ المنحدر بالرمال ، وبهذه الطريقة استطاع المصري أن ينتهي من البناء العلوي دون حاجة لانتظار الانتهاء من مراسيم الدفن أما عن العناصر الضرورية في الدولة القديمة لإعداد مصطبة يعتبرها المصري كاملة لضمان مستقبله في العالم الآخر فهي في رأي "عالم الآثار" ديفز كما يأتي : (١)اللوحة المشكلة علي هيئة باب " أي الباب الوهمي " وهذه غالباً ما تحمل رسم المتوفى داخلاً وخارجاً أو تمثاله ، وعادة تكون حافلة بالدعوات (٢) تمثال وأسماء وألقاب المتوفى (٣)قائمة بأصناف الطعام والشراب تشمل نحو مائة صنف إذا كانت كاملة (٤) صورة المتوفى جالساً أمام مائدة غنية بالطعام (٥) مواكب الخدم تحمل الزاد ، ومناظر ذبح الحيوانات للطعام (٦) النصوص التي تتحول بواسطتها المأكولات المصورة إلي حقيقة (٧) صورة زوجة المتوفى وأسرته والحيوانات الأليفة ، والخدم المقربين لضمان مصاحبتهم له في حياته الجديدة) وهذه المعلومات من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق مقتطفات من صفحة ١٠٣ وما بعدها
- كل هذا مفهوم ولكن حتي الخدم يريد أن يقوموا علي خدمته مرة أخري في الحياة الآخرة ؟
- بكل تأكيد ، أما الذي قد يدهشك حقاً أنهم كانوا يتمنون ذلك ، لأنهم لا يملكون إمكانيات بناء مقابر خاصة بهم أو تحنيط جثثهم بعد موتهم أو إقامة تماثيل لهم وبالتالي لن يعودوا إلي الحياة مرة أخري ، فخير لهم في اعتقادهم أن يرسمهم سيدهم حتي يعودوا لخدمته أفضل من عدم العودة علي الإطلاق
- شئ عجيب فعلاً
- نعود للمهندس إيمحوتب الذي ( كان واحداً من أولئك النوابغ الذين تظهر عبقريتهم في أكثر من ميدان واحد فلم يقتصر نبوغه علي فن العمارة والنحت فأحدث التطور الأكبر في الفن المصري بل نبغ أيضاً في الطب وألف فيه ، كما ألف في الحكمة وألهه المصريون بعد وفاته وعبدوه وشيدوا له المعابد في أواخر أيام حضارتهم )
- فماذا عن أبعاد هذا الهرم ؟
- أثبتت الأبحاث الحديثة وما تعري وتهدم من بعض أجزاء الهرم "هرم سقارة المدرج" أنه بني علي أساس تصميمات مختلفة– –وأصبحت قاعدة الهرم بعد كل هذه التعديلات ١٢١ متر من الشرق إلي الغرب و ١٠٩ متر من الشمال إلي الجنوب وارتفاع الهرم يصل إلي ٥٩.٦٤ متر– – وغير هذا فهناك العديد من الممرات والغرف التي حفرت في الصخر الطبيعي تحت بناء الهرم وتشعبت في اتجاهات مختلفة بأطوال متباينة وعلي أعماق مختلفة ووجد بها عشرات الآلاف من الأواني الحجرية الضخمة ويعتقد بأن عددها يزيد علي ٣٠٠٠٠ إناء من المرمر والجرانيت والديوريت والشست وهي تمثل الإتقان الذي

وصلت إليه صناعة الأواني في عصر الملك جسر وقد زينت إحدى جدران هذه الغرف بثلاثة أبواب وهمية مثل عليها الملك جسر يقوم بطقوس عيد السد يصاحبه اسمه وألقابه

- مرة أخري سأسأل سؤال خارج الموضوع وسؤال داخل الموضوع ، أولاً لماذا احتفظ هذا الملك بكل هذا العدد الضخم من الأواني ؟ فهل كان يعتقد أن أسعارها سوف ترتفع ؟؟ ، أما السؤال الجاد فما هو عيد السد هذا ؟

## ٣٤. الاحتفال بالعيد الثلاثيني عند الفراعنة

- عيد السد أو عيد الحب سد كما ورد في كتاب مصر الفرعونية لشيخ الأثريين أحمد فخري : كان هذا الاحتفال معروفاً في مصر دون شك قبل الأسرة الأولي بزمن كبير ، ويرجع أصله إلي عادة ما زالت تمارسها بعض الشعوب الإفريقية حتي الآن ، وهي تحديد ثلاثين سنة لحكم أي زعيم ، لأن رخاء الناس يتوقف علي قوة ذلك الزعيم ، فإذا امتد عمره أكثر من ذلك قضوا عليه في حفل ديني
- شئ عجيب حقاً
- كما تقدم البعض الآخر في تفكيره وقبل من الزعيم أن يثبت قوته باصطياد أسد أو قتل عدو فيشتري بذلك سنوات أخري من الحياة ، وتقدم آخرون أكثر من ذلك فجعلوا الزعيم يحصل علي سنوات أخري باسترضائه للإله بتشييد معبد جديد أو تقديم قرابين خاصة في حفل يثبت فيه هذا الزعيم استمتاعه بالصحة الوفيرة ،
- أما هذا فمقدور عليه
- ويظهر أن هذه العادة كانت معروفة ومتبعة في مصر في وقت مبكر قبل عصر الأسرات ، ووصلت إلي مرحلتها الأخيرة وهي تجديد الحق في البقاء في الحكم قبل أن تنتهي فترة الثلاثين سنة ويكون ذلك في احتفال وفق مراسيم خاصة يثبت فيها الزعيم قوته ، ويشيد لهذه المناسبة بعض المباني الخاصة – – وظل ملوك مصر منذ الأسرة الأولي حتي آخر أيام حضارتها ، مخلصين لهذا التقليد وكثيراً ما نري الإشارة إليه ، ونري بعض طقوسه علي جدران المعابد في جميع العصور حتي ما شيد منها في أيام الرومان
- كل هذه الموضوعات بسبب الحديث عن الملك زوسر ، فماذا حدث بعد أن مات ؟
- كانت فترة حكم زوسر لمصر فترة زاهرة ولكن منذ وفاته حتي آخر أيام الأسرة لم يخلفه علي العرش من نستطيع أن نقارنه به ، ويذكر مانيتون أسماء ثمانية ملوك حكموا في هذه الأسرة بينما لا نجد في ثبت أبيدوس إلا أسماء ستة ملوك فقط ، أما بردية تورين المهشمة فلم تحفظ لنا غير خمسة أسماء ، ( وكانت فترة حكم الأسرة الثالثة مائة سنة علي الأرجح وقد بدأت بعهد زاهر وهو عهد زوسر ولكن سرعان ما توقفت تلك النهضة ولم تتابع تقدمها علي الصورة التي كنا نتوقعها ، فقد رأينا كيف عرفت مصر تشييد الهرم المدرج ، ومضت عشرات السنين بعد ذلك فلم تخط الخطوة التالية وهي معرفة بناء

الهرم الكامل – ظلت مصر نحو أربعمائة سنة وهي تبني مقابر ملوكها في الأسرتين الأولي والثانية علي شكل مصاطب مستطيلة الشكل حتي ولد معماري نابغ وهو إيمحوتب فارتفع بقبر الملك وجعل منه هرماً مدرجاً وظل تجديد إيمحوتب مثلاً أعلي مدة تقرب من قرن كامل حتي انتهت أيام الأسرة الثالثة وبدأت الأسرة الرابعة) ( أما الملك حوني آخر ملوك هذه الأسرة فقد حكم ٢٤ سنة ويذكر نقش يحمل اسمه في جزيرة الفنتين أنه أقام عند الجندل الأول حصناً ليؤمن حدود مصر الجنوبية وهذا النقش هو الإشارة الوحيدة للأحداث السياسية التي تمت في عهده كما بدأ خلال فترة حكمه ببناء هرمه في ميدوم " ٧٥ كم جنوب القاهرة " ولكنه مات قبل أن يتمه ، فأكمله الملك سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة )

- الحمد لله وصلنا للأسرة الرابعة ولكن هل تسمح لي قبل هذا الموضوع أن نتناول موضوع الديانة الفرعونية بشكل أكثر تفصيلاً لأنه من الواضح أنها السبب في كل ما تركوه من آثار

## ٣٥. الفراعنة والحياة الآخرة (الآثار مقابر ومعابد فأين قصورهم)؟

- بالفعل إن معظم ما تركه الفراعنة إن لم يكن كله يتعلق بما بعد الموت أما قصورهم وبيوتهم وما إلي ذلك من أمور دنيوية فلم يتبقي منها شئ علي ما أعلم وقد يكون قصر التيه أو اللابرنت بالفيوم من الآثار الدنيوية ولكن كان له دور ديني أيضاً
- إذن فآثارهم مقابر ومعابد فقط تقريباً أليس كذلك ؟
- نعم لأن الدنيا بالنسبة لهم كانت تمهيد للآخرة فتراهم يحتفظون بأغلي ما يملكون من ذهب واحجار كريمة وتحف وغير ذلك في قبورهم وليس في بيوتهم
- لأنه يعتبر قبره هو بيته في الآخرة والله أعلم صحيح ؟
- هذا ما يبدو ، حتي إذا عادت روحه إلي قبره يجد كل ما تركه به وعندما يقرأ النص المخصص والتعاويذ اللازمة تتحول كل ما في المقبرة من رسوم وتماثيل وكتابة إلي حقيقة ، وتجده أيضاً يكتب أعماله الصالحه وانتصاراته وأمجاده وكل ما يفخر به في الدنيا يضعه أو يكتبه في قبره
- فإذا حصل أحدهم علي شهادة تقدير مثلاً بلغة عصرنا الحالي أو ميدالية أو هدايا قيمة يضعها في مقبرته وأكيد أنت تعرف أمثلة علي ذلك
- بمناسبة هذا الكلام هناك موقف يمكن ذكره يؤكد كلامك بالفعل فمثلاً حدث في عصر أحد ملوك الأسرة الخامسة وكان اسمه نفر ايركا رع موقف قد ورد بكتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول– د سيد توفيق صفحة ٨٩ حيث كتب : ( نعرف اسم الملك نفر ايركا رع من عدة مقابر لكبار موظفيه علي سبيل المثال مقبرة "رع ور " التي اكتشفها سليم حسن عام ١٩٢٩ وهذا القبر لا تقل حجراته عن

الخمسين وعثر فيه علي أكثر من مائة تمثال أكثرها مهشم وكان "رع ور " يحمل أكثر من ثلاثين لقباً من بينها لقب مدير القصر الملكي ، ونذكر هنا حادثة لطيفة تدل علي عطف الملك ذكرها "رع ور " في مقبرته فقد حدث ذات مرة في احتفال رسمي أن الملك وكز بعصاه ساق رع ور من غير قصد ولاحظ الملك هذا واعتذر عما بدر منه وقال له " انك أحب رجل لدي وأخص الناس بعطفي " ولم يكتف بذلك بل جعل هذه الحقيقة واضحة للناس فأمر بنقشها علي حجر لكي تودع في قبر رع ور ، وهناك حادث مشابه حدث للوزير والقاضي " واش بتاح" ) ، ومن هذه القصة يتضح مدي جبروت ملوك مصر الفراعنة مما يجعل مثل هذا الحدث العادي إشادة بعطف الملك وسنلاحظ أيضاً أن الحاشية فقط هي التي تحظي بهذه الرعاية أما باقي الشعب فالوضع مختلف كما سنري عند الحديث عن الثورة العارمة التي حدثت في نهاية الدولة القديمة

- المهم في هذه القصة هو الحجر الذي أوصي الملك بوضعه في قبر رع ور وهذا ما يعنينا في موضوعنا
- نعم إنها إشارة واضحة لأهمية محتويات المقابر الفرعونية
- إذن يكفي أن تكون غنياً وذو منصب محترم ومن صفوة المجتمع ولك نفوذ كبير ولك العديد من الألقاب الفخمة كي تبني قبراً يليق بك ثم تعيش حياة رائعة في الآخرة ومعك خدمك وحاشيتك وزوجتك وأموالك ولا عزاء للفقراء أليس كذلك ؟
- بالطبع مقبرة ملك تختلف عن مقبرة قائد بالجيش أو مقبرة كاهن أو أحد كبار الموظفين بالدولة فمثلاً الملك حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨ كانت له مقبرتين بني أحدهما قبل أن يتولي الملك ثم شيد الأخري بعد أن أصبح ملك لأن الوضع قد اختلف ، وأكيد قد شاهدت محتويات مقبرة الملك توت عنخ آمون التي كانت مختفية عن أعين اللصوص حتي تم اكتشافها ، ووجد فيها كنوز رائعة بالرغم من أنه لم يكن ملكاً في نفس أهمية تحتمس الثالث أو رمسيس الثاني أو غيرهم من ملوك الفراعنة
- ولكن ماذا عن آلهة الفراعنة ؟

## ٣٦. آلهة الفراعنة

- طبعاً ليس من الممكن أن أذكر هنا أسماء جميع الآلهة التي وردت في موسوعة سليم حسن وذلك لكثرتها ولكن سأحدثك عن بعض هذه الآلهة في إيجاز لتوضيح بعض النقاط فمثلاً إذا تحدثنا عن عدد الآلهة بالكامل تقريباً سنجد أنها تزيد عن عدد المقاطعات لأن بعض المقاطعات كان لها أكثر من إله أما عدد هذه المقاطعات بالكامل فيبلغ عشرين مقاطعة في الوجه البحري واثنين و عشرين مقاطعة في الوجه القبلي أي اثنان وأربعون مقاطعة طبقاً لما ورد بالجزء الأول من موسوعة مصر القديمة لسليم حسن ويمكن إعطاء بعض الأمثلة عن إله كل مقاطعة فمثلاً المقاطعة الأولي في الوجه القبلي كان المعبود فيها أربعة آلهة منهم الإله الكبش خنوم والإله ست أما آمون رع الشهير فقد كان يعبد في

عدة مقاطعات مع آلهة أخري مثل المقاطعة السادسة والمقاطعة السابعة عشرة في الوجه البحري والمقاطعة الرابعة في الوجه القبلي وعلي فكرة الكبش خنوم أيضاً كان يعبد في العديد من المقاطعات وعندما تم توحيد جميع المقاطعات وضم الشمال للجنوب وتكونت الدولة المصرية والحكومة المركزية استطاع الكهنة وما أدراك ما الكهنة استطاعوا أن يحافظوا علي جميع الآلهة والتوفيق بينها بقدر الإمكان في جميع المقاطعات بحيث تعترف كل مقاطعة بكل الآلهة الخاصة بالمقاطعات الأخري لأن كل إله له وظيفة مختلفة عن الآخر وأصبح له دور مهم في حياة المصريين القدماء فنجدهم يوزعون الأدوار علي الآلهة فيوجد إله للخصوبة وإله للحب والغزل وإلاهان للحرب وإله التحنيط وإله الشمس وهكذا وبالتالي لم يفقد أي إله سلطاته في العبودية في باقي المقاطعات ولكن معبده الرئيسي الخاص به يكون في المقاطعة الأصلية التي نشأ بها ، وطبعاً كل هذا كلام فارغ وكفر والعياذ بالله لكن هذا ما حدث وهذا الذي أدي إلي بناء كل هذا الحشد الرهيب من المباني الدينية بكافة أشكالها وأحجامها لعبادة هذه الآلهة التي ازدحم بها الجزء الأول من كتاب موسوعة سليم حسن مصر القديمة وعلي فكرة لم تكن الحيوانات فقط التي يقدس بعضها الفراعنة ولكن كان هناك بعض الطيور والزواحف والأشجار ايضاً ومن أمثلة الحيوانات المقدسة التي تقمصتها الآلهة البقرة والثعلب والقطة والذئب ومن أمثلة الطيور الصقر والأوز ومن أمثلة الزواحف الثعبان والتمساح ومن أمثلة الشجر المقدس شجرة الجميز التي ظهرت في العديد من اللوحات الفرعونية بل إن الحشرات أيضاً لم يتركوها بل كانوا يقدسون الجعران وهناك العديد من الأساطير التي تم اختراعها بواسطة الكهنة مثل اسطورة إيزيس وأوزوريس الشهيرة وكل ما أريد أن تعرفه علي الأقل أن هذه الآلهة كانت محور حياة المصريين القدماء وبسببهم أقيمت كل هذه الآثار التي نراها حالياً وإذا أردت أن تعرف المزيد عنها فيجب أن تقرأ الكتب الخاصة بذلك وجدير بالذكر أن أسماء ملوك الفراعنة كانت مرتبطة إلي حد كبير بأسماء الآلهة فمثلاً الملك خوفو مرتبط باسم الإله خنوم ( والواقع إن اسم خوفو هو الاسم المختصر له إذ أن الاسم الكامل هو "خنم خواف وي " أي الإله خنم هو الذي يحميني " ) واسم رمسيس أصله ( رع مس سو ) أي الإله رع هو الذي أنجبه

- فماذا عن الحساب في الآخرة من وجهة نظر الفراعنة ؟

## ٣٧. أسئلة محاكمة الميت من وجهة نظر الفراعنة

- بالطبع كانوا يعتقدون أن هناك حساب في الآخرة ، وقد وردت أسئلة محاكمة الميت في كتاب ( مصر علمت العالم ) للدكتور وسيم السيسي – الدار المصرية اللبنانية – الطبعة الأولي ٢٠١٣ حيث كتب الأسئلة الآتية : هل حفظت جسدك طاهراً ؟ ، هل قتلت نفسا بغير حق ؟ ، هل عذبت حيواناً ؟ ، هل تعلقت بالدنيا بسلاسل من ذهب ؟ ، هل عميت من أمور الآخرة ؟ ، هل صنت نفسك ولسانك عن الشهادة الزور ؟ ، هل عرفت السحر الأسود ودنست نفسك به ؟ ، هل تذكرت الإله وسألته دوماً

الهداية والرشد ؟ ، هل خنت جارك أو صديقك الذي ائتمنك علي عرض بيته ؟ ، هل اعتنيت بالنباتات وأطفأت ظمأها ؟ ، هل عاملت الحيوانات بالرفق والشفقة كما تود أن يعاملك بالرفق من هو أقوي منك ؟ ، هل استمعت لصوت ضميرك ؟ ، هل كرهت إنساناً ؟ ، هل جلبت الرضا لقلب أمك والشرف لبيت أبيك ؟ ، هل أعطيت خبزك للمحتاج ؟ وبعض ثمار حقلك للمنهكين ؟ ، هل امتدت يدك لسرقة ما ليس لك ؟ ، هل كنت في أي حال تكذب ؟ ، يجيب المتوفي عن هذه الأسئلة ثم يضيف : كنت عيناً للأعمي ، ويداً للمشلول ، ورجلاً للكسيح ، وأباً لليتيم ، ولم أجعل أحد يبكي مني ، وإن قلبي نقي ويداي طاهرتان ، وعندما ترجح كفة قلب المتوفي ، ، يعلن تحوتي براءة قلب المتوفي من الذنوب

- إنها أسئلة رائعة بالفعل
- بالتأكيد فأي حضارة ناجحة لابد أن تقوم علي أخلاق حميدة
- فعلاً إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا
- بالطبع ، ولكن كل هذا مع عبادة غير الله لا يجدي في الآخرة ، فمن أعظم الظلم أن يترك البشر عبادة الله وحده ويعبدون البشر والحيوانات والطيور والجمادات ويسيطر عليهم الكهنة والفراعنة ويستعبدونهم ثم يقنعونهم بأن بناء القبر له أهمية خاصة فيتمنون أن يصبحوا خدماً لسادتهم في الدنيا والآخرة ، فكلما أعددت مقبرتك بشكل لائق كلما كانت حياتك في الآخرة أفضل وكلما كنت تشغل وظيفة كبري في الدولة الفرعونية ستكون بالتأكيد قادر علي تشييد مقبرة محترمة تليق بك وفيها كل ما تتمناه
- كل هذا مفهوم ولكن بالنسبة لأسئلة المحاكمة التي ذكرت أن الميت يتعرض لها أمام الآلهة ، هل كان الآلهة في اعتقاده يسجلون كل أعماله وأقواله في الدنيا حتي يحاسبونه عليها
- المؤكد أنه هو الذي كان يسجل أعماله في مقبرته
- وهل كان يعتقد أن آلهته ستصدق ما كتبه بنفسه أم أن لها مرجعيات أخري ، بل الأغرب من ذلك إذا لم يقم بحفظ جثمانه ويوصي بتحنيطه بعد الموت هل آلهته لن تستطيع إعادته إلي ما كان عليه ؟
- سبحان الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ، أما موضوع الديانة الفرعونية فلا تكثر الأسئلة فيه حتي لا يعتقد البعض أنك تنتقدها فتتعرض للوم من المفتونين بها بدون علم مع أني لا أعتقد أن لومهم سيجدي معك
- بالطبع فهذه الحضارة كانت محل احترام الجميع ولكن العقيدة شئ آخر وربما كانت فتنة للكثيرين وقد قال المولي عز وجل عنهم {وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ (١٠) الَّذِينَ طَغَوْا فِي البِلادِ (١١) فَأَكْثَرُوا فِيهَا الفَسَادَ (١٢) فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ (١٣) إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ } سورة الفجر من ١٠ إلي ١٤
- صدق الله العظيم
- هل كان هناك أنبياء خلال العصر الفرعوني ؟

- لم يسجل الفراعنة بالطبع أي شئ عن الأنبياء فقد كان كل منهم عندما يكتب التاريخ يحذف من قوائم الملوك من يخالف عبادة آلهته فما بالك بمن يخالف معتقداتهم بالكامل ، فلم تسجل علي آثارهم أي إشارة لوجود نبي أو رسول بالرغم من حضور العديد من الرسل والأنبياء إلي مصر خلال العصر الفرعوني إلا أن هناك إشارة إلي إسرائيل في لوحة مرنبتاح الشهيرة عندما نصل إلي الحديث عنها إن شاء الله
- ولكن هل لديك كتابات عن موضوع الأنبياء في مصر ؟

## ٣٨. الأنبياء في مصر

- بالتأكيد وهذا بعض ما ورد بكتاب عندما دخلت مصر في دين الله للدكتور محمد عمارة وهي مقتطفات دونتها من صفحة ٤ إلي صفحة ١٠ : - - إن ما بقي لنا من قصص نبي الله ورسول مصر إدريس – عليه السلام – ليوحي بأن هذا العمق الحضاري والسبق في التمدن ، اللذين تميزت بهما مصر قبل سائر الحضارات ، إنما كانت لهما عروة وثقي بعلم النبوة الذي جاء به رسولها إدريس عليه السلام – – فيقولون أنه أقام ومن معه بمصر يدعو الخلائق إلي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطاعة الله – - فعرفهم السياسة المدنية وقرر لهم قواعدها وعلمهم العلوم وهو أول من استخرج الحكمة وعلم النجوم فإن الله عز وجل أفهمه أسرار الفلك وتركيبه ونقط اجتماع الكواكب فيه وأفهمه عدد السنين والحساب - - - وعبر هذا التاريخ المصري الذي هو أطول وأعرق ما حفظت ذاكرة الإنسانية من التاريخ ظلت ومضات التوحيد الديني في مصر شاهدة علي انتماء المصريين إلي دين الله ولقد تمثل ذلك فيمن زارها وعاش فيها من الأنبياء والمرسلين وفيمن ولد فيها ونشأ وبعث منهم – ممن قص الله علينا قصصهم في القرآن الكريم – وأيضاً في حكمائها الذين جددوا الدعوة إلي التوحيد ورفعوا راياته في مواجهة الوثنية والذين قد يكونون أنبياء ورسلاً ممن لم يرد ذكر لأسمائهم في القرآن الكريم - - فإلي مصر رحل إبراهيم الخليل – عليه السلام – وهو أبو الأنبياء ومن بنات مصر هاجر عليها السلام أنجب نبي الله ورسوله إسماعيل عليه السلام – وإلي مصر جاء يوسف عليه السلام وفيها أوحي إليه ربه وبها بلغ الرسالة وعمل وساس وأصلح - - - وباستدعاء من يوسف جاء نبي الله يعقوب وعدد من بنيه إلي مصر وعاش فيها وعبد الله ودعا إليه – وفي مصر ولد ونشأ وتعلم نبي الله موسي وأخوه هارون عليهما السلام وأوحي الله إليهم وأنزل عليهم التوراة والألواح فجابهت حرية التوحيد عبودية الفرعونية علي ضفاف وادي النيل - - وإلي مصر لجأ المسيح عيسي ابن مريم عليه السلام مع أمه سيدة نساء العالمين طلباً للأمن
- إن أفضل ما في حواري معك أنه ليس معك وحدك فأنت كما لوكنت تستدعي المؤرخين والكتاب والمفكرين وغيرهم للجلوس معناً للرد علي الاستفسارات ، فعلاً إن خير جليس في الزمان كتاب
- لا شك أن القراءة شئ ممتع جداً ألم تقرأ ما قاله العقاد عن حبه للقراءة ؟

- فماذا قال ؟
- قال : لا أحب الكتب لأنني زاهد في الحياة .. ولكنني أحب الكتب لأن حياة واحدة لا تكفيني.. ومهما يأكل الانسان فإنه لن يأكل بأكثر من معدة واحدة، ومهما يلبس فإنه لن يلبس على غير جسد واحد، ومهما يتنقل في البلاد فإنه لن يستطيع أن يحل في مكانين. ولكنه بزاد الفكر والشعور والخيال يستطيع أن يجمع الحيوات في عمر واحد، ويستطيع أن يضاعف فكره وشعوره وخياله كما يتضاعف الشعور بالحب المتبادل، وتتضاعف الصورة بين مرآتين
- إنه كلام رائع بلا شك
- حسناً ، فلنكمل الحديث عن تاريخ مصر ونتحدث أو قل نقرأ ما كُتِب عن الأسرة الرابعة الفرعونية المعروفة ببناء الأهرامات الشهيرة بالجيزة
- خوفو وخفرع ومنقرع ؟
- نعم ولكننا سنتحدث أولاً عن مؤسس هذه الأسرة وهو الملك سنفرو
- كلي آذان صاغية

## ٣٩. الملك سنفرو

- أسس الملك سنفرو الأسرة الرابعة – – ويري مانيتون أنه حكم ٢٩ سنة وبردية تورين ٢٤ عاما كما نعرف من حجر بالرمو أنه قام ببعثات حربية إلي بلاد النوبة وأحضر معه من هناك ٧٠٠٠ أسير ، ٢٠٠٠٠٠ رأساً من الماشية وبعد ذلك اتجه إلي ليبيا وانتصر عليها وعاد منها ومعه ١١٠٠٠ أسير و ١٣١ ألف رأس من الماشية
- ألا توجد مبالغات في هذه الأرقام ؟
- إن هذا مدون علي حجر بالرمو ، فإذا كنت لا تصدقه فاذهب إلي إيطاليا وراجعه بنفسك
- لا داعي استمر
- كما يذكر حجر بالرمو أيضاً أنه أرسل أسطولاً بحرياً إلي لبنان لإحضار أخشاب الأرز ) وكان سنفرو متزوجاً من الأميرة حتب حرس ابنة الملك حوني آخر ملوك الأسرة الثالثة والتي كانت تحمل بحكم دمها الملكي حق وراثة العرش وأنجب منها ابنه خوفو الملك الشهير وكان نظام وراثة الحكم كما ذكرنا إذا انقطع نسل الذكور من الأسرة المالكة فإن الملك الجديد لا بد أن يتزوج من إحدي بنات البيت الملكي السابق حتي يجري الدم الفرعوني في عروق أبناءه كما فعل سنفرو مع ابنة الملك حوني ولقد أكمل الملك سنفرو هرم الملك حوني في ميدوم بالفيوم وشيد لنفسه هرمين في دهشور ، الأول يسمي الهرم المنكسر الأضلاع ويبلغ ارتفاعه ١٠١.١٥ متر ويبدو أنه الحلقة التالية لتقدم فكرة بناء المقبرة الملكية بعد المصطبة المدرجة الخاصة بالملك زوسر مؤسس الأسرة الثالثة وكتب سليم حسن عن سنفرو ما

يلي (وكانت كل القوة مجتمعة في يد الملك الذي حل محل رؤساء القبائل ، ولما كان الملك هو الوارث لمعبود القبائل أصبح القوم يعتقدون فيه أنه إله حقيقي)

- فما أبعاد الهرم المنكسر ؟
- الهرم المنكسر عبارة عن قاعدة ضخمة عالية بنيت جوانبها بزاوية ٥٤.١٤ درجة وفوق هذه القاعدة بني القسم الثاني بزاوية قدرها ٤٣.٢١ درجة ونتج عن تغيير الزاوية ذلك الهرم المنكسر الأضلاع ، أما طول ضلع قاعدته المربعة فهو ١٨٨.٦ متراً ، ويمتاز هذا الهرم عن جميع أهرام مصر بأن له مدخلين ، مدخل في الجهة الشمالية والآخر في الواجهة الغربية ، كما يمتاز أيضاً بأن الكساء الخارجي له لا يزال علي حالته الأولي ، وإلي الشمال من هذا الهرم علي بعد لا يقل عن ٢ كم نجد الهرم الثاني لسنفرو والذي يعتبر أول هرم حقيقي في تاريخ العمارة المصرية ويبلغ ارتفاعه حوالي ٩٩ متر وطول ضلع قاعدته حوالي ٢٢٠ متراً ،
- وهل ترك سنفرو آثار أخري ؟
- ضمن آثار الملك سنفرو وجدت قائمة كاملة لأغلب الأقاليم المصرية في ذلك الوقت فيما تعتبر أول وثيقة لتقسيمات مصر الإدارية في عصر يرجع إلي أكثر من ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد ، وإذا تكلمنا عن الملك سنفرو سنجد أن عصره امتلأ بحوادث كثيرة منها الحملة البحرية التي أرسلها إلي الموانى السورية وعادت هذه الحملة بحوالي أربعين سفينة محملة بالأخشاب التي تستخدم في البناء وتم قطعها من غابات لبنان ويبدو أن الملك سنفرو كان ملكاً جاداً لأن سليم حسن كتب عنه ما يلي بالحرف الواحد : وكانت مصر في عهد هذا الفرعون مملكة متحدة ثابتة الأركان ) ، وعندما يتنقل في أرجاء قصره أو خارجه كان لزاماً علي رعيته أن يركعوا أمام جلالته ويقبلوا التراب الذي تحت قدميه علي حد تعبير سليم حسن وبعد وفاته كان القبر الذي يضم رفاته موضع تقديس وكانت حاشيته وعظماء البلاد في عهده تدفن حول قبره أو بالقرب منه حتي يقدموا له خدماتهم في الدار الآخرة بنفس الولاء والإخلاص
- يريد خدماتهم وإخلاصهم في الدنيا والآخرة ، فأين القصر الذي كان يعيش فيه ؟
- أما عن سبب عدم وجود آثار تخص بيوت وقصور الفراعنة فيقول سليم حسن ( وقد كان للآلهة في هذا الزمن السحيق معابد من حجر علي حين أن الملك كان يسكن في مأوي بسيط من الطوب اللبن أو من طين النيل المجفف في الشمس ولم يكن لأحد الحق في أن يسكن في مساكن من الحجر إلا الموتى لأنهم كانوا يعدون كالآلهة ) وهذه المعلومات بالطبع نقلاً عن موسوعة سليم حسن – مصر القديمة – الجزء الأول وكتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان
- وقبل أن تقولها أنت سأقول أنا : لقد مات سنفرو وماتت حاشيته ومات شعبه ومات أعداءه أيضاً

- بكل تأكيد ، فأهم درس في التاريخ أن الدنيا لا تدوم لأحد ، والآن سنقرأ عن أشهر ملك في الأسرة الرابعة وصاحب أشهر بناء في التاريخ يُعد من عجائب الدنيا

## ٤٠. الملك خوفو والهرم الأكبر

- **الملك خوفو بالطبع**
- بعد أن مات سنفرو جاء الملك خوفو للحكم وأياً كان السبب الرئيسي لبناءه هذا الهرم العملاق وأياً كانت ظروف حكمه إلا أن الهرم الموجود حالياً باسمه يعتبر من عجائب الدنيا بالفعل فيكفي أن اذكر لك بعض الحقائق عن هذا الهرم لتعرف حجم العمل الذي تم فيه رغم أن فترة حكم خوفو لم تتجاوز العشرين عاماً مما يدل علي أن فن الإدارة وتنظيم الأعمال كان متقدماً في عهده لإنجاز هذا العمل الضخم في توقيت قصير نسبياً ،
- **ألم يكن سبب بناء هذا الهرم توفير قبر ومثوي أبدي للملك ؟**
- بالطبع كما فعل من قبله من الملوك ويعتقد بعض علماء الآثار أن من أسباب بناء هذا الهرم أيضاً أن الملك قرر تأمين شعبه ضد البطالة وخاصة في الفترات التي تتوقف فيها أعمال الزراعة ولذلك كان يتم العمل في الهرم في هذه الفترات فقط من السنة وهي فترات مرتبطة طبعا بتوقيتات حدوث فيضان النيل
- **فما أبعاد هذا الهرم ؟**
- يبلغ طول قاعدة الهرم ٢٢٧.٥ متر وارتفاعه حوالي ١٣٧ متر وعدد أحجاره تقريباً مليونين وثلاثمائة ألف حجر ومتوسط وزن الحجر الواحد حوالي ٢.٥ طن يعني وزن الهرم بالكامل ستة ملايين طن تقريباً وحجمه ٢.٥ مليون متر مكعب وبالرغم إن خوفو كان يريد أن يكون هذا الهرم المقر الأبدي لجثمانه إلا أن حلمه لم يتحقق وقد تم اقتحام حجرة الدفن في عهد الثورة التي كانت في نهاية الأسرة السادسة الفرعونية لأن حجرة الدفن الخاصة بالملك خوفو خالية تماماً وعليها آثار تخريب واضحة من مخلفات الأسرة السادسة
- **الأسرة السادسة ، سبحان الله ، لم يستمر تواجد الملك في حجرة دفنه بهذا الهرم العملاق إلا لمدة أسرتين فقط ؟**
- نعم وسوف نتكلم عن الثورة التي حدثت في عصر الأسرة السادسة في حينها ويقول سليم حسن عن الملك خوفو ( وربما يتوهم البعض أن بناء الهرم الأكبر قد شغل خوفو عن باقي أعمال ملكه ولكن الواقع أننا نجد له آثاراً باقية في مدن ملكه وقد ترك خوفو اسمه منقوشاً في مناجم النحاس والفيروز في شبه جزيرة سيناء ) ( والظاهر أن بعد وفاة خوفو قامت منازعات علي الملك إذ نجد في قوائم الملوك التي وصلت إلينا أن الملك الذي خلف خوفو هو ددف رع ولكن بعض العلماء ينكرون ذلك وقد استمر في الحكم مدة ثمانية أعوام ) وهذه الصراعات استمرت حتي في عصر خفرع صاحب الهرم المعروف باسمه في الجيزة حيث أن خفرع لم تكن بيده مطلق الصلاحيات في الحكم أو بمعني أصح

سلطاته كانت غير كاملة علي مصر بسبب هذه الصراعات مع أبناء ددف رع أخوه ومع كل هذه الصراعات استطاع بعزيمة فولاذية بناء هرمه الفخم بجوار هرم خوفو وقد أنجب خفرع ١٦ فرد من الذكور والإناث وفي الغالب أن الفرعون منقرع أحد هؤلاء وقد خلف أبوه في الحكم وبني هرمه الصغير بجوار هرم خوفو وهرم خفرع كما نعلم جميعاً

- يبدو أن منقرع كان ملكاً طيباً
- تقريباً فيقول عنه د سيد توفيق : (- -لم تستطع الآثار المصرية المعروفة لدينا الآن أن تعطينا الشئ الكثير عن حياة الملك منكاورع وإن تغلبت الذكري الطيبة عند الحديث عنه في العصور المتأخرة - - بعكس ما اتصف به والده خعفرع وجده خوفو من قوة واستبداد - - والاحتمال كبير في صدق هذه الرواية لسبب بسيط هو أن بناء مثل هذين الهرمين الكبيرين وما يتبعهما من معابد للملكين خوفو وخعفرع لا شك حمّلا الدولة ما لا تستطيع من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية - -
- فماذا عن هرم منقرع ؟
- يقع هرم منكاورع في الركن الجنوبي من الهضبة ويبلغ ارتفاعه الآن ٦٢ متر " كان ٦٦.٥ متر" وطول ضلع قاعدته ١٠٨.٥ متر - - وعلي الرغم من أن فترة حكم منكاورع قد تزيد عن ١٨ عاماً فإنه لم يستطيع أن يتم تشييد هرمه الصغير وما يتبعه من معابد فأكملها له ابنه شبسكاف - - ولم يقم شبسكاف بتشييد هرم له في الجيزة واتخذ منطقة سقارة جبانة له وقام في جنوبها بتشييد تابوت ضخم مستطيل (١٠٠×٧٥ متر وارتفاع ١٨ متر ) بني من الحجر الرملي - - وهو المعروف الآن بمصطبة فرعون ويبدو أن نفوذ كهنة الشمس ازداد وازداد معه قوة وسيطرة الإله رع في هليوبوليس - - ومن أهم الأسباب التي سمحت لهم بتحقيق هذه السياسة أن ملوك الأسرة الرابعة بعد الملك خعفرع كانوا ملوكا ضعافاً فاستطاع هؤلاء الكهنة أن يفرضوا سيادتهم ويسقطوا الأسرة الرابعة - - وجعلوا بعد ذلك الإله رع إله الدولة وقللوا من أهمية الإله حورس الذي كان يهيمن علي مصر قبل ذلك كإله للدولة )
- ما رأيك في موضوع غلبة إله علي إله ؟ والعياذ بالله من هذا الكلام ، فإنني أشعر عند كلام عن آلهة الفراعنة أنني في حاجة إلي الكثير من الاستغفار مما يقال
- مسألة غلبة إله علي إله بالطبع كلام فارغ ولكن الموضوع له علاقة بالمصالح المرتبطة بالكهنة أنفسهم فكل معبد له ما يشبه الأوقاف من الأراضي وخلافه تدر مبالغ كبيرة لكهنة المعبد وكلما زادت أهمية أحد المعابد زاد بالتالي دخله ولتسهيل الموضوع يمكن إعطاء مثال أن كهنة كل معبد كانوا يديرون مشروعات تدر أرباحاً ضخمة كما لو كانت شركات وأسماء الآلهة عبارة عن أسماء لهذه الشركات ( شركة رع – شركة حورس وهكذا ) {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ} (٢٢) سورة الأنبياء
- أي أن الموضوع كله مرتبط بمصالح الكهنة ليس أكثر والمنافسة فيما بينهم ؟

- بالتأكيد ، ولكن دعنا نأخذ فكرة بسيطة وسريعة عن الأسرة الخامسة
- لا مانع

## ٤١. الأسرة الخامسة ومتون الأهرام

- الأسرة الخامسة مكونة من تسعة ملوك أولهم يسمي ( أو سر كاف ) وآخرهم الفرعون ( أوناس ) وهي أسرة من بناة الأهرامات ولكنها ليست علي نفس مستوي الأسرة الرابعة من الشهرة حالياً ( ويؤكد حجر بالرمو بأن ملوك الأسرة الخامسة تميزوا بإقامة المعابد الكثيرة ، أما هيرودوت فأوضح أن هذه الأسرة تميزت بنزعة دينية خالصة ، ويفضل الترتيب الآتي لملوك هذه الأسرة : وسر كاف – ساحورع – نفر إير كا رع – شبسكارع – نفر اف رع – ني وسر رع – من كاو حور – جد كا رع اسسي – ونيس ) ،
- ( ونعرف من المصادر التاريخية أن وسر كاف هو أول ملك شيد معبد لإله الشمس رع في منطقة أبو غراب " علي بعد ميل شمال أبو صير جنوب الجيزة ) ، ثم ( أتي ساحورع بعد الملك وسر كاف وقد حكم طبقا لما جاء في حجر بلرمو ١٤ سنة وإن كانت بردية تورين تعطيه ١٢ سنة فقط أما مانيتون فيذكر له ١٣ عاما – – اهتم بتزيين المعابد بالمناظر والنقوش ، التي نعرف منها نشاط الملك ساحورع الحربي فنعرف أنه قام بحملات ضد الليبيين الذين حاولوا غزو الدلتا وضد البدو في الشمال الشرقي ، ونعرف أيضاً أنه أرسل أسطولاً إلي شواطئ فينيقيا – –
- لماذا كان يريد الليبيون غزو الدلتا ؟
- إنه معروف بالاستعمار الاستيطاني ولم يكفوا عن هذه المحاولات كما سنري طوال التاريخ الفرعوني وقد كان ملوك الفراعنة يلقنوهم دروساً كثيرة دون جدوي إلي أن نجحوا في النهاية عن طريق الهجرات السلمية التدريجية إلي البقاء في مصر بل ووصلوا للحكم كما سنري في عصر الاضمحلال الأخير للفراعنة ، المهم أنه أتي بعد ساحورع أخوه نفرير كارع المعروف بكاكاي ويشير حجر بلرمو الذي تم نقشه – أغلب الظن – في عهده أنه حكم فترة عشر سنوات ، ويعطيه المؤرخ مانيتون عشرين عاماً – أصدر نفر اير كا رع مرسوماً بإعفاء رجال الدين وفلاحي المعابد من القيام بأعمال أخري تتصل بمشاريع الإصلاح في الدولة هذا المرسوم الذي ساعد علي تقوية الكهنة وزاد من نفوذهم وفي نفس الوقت بدأ يتقلص نفوذ الملك وأخذت سلطته تضعف وبالتالي أخذت سلطة الحكومة المركزية تضعف مما أدي فيما بعد إلي انهيار الدولة القديمة وبداية عصر الاضمحلال الأول
- أليس هذا هو الملك الذي وكز بعصاه ساق رع ور
- نعم ، ويبدو أنك قوي الملاحظة أيضاً
- بعض ما عندكم
- – أتي بعد الملك كاكاي الملك شبسكا رع وتلاه الملك نفر اف رع وكل ما نعرفه عن هذين الملكين خلاف اسميهما هو فترة حكمهما فقد حكم الأول ٧ سنوات والثاني ٤ سنوات – – بعد ذلك جاء إلي

العرش الملك ني وسر رع الذي حكم فترة تقرب من ثلاثين سنة وقام ببناء هرمه ومعبده لإله الشمس رع في منطقة أبو صير ) ، ( الملك ونيس " أوناس " آخر ملوك الأسرة الخامسة حكم فترة ثلاثين عاماً وهو أول ملك نقش في حجرة دفنه نصوص اصطلح علي تسميتها بنصوص الأهرام – متون الأهرام – وهي التي كشف عنها –عالم الآثار الشهير – ماسبيرو عام ١٨٨٠ في هرمه المشيد في الركن الجنوبي الغربي لسور الهرم المدرج بسقارة وهي عبارة عن مجموعة تعاويذ وصلوات وطقوس دينية مختلفة تم اختيارها بواسطة الكهنة – ويصل ارتفاع هرم ونيس الآن ١٩ متر بعد أن كان في الأصل ٤٤ متر وطول قاعدته المربعة ٦٧ متر وهو مهدم إلي حد كبير – – وانتهت الأسرة الخامسة وإن لم تترك لنا أهرامات ضخمة مثل أهرامات الأسرة الرابعة إلا أنها تركت ثروة لغوية تمثلت في نصوص الأهرام هذا بجانب مناظر الحياة اليومية الممثلة علي جدران مقابر كبار رجال الدولة ) والآن حان الوقت للكلام عن موضوع مثير في تاريخ مصر وهو الثورة التي حدثت في عهد الأسرة السادسة

- وعصر الاضمحلال الأول أليس كذلك ؟

## ٤٢. ثورة الجياع في العصر الفرعوني

- نعم ، جاءت الأسرة السادسة وهي مكونة من خمسة ملوك وقد دامت هذه الأسرة لمدة حوالي قرنين من الزمان وهذه الأسرة من الأسر التي يكتنفها الغموض والتي لا يعلم عنها التاريخ إلا القليل لكن هناك ملك تكلم عنه سليم حسن بحماس شديد وهذا الملك اسمه الملك ( بيبي الأول ) ويقول عنه ( وهو يعد بحق من أكبر الفراعنة الذين قبضوا علي ناصية الحال في مصر في كل عصور تاريخها بحزم ونشاط ) وقد عثر العلماء علي تمثال لهذا الملك آية في دقة الصنع من النحاس ويعد من أعظم الكنوز التي تم العثور عليها وعلي فكرة هذا الملك كان محبوب من شعبه لكن للاسف علي ما يبدو لم يكن يعيش حياة أسرية سعيدة لدرجة أنه أمر بمحاكمة زوجته في بعض النقوش التي وردت من آثار عصره القليلة الباقية ولم يعلم العلماء السبب الحقيقي وراء هذه المحاكمة لعدم وجود تفاصيلها في النقوش وكان لهذا الملك هرم في سقارة يمتاز في إخفاء حجرة الدفن والعناية بوضع العقبات في طريق الوصول إليها

- ولكن ما الداعي لإخفاء حجرة الدفن ؟

- علي ما يبدو لقد مرت عملية الدفن بعدة مراحل ، كان أولها بالطبع المصاطب والأهرامات الواضحة للجميع علي اعتبار أنه لا يوجد أي خوف أو قلق من اقتحامها وتحدي سلطة الدولة والفرعون المؤله ، ولكن بعد أن زادت الاضطرابات والسرقة والجرأة علي المقدسات ، قرر الملوك أن يأمروا المهندسين بعمل حيل كثيرة وألغاز هندسية وعقبات حتي لا يستطيع أحد أن يصل إلي حجرة الدفن ، وكانت هذه المرحلة الثانية ، أما المرحلة الثالثة والأخيرة فقد كانت إخفاء المقبرة بالكامل عن الأعين كما حدث في وادي الملوك ، والاكتفاء بتشييد المعابد فقط في أماكن واضحة للجميع

- **بالنسبة للملك بيبي الأول كان في المرحلة الثانية بالطبع**
- **نعم ولكن رغم هذه التحفظات التي بُذِلت في هذا السبيل كما يقول سليم حسن فإن اللصوص استطاعوا الوصول إلي تابوت الملك المصنوع من حجر البازلت وهشموه ومزقوا جثة هذا الفرعون ومن المحتمل أن هذا التخريب البالغ قد حدث في نهاية هذه الأسرة في الفترة التي كانت الثورة متأججة في البلاد وجدير بالذكر أن بيبي الأول قام بحملة إلي فلسطين يصاحبها الأسطول وتعتبر هذه الحملة الأولي من نوعها في التاريخ حيث صاحب الحملة البرية أسطول بحري يحميها وكان سبب هذه الحملة منع هجرة الأسيويين إلي مصر بعد تجمعهم بشكل ملحوظ في فلسطين استعداداً للهجرة إلي مصر**
- **لهذا الحد مصر كانت مطمع للاستعمار الاستيطاني من الشرق والغرب ؟**
- **بالتأكيد لهذا فقد قرر بيبي الأول إحباط المحاولة من بدايتها أما الملك الذي جاء بعده وهو ابنه الكبير ( مرن رع ) فقد تم العثور علي مومياؤه سليمة سنة ١٨٨٠م داخل هرمه وتعتبر أقدم جثة تم العثور عليها بقيت إلي وقتنا هذا وطبعا تم العثور عليها بدون كنوز لأن القبر تم نهبه وتلاحظ عند العثور علي هذه الجثة أن الملك مات صبياً صغيراً وجاء بعده الملك بيبي الثاني أخوه وكان عهده يتميز بإرسال العديد من البعثات خارج مصر وخاصة إلي بلاد الصومال بالاستعانة بالأقزام وفي عهده قامت الثورة**
- **وما الأسباب التي أدت لهذه الثورة ؟**
- **لقد حكم هذا الملك أطول فترة ممكنة في التاريخ الفرعوني وربما في تاريخ العالم – – واستمر يحكم ٩٤ سنة وهي رواية ليس من سبيل إلي تأكيدها أو نقضها ، فلقد احتفل بالعيد الثلاثيني مرتين علي الأقل – وطال الحكم بالملك بيبي الثاني الذي استبدت به شيخوخته ثم بدأ يتبدل حال الحكومة المركزية فدب فيها الضعف وقلت هيبتها وفي نفس الوقت زاد سلطان حكام الأقاليم وزادت ثروتهم وقل ولاءهم لصاحب العرش – – واشتدت المظالم مما أدي إلي القيام بثورة ، ثورة علي كل شئ ، ثورة علي الظلم وعلي الحكم وحتي علي الآلهة – – ولقد تولي الحكم بعد بيبي الثاني ملك وملكة الأول يدعي "مرن رع" وحكم سنة واحدة والثانية الملكة "نيت أقرت " أو "نيتوكريس" التي حكمت فترة تقرب من سنتين ثم بعدها سادت الفوضي البلاد وانتهت أيام الأسرة السادسة وبانتهائها انتهت الدولة القديمة**
- **كيف كانت ثورة علي الآلهة ؟**
- **المقصود هنا ثورة علي الديانة الفرعونية نفسها ، لأن المصري في ذلك الوقت كان يشعر بالجوع والظلم دون أن ينتظر حياة سعيدة في الآخرة لعدم إمكانية بناء قبر يضمن له حياة سعيدة في الآخرة كما ذكرنا ، فأصبح مع إهمال شأنه يشعر بضياع الدنيا والآخرة معاً فثار علي كل شئ**
- **وماذا كانت مظاهر هذه الثورة ؟**

- لقد قرر الثوار أن يفسدوا علي أصحاب القبور آخرتهم فاقتحموا جميع المقابر ونبشوها ونهبوا محتوياتها وسرقوا كل ما وجدوه
- وهل تم التأريخ لهذه الثورة ؟
- نعم وأريد أن أضع بين يديك وصف لعصر الاضمحلال كتبه أحد المصريين القدماء في مقطوعة أدبية رائعة تصف الثورة التي حدثت بعد ضعف السلطة المركزية بعد عهد الملك بيبي الثاني ( من ٢١٨١ إلي ٢٠٤٠ ق م وهي تمثل الفترة التي تفصل بين نهاية الدولة القديمة وبداية الدولة والوسطي – – ولقد استمرت ما يقرب من قرن ونصف وتشمل الأسرات من السابعة حتي نهاية العاشرة – – لقد سقطت مصر في هوة عميقة من الاضمحلال بعد موت الملك بيبي الثاني ، فانهار صرح الملكية وتدهورت سلطة البلاد المركزية وبدأ الشعب يفكر في الثورة ليتحرر من قيوده فكانت الثورة ، ثورة علي قدسية الملوك وقدسية الآلهة – – وازدهر الأدب التهذيبي في ظل هذه الثورة ويصف لنا الحكيم المصري "أيب ور" الذي يحتمل أنه عاش في أواخر عهد الملك بيبي الثاني أو أحد خلفائه الضعاف ، البلاد وصفاً ممتعاً علي الرغم مما فيه من قسوة "من وجهة نظره " فيعدد صور البؤس ويؤنب الملك الحاكم علي استهتاره وضعفه بقوله " ما هذا الذي يحدث في مصر ؟ إن النيل لا يزال يأتي بفيضانه وليس هناك من يقوم بحرث حقله ، لماذا حقاً أصبح الفقراء يمتلكون الكنوز ؟ ، إن من كان لا يملك نعلاً أصبح الآن من الأثرياء – – لماذا حقاً عم الحزن الأشراف ؟ بينما ساد الفرح والسرور الفقراء – – أنظر كيف أصبحت نساء الأشراف متسولات ، ومن لم يمتلك خرقة ينام عليها أصبح اليوم وهو صاحب سرير ، ومن كان يفتقد الرغيف أصبح الآن يمتلك مخزناً من الغلال ، انظروا : إن من كان لا يمتلك ثوراً أصبح الآن من أصحاب القطعان " ) تأمل بنفسك هذه المقطوعة مرة أخري لتكتشف الكثير لأن ما يأسف عليه هذا الأديب كان يحدث عكسه تماماً قبل الاضمحلال ،
- لا أدري لماذا هو حزين كل هذا الحزن علي أن الفقراء أصبحوا أغنياء
- لقد لاحظت معي عند تأمل ما كتبه الحكيم المصري أنه مستاء لأن الفقراء وعامة الشعب أصبحوا أغنياء ومعهم أموال كثيرة وأن الملك وحاشيته وكبار رجال الدولة يعيشون حياة سيئة ومن هنا يتضح أن الطبقة العليا في الدولة هي الجديرة بالحياة الكريمة بل وبالدفن الكريم أيضاً إذا جاز التعبير أما عامة الشعب فيري المؤرخ المصري القديم أنه من البؤس علي حد تعبيره أن يراه يتنعم بالحياة وهذا شئ محير جداً
- لاحظ أيضا أن هذا الحكيم وأمثاله هم أحد أهم مصادر التاريخ الفرعوني وبالتالي من الممكن أن يكونوا قد حذفوا فترات التوحيد وظهور الأنبياء وغياب ألوهية الفرعون وفقدانه السيطرة علي أنحاء مملكته واعتبروها فترات مظلمة من وجهة نظرهم بالطبع وربما والله أعلم تكون هذه الفترات هي ومضات

النور القليلة التي عرفت فيها مصر دين الله سبحانه وتعالي ثم تعود وتترك عبادة الخالق وتعبد المخلوق {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي } (٣٨) سورة القصص

- بقي أن نتحدث عن قصة القروي الفصيح الشهيرة والتي تعبر أيضاً عن فترة الاضمحلال
- وما هي قصة القروي الفصيح

## ٤٣. قصة القروي الفصيح

- عندما كتب المظلوم شكواه بأسلوب رائع فلم يتم الاستجابة لها حتي يتم الاستمتاع بالمزيد من الشكاوي الرائعة فهي قصة طريفة من العصر الفرعوني وقد كتب أحداثها أديب من العصر الأهناسي ويسمي هذا العصر بالعصر الإهناسي نسبة إلي مدينة إهناسيا حيث كانت مكان عاصمة الدولة في ذلك العصر بدلا من منف وطيبة وغيرهم ، والقصة في حد ذاتها بسيطة في وقائعها إلا أنها تمتاز ببلاغة الأسلوب ويبدو أن الهدف ليس القصة نفسها بل الشكاوى التسعة التي ناقش فيها القروي النظم الاجتماعية والفوارق بين الطبقات كما طالب بمحو الظلم وإعطاء كل ذي حق حقه وحماية الفقير من الحاكم الغني الظالم ، وتعود أحداثها إلي عصر الملك نب-كاو-رع أحد ملوك أهناسيا في الأسرة العاشرة الفرعونية
- لقد شوقتني لسماع أحداث هذه القصة
- تتلخص مقدمة هذه القصة في أن قروياً يدعي خون أنبو ، أحس أن مخازن الغلال في منزله كادت تفرغ مما فيها ، فاستأذن زوجته في السفر إلي العاصمة أهناسيا للحصول علي المزيد من الطعام والغلة التي تكفي أولاده وطلب منها أن تعد له ما يكفيه من زاد الطريق وخرج هذا القروي من قريته حقل الملح بالقرب من وادي النطرون يحمل علي حميره بعض السلع التي اشتهرت بها قريته وكان عليه أن يخترق في طريقه إلي العاصمة ضيعة رنسي مرو مدير القصر الفرعوني ، وكان أحد عماله ويدعي جحوتي نخت طماعاً فلما رأي حمير خون أنبو بمنظرها الخلاب وما عليها من سلع ثمينة متنوعة طمع فيها ، ففكر في حيلة للاستيلاء عليها بطريقة تخدع القروي ويستسلم لها ، وقد أمر خادمه بأن يسرع بإحضار بعض قطع من قماش الكتان وأسرع فمدها علي الطريق الضيق بين ماء الترعة وحقل القمح ، فاحتار القروي إين يتجه فلم يكن أمامه إلا أن يميل بحميره فيسير علي الجانب الذي به القمح فصاح فيه جحوتي نخت وبالطبع فقد انتهز الحمار الفرصة التي انشغل فيها صاحبه بالكلام وملأ فمه بحزمة من القمح وحينئذ كشف جحوتي نخت عن مؤامرته الدنيئة للاستيلاء علي حمير القروي بحجة أنه أكل قمحه
- واستولي عليه بالفعل ؟
- نعم هكذا تقول القصة ثم اتجه القروي إلي الجنوب ليلتقي رئيس الحجاب رنسي مرو بعد أن ظل عشرة أيام كاملة يتوسل إلي جحوتي نخت ليعيد إليه حقه ، وقد استمع كبير الحجاب إلي الشكوي وسرعان ما نقلها إلي جلالة الملك نب كاو رع فسارع الملك بدوره نتيجة إعجابه ببلاغة هذا القروي بإصدار

توجيهاته إلي كبير الحجاب بأن يلزم الصمت حتي يستمر القروي في شكواه حتي يمكن للملك الاستمتاع ببلاغة القروي وفصاحته في التعبير

- وهل يغني الإعجاب بالفصاحة عن الطعام ؟
- لقد أصدر الملك توجيهاته في ذات الوقت بأن يتولي رنسي تدبير حياة أسرة القروي بإرسال المعونات الغذائية إليهم دون أن يعلم القروي شيئاً عن ذلك ، وفي نهاية القصة اقتص الملك من الظالم بأن أخذ كل ما كان يملكه وأعطاه لذلك القروي الفصيح ولم يكتف بأن رد إليه ما سرق منه وهذا يعني أنه قد عوضه عما أصابه من ألم
- فماذا كان يقول القروي في شكواه ؟
- يقول القروي مخاطباً رنسي ليحثه علي العدل في شكواه الأولي :إذا نزلت إلي بحيرة العدالة من المؤكد أنك ستبحر فيها مع ريح مواتية ، ولن يقتلع شراعك ، ولن تتقدم سفينتك ببطء ، ولن يصيب ساريتك الضرر ، ولن تنكسر عوارض السواري ، ولن تجرفك المياه ولن تعاني من مشاق النهر ولن تشاهد وجوهاً مرعبة ، بيد أن الأسماك ستتجه إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة لأنك أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ، ومئزر لمن فقد أمه ، أيها الخالي من كل حسد ، الرجل العظيم المجرد من الشراسة ، الذي يقضي علي الكذب ويوقظ الحقيقة تعال علي صوت من يتحدث إليه وأجهز علي الشر ، أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذي يمتدحه الذين يمدحون ، اطرد ضيقي ، لاحظ أنني أرزح تحت وطأة حزني ، لقد وهنت بسببه
- أسلوب بليغ بالفعل
- لقد اختصرت لك القصة من كتاب الخطاب السياسي في مصر القديمة للدكتور مصطفي النشار –أستاذ الفلسفة القديمة
- حسناً فهل هناك ما يستحق أن يُذكر أيضاً من عصر الأضمحلال الأول ؟
- نعم هناك نصائح مشهورة من ذلك العصر تسمي نصائح الملك خيتي الرابع لابنه وسوف أقرأها لك من كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – والمراجعة العلمية د ناصر الأنصاري
- وكيف وصل الملك خيتي الرابع للحكم في ظل كل هذه الفوضي والاضمحلال ؟

## ٤٤. نصائح الملك خيتي الرابع لابنه

- كان الملك خيتي الأول من أبرز من حكموا مصر في فترة الاضطرابات وتعدد الأسر الفرعونية وتعدد الحكام (خلال عصر الاضمحلال الأول) فقد استطاع الأمير خيتي حاكم الإقليم العشرين من أقاليم الصعيد في ظل الاضطرابات التي سادت الفترة الانتقالية الأولي من نهاية الأسرة السادسة حتي قيام الأسرة الحادية عشرة ، استطاع أن يؤسس الأسرة التاسعة الفرعونية حوالي سنة ٢١٣٤ قبل الميلاد ،

ويتخذ من عاصمة إقليمه وهي مدينة أهناسيا عند مدخل الفيوم عاصمة لمصر ، ولقبه الأثريون باسم الملك خيتي الأول ، ويسمي هذا العصر بالعصر الإهناسي ، أما الملك خيتي الرابع (واح كا رع) فقد جلس علي عرش أهناسيا خلال الأسرة العاشرة ، وكان ملك حازم ، ومشهور بوصيته لابنه (مري كا رع) تلك الوصية التي تلقي الضوء علي ذلك العصر ، والتي يعطي فيها خلاصة تجاربه لابنه حتي لا يقع فيما وقع فيه هو من أخطاء ويبدأ هذه النصائح بتحذير ابنه من أي تابع له يكثر من الكلام وراءه أتباع كثيرون فإن هذا الشخص يسبب الانقسام بين الناس ، ويوصيه بأن يكون فناناً في الحديث ، وينصحه بأن ينهج سبيل آبائه وأجداده وأن يكثر من قراءة ما خلفوه من كتب الحكمة ، وألا يفعل الشر وأن يتحلي بالصبر ويترك وراءه ذكري حسنة من حب الناس له ، ويحذر ابنه من الطمع ، وينصحه بأن يعتني بتثبيت حدوده وأن يعلي من شأن رجاله ويقويهم ، وينصحه باتباع الحق وإقامة العدل ، ويحذره من ظلم الأرملة ، ويوصيه بألا يحرم شخصاً من ثروة أبيه ، وألا يطرد الموظفين من وظائفهم وألا يعاقب أحداً دون خطأ وينصح ابنه بالعناية بهم وتقريبهم منه وأن يمنحهم الحقوق ، ويكافئهم بإعطائهم بعض الماشية ، ويحذره بشده أن يميز ابن شخص غني علي ابن شخص فقير ، بل يجب أن يقدر كل إنسان حسب كفاءته الشخصية ، ويوصيه بالإكثار من إقامة المنشآت الدينية وتقديم القرابين – – – ، ويختم نصائحه بحث ابنه علي طاعة الإله والخوف منه ، – – ويذكره بألا ينسي آخرته وأن يعمل لليوم الآخر وأن يذكر دائماً نعم الإله عليه

- إنها نصائح قيمة جداً بلا شك
- تلك كانت نصائح ثالث ملوك الأسرة العاشرة الفرعونية إلي رابع ملوك تلك الأسرة
- ولكن كيف انتهي عصر الاضمحلال الأول وبدأ عصر الدولة الوسطي ؟
- تعتقد في رأيك ما المتغير الذي يجب أن يحدث في مثل هذه الأحوال لتتغير ؟
- تقصد ظهور شخصية بارزة علي مسرح الأحداث ؟
- بالتأكيد ، فالأوضاع قد وصلت لمرحلة تحتاج لشخص من وزن مينا وزوسر وسنفرو
- ومن يكون هذا الشخص الذي بدأ عصر الدولة الوسطي وانتهي عصر الاضمحلال الأول عند ظهوره ؟
- إنه منتوحتب الثاني ولكنها قصة تستحق أن تروي ، ولكن قل لي بماذا كنت ستشعر إذا كنت قد ولدت وعشت في عصر الاضمحلال الأول ؟
- كنت علي الأرجح سأموت قبل أن أعرف ما حدث
- هذه إجابة رائعة
- لقد عرفت أنها ستروقك ، المهم ، هات ما عندك مشكوراً من البداية

## ٤٥. منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطي

- القصة بدأت بظهور عائلة محترمة في طيبة وقد ذكرنا أن عصر الاضمحلال الأول من الأسرة السابعة إلي العاشرة وكانت الأسرتين السابعة والثامنة تحكمان مصر من ( منف ) أما التاسعة والعاشرة فمن ( إهناسيا ) وكلاهما في الوجه البحري في شمال مصر وكانت طبعاً الأقاليم والمقاطعات شبه مستقلة عن الحكومة المركزية ، ووسط كل هذه الظروف وأثناءها ظهرت عائلة محترمة في الجنوب وتحديداً في مدينة طيبة التي يقال عنها أنها مدينة الأقصر الحالية وكان عميد هذه العائلة رجل قوي وكان حاكم لهذه المنطقة وكان اسمه ( إنيو تف ) وظل هذا الرجل وكل من جاء بعده في هذه العائلة علي خلاف واضح مع ملوك الأسرة العاشرة في إهناسيا بل وقد وقعت بعض الحروب بين الطرفين وقد تم توسيع نطاق حكم هذه العائلة الحاكمة حتي شمل خمسة أقاليم في جنوب مصر وكان هذا في عهد ( إنيوتف الثاني ) الذي حكم طيبة لمدة خمسين عاماً كما يقول أحمد فخري ثم تلاه في هذه العائلة إنيوتف الثالث ثم ( منتو حوتب الأول ) ثم ( منتو حوتب الثاني ) وهنا يتوقف التاريخ ويغير مجراه فقد جاء قائد من مؤسسي الدول ومن الشخصيات الفذة البارزة وهو منتو حوتب الثاني الذي لم يحكم الجنوب فحسب مثل سابقيه وجدوده ولكنه استطاع الإطاحة بملوك الشمال الضعفاء في إهناسيا ليصبح مؤسس الأسرة الحادية عشرة بل مؤسس الدولة الوسطي بالكامل ، وإذا اعتبرنا أن مينا مؤسس الدولة القديمة فإن منتو حوتب الثاني هو مؤسس الدولة الوسطي وكان ذلك حوالي سنة ٢٠٥٢ ق م
- مينا قد وحد القطرين أما منتوحتب الثاني فقد وحد جميع مقاطعات مصر المفككة
- بالتأكيد ، ويقول عنه أحمد فخري في كتابه الرائع مصر الفرعونية ( ولهذا يري بعض المؤرخين اعتبار من سبقه من ملوك هذه الأسرة والتسعة أعوام الأولي من حكمه وقتاً معاصراً للأسرة العاشرة وأن الأسرة الحادية عشرة تبدأ من هذا التاريخ فقط ، لكن الإنصاف في البحث يحتم علينا اعتبار أيام الأسرة الحادية عشرة منذ عهد إنيوتف الأكبر أي قبل ذلك باثنين وثمانين عاماً ) ويتضح من كلام الأستاذ أحمد فخري أن الأسرة الحادية عشرة الفرعونية كانت علي التوازي مع الأسرة العاشرة ولكن إحداهما في الجنوب والأخري في الشمال ، وهكذا عادت الحكومة المركزية القوية وسيطرت وأعادت كل شئ إلي أصله وعاد الفن والبناء والمعمار وعادت الأمجاد الفرعونية ومكتوب في موسوعة د ناصر الأنصاري ( حكام مصر) إن بداية الأسرة الحادية عشرة سنة ٢٠٦٠ ق م واعتبر أن إنيوتف الكبير الأول هو أول ملك في هذه الأسرة واسمه في الموسوعة ( انتف الأول ) أو ( سهرتاوي ) أما منتوحتب الثاني فقد ذكره علي أنه الملك الخامس في هذه الأسرة المكونة من ثمانية ملوك وآخرهم الملك منتوحتب الخامس وعلي العموم هذه الأسرة كانت تمهيداً للأسرة الثانية عشرة وهيئت لها الجو للاستقرار والبناء ،
- وهل شعر الشعب بالرخاء في ذلك العصر ؟
- لقد شعر الشعب بالأمان والاستقرار وهو أهم ما يعنيه في هرم الحاجات الذي ذكرناه
- ولا يوفر الأمن والاستقرار والعدل إلا الحكام الأقوياء بالطبع

- لقد قال أحمد فخري ( وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم )
- يبدو أن المصري دائماً يترك أمر سعادته بين أيدي حكامه
- وقد تم العثور علي بعض الرسائل المكتوبة علي أوراق البردي تنتمي إلي عصر الأسرة الحادية عشرة وتحتوي عند تأملها علي معلومات كثيرة عن هذا العصر وهي من الآثار المشهورة بين المهتمين بتاريخ الفراعنة ومعروفة باسم رسائل الكاهن الماكر
- وعلي ماذا كانت تحتوي هذه الرسائل ؟

## ٤٦. رسائل الكاهن الماكر

- ضيفنا الآن في الحوار هو ( الكاهن المزارع "حقا نخت " وهو شيخ شحيح ماكر اضطر إلي السفر إلي الشمال وترك بقية عائلته في طيبة تحت رعاية ابنه الأكبر الذي كتب له عدة رسائل "تم العثور عليها " تعطينا صورة طريفة من صور المجتمع في هذه الفترة ) ، وهذه مقتفطات قليلة جدا من رسائله بدون تعليق : (كيف حالكم في معيشتكم ورفاهيتكم وصحتكم – – إنكم أشبه بمن يأكل حتي يشبع ويغمض عينيه بينما يموت الناس جوعاً في البلاد كلها ، لقد نزلت إلي الجنوب وحصلت علي مؤونة لكم بقدر ما استطعت ، أليس النيل منخفضاً جداً ؟ حسنا فقد جاءنا المحصول متناسب مع ذلك – – فإنكم ترون أنني تمكنت من إعالتكم حتي اليوم – – إن نصف الحياة خير من الموت الكامل – لا يوجد أحد في أي مكان يحصل علي مثل هذه المؤن – – احرثوا الأرض ولا تكفوا عن العمل – ما أسعدكم لأني أعولكم – – )
- يبدو أنه لا يخلو عصر من وجود البخلاء ، ولكن كيف انتهي عصر الأسرة الحادية عشرة وبدأ عصر الأسرة الثانية عشرة ؟
- عندما تُذكر الأسرة الثانية عشرة يُذكر مؤسسها بالطبع الملك امنمحات الأول ، فلقد ساد عدم الاستقرار نهاية عصر الأسرة الحادية عشرة لمدة حوالي سبع سنوات بعد أنتهاء عصر الملك منتوحتب الثالث الذي كان آخر الملوك الأقوياء في هذه الأسرة ويبدو أن امنمحات الأول قد استغل ذلك لتأسيس أسرته
- وكيف اكتسب شرعيته في الحكم وهو ليس من البيت المالك
- هذا الموضوع كان متيسراً أيام الفراعنة ويتلخص في اختراع نبوءة ينسبونها للآلهة تبشر بتولي شخص معين حكم مصر أي أن تعيينه بإرادة الآلهة وسنري ذلك أكثر من مرة أثناء حديثنا عن العصر الفرعوني وجدير بالذكر أن أشهر نبوءة في تاريخ الفراعنة هي المكتوبة علي لوحة تسمي لوحة الحلم بين مخالب أبو الهول وموجودة حتي الآن وسوف أحدثك عنها عند الوصول إليها أما ما حدث بالنسبة لبداية الاسرة الثانية عشرة فقد قام آخر ملوك الأسرة الحادية عشرة علي ما يبدو بتكليف وزيره

(إمنمحات) بإحضار الأحجار اللازمة لتشييد المعابد وعمل التابوت الخاص به فقام امنمحات هذا بإعداد حملة كبيرة جداً إلي وادي الحمامات لقطع الأحجار وأخذ معه ما يقرب من عشرة آلاف شخص وطبعاً هذا العدد كان مبالغ فيه جداً ولا يتناسب مع طبيعة المهمة لأنه كان قد قرر إنهاء حالة الفوضي والإنقلاب علي الملك وتأسيس أسرة حاكمة جديدة باستخدام هذه القوة الكبيرة التي أصبحت تحت قيادته

- علي أي حال يبدو أن امنمحات لم يكن شخصية عادية أليس كذلك ؟

## ٤٧. الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية

- بالتأكيد فقد قال عنه أحمد فخري : لم يكن امنمحات إلا رجلا عصاميا من الشعب رفعه ذكاءه وجده إلي المكان الذي يستحقه – – وكان من بين أساليب رده علي خصومه كتابة البردية المعروفة باسم تنبؤات نفرتي المحفوظة الآن في متحف لينجراد والتي أطنبت في وصف ما سيحل بمصر من فوضي وأن إنقاذها سيتم علي يدي ملك سيأتي من الجنوب يسمي أميني " امنمحات" ابن امرأة من النوبة ويولد في الصعيد سيهزم الأسيويون أمام مذابحه ويقع الليبيون صرعي أمام لهيبه – – ولم يكن المقصود من كتابة تلك البردية إلا الترويج بين الشعب لهذا الحاكم الجديد ومحاولة إقناع الناس بأن اختياره لإنقاذ مصر أمر أرادته الآلهة منذ أبعد الأزمنة – – وطالت الأيام بأمنمحات حتي وصل حكمه إلي ثلاثين عاما ولم يقدر له أن يموت وهو في شيخوخته ميتة هادئة بل مات غيلة وهو في قصره ، إذ انتهز أعداؤه فرصة غياب ابنه وولي عهده وشريكه في الملك سنوسرت ، في حملة علي ليبيا ودبروا مقتله – ونعرف بعض التفاصيل عن تلك النهاية من برديتين إحداهما من بردية شخص يسمي سنوهي ، أما البردية الثانية فهي معروفة باسم نصائح امنمحات لابنه وقد كتبت دون شك بعد موت الملك وكأنها علي لسانه من العالم الآخر يتحدث فيها إلي ابنه ويوصيه كيف يسوس الملك – – وكانت من أحب الموضوعات الأدبية إلي قلوب المصريين في الدولة الحديثة من الأسرة ١٨ حتي الأسرة ٢٠ وكانت موضع دراسة كثير من العلماء

- هذا يعني أن الفراعنة كانوا يهتمون بدراسة تاريخهم وما حدث في الأسر السابقة

- بالتأكيد ( وتمتاز الأسرة الثانية عشرة بما أنتجه صانعوا الحلي وبخاصة لأميرات البيت المالك إذ جمعت تلك الحلي بين الدقة المتناهية في الصناعة والذوق الفني الرفيع ) كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار ، كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر في عهد هذه الأسرة الأدب والفن

- يبدو أن هذه الأسرة كانت مسيطرة تماماً ولها العديد من الإنجازات

- نعم وسوف أقرأ لك بعض إنجازات هذه الأسرة لأنها تستحق بالفعل ويقول الرافعي عن هذه الأسرة في كتابه تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة : وتمتاز هذه الأسرة عامةً بأنها نزلت قليلاً عن السلطة القدسية التي كانت لملوك الدولة القديمة ، وتقربت إلي الشعب بإقامتها منار العدل ، وبالعديد من الإصلاحات والأعمال الإقتصادية والعمرانية التي زادت من رخاء الشعب ، وقد استمر حكم هذه الأسرة ما يقرب من مائتي عام ، تقدمت البلاد تقدماً عظيماً في شتي النواحي ، وكانت مصر في عهدها أقوي دولة في المنطقة ، وكان الملك سنوسرت الأول ثاني ملوك هذه الأسرة ، وقد أقام مسلة شهيرة باقية إلي الآن ( بالمطرية ) ويبلغ ارتفاعها ٦٦ قدماً ، وهي قطعة واحدة من الجرانيت الأحمر ، وقد أقامها في مدخل المعبد والمدرسة الجامعة اللذين بناهما في عين شمس ( التي يسميها اليونانيون هليوبوليس ) – مدينة أون – وهي أقدم مسلة قائمة في مكانها الأصلي ، ويقول الدكتور أحمد بدوي في كتابه ( موكب الشمس ج٢ صفحة ١٣٠ ) إن مسلة عين شمس إحدي خمس مسلات مازالت في مكانها الأصلي وأما باقي مسلات الفراعنة فقد نقلها الضعف والهوي السياسي إلي ما وراء البحار إلي لندن وباريس ونيويورك وروما واستانبول وفي روما وحدها مسلات تسع
- الضعف والهوي السياسي ، يا له من تعبير ، وتخيل معي إذا كان الفراعنة سيعرفون إلي أين ستذهب آثاراهم هل كانوا سيشيدونها ؟
- بل تخيل إذا عاد أحدهم إلي قبره كما يدعون في يوم من الأيام
- سيجد جميع محتويات القبر في جميع متاحف العالم بالتأكيد ، المهم فماذا عن باقي مشروعات هذه الأسرة ؟
- من أهم المشروعات العملاقة لهذه الأسرة بلا شك مشروعات الملك امنمحات الثالث التي انبهر بها المؤرخ هيرودوت المعروف عندما حضر إلي مصر وكتب عنها وبمناسبة الحديث عن امنمحات الثالث فإنه توجد حاليا بمتحف اللوفر بفرنسا رأس تمثال رائعة لهذا الملك
- هيرودوت هذا هو الذي قال قولته الشهيرة أن مصر هبة النيل فماذا قال عن هذه المشروعات

## ٤٨. عندما انبهر المؤرخ اليوناني هيرودوت بمشروعات الملك امنمحات الثالث

- ورد بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين صفحة ٨٠ وما بعدها وتحت عنوان امنمحات الثالث حوالي ١٨٤٢ قبل الميلاد : حكم امنمحات الثالث مصر وقد سمي باسم ني ماعت رع ويعتبره المؤرخون من أعظم من حكموا مصر ، ودام حكمه خمساً وأربعين سنة مرت علي مصر في هدوء وسلام وملئت بالمشاريع الكبري العمرانية ، كان أعظمها بطبيعة الحال نظام الري الذي ابتكره للوجه البحري بأن اتخذ من منخفض اقليم الفيوم الذي ينخفض في بعض أجزائه عن البحر بـ ١٢٩ قدماً خزاناً للماء حيث لا تزال بحيرة قارون آية علي ذلك فشيدوا علي الفتحة في سلسلة الجبال التي تربط وادي النيل بمنخفض الفيوم سداً عظيماً – سد اللاهون– فنشأت هذه البحيرة الهائلة في التاريخ

التي عرفت باسم بحيرة موريس والتي كانت تمد النيل بعد ذلك بالماء خلال فترة التحاريق أشبه بخزان أسوان أو السد العالي في عصرنا الحديث ، وبهذا ضرب عدة عصافير بحجر واحد ، فهو أنقذ الفيوم من الغرق الذي كانت تتعرض له كل عام ، واستصلح أراضي زراعية قام باستغلالها بالفعل ومد النيل بالماء أيام التحاريق ، ومن الأعمال العمرانية العظيمة التي تنسب إلي امنمحات الثالث ، القصر العظيم الذي اطلق عليه اليونانيون اسم قصر اللابيرانت – قصر التيه – وكان طوله يبلغ ألف قدم وعرضه ثمانمائة وقد استعمل معهداً دينياً وإدارياً ، وقد وصف هيرودوت هذين الأثرين ونعني بهما بحيرة موريس وقصر اللابيرانت ، فقد رآهما رأي العيان ووصف ما رأي عامة وسجل انبهاره كما ورد في كتاب هيرودوت يتحدث عن مصر لمحمد صقر خفاجة

- فماذا قال هيرودوت ؟
- يقول : إن اللابيرانت عمل يعجز عن وصفه البيان ، إذ لو قدر لإمرئ أن يجمع معرضاً للمباني والآثار الفنية التي شيدها اليونانيون لبدت عملاً أقل من هذه اللابيرانت – – – – ثم ينتقل هيرودوت للتحدث عن بحيرة موريس فيقول : ومع أن اللابيرانت علي هذه الدرجة من العظمة ، لكن البحيرة المسماة ببحيرة موريس والتي بني اللابيرانت بالقرب منها تثير إعجاباً أشد ، وراح هيرودوت يسجل أبعاد الخزان العظيم وكيف يصل إليها الماء من النيل لمدة ستة أشهر ثم يرجع منها إلي النيل مدة ستة أشهر ثانية ، وهي القناة المعروفة اليوم باسم بحر يوسف ، كما تحدث هيرودوت عن تمثالين لامنمحات الثالث ، وفترة حكم امنمحات الثالث حل فيها النعيم والأمن والسكينة علي البلاد ، حتي ترنم القوم بالفرعون قائلين : أنه يكسو القطرين جنة خضراء أكبر من النيل العظيم ، لقد زاد القطرين قوة ، كيف لا وهو نفس الحياة المرطب للأنوف ، هو الذي يوزع الخيرات علي تابعيه ، هو المغذي لخلفاءه ، هو الفداء وفي فمه الخير
- يبدو أن الحاكم هو كل شئ في مصر وكلما قرأت لي أكثر كلما يتأكد هذا المعني ، مع أن الشعب هو الذي يصنع كل شئ ولكن لابد أن تأتيه المبادرة من أعلي وبقوة ، فالحاكم القوي كل ما عليه أن يرغب فقط في فعل أي شئ
- بالتأكيد إن رغبة الحاكم في مصر تلعب الدور المحوري إن لم يكن الدور الوحيد في تنفيذ أي مشروع ولكن من الإنصاف أن نقول أن الحاكم القوي إذا كان عادلاً في نفس الوقت يكون ذلك من حسن حظ الشعب فهو لا يملك تغييره علي أي حال
- قد يكون ما تقوله صحيحاً ولكن هناك اعتبارات أخري في غاية الأهمية والخطورة وهي أن مصر كانت في ذلك الوقت دولة قوية ذات سيادة بل أقوي دولة في المنطقة وبالتالي فإن حاكمها كان لا يخضع لأي ضغوط خارجية تفرض عليه اتخاذ قرارات معينة ليست نابعة منه شخصياً

- بالفعل معك كل الحق فمصر في ذلك الوقت لم تعرف التبعية ولم يتم السيطرة عليها أو علي حكامها بأي صورة من الخارج فكانت كل مشاكلها واضطراباتها تحدث داخلها فقط فإذا حكمها حاكم قوي وعادل لا يوجد ما يمنعه علي الإطلاق من فعل ما يريد دون أن يضع في اعتباره الموقف الدولي أو توازنات من أي نوع في المنطقة أو أي شئ من هذا القبيل ، كما أن كل ما يجمعه الحاكم وحاشيته وكهنته وكبار رجال دولته لا يخرج من مصر بل يتم إنفاقه داخلها ، وبالتالي فإن جميع خيرات مصر تبقي داخل مصر

- حسناً ، فهل توجد إنجازات أو مواقف تاريخية أخري مهمة لهذه الأسرة ؟

## ٤٩. في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرانيت

- حدث موقف تاريخي نادر عندما قرر الملك سنوسرت الثالث ١٨٧٤-١٨٥٥ ق.م. إجراء أعمال حربية في النوبة لتأمين حدود مصر الجنوبية فقد وجد عقبة كبيرة أمام سفن الأسطول ، فشق لأسطوله طريقاً بين صخور الشلال الأول ، وأنشأ مهندسوه هذا الطريق المائي في أصعب مناطق الشلال الجرانيتية لمسافة مائتين وستين قدماً بعرض أربعة وثلاثين قدماً وعمق ستة وعشرين قدماً ، وحمل علي النوبة عدة حملات وطدت فيها السلطة المصرية ، وشيد حصنين متقابلين في آخر الحدود الجنوبية للدولة علي شاطئ النيل ، ولا تزال آثار هذين الحصنين باقية الآن تشهد لمصر في تلك الأوقات بالبراعة الحربية والكفاية في اختيار مواقع الدفاع الحصينة ، والمقدرة علي تشييد الحصون المنيعة ، وكان سنوسرت الثالث من أهم ملوك الأسرة الثانية عشرة الفرعونية بالدولة الوسطي ، وقد نصب لوحته المشهورة التي يتحدث فيها إلي المصريين عن الكفاح الوطني ويحثهم عليه

- إن هؤلاء الملوك كانوا حريصين علي كتابة وتسجيل أمجادهم فماذا كتب علي هذه اللوحة ؟

- بعض من المكتوب علي اللوحة نقلاً عن كتاب تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة – تاليف عبد الرحمن الرافعي – صفحة ٥٤: ( – – ولقد جعلت تخوم بلادي أبعد مما وصل إليه أجدادي ، وزدت في مساحتها علي ما ورثته ، وإني ملك يقول وينفذ ، وما يختلج في فؤادي تفعله يدي ، وإني طموح إلي السيطرة ، وقوي أحرز الفوز ، ولست بالرجل الذي يرضي بالتقاعس عندما يعتدي عليه ، أهاجم من يهاجمني حسبما تقتضيه الأحوال فإن الرجل الذي يركن إلي الدعة بعد الهجوم عليه يقوي قلب العدو ، والشجاعة هي مضاء العزيمة – – )

- يقول وينفذ أم يقول والشعب هو الذي ينفذ ؟

- علي أي حال لن ينفذ أحد أي شئ إلا بقرار من الفرعون ، وعموماً فقد حكمت هذه الأسرة ما يقرب من قرنين ، وتتكون من مجموعة من الملوك اشتهروا باسم امنمحات وسنوسرت علي التوالي وهذا هو الترتيب المفضل لملوك هذه الأسرة : امنمحات الأول – سنوسرت الأول – امنمحات الثاني – سنوسرت الثاني – سنوسرت الثالث – امنمحات الثالث – امنمحات الرابع – الملكة سبك نفرو وقد

امتاز عصر هذه الأسرة بالرقي في الذوق الفني كما يمتاز هذا العصر بنشاط دبلوماسي كبير وعلاقات واسعة مع دول الجوار مثل فلسطين وسوريا وبعض جزر البحر المتوسط مثل قبرص وكانت الدول التي ارتبطت بمصر بعلاقات صداقة هي المستفيدة أكثر بهذه العلاقات بطبيعة الحال لأن مصر في ذلك الوقت كانت أعظم الأمم ثقافة وقوة وحضارة في بلاد الشرق القديم علي حد تعبير أحمد فخري

- أو كما ورد في الأغنية الشهيرة طوف وشوف لكوكب الشرق أم كلثوم : كان نهار الدنيا لسه ما طلعش ، وهنا عز النهار
- كما اهتمت هذه الأسرة بالجنوب وقامت بتعيين حاكم مصري جنوب الشلال الثالث وأقامت حصناً ومخزناً كبيراً للتجار هناك كما أقامت هذه الأسرة مشاريع للري واهتمت بالزراعة وبنهر النيل اهتمام خاص كما ازدهر الأدب والفن في عصر هذه الأسرة ، وقد كتب عنها أيضاً المؤرخ والأثري الكبير د أحمد فخري في كتابه الممتع مصر الفرعونية وتحديداً في الصفحة رقم ٢٤٠ ( وما من شك في أن أكثر ملوك الدولة الوسطي لم يكونوا عتاة أو متجبرين في الأرض بل نعرف عن أكثرهم أنهم كانوا فخورين بعدلهم بين الناس وسهرهم علي رعايتهم ولهذا سرعان ما أطمأن الناس إلي حكامهم وتركوا أمر سعادتهم بين أيديهم)
- أعتقد أنك ذكرت هذا من قبل ، فماذا حدث لهذه السعادة والحضارة ؟

## ٥٠. نهاية غامضة للأسرة ١٢ وعصر الاضمحلال الثاني

- تخيل نفسك تعيش في ذلك العصر فبالتأكيد ستشعر أن هذا الرخاء دائم ولا نهاية له وستموت بالتأكيد قبل أن تعرف أن مصر قد تعرضت لفترة ضعف ونهاية غامضة للأسرة ١٢ وبداية عصر الاضمحلال الثاني
- وكيف حدث ذلك ؟
- عصر الاضمحلال الثاني يبدأ بنهاية الأسرة الثانية عشرة ومع بداية الأسرة الثالثة عشرة وأصل الحكاية أن البيت الملكي للأسرة ١٢ لم يعد به رجال علي ما يبدو فتولي الحكم إمرأة اسمها الملكة ( سبك نفرو رع ) ويبدو أن ما حدث في هذه الفترة أيام نهاية حكم هذه الملكة غير مدون بدقة في كتب التاريخ ويكاد يكون مجهول فأنا أمامي الأن كتابين أحدهما الجزء الرابع من موسوعة سليم حسن والأخر كتاب مصر الفرعونية لأحمد فخري وكلاهما لا يجد سبب واضح لظهور أول ملك في الأسرة ١٣ فمثلاً يقول سليم حسن في صفحة ٤ الجزء الرابع ( لم تصل إلي أيدينا معلومات وثيقة عن حال نهاية حكم الملكة سبك نفرو رع آخرة ملوك الأسرة الثانية عشرة ويظن بعض المؤرخون أنها لابد قد تزوجت الملك " سخم رع خوتاوي " وأنه بزواجه منها أصبح ملكاً شرعياً ولكن ليس لدينا ما يدعم ذلك الزعم ) بينما في كتاب أحمد فخري صفحة ٢٢٩ ( – – فإذا ما تساءلنا عما حدث وما الذي قضي علي حكم

تلك الأسرة وربما علي الملكة أيضاً فإننا نجد أنفسنا عاجزين عن الجواب المقنع لقلة ما لدينا من وثائق ) ،

- أي أن السبب الحقيقي غير معروف والمهم أن الملك ( سخم رع خوتاوي ) وصل للسلطة
- نعم ، وعلي فكرة اسمه في موسوعة حكام مصر ( خوتاوي رع ) والغريب أن ملوك الأسرتين ١٣ ، ١٤ مدرجين معاً بدون فاصل في موسوعة حكام مصر وهناك العديد منهم حكموا مصر لفترات قصيرة جداً مما يدل علي أن مصر كان يسودها عدم الاستقرار لكن لفت نظري إن اسم الملك ( نحسي ) مكتوب في آخر قائمة ملوك الأسرة ١٤ وجاءت بعد اسمه مباشرةً أسماء ملوك الهكسوس ومن المحتمل أن هذا الملك كان علي صلة بالهكسوس وموالي لهم في تقدير بعض المؤرخين لأن من ألقابه التي وجدت في الآثار الفرعونية لقب ( حبيب "ست" رب أواريس ) والإله (ست) هذا هو الإله المعبود عند الهكسوس أما مدينة (أواريس) فهي عاصمة ملكهم في مصر ،
- يبدو أن هذه الفترة ليست واضحة تماماً
- نعم حتي أن عدد ملوك هاتين الأسرتين يكاد يكون غير معلوم بالرغم أن هناك أثار كثيرة وجدت من هذه الفترة ويبدو أن الهكسوس كانوا موجودين فعلاً في مصر أيام حكم فراعنة هذه الفترة ولكن بشكل غير رسمي لأن سليم حسن يعتقد أن الهكسوس تسربوا إلي مصر ببطء وعلي مهل ونشروا ثقافتهم ومبادئهم ودرسوا البلاد جيداً ثم انقضوا عليها بجيش جرار سيطروا به علي الدلتا فقط في البداية ثم امتد سلطانهم إلي مصر الوسطي حتي تمكنوا من البلاد وحكموها لمدة أسرتين ١٥ ، ١٦ وطبعاً لن أشغل بالك يا عزيزي بما تم من أحداث خلال فترات حكم الأسرتين ١٣ ، ١٤ لسببين ، أول سبب هو عدم وجود معلومة مؤكدة وواضحة تماماً مكتوبه عنهم والسبب الثاني لأنها فترة أجمع المؤرخون علي أنها عصر اضمحلال وضعف
- ولكن ما هي حكاية الهكسوس وأصلهم وفصلهم ومن هم ومن إين قدموا وما مدي تأثر البلاد بهم ؟ لأنني سمعت أنه قد حدث تطور كبير في ثقافة المصريين بعد تعرضهم لهذا الغزو ، كما أريد أن أعرف معلومات عن مظاهر الضعف في مصر قبل وصول الهكسوس إذا كانت هذه المعلومات متاحة لديك لنستفيد من الدروس وإلا فما الفائدة ؟
- لقد وصف سليم حسن بعض مظاهر الضعف في الأسرة ١٣ فكتب ما يلي : ( - - - غير أن هذه الهزة القاسية - - لم تحدثنا النقوش الباقية حديثاً شافياً يجعلنا نصل إلي كنهها، ومع ذلك فإنا نلمس حقيقتها من اضطراب البيت المالك فما يكاد الفرعون يستقر في عرشه حتي يغتصب منه الملك ويطرد ثم يتلوه غيره وتتجدد المأساة ، مما يدل علي أن البلاد كانت منحدرة نحو الخراب والتدهور المشين ، ولا يبعد أن يكون الملوك الذين يموتون علي فراشهم ميتة طبيعية قلائل جدا ) كما أشار سليم حسن عن انتشار ظاهرة بيع الوظائف الحكومية فقال ( - - علي حسب ما تسمح به الوثائق التي في

متناولنا يكشف لنا بعض الشئ عن الحالة الحقيقية لهذه الأزمة التي ارتسمت في عهد الأسرة الثالثة عشرة، وهي أن كبار الموظفين الخاضعين للتاج، وبخاصة الضباط منهم الذين كانوا وقتئذ يغتصبون العرش ، وكانوا يتشاحنون فيما بينهم ، وكان كل منهم يطمح إلي أن يكون الفائز فكان يحل الواحد منهم مكان الآخر دون أن يفوز مغتصب بأن يضمن لنفسه مركزا ثابتا أو يفلح في تأسيس أسرة قوية الأركان مدعمة البنيان ، هذا إلي أن كبار رجال الدولة كانوا يبيعون وظائفهم كما تباع السلع ، فلا غرابة في أن يكون العرش كذلك يباع ويشتري لمن في يده قوة وجاه ) ( وعلي أية حال فإن ظاهرة بيع وظيفة حكومة بلد من بلدان القطر تدل علي تفكك أواصر الروابط الحكومية في البلاد ولا غرابة إذن في أن نشاهد ذلك في عهد الأسرة الثالثة عشرة التي كان ملوكها علي جانب عظيم من الوهن والضعف مما أدي إلي غزو البلاد علي أيد الهكسوس )

- من هذا الكلام يبدو أن هناك أشخاص من كبار رجال الدولة ومن الضباط كانوا يعتقدون أنهم من مؤسسي الدول ولكنهم كانوا دون المستوي ففشلت كل محاولاتهم في السيطرة علي الأمور وطبعا لا وجود للشعب في هذا الصراع بكل تأكيد
- يبدو ذلك بالفعل
- ولكن هل يوجد حساب تقريبي لمدة الاضمحلال ؟
- د سيد توفيق حسب مدة عصر الاضمحلال الثاني تقريباً فكتب ما يلي : ( تعرضت مصر منذ الأسرة الثالثة عشرة وطوال قرنين أي حتي الأسرة السابعة عشرة للضعف وللانحلال واجتازت فترة أخري مظلمة
- عفوا للمقاطعة ولكن لماذا وصف الفترة أنها مظلمة مع عدم توفر معلومات كافية عنها ؟
- لا أدري ما هو المقصود بالفترة المظلمة هل لأن الفرعون فقد سيطرته وعبوديته في مصر بالكامل أم لعدم وجود آثار رائعة باقية من تلك الفترة أم لأن الشعب المصري تخلص من قهر الحكومة المركزية أم لعدم وجود استقرار للعرش أم لوجود احتلال لا ندري هل كان أرحم بالشعب من الفرعون نفسه أم كان أكثر قسوة ويبدو أن مفهوم العصور المظلمة والعصور الزاهرة له علاقة وثيقة بعبادة الفرعون نفسه فكلما كان الفرعون شديد القوة والبطش والسيطرة والبناء والتشييد للمقابر والمعابد الخاصة به وبكبار رجال دولته وكهنته كلما وصف المؤرخون عصره بالعصر الرائع الزاهر
- أعتقد أن الموضوع مرتبط بالآثار والله أعلم ، فما تكملة حديثه عن هذه الفترة ؟
- يقول أن مصر اجتازت فترة أخري مظلمة أشد من التي اجتازتها أعقاب الدولة القديمة فتحكم فيها ملوك ضعاف - - - - ، من الملاحظ أن فترة الحكم التي أعطاها مانيتون للفترة الانتقالية والتي وصلت في رأيه إلي ١٥٩٠ عاما والتي قام بالحكم فيها عدد من الحكام وصل عددهم إلي ٢١٧ حاكما تؤكد لنا المصاعب التي واجهت مانيتون عند كتابته تاريخ هذه الفترة وهي المصاعب التي واجهت فريق من العلماء والمتخصصين لمعرفة فترة حكم كل أسرة وعدد ملوكها ، علي أنه أصبح في حكم

المؤكد الآن أن الملكة سوبك نفرو آخر ملكات الأسرة الثانية عشرة قد ماتت في عام ١٧٨٦ ق م كما أن الأبحاث الحديثة أكدت أن الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة الثامنة عشرة تولي الحكم في عام ١٥٦٧ ق م أي أن الفترة الانتقالية الثانية استمرت ما يقرب من ٢٢٠ عاما وهي مقسمة –في رأي هيز– علي الوجه التالي : الأسرة الثالثة عشرة من ١٧٨٦ ق م إلي ١٦٣٣ ق م ثم الأسرة الرابعة عشرة حتي سنة ١٦٠٣ ق م ثم الأسرة الخامسة عشرة والسادسة عشرة [من الهكسوس] ثم الأسرة السابعة عشرة الوطنية – – ومن هنا نري أن هناك أكثر من أسرة كانت تحكم في جزء من مصر في وقت واحد عندما كانت مصر مفككة العري وليس كما كان يعتقد مانيتون أن كل أسرة من هذه الأسرات كانت تحكم وتتحكم في جميع أنحاء مصر ثم تليها أسرة أخري جديدة وهكذا –

- أي أن هذه الأسر الضعيفة كانت تحكم علي التوازي ولكن اعتبرها مانيتون متوالية يعقب بعضها بعضا فأخطأ في حساب المدة بالكامل
- نعم وقد غزا الهكسوس مصر في الأسرة الخامسة عشرة وأطلق عليهم العالم الألماني أوتو اصطلاح الهكسوس الكبار فقد أعطوا لأنفسهم الحق بالاحتفاظ بالألقاب الملكية المصرية ويبدو أنهم استطاعوا في البداية السيطرة علي جميع أنحاء مصر وانتشرت اسمائهم – ونخص بالذكر هنا الملك خيان والملك أبوفيس من النوبة إلي فلسطين ثم بعد ذلك أتت مجموعة أخري من حكام الهكسوس أطلق عليهم نفس العالم اصطلاح الهكسوس الصغار أو الضعاف وهم الذين ينتمون للأسرة السادسة عشرة ولم يستطع هؤلاء السيطرة علي جميع أنحاء مصر إذ قام في هذه الفترات بيت حاكم قوي في الصعيد اتخذ من طيبة مقرا له وأسس الأسرة السابعة عشرة وأخذ علي عاتقه تحرير مصر من الهكسوس – – قلنا أن الفوضى بدأت تسود مصر في الفترة التي بدأت تظهر في غرب آسيا حركة هجرة قبائل واسعة تنتمي إلي العنصر الهندو أوروبي وقد وصل أثرها إلي مصر وبدأت تشعر بها في أوائل الأسرة الرابعة عشرة وذلك بعد أن استقرت هذه القبائل في سوريا وفلسطين وأخذوا بمظاهر الحضارة السامية الموجودة هناك وعرفوا في التاريخ باسم الهكسوس )

## ٥١. من هم الهكسوس ؟

- من هم الهكسوس ؟
- الهكسوس كتب عنهم الفراعنة أنفسهم بعد ذلك ووصفوهم بأوصاف تعبر عن مدي استياءهم الشديد منهم فقالوا عنهم الرعاة البدو وقالوا عنهم الطاعون أما كلمة هكسوس نفسها فتعني ( حكام الأقاليم الأجنبية ) وهو المعني المقبول تفسيره من وجهة نظر سليم حسن في موسوعته ( صفحة ١ بالجزء الرابع ) ، وكان عدد ملوكهم الذين حكموا مصر ٢٣ ملكاً تقريباً منهم ثمانية ملوك لقبوا أنفسهم بلقب الإله الطيب وستة ملوك لقبوا أنفسهم بلقب ابن الشمس وقد تركوا آثاراً موجودة إلي الآن وكان الثلاثة

وعشرين ملكاً موزعين علي أسرتين ١٥ ، ١٦ وكانت عاصمتهم في أواريس في الوجه البحري طبعاً وكانوا يقدسون الإله ( ست ) الذي يعتبره المصريون القدماء إله سئ السمعة

- أعوذ بالله هل يوجد إله سئ السمعة ؟ لا إله إلا الله سبحانه وتعالي عما يشركون
- الهكسوس أو الرعاة عبارة عن شعوب من البدو جاءت من الشرق واستوطنت البلاد لمدة ١٥٠ سنة تنشر ثقافتها في مصر إلي أن جاءت الأسرة السابعة عشرة الفرعونية وظلت تقاومهم وتحاربهم حتي نجح أحمس في طردهم من البلاد وأسس الأسرة ١٨ بل إنه أسس دولة جديدة فرعونية تسمي عصر الدولة الحديثة ، لكن في الحقيقة توجد معلومة غريبة جداً قرأتها وهذه المعلومة أنكرها بشدة سليم حسن برغم أنه ذكرها منسوبة إلي صاحبها وبالرغم من إنكار هذه المعلومة وعدم صحتها إلا أنها تدل علي أمور كثيرة جداً ، إن اليهود والهكسوس هما عنصر واحد والذي قال هذه المعلومة طبعاً مؤرخ يهودي عاش خلال القرن الأول من الميلاد واسمه ( فلافيوس يوسفس ) ويقول سليم حسن عن هذا الموضوع ( – – وقد كان غرض يوسفس الأول فيما نقله عن مانيتون العمل جهد الطاقة في الرفع من شأن قومه اليهود الذين كان يحتقرهم كتاب الإغريق ويحطون من شأنهم )[٦] ،
- أي أنه أراد أن يرفع من شأن اليهود فأكد أنهم هم أنفسهم الهكسوس ونسب ذلك لمانيتون شئ عجيب فعلا ، ولكن بالمناسبة هل لديك معلومات عن اليهود الذين ربما كانوا متواجدون في تلك الفترة من تاريخ مصر ؟
- يمكن بالطبع أن نوضح بعض المعلومات عنهم وعن نشأتهم لأن الكثير من هذا الجيل لا يعرف قصة ( بني إسرائيل وبني اسماعيل ) إذا جاز التعبير أي بني إسرائيل والعرب المستعربة وعلاقتهم بعضهم ببعض ونسبهم إلي سيدنا ابراهيم عليه السلام ومتي كان ذلك وعلاقته بالفراعنة ،
- سيكون ذلك ممتعاً

## ٥٢. بني اسرائيل وعلاقتهم بالفراعنة

- عموماً لا يوجد تاريخ معروف علي وجه الدقة لدخول بني اسرائيل مصر عندما كان سيدنا يوسف بها ( عليه السلام ) ولكن المؤكد في هذا الموضوع أنهم مكثوا بمصر حتي خروجهم مع سيدنا موسي عليه السلام
- أي أن سيدنا يوسف أدخلهم وسيدنا موسي ، أخرجهم ولكن من هم وكم كان عددهم عند دخول مصر وعند الخروج ؟
- هذا هو ما سنتحدث عنه إن شاء الله ، وفي الحقيقة إن بداية القصة تعود إلي سيدنا ابراهيم عليه السلام الذي ولد ببابل[٧] وتزوج من السيدة سارة التي كانت عاقراً لا تلد ثم هاجر من بابل إلي فلسطين

---

٦ موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ٤ صـ ٥٧

[٧] قصص الأنبياء ( الإمام الحافظ ابن كثير ) صـ ١٠٥

( الأرض المقدسة ) وقد يكون تزوج من السيدة سارة بعد أن هاجر ، ومعروف طبعاً عن سيدنا ابراهيم أنه حطم الأصنام وأنه واجه النمرود ملك ذلك العصر ( بفرض أن اسمه نمرود ) والذي كان يقول أنا أحيي وأميت وقد تم إلقاءه عليه السلام في حفرة من نار وأحاطه المولي عز وجل برعايته كما أنه خليل الله وصاحب لسان صدق في العالمين كما أنه عليه السلام أبو جميع الأنبياء الذين جاءوا بعده لأن الله سبحانه وتعالي جعل في ذريته النبوة والحكمة ، وطبعاً ليس هذا مقام الحديث عن مناقبه عليه السلام وإنما أريد إلقاء الضوء علي ذريته ببساطة شديدة لنتعرف علي أبناءه وأحفاده وظروف نشأتهم وأماكن تواجدهم بعد ذلك لكي نقف علي ما نريد من معلومات تخص بني اسرائيل وبني اسماعيل وقد كان سيدنا لوط عليه السلام علي صلة قرابة بسيدنا ابراهيم وآمن له ويقول المولي عز وجل عنهما {وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ}[٨]

- وهذه الأرض التي باركها الله سبحانه هي منطقة القدس الشريف وما حوله أليس كذلك ؟
- نعم والله أعلي وأعلم والمعروف أن سيدنا إبراهيم جاء إلي مصر مع زوجته سارة وعاد ومعه السيدة هاجر المصرية وكانت جارية ورزقه الله من هاجر مولوداً ذكراً هو سيدنا اسماعيل عليه السلام وهو يعتبر أكبر أبناءه ثم ذهب بهاجر وإسماعيل إلي مكان بيت الله الحرام وتركهما متوكلاً علي الله ودعا لهما وللمكان {رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[٩] ومن المؤكد أن سيدنا ابراهيم قام بزيارة السيدة هاجر وابنها اسماعيل بعد ذلك وكلنا يعرف قصة رفع القواعد من البيت الحرام وكذلك قصة الذبح {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاء اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ}[١٠] ونعلم جميعاً أن المولي عز وجل فداه بذبح عظيم وظل اسماعيل علي قيد الحياة

- كل هذا معروف بالطبع
- بالرغم من أنني علي ثقة من أنك علي علم بهذه المعلومات إلا أنني أقوم بربط الأحداث وإيجازها فقط لتتضح الصورة أمامك ، وظل سيدنا اسماعيل في مكة ووهبه الله الذرية عندما تزوج من العرب العاربة وأصبح أولاده وأحفاده يشكلون ما يسمي بالعرب المستعربة والفرق بينهما أن العرب العاربة هم الذين كانوا يسكنون الجزيرة العربية قبل مجئ سيدنا اسماعيل عليه السلام مثل قبائل جرهم والعماليق أما العرب المستعربة فهم أبناء وأحفاد سيدنا اسماعيل أنفسهم ويعتبر سيدنا اسماعيل عليه السلام الجد الأكبر لهم وجدير بالذكر أن قبيلة قريش ( قوم رسول الله صلي الله عليه وسلم ) يعود نسبها إلي

---

[٨] (٧١) سورة الأنبياء

[٩] (٣٧) سورة إبراهيم

[١٠] (١٠٢) سورة الصافات

سيدنا اسماعيل عليه السلام ، نترك الآن سيدنا اسماعيل في مكة ليؤسس مع أبناءه وأحفاده هذه القبائل والبطون بجوار بيت الله الحرام ( الحرم الآمن ) ونعود إلي سيدنا إبراهيم والسيدة سارة زوجته

- وهل يتفق اليهود معنا في هذه المعلومات ؟
- طبعاً لم يتركوا هذه القصة كما هي ولكنهم زعموا أن سيدنا ابراهيم ذهب بهاجر وابنها بعيداً عن سارة لأنها كانت تشعر بغيرة من الجارية التي أنجبت بينما هي لا تلد[١١] فاضطر إلي إبعادها لهذا السبب ولكن طبعاً هذا الكلام كله لا أساس له من الصحة لأن السبب الرئيسي لما فعله هو امتثالاً لأمر المولي عز وجل والذي كان سبباً في تعمير بيت الله الحرام وإنشاء حياة حوله وليس كما يدعي بني اسرائيل أو بعضهم بل إن بعضهم يدعي أن الذبيح ليس اسماعيل بل اسحق وكل هذا لا أساس له من الصحة والله أعلم .
- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- حدث أن السيدة سارة أنجبت بمعجزة إلهية كما نعلم جميعا وكان عمرها تسعين سنة[١٢] مولوداً ذكراً وهو سيدنا اسحق عليه السلام {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَقَ نَبِيًّا مِّنَ الصَّالِحِينَ}[١٣] بمعني أن سيدنا اسماعيل وسيدنا اسحق إخوة عليهما السلام ومن أب واحد وهو سيدنا ابراهيم عليه السلام وبعد ذلك أنجب اسحاق سيدنا يعقوب بمعني أن سيدنا اسماعيل هو عم سيدنا يعقوب ويعتبر سيدنا يعقوب هو حفيد سيدنا ابراهيم عليهم السلام جميعاً ولاحظ معي يا صديقي إنني أقوم بتفصيل ذلك ليكون الموضوع شديد الوضوح وأهم ما في الموضوع إن سيدنا يعقوب هو نفسه سيدنا اسرائيل أي أن يعقوب وإسرائيل شخص واحد له اسمين وهو أيضاً كما نعرف جميعاً والد سيدنا يوسف عليه السلام وإخوته أي أن بني اسماعيل من أحفاد السيدة هاجر وبني اسرائيل من أحفاد السيدة سارة ونعلم جميعاً أن سيدنا يوسف وجه دعوة إلي أبيه وإخوته وأسرته بالكامل للحضور إلي مصر بعد أن مكن له الله فيها {فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللّهُ آمِنِينَ}[١٤] وكانت هذه العائلة الصغيرة المكونة من أب وأبناءه وزوجاتهم وأبناءهم هي النواة الأولي لبني اسرائيل في مصر في ذلك الوقت بمعني أن اسماعيل وأبناءه كانوا في مكة واسرائيل وأبناءه كانوا في مصر في تلك الفترة وكلاهما يعود نسبه إلي سيدنا ابراهيم كما ذكرنا ،
- ولكن متي تم دخول بني اسرائيل مصر أو بمعني أدق متي دخل اسرائيل ( يعقوب ) وأولاده مصر ؟ بعد فترة من بيع سيدنا يوسف بها وما علاقة ذلك بالعصر الفرعوني ؟

---

١١ قصص الأنبياء ( ابن كثير ) صـ ١٢٣

١٢ قصص الأنبياء ( ابن كثير ) صـ ١٧٢

١٣ (١١٢) سورة الصافات

١٤ (٩٩) سورة يوسف

- في الحقيقة إن هذا حدث بالتأكيد قبل عصر فرعون موسي بزمن طويل لأنه من المعروف أن الفراعنة كانوا علي علاقة سيئة جداً ببني اسرائيل وكانوا يقتلون أبنائهم ويستحيون نساءهم ويستعبدونهم ويستخدمونهم في الأعمال الدنيئة والحقيرة وكان عددهم كبير جداً وقد أصبحوا اثني عشر سبطاً أو قوماً بعدد أبناء سيدنا يعقوب ( اسرائيل ) بما فيهم سيدنا يوسف نفسه لأن عدد أبناء سيدنا يعقوب ١٢ ولد منهم سيدنا يوسف وبالتالي نسل كل واحد منهم أصبح فيما بعد مجموعة كبيرة جداً من البشر وبالمناسبة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما يذكر سيدنا يوسف يقول ( الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم )[١٥] يقصد بذلك ( يوسف ابن يعقوب ابن اسحاق ابن ابراهيم ) عليهم جميعا وعلي نبينا الصلاة والسلام ، وبالمناسبة أيضاً أحفاد سيدنا اسحاق الذين يطلق عليهم وعلي ذريتهم الأسباط يقول عنهم ابن كثير في كتاب قصص الأنبياء أنهم ليسوا جميعاً من أم واحدة فقد أنجب سيدنا يعقوب من أربعة نساء ( أختين هما ليا وراحيل وجاريتيهما ) بمعني إن سيدنا يعقوب تزوج من أختين واحدة اسمها "ليا" والثانية اسمها "راحيل" ولم يكن هذا محرماً في شريعتهم في ذلك الوقت وأنجب من الأختين ، وكانت لكل واحدة فيهم جارية تملكها (أمة) ووهبتها لزوجها يعقوب وقد أنجب سيدنا يعقوب من الجاريتين أيضاً ، ونقول مرة أخري للتأكيد أن يعقوب هو نفسه إسرائيل وورد كلا الاسمين في القرآن الكريم {كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُواْ بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ } (٩٣) سورة آل عمران ، {وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ} (١٣٢) سورة البقرة

- **هل لديك أسماء أولاد يعقوب عليه السلام ؟**

- يقول الإمام ابن كثير رضي الله عنه ( وكان أولاد يعقوب الذكور اثني عشر رجلاً فمن " ليا " روبيل وشمعون ولاوي ويهوذا وإيساخر وزايلون ومن "راحيل" يوسف وبنيامين ومن أمة راحيل دان ونفتالي ومن أمة ليا حاد وأشير )[١٦] ومن هؤلاء جاء شعب بني اسرائيل بالكامل واعتقد والله أعلم أن هذا الشعب يتبع نظرية نقاء العنصر وهذه النظرية تمنع الزواج من عناصر وشعوب أخري وبالتالي ظل بني اسرائيل يتناسلون دون أن يدخل بينهم أي عنصر من أي شعب آخر علي ما يبدو والله أعلم وهناك خلط واضح يحدث دائماً بين بني اسرائيل والديانة اليهودية فعندما نتكلم عن الشعب الإسرائيلي نقصد به هذه العائلة الضخمة التي استعرضنا جذورها منذ قليل وفي نفس الوقت نقصد بهم من يعتنقون الديانة اليهودية وهذا خطأ شائع لأن بني إسرائيل كانوا يعبدون الله سبحانه وتعالي لفترة طويلة قبل ظهور الديانة اليهودية بل كانوا الشعب الوحيد علي الأرض الذي يعرف الله سبحانه وتعالي

---

١٥ قصص الأنبياء ( ابن كثير ) صـ ١٧٩

١٦ قصص الأنبياء ( ابن كثير ) صـ ١٧٦

وكان منهم العديد من الأنبياء {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُواْ نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (٤٧) سورة البقرة ، وكان بنو إسرائيل يطلقون علي أنفسهم شعب الله المختار .

- ومن هم أنبياء بني إسرائيل ؟
- كان في بني اسرائيل العديد من الأنبياء بل يكاد لا يخلوا عصر من عصورهم من وجود نبي مرسل وآخر أنبياء بني اسرائيل هو سيدنا عيسي عليه السلام الذي بشر بنبي يأتي من بعده وقد توقع بني اسرائيل أن هذا النبي سيأتي من ذرية بني اسرائيل ولكنه صلي الله عليه وسلم جاء من ذرية سيدنا اسماعيل وإذا ضربنا أمثلة علي أسماء بعض أنبياء بني اسرائيل سنجد طبعاً سيدنا يوسف عليه السلام وسيدنا موسي وسيدنا داوود وسيدنا سليمان وسيدنا زكريا وسيدنا يحيي عليهم جميعاً السلام ولم يبعث المولي عز وجل من ذرية اسماعيل نبي غير سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم خاتم الأنبياء جميعاً ، بمعني أن كل الأنبياء الذين بعثوا بعد إبراهيم كانوا من نسل إسرائيل عدا خاتم الأنبياء فمن نسل إسماعيل صلي الله عليهم أجمعين ، وبالتالي نجد العديد من الأنبياء من بني إسرائيل {مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءتْهُمْ رُسُلُنَا بِالبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ} (٣٢) سورة المائدة {لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءهُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُواْ وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ} (٧٠) سورة المائدة

- فما علاقة كل هذا بالفراعنة ؟
- مما سبق يتضح أن شعب بني اسرائيل عاصروا في بدايتهم عصور الدولة الفرعونية وأغلب الظن أنهم دخلوا مصر بناءاً علي دعوة يوسف عليه السلام في عصر الهكسوس ويستدل علي ذلك من القرآن الكريم والله أعلم حيث أن المولي عز وجل عندما يذكر حاكم مصر يقول عنه فرعون أما حاكم مصر الذي ذُكِر في عهد يوسف عليه السلام فقال عنه المولي عز وجل ( الملك ) وليس ( الفرعون ) ونقرأ في سورة يوسف {وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ}[١٧] بل إن من أدلة ذلك أيضاً أن يوسف وعائلته كان لهم وضع ومكانه خاصة ومرموقة في مصر في ظل احتلال الهكسوس وعندما طرد الفراعنة الهكسوس اضطهدوا بني اسرائيل علي اعتبار أنهم أعوان الاحتلال والله أعلم كما أن السيدة هاجر كانت قبل تلك الفترة عندما ذهب بها سيدنا ابراهيم من مصر كانت جارية مصرية وطبعاً المصريات لم يكن جواري إلا في عهد الاحتلال وهذا قد يفسر دخول سيدنا ابراهيم نفسه مصر في عصر الهكسوس وبالتالي دخل حفيده سيدنا يعقوب وأبناءه في عصر الهكسوس أيضاً أثناء وجود سيدنا يوسف بها ثم تم استعبادهم بعد ذلك بفترة في عصر الفراعنة الذي تلي عصر الهكسوس وعلي العموم كلها مجرد آراء ولا يوجد ما يؤكد بشكل قاطع توقيت دخول بني اسرائيل مصر وفي أي عصر

[١٧] (٤٣) سورة يوسف

من العصور الفرعونية وأغلب الظن أن هذا الاستعباد تم في عصر الأسرة الثامنة عشرة والتاسعة عشرة بعد طرد الهكسوس مباشرةً وقد لا تندهش يا صديقي إن ذكرت لك اسم رمسيس الثاني أشهر ملوك الأسرة التاسعة عشرة والذي يعتقد البعض أنه فرعون موسي وهذا يربط الأحداث التي ذكرناها طبقاً للسياق الزمني ويزيد في احتمالية ذلك أن بني اسرائيل إذا عدنا لما ذكرناه عن المؤرخ اليهودي الذي أشار إلي أن الهكسوس واليهود عبارة عن عنصر واحد بالرغم من أنها معلومة غير صحيحة إلا أنها تشير علي الأقل إلي أن كل منهم كانوا في فترة زمنية واحدة ،

- أعتقد أنه يجب أن نتدبر سورة يوسف ( أحسن القصص ) ونقرأ سورة البقرة والسور الأخري التي تتحدث عن هؤلاء القوم وعن ما دار بينهم وبين أنبياءهم {وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا} (٤) سورة الإسراء ، فماذا حدث لبني اسماعيل بعد ذلك ؟
- أما بني اسماعيل فظلوا علي ملة ابراهيم لفترة طويلة من الوقت حول البيت الحرام ثم بعد أن مات اسماعيل بفترة كبيرة انتشرت الأصنام حول الكعبة بحجة أنها تقربهم إلي الله وظهرت الوثنية بينهم إلي أن بعث الله نبيه محمد صلي الله عليه وسلم ليحطم هذه الأصنام وينشر الحق في كل مكان بل إن بعض من بني اسرائيل كانوا يسكنون المدينة في ذلك الوقت وكانوا في انتظار النبي الذي سيرسله الله وكانوا يعتقدون أنه سيكون من بينهم من نسل إسرائيل فلما بعث الله نبيه من نسل إسماعيل كفروا بما عرفوا من الحق كما نعلم جميعاً {وَلَمَّا جَاءهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُواْ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا جَاءهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِ فَلَعْنَةُ اللّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ} (٨٩) سورة البقرة وقد آمن منهم القليل بل آمن من كبار علماءهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه وكان من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم
- هل يمكن تلخيص تاريخ بني إسرائيل ؟
- خلاصة القول عن بني اسرائيل أنهم عائلة كبيرة يعود نسبها إلي سيدنا يعقوب عليه السلام ودخلوا مصر في ظل سيدنا يوسف عليه السلام ثم تكاثروا بها إلي أن خرجوا مع سيدنا موسي عليه السلام وقد تمكنوا من إنشاء مملكة لهم في أورشليم في عهد نبي الله داوود عليه السلام كما سيأتي الكلام عنها في حينه وظلت فترة من الزمان ثم انهار ملكهم بعد ذلك علي يد ملك بابل ( بختنصر ) وتشتتوا في البلاد في انتظار وعد الآخرة وعلي أمل إعادة تأسيس دولة جديدة {وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُواْ الأَرْضَ فَإِذَا جَاء وَعْدُ الآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا}[١٨] وجدير بالذكر أن بني اسرائيل عندما خرجوا من مصر مع سيدنا موسي كان عددهم كما يقول ابن كثير في كتابه قصص الأنبياء وتحديداً في صفحة ٢٧٢ ( وكانوا قد استعاروا من أهل مصر حلياً كثيراً فخرجوا وهم ستمائة ألف رجل سوي الذراري بما معهم من الأنعام وكانت مدة مقامهم بمصر أربعمائة سنة وثلاثين سنة هذا نص كتابهم وهذه السنة

[١٨] الإسراء ١٠٤

عندهم تسمي سنة الفسخ ) انتهي كلام ابن كثير وطبعاً هذا الكلام نقله ابن كثير من كتابهم أي من الإسرائيليات ومهما كانت المبالغة في هذه الأرقام فإن من المؤكد أن عددهم كان كثيراً جداً بالنسبة لبدايتهم في مصر مع سيدنا يوسف عليه السلام بفرض أنهم أقاموا في مصر خلال الأسرات الفرعونية من الخامسة عشرة إلي التاسعة عشرة وهو مجرد فرض

- هناك ملحوظة أريد أن تلاحظها معي خارج هذا الموضوع وهو الحديث عن مصر في كتاب الله سبحانه وتعالي عندما وصف مصر لحظة خروج بني اسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده ({فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }١٩ فتخيل معي عندما يصف الخالق عز وجل مصر بالمقام الكريم وكيف لنا أن نجد وصفاً أفضل من كتاب الله سبحانه وتعالي فهذا يؤكد مما لا يدع مجالاً للشك روعة وجمال هذه الأرض في ذلك الوقت في عهد فرعون موسي عليه السلام ولكن من هو هذا الفرعون الذي أبقي المولي عز وجل علي جثته لتكون آية لمن خلفه ؟
- إذا تأملنا وفحصنا جثث ملوك الفراعنة في تلك الفترة التقريبية سنجد أن هناك العديد من جثث الملوك المحنطة وموجودة إلي الآن ويتم عرضها في المتاحف لنأخذ منها العبرة لا لكي ننبهر بها ولا بد أن من بينها جثة هذا الفرعون وسبحان من له الدوام {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ}٢٠
- وقد وردت إمرأة فرعون أيضاً في القرآن
- نعم ولا بد أن نتكلم عن زوجة فرعون التي دعت الله سبحانه أن يبني لها بيتا في الجنة وينجيها من فرعون {وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ آمَنُوا اِمْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} (١١) سورة التحريم ،
- مؤكد أنها لم تكن مقتنعة بما يفعله الفراعنة من بناء مقابر وتحنيط وما إلي ذلك
- بل إنها تعلم جيداً أن تعمير البيت في الدار الآخرة يكون بالإيمان والعمل الصالح وليس بتزيين القبور بالنقوش وتحنيط وحفظ الجثث بها فلا ينفع الإنسان بعد الموت إلا الإيمان والعمل الصالح ورحمة الله الواسعة ، وقد حان الوقت الآن لنتحدث عن الإمبراطورية المصرية الفرعونية وعهد الدولة الحديثة وبداية الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس بعد طرد الهكسوس من مصر والقصة تبدأ منذ أن كان ملوك الأسرة السابعة عشرة متواجدون في طيبة في الجنوب يدفعون الجزية إلي ملوك الهكسوس في أواريس في الشمال إلي أن استفزهم الهكسوس وطلبوا منهم طلبات غير منطقية ولا يمكن تحقيقها وتمس العقيدة الدينية لهم وما أدراك ما العقيدة الدينية ،

---

١٩ الشعراء ٥٧ ، ٥٨

٢٠ يونس ٩٠

- من أجلها تتحرك الجيوش وتفني الأنفس وتهون التضحيات ،
- قام صراع رهيب مع الهكسوس بدأه الملك ( سقنن رع ) إلي أن قتلوه ثم استكمل الكفاح الملك ( كامس ) وأخيراً الملك ( أحمس الأول ) الذي نجح في طرد الهكسوس من البلاد بالكامل بل قام بتأسيس أسرة جديدة وهي الأسرة ١٨ وكانت بداية عصر الدولة الحديثة وأمجادها
- بمعني أن الملك أحمس الأول كبداية للدولة الحديثة يمكن مقارنته بالملك مينا والملك زوسر والملك منتو حتب الثاني كبدايات للدول الرئيسية في العصر الفرعون قديمة ووسطي وحديثة وقبلهم العصر العتيق
- بالتأكيد فبالرغم من أنه أخو الملك كامس وابن سقنن رع فإن المؤرخ المصري القديم وضعه كما سبق القول علي رأس عائلة جديدة[٢١] وهي الأسرة الثامنة عشر الفرعونية وكانت فترة حكمه ٢٤ سنة[٢٢] وبالمناسبة هذه الأسرة كانت تقدس إله القمر ويتميز عصرهم بأن النساء أصبح لهن دور كبير في البلاد وأول شخصية نسائية لمعت في هذه الأسرة هي الملكة ( تتي – شري ) وهي أم سقنن رع
- يعني تعتبر جدة أحمس الأول ؟
- نعم ، وكان لها دور علي ما يبدو في إشعال روح القتال ضد الهكسوس في أبناءها وأحفادها وكانت محبوبة من الجميع وقد ظل أحمس وفياً لذكري جدته إلي آخر سنة في عمره حيث أقام لها مقبرة وكتب عنها لوحة خالدة وكانت هناك سيدة أخري اسمها ( إعح حوتب )
- اسمها يصعب النطق به
- لكن هذه السيدة كان لها دور كبير في الحرب ضد الهكسوس وهي أم الملك أحمس[٢٣]
- وهل هناك سيدات أخريات شهيرات في هذه الأسرة ؟
- أما السيدة الثالثة فكانت ( أحمس نفرتاري ) وهي أخت أحمس وكامس وقد تزوجت من كامس ثم من أحمس[٢٤] بعد موت كامس وكان ذلك أمر عادي أن الملك يتزوج من أخته في هذه العصور وكلمة أحمس تعني ( ولد القمر ) أو القمر هو الذي أنجبه أو أنجبها وتليق مع المذكر والمؤنث كاسم ، ويعتبر أحمس الأول بصفة عامة هو بطل التحرير بلا منازع والطريف أنه كان يوجد شخص آخر اسمه ( أحمس ابن إبانا ) وكان أحد أبطال حرب التحرير وترك لوحات تشير إلي انتصاراته وأمجاده أثناء المعارك وقد قام بتكريمه الملك أحمس الأول لشجاعته وأعماله الحربية أثناء المعارك
- هل يمكن وصف معارك أحمس ضد الهكسوس أم أنها تفاصيل لا تؤثر علي سياق حديثنا ؟

## ٥٣. الملك أحمس الأول وطرد الهكسوس وبداية الدولة الحديثة الفرعونية

---

[٢١] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٧١

٢٢ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٧٢

٢٣ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٧٤

مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٧٤

- الحروب التي انتصر فيها الملك أحمس الأول علي الهكسوس كانت طويلة المدة حيث أنهم تحصنوا في مدينتهم أواريس ووقعوا تحت الحصار لفترة ليست بالقليلة لأن الهكسوس تميزوا في أعمال التحصينات والاستحكمات الدفاعية كما أنهم أول من استخدم الخيول والعربات الحربية في مصر وتعتبر من الأسلحة المتطورة في ذلك العصر ويقول سليم حسن عن ذلك ( والواقع أن الهكسوس كانوا يعتبرون منذ زمن بعيد أنهم الذين جلبوا هذه العناصر الجديدة الهامة من المدنية إلي مصر )[٢٥] فكما ذكرنا أن الهكسوس أضافوا إلي مصر بحضارتهم وثقافتهم وأخذ منهم المصريون أحسن ما عندهم هذا والله أعلم
- كما قال ابن خلدون أن المغلوب مولع بتقليد الغالب
- إذا قام المغلوب بتقليد الغالب فيما يعود عليه بالفائدة فسيكون ذلك أفضل بالطبع وليس كما يحدث حالياً من تغريب المجتمع دون تحديثه
- وما الفرق بين التغريب والتحديث ؟
- سوف أقرأ لك ما لدي عن هذا الموضوع بعد الكلام عن الملك أحمس إن شاء الله ، أما وصف المعارك التي دارت لتحرير البلاد فلا تحتاج إلي تعليق وغاية ما يمكن أن يقال في هذا الصدد أن تسرح يا عزيزي بخيالك الواسع وتتخيل طبيعة هذه المعارك ومدي شراستها وقد لا تصل إلي مستوي الحدث ولكن يمكن أن تقرأ رواية كفاح طيبة للكاتب الكبير نجيب محفوظ وتوفر علي نفسك التخيل وتتركه يتخيل بدلاً عنك بأسلوبه الرائع الأحداث التي مرت بالبلاد أثناء قيام أحمس بطرد الهكسوس فقد اعتمد أحمس علي تهريب المصريين من الشمال للجنوب لإعدادهم للقتال حيث كان معظمهم يعيش تحت الاحتلال وينتظرون القيادة التي تقودهم للكفاح ضد الغزاة الرعاة وكان كل ما يشغل أحمس تجميع القوات نفسها من أفراد الشعب ثم تدريبهم وقد نجح في هذه الخطة نجاح ساحق إلي أن حقق أهدافه بالكامل ،
- وهل ترك أحمس آثار توضح ما حدث في عهده ؟
- توجد لوحة جدارية لأحمس في معبد الكرنك تخليداً لأعماله
- سمعت أن الفراعنة كانوا مغرورين جداً عندما يصفون أنفسهم في كتاباتهم علي الجدران ( وقد ورث بعضنا موضوع الكتابة علي الجدران ولكن ليست جدران المعابد ولكن جدران البيوت والمرافق العامة ) ، فهل بالفعل كان الفراعنة واثقين في نفسهم أكثر من اللازم ؟
- كان الفرعون عندما يكتب عن نفسه يُمجِّد نفسه بالطبع وسأقرأ لك الآن بعض ما جاء في لوحة الملك أحمس الأول لتكون علي سبيل المثال لا الحصر وستلاحظ أن الملك يحاول توضيح علاقته الوثيقة بالآلهة وهذا أهم شئ بالنسبة له فيقول إنه حبيب الإله آمون مثلاً وابن الإله رع ويشبه الإله حور وهكذا وهذه مقتطفات مختصرة من اللوحة : ( --- ابن آمون رع من جسده ومحبوبه ووارثه ، ومن

[٢٥] موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ٤ صـ ١٦٣ ( مكتبة الأسرة )

أعطي له عرشه ، الإله الطيب حقيقة ، قوي الساعد – – ، وإنه أمير يشبه الإله رع --- وشديد البأس -- معطي الحياة ومقيم العدالة ، ملك الملوك علي كل الأرض ، وهو واحد في السماء والثاني علي الأرض ، ومن يخلق من صوته النور ، محبوب آمون ، ومن يثبت الوظائف مثل الإله ، المسيطر علي السنين مثل جلالة رع ، ومن استولي علي ما تحيط به الشمس ، ومن ثبت علي رأسه التاج الأبيض والأحمر -- والمضئ الطلعة في شبابه ، ومن قدر لتاجه أعجوبة مزدوجة في كل ساعة ، رفيع الريشتين ، ومن يكون أمامه الصلَّان القويان علي جبينه مثل ما يكونان علي جبين حور عندما يسيطر علي الأرضين وهو ملك له الحياة والسعادة --- )٢٦

- طبعاً أنا لم أفهم جيداً ما تعنيه كل هذه الأوصاف ويبدو أنه يصف الإله أحياناً ويشبه نفسه به أحياناً أخري
- تعتبر هذه اللوحة نموذج لما كان يمجد به الفراعنة أنفسهم في لوحاتهم الموجودة إلي الآن ، ويقول سليم حسن عن هذا النص الموجود بالكامل في موسوعته ( هذا النص علي ما يحتويه من تفاصيل دقيقة وإشارات بعيدة إلي أمور جسام في حياة الفرعون أحمس يري فيه المؤرخون أنه عبارات مدح تقليدية تشغل نحو ستة وعشرين سطراً منه وستة الأسطر الباقية تعدد إصلاحات هذا الملك التي قام بها لإعادة أثاث معبد آمون وأوانيه وأن الملك لم يشر إلا إشارة عابرة مبهمة عن حروبه في خلال تلك الجمل المملة المتتابعة ولكن الواقع أن هذه اللوحة تعد علي جانب عظيم من الأهمية من الناحية التاريخية والثقافية والأدبية في عهد هذا الفرعون )٢٧
- قبل أن نسترسل في الحديث عن الملك أحمس ومن جاء بعده من ملوك ، أريد أن تقرأ لي عن الفرق بين التغريب والتحديث كما وعدتني

## ٥٤. الفرق بين التحديث والتغريب

- سأقرأ لك عن هذا الموضوع من كتاب ودخلت الخيل الأزهر للأستاذ محمد جلال كشك الذي يؤكد فيه أن الدولة التي استطاعت أن تقوم بتحديث نفسها دون أن تقلد الغرب بلا وعي استطاعت هذه الدولة أن تنجو بنفسها من التغريب وتتقدم بشكل ملحوظ ويعطي مثال علي اليابان حيث قال : ( اليابان وحدها عرفت الجواب الصحيح : التحديث لا التغريب ، ولكي يتحقق التحديث لابد من رفض التغريب ، بل نزعم أنه بقدر الإصرار والنجاح في رفض التغريب يكون النجاح في تحقيق التحديث ، تمسكت اليابان بدينها – – وتمسكت بنظامها الملكي – – وبينما كان يجري التحديث بأعلي معدل عرفته دولة إلي النصف الثاني للقرن العشرين ، كان الياباني محتفظاً بحياته العائلية والاجتماعية وتقاليده وتراثه ، يرتدي القفطان (الكيمونو) والقبقاب ، ويأكل علي الطبلية بالعصي ، محتقراً الجنس الأبيض ، مقتنعاً

---

٢٦ موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ٤ صـ ٢٠٢ ( مكتبة الأسرة )

٢٧ موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ٤ صـ ٢٠٤

بإصرار متزايد أنه خير أمة علي ظهر الأرض ، محتفلاً بأعياده القومية ، – – ظل المسرح الياباني يقدم روايات التراث وبنفس الأسلوب منذ قرون ، وظلت المرأة في مكانها التقليدي ودورها الأساسي وظلت علي احترامها للزوج وخلع حذائه بيديها ، واليابان هي البلد الشرقي الوحيد الذي لم تظهر فيه حركة تحرير المرأة لذلك أصبحت مجتمعاً حراً وحافظت علي استقلالها ، لأنها عرفت أن المرأة لا تتحرر وحدها ، وأنه لا حرية لامرأة ولا لرجل في مجتمع ضعيف متخلف فاقد الاستقلال ، أو مهدد بفقده في أية لحظة ، وبعكس ما بُذل من جهد في بلادنا لتعليمنا استخدام الشوكة والسكين أو آداب المائدة ، لم يحدث قط أن حاول اليابانيون الأكل علي الطريقة الغربية ، فالأمة التي تُلقَّن أنها بحاجة إلي أن تتعلم آداب المائدة من عدوها هي أمة فقدت احترامها لنفسها ، ويستحيل أن تنجز أي تفوق ،

- إذن فما هو التحديث باختصار ؟
- التحديث : هو امتلاك كل المعرفة التي يتفوق بها الغرب ، إنتاج كل المعدات التي ينتجها الغرب ، وكل ما تحتاجه أمة من الأمم لتحقيق هذا التحديث هو إرادة قومية ، وتعبئة هذه الإرادة وتوجيهها في طريق التصنيع أو التحديث إذا كان البلد مستقلاً ، أو في طريق تحرير الإرادة القومية عبر حرب التحرير الوطنية ، التي يتم التحديث خلالها ، لكن يُشترط قبل ذلك أن تؤمن الأمة بأن تخلفها هو ظاهرة عارضة ، وأن أصالتها تمكنها من تجاوز هذه المرحلة العارضة ،
- فما هو التغريب ؟
- أما التغريب ، فيبدأ من إقناع الأمة الشرقية أنها متخلفة في جوهرها ، متخلفة في تاريخها وصميم تكوينها ، ومن ثَم فلابد من انسلاخها تماماً عن كل ما يربطها بماضيها ويميز ذاتها ، وإعادة تشكيل المجتمع علي الطراز الغربي من ناحية العادات والمظاهر السلوكية ، مع إبقائه متخلفاً عاجزاً عن إنتاج سلع الغرب ، عاجزاً عن اكتساب معرفة الغرب ، فإذا ما اكتسب بعض أفراده هذه المعرفة ، يجدون أنفسهم غرباء عاطلين عن العمل في مجتمعهم فيضطرون إلي النزوح إلي عالم المتفوقين ، المجتمع المُغرَّب هو ذلك المجتمع الذي تزدحم طرقاته بأفخر وأحدث السيارات المستوردة ، وتضم مدنه أفخم دور عرض الأفلام المستوردة ، ويرتدي أهله أحدث المنسوجات المستوردة ، وعلي أحدث الموضات الغربية ، ويثرثر مثقفوه في قاعات مكيفة بأجهزة – مستوردة – في مشاكل المجتمع الغربي وآلامه ، ويملأون صفحات من ورق مستورد تطبع بحبر مستورد وبآلات مستوردة حول قضايا –الغرب – علي بعد خطوات من كهوف مواطنيهم حيث البلهاريسيا والكوليرا وكل تراكمات التخلف
- إذن التغريب في حد ذاته أسلوب الغرب في إفساد الشرق والمحافظة علي تخلفه أليس كذلك ؟
- كان التغريب هو الطريق المضمون لخسارة معركة التحديث ، وكل الدول التي تم تغريبها أو اختارت طريق التغريب وانشغلت في قضاياه ، ظلت علي تخلفها ، بل وأخطر من ذلك أن التغريب يقضي علي روح المقاومة في الأمة الشرقية ، فيجعل استعمارها من قِبل الدول الغربية المتفوقة أسهل ، وحكمها

أيسر ، ويجعل استغلالها أعمق وأكبر عائداً وأقل كلفة ومخاطر ، من هنا كان اهتمام الغرب بترويج فكرة التغريب بين صفوفنا ، فمنذ الحملة الفرنسية وهناك استثمارات فكرية تهدف إلي إقناعنا بأنه لا تحديث إلا بالتغريب )[٢٨] هل فهمت ما يعنيه الكاتب ؟

- بالتأكيد ومن الواضح أن الفراعنة استفادوا من تجربة الهكسوس دون أن يفقدوا هويتهم أو ثقتهم بأنفسهم فدعنا نتحدث عما حدث بعد أحمس

## ٥٥. ماذا بعد أحمس ؟

- كان لدي أحمس زوجات كثيرات بالإضافة إلي أخته ( أحمس نفرتاري ) وهي أيضاً زوجته وكان عنده أولاد كثيرين منهم امنحتب الأول ابن نفرتاري وهو الذي تولي الحكم من بعده ولكنه لصغر سنه كانت أمه وصية علي العرش وقد قام الملك امنحتب الأول بعدة حروب ناجحة ولكنه توقف لعدم ميله للحروب ولكي تستريح البلاد من رحلة الكفاح الطويلة التي خاضوها مع والده أحمس وقد كانت فترة حكمه فترة استقرار وراحة ويقول عنها سليم حسن ( أن المدن قد استعادت حياتها العادية ونمت فيها الزراعة وازدهرت التجارة مما زاد في ثروة مصر وجعلها علي استعداد تام للقيام بفتوحها المقبلة علي يد فراعنتها الشجعان )٢٩ ثم جاء بعد امنحتب الأول الملك تحتمس الأول وبالمناسبة وقبل أن نترك الملك امنحتب الأول لابد أن نذكر ما قاله عنه أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية حيث ذكر أن هذا الملك كان رفيقاً برعيته طيلة سنوات حكمه الواحد والعشرين التي قضاها علي العرش
- فمن هم أهم ملوك الأسرة ١٨ بعد أحمس ؟
- إن مجموع ملوك الأسرة ١٨ بالكامل ١٤ ملك واعتقد أنك تعرف معظم أسماءهم دون أن تدري أنهم من هذه الأسرة أو غيرها فمنهم طبعاً الملك أحمس الأول مؤسس الأسرة وتحتمس الثالث مؤسس الإمبراطورية وحتشبسوت صاحبة معبد الدير البحري الشهير ومنهم الملك توت عنخ آمون الذي بهرت مقبرته ومحتوياتها العالم كله عند اكتشافها كاملة وكذلك منهم الملك حور محب القائد الهمام وقد يكون أكثر ملك شهرة هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون الذي كان يؤمن بالتوحيد وقام بانقلاب ديني كبير هز كيان الأسرة المالكة بل الإمبراطورية كلها ، وطبعاً لم أذكر أسمائهم طبقاً للترتيب الزمني لهم ولكن سيأتي ذلك أثناء الحوار لأن هذه الأسرة تستحق أن نتحدث عنها لأن عصرها ثري جداً ومكتوب في موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري أن هذه الأسرة الثامنة عشرة حكمت مصر من حوالي سنة ١٥٨٠ ق م إلي سنة ١٣١٤ ق م٣٠ أي تقريباً ٢٦٦ سنة ،
- ٢٦٦ سنة فماذا كان سيحدث لي إذا كنت قد وُلِدت في هذه الفترة ؟

---

٢٨ نقلاً باختصار عن كتاب ودخلت الخيل الأزهر – محمد جلال كشك

٢٩ موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ٤صـ ٢٣٤

٣٠ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٣٢

- يجب أن أسألك أنا هذا السؤال لتعرف أنك إذا كنت تعيش في ذلك العصر لن تعرف أن الإمبراطورية قد تأسست ثم انهارت ولنبدأ الحديث عن أهم الملوك فقط في هذه الأسرة ولنبدأ بالملكة حتشبسوت
- كم كنت أتشوق لمعرفة معلومات عن هذه الملكة

## ٥٦. الملكة حتشبسوت(ماعت كا رع)

- تعتبر الملكة حتشبسوت هي أول شخصية نسائية من الشخصيات البارزة التي حكمت مصر فقد كانت هناك شخصيات نسائية بارزة قبلها في الأسرة ١٧ كما ذكرنا مثل تتي شيري ولكنهن لم يحكمن مصر أما اللاتي حكمن مصر قبلها فلم يكن بنفس مستواها وشهرتها ، وتبدأ قصتها بأن تولي الملك تحتمس الثالث عرش مصر بعد وفاة والده الملك تحتمس الثاني ، ولقد تزوج من ابنة الملكة حتشبسوت الأميرة نفرو رع ليؤكد حقه في وراثة العرش ، وكان تحتمس عند تتويجه صغير السن وكانت حتشبسوت زوجة أبيه وأم زوجته وعمته في آن واحد امرأة قوية ناضجة طموحة تحمل الألقاب (ابنة الملك ، أخت الملك ، الزوجة الملكية ، الزوجة الإلهية لآمون)[٣١] فاستطاعت بقوة شخصيتها منذ البداية أن تتولي شئون البلاد وأن تدير دفة الأمور ، ولم تكن حتشبسوت بالمرأة التي تكتفي بهذا ، فتمكنت في العام الثاني من حكم تحتمس الثالث من أن تنحيه عن العرش نهائياً ، بل أرغمته علي الاعتكاف وأمرت بتتويجها بموافقة الإله آمون ورغبته كما هو منقوش علي جدران معبدها الجنائزي بالدير البحري بطيبة ،
- طبعاً الرغبة المزعومة للإله المزعوم أيضاً كانت وسيلة تدَّعيها لإضفاء الشرعية علي حكمها بالتأكيد
- بالطبع ، وهكذا أصبحت حتشبسوت ملكة علي مصر ، وقامت بدور الإله حورس ومثلته علي الأرض ، واتخذت لقب ابن الشمس بل تشبهت بمظهر الرجال وارتدت زيهم ، كما استعملت الذقن الملكية المستعارة الخاصة بالملوك ، ولقد حكمت الملكة حتشبسوت مصر ما يقرب من ٢٠ سنة كرست فيها كل جهودها للإنشاءات المعمارية ، وذلك غير حملة عسكرية واحدة أرسلتها إلي النوبة للقضاء علي الثوار هناك ، ولقد أبحرت خمس سفن ضخمة في عهد حتشبسوت إلي بلاد بونت ، قرب الصومال لإحضار منتجات هذه البلاد إلي مصر وقد صورت هذه الرحلة البحرية التي تعتبر من أهم النقوش لدراسة بلاد بونت ومنتجاتها علي جدران معبدها بالدير البحري ، كما أرسلت الملكة حتشبسوت التي حكمت مصر من حوالي ١٤٧٨ ق م إلي سنة ١٤٥٨ ق م ، بعثات إلي محاجر أسوان لإحضار الزوج الأول والثاني من مسلاتها ، ولقد استغلت مناجم الفيروز بشبه جزيرة سيناء خير استغلال ، أما معبدها الجنائزي فهو المعبد المشهور الآن باسم معبد الدير البحري بالبر الغربي بطيبة حيث احتضنه الجبل في حنان ، ويتكون من ثلاثة طوابق يتوسطها طريق صاعد إلي أعلي في المنتصف
- هل يمكن أن تقرأ وصف لهذا المعبد إن كان متوفراً لديك الآن ؟

[٣١] لاحظ عزيزي القارئ أن الألقاب عند الفراعنة في غاية الأهمية ولذلك كانوا يحرصون علي تدوينها في مقابرهم

- رواق المدرج الأول : ناحية اليمين يشاهد الزائر فيه مناظر صيد الطيور بالشباك والقوارب ، أما ناحية اليسار وعلي الجدار الخلفي فصور احتفال نقل المسلات من أسوان بواسطة النيل علي قوارب كبيرة ونري حتشبسوت تقدم قرباناً للإله آمون ، المدرج الثاني : يري (إيوان الولادة) وتمثل مناظره الميلاد المقدس للملكة حتشبسوت ، ويري الزائر في أقصي اليمين مقصورة مكرسة لعبادة الإله أنوبيس حارس الجبانة وعلي اليسار من الناحية الأخري (إيوان بونت) وعلي جدرانه نقوش تمثل البعثة التجارية التي أرسلتها حتشبسوت إلي بلاد بونت (الصومال حالياً) ، المدرج الثالث : يوجد فناء تزين واجهته الأعمدة التي يستند إليها بعض تماثيل ملكية في هيئة أوزيريس ، ويتوسط هذا الفناء باب من الجرانيت الأحمر الجميل عليه نقوش باسم الملك تحتمس الثالث الذي أزال اسم حتشبسوت ، أما ناحية الشمال فتوجد حجرة فيها الصورة الوحيدة الباقية لحتشبسوت والتي سلمت من أيدي المخربين[٣٢]
- من الواضح أن تحتمس الثالث كان يكره هذه المرأة بشدة وحاول التخلص منها وخرب ما قامت بتشييده
- بالتأكيد فمواهبه لم تظهر إلا بعد موتها أو مقتلها أو أياً كانت نهايتها التي ربما كانت مأساوية ، ولنتحدث الآن عن مؤسس الإمبراطورية المصرية نابليون العصر الفرعوني
- دعنا قبل أن نتحدث عن مؤسس الإمبراطورية المصرية نتحدث عن دوافع وأسباب تأسيس هذه الإمبراطورية فمثلاً هل كانت طموحات شخصية بحتة أم أن هناك مبررات حربية لها وهل كانت أول إمبراطورية في التاريخ ؟
- أعتقد أن ما كتبه د جمال حمدان عن هذا الموضوع سيكون إجابة شافية لأسئلتك الوجيهه
- فماذا كتب عن هذا الموضوع ؟

## ٥٧. أول إمبراطورية في التاريخ كانت في مصر

- في كتاب مختارات من شخصية مصر للدكتور جمال حمدان حيث كتب ما ملخصه : السؤال الأول هو : لماذا أول إمبراطورية ؟ من الواضح أن عوامل الطبيعة ، عوامل الموضع والموقع ، تتضافر هنا لتمنح مصر ثقلاً غير عادي من البداية ، والموضع الجغرافي كما قلنا هو البيئة الطبيعية المحلية داخل مصر نفسها – شكلها وطبيعتها ووزنها ، فهي كواحة فيضية تستقطب حول النهر قد تجانست بشرياً وتوحدت سياسياً منذ البداية وعلمتها دورة النهر النظام والقانون ثم منحتها زراعة الري (قاعدة أرضية) تعد بمقياس العصر ضخمة هائلة ، قوة إنتاجية سخية ، واكتفاء ذاتي تقريباً وقوة بشرية نادرة قوامها الكثافة لا المساحة ، وعلي ضوء إمكانيات الري الحوضي يمكن أن نقدر قوة تحمل مصر بالسكان طوال العصور القديمة هذه بنحو ١٢ مليون ، مع احتمالات خطأ معقولة ، وحول هذا كله كانت الصحراء (الرحم الجغرافي) الذي ولد فيه هذا الموضع في الأول ، ثم (الدرقة) الطبيعية التي حمته جميعاً بعد

---

[٣٢] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢

ذلك ، إن أولي الإمبراطوريات في التاريخ –رغم فولتير وإمبراطورية المناخ– هي إمبراطورية النيل ، فإذا أرسلنا النظر عبر الصحراء رأينا أننا إنما نقف في واسطة العقد في كل معني ، فحولنا منتثراً في كل الجهات شتيت من شعوب وجماعات ضئيلة الحجم والوزن ضعيفة الموارد والتنظيم – – – والحقيقة أن مصر طوال الجزء الأكبر من تاريخها القديم ، كما كانت النواة النووية لمنطقة حضارية بكاملها ، هي معظم العالم المعروف حينئذ ، كانت أيضاً من الناحية الاستراتيجية النواة النووية لمنطقة قوة عالمية لا تكاد تختلف في الامتداد والأبعاد بلغة ماكيندر كان الشرق القديم هو (هارتلاند) العصور القديمة ومصر محور ارتكازه PIVOT AREA ، بهذا كله كانت مصر القمة والقلب معاً ، القمة موضعاً والقلب موقعاً ، وبفضل هذا الأخير كان من السهل عليها أن تمد زراعيها بعيداً يميناً ويساراً وشمالاً وجنوباً – – – من الناحية الأخري كان طبيعياً أن يغري ثراء مصر وخصبها بعض هذه الأطراف الفقيرة إما في تسللات متلصصة أو في مغامرات تشنجية ، لا تخرج في مجموعها عن طمع من جانب الرمل في الطين ، أو الرعاة في الزراع ، وبهذا أصبحت أرض التخوم بالنسبة لمصر هي أرض المعركة ، والمعركة التأديبية أساساً ، بينما لا يقل نطاق الأمان من حولها عن الشرق الأوسط تقريباً

- بمعني أن الأمن القومي لمصر في ذلك الوقت كان يشمل الشرق الأوسط الحالي بسبب طمع الجميع في استيطانها والهجرة إليها ، أعتذر للمقاطعة ، أكمل القراءة من فضلك
- ومن هنا توسعت الإمبراطورية إلي حدودها القصوي كلما أمكنها ذلك ، لا كاستعمار بالمعني المفهوم وإنما لنشر السلام المصري ، بل إننا لنستطيع أن نزعم بقليل من خشية أن الإمبراطورية المصرية كانت في جوهرها وفي معني ما (إمبراطورية دفاعية) أساساً حتمتها ظروف الصراع الإقليمي والاستراتيجية العريضة في الشرق القديم[٣٣]
- إذن لقد كان التوسع حتمي وليس لتحقيق أمجاد شخصية
- لقد وصفها الدكتور جمال حمدان بأنها كانت إمبراطورية دفاعية مع بعض التحفظات
- نعود للحديث عن الإمبراطور تحتمس الثالث

## ٥٨. تحتمس الثالث والإمبراطورية

- لم يكد تحتمس الثالث يصبح حاكم البلاد ، حتي اضطربت أحوال البلاد الآسيوية فكون الآسيويون حلفاً ، فزحف تحوتمس الثالث بجيوشه وانتصر علي أعداءه في معركة مجدو الخالدة التي تحفظ لنا الآثار تفاصيلها الكاملة ، مبتدئاً بذلك هذه السلسلة من المعارك التي بلغت سبعة عشرة حملة ، استولي في بعضها علي الساحل الفينيقي كله ، جعلت منه أشبه بنابليون مصر في ذلك التاريخ البعيد ، وأعظم هذه الحملات تلك التي قام بها في السنة الثانية والثلاثين من حكمه والتي بلغ فيها الفرات ودُونت وقائع تلك الحملة علي جدران معبد الكرنك وعلي لوح جبل بركل فهابته الملوك والأمراء والدول في هذه

[٣٣] نقلاً عن كتاب (مختارات٣– من شخصية مصر) – مكتبة مدبولي

الأنحاء ، وراحوا يخطبون وده بالهدايا والجزية ، وقد اتبع تحتمس الثالث سياسة حكيمة ، فلم يمس عقائد الشعوب أو قوانينهم وترك لحكامهم الأصليين مباشرة سلطانهم شريطة أن يدفعوا لمصر الجزية في مواعيد مقررة ، وعمل علي أن يتعلم أنجالهم بمصر ليغرس في قلوبهم حب مصر وليعودوا إلي بلادهم وكلهم عطف ومحبة علي البلد الذي علمهم ، وقد صاغ كهنة آمون ملحمة شعرية رائعة يتغنون فيها بأمجاد فرعون وفيها تلخيص لكل معاركه وحروبه وفي هذا النشيد يخاطب آمون فرعون ولده تحتمس الثالث – – -- وكان تحتمس الثالث قائداً حربياً ممتازاً لم يكلف أحداً من رجاله القيام بعمل صعب ، فكان يتقدم هو الصفوف ، وكان إدارياً ممتازاً فقد وصفه وزيره رخ مي رع أنه كالصقر الذي يري ما لا يبصره البشر العادي واتصفت حملاته بلون آخر ، فإلي جوار الكتاب العسكريين والفنانين والرسامين الذين كان يصطحبهم معه ، فقد أخذ في ركابه بعض علماء الحيوان والنبات الذين احضروا بعضها إلي مصر ، وأقام تحوتمس الثالث المسلات التذكارية فشاد اثنتين منها في معبد الكرنك واثنتين في مدينة الشمس ،

- وأين هذه المسلات حالياً أم أنها مازالت في أماكنها الأصلية ؟
- وكأن القدر شاء أن يخلد تحوتمس الثالث ، فتوزعت مسلاته الأربع في أرجاء المعمورة ، تختال بها بلاد العالم العظمي ، وتقف في أعظم ميادينها ناطقة بعظمة تحتمس الثالث ، تقف إحدي مسلاته في مدينة القسطنطينية – أحضرها الإمبراطور الروماني تيودوسيوس ٣٧٩-٣٩٥م – ، وتقف الثانية في مدينة روما أمام قصر لتران وتقف مسلة ثالثة أهداها محمد علي لحكومة إنجلترا في مدينة لندن علي شاطئ التيمس ، كما أهدي الخديوي اسماعيل المسلة الرابعة إلي حكومة الولايات المتحدة ، حيث تقوم في حديقة السنترال أعظم حدائق نيويورك ،
- وطبعاً مات تحتمس الثالث قبل أن يعرف أن إمبراطوريته قد انهارت
- ومات تحتمس الثالث بعد أن حكم أربعاً وخمسين سنة وتجاوز عمره السبعين عاماً[٣٤] ، وفي عهد هذا الملك تم إنشاء البحيرة المقدسة بمعبد الكرنك بطول ٨٠ مترًا، وعرض ٤٠ مترًا، وكان يحيط بها سور. ويوجد على جانبيها الشمالي والجنوبي مقياس للنيل ، له مدخلان أحدهما من الجهة الشرقية، والثاني من الناحية الغربية بكلا منها سلالم حجرية تلك التى كان يغتسل فيها الكهنة قبل أداء المراسم الدينيه او الاحتفالات القوميه التي تقوم الآلهه بحضورها. وكان يتم تغذيتها عن طريق قناة تصل البحيرة بمياه النيل والاعجاز في هذه البحيرة ان المياه فيها ثابتة ولا يزيد منسوب المياه او ينقص حتى مع تغير ارتفاع او نقصان منسوب النيل من أكثر من ٣٠٠٠ سنة ولم تجف البحيرة أبدا وهذا واحد من اهم

[٣٤] ملخص ما ورد عن الملك تحتمس الثالث بالجزء الأول من موسوعة تاريخ مصر للأستاذ أحمد حسين من صفحة ١٠٣ وما بعدها تحت عنوان حكم تحتمس الثالث – حوالي سنة ١٤٦٨ قبل الميلاد

براهين اثبات عبقرية المهندس المصري القديم مياه منسوبها ثابت لا يقل رغم عوامل البخر والفقد والتسرب

- ولكن لا عجب فهو المهندس المصري الذي شيد وبني وعمر وحير كل مهندسي التاريخ ،
- وجدير بالذكر أن الملك تحتمس الثالث هو سادس ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية بالدولة الحديثة وكانت طيبة عاصمة ملكه تتدفق إليها خيرات العالم القديم وعن هذا الموضوع كتب شيخ الأثريين أحمد فخري : ( كانت طيبة في أيام تحوتمس الثالث عاصمة العالم القديم ، وكانت تتدفق عليها خيرات إفريقيا وآسيا وجزر البحر المتوسط ، وكان يفد إليها كل عام رسل جميع البلاد يحملون خير ما استطاعت بلادهم تقديمه من ذهب وفضة ، ومعادن أخري وأحجار كريمة ، ومصنوعات مختلفة ، وكان موظفو الخزانة هم المسئولون عن تسلم هذه الهدايا وأنواع الجزية ، كما كان الوزير يستقبلهم بحكم منصبه ليقدمهم إلي فرعون ، وكثيراً ما سجل كبار موظفي ذلك العهد هذه المناظر علي جدران مقابرهم فأصبحت مقابر طيبة سجلاً جامعاً لحضارات بلاد الشرق القديم في منتصف الألف الثاني قبل الميلاد ، إذ سجل الفنانون المصريون ما رأوه فرسموا وفود هذه البلاد بملابسهم الوطنية ، وما كانوا يحملونه من مصنوعات بلادهم ومحاصيلها ، وقد زال أثر تلك الحضارات من كثير من بلاد آسيا ، وجزر البحر الأبيض والسودان ، وأصبحنا نعتمد علي مقابر طيبة وحدها كالمصدر الأول لدراسة حضارات تلك البلاد والشعوب -)[٣٥]
- بمعني أن لدينا في طيبة سجل تاريخي حافل للحضارت التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، ومن يريد أن يعرف كيف كان يعيش أجداده وماذا كانوا يرتدون من ملابس وماذا كانوا ينتجون من منتجات فليحضر إلي مصر ليتعرف علي حضارة بلاده في عهد الإمبراطورية المصرية ، يالها من فترة نادرة في تاريخ مصر ، ولكن أين تم دفن تحتمس الثالث ؟
- في وادي الملوك
- ومن أول من تم دفنه في وادي الملوك ؟
- الملك تحتمس الأول الذي جاء بعد امنحتب الأول وكان أحد أمراء الأسرة ولم يكن ابن امنحتب الأول لأن الأخير لم ينجب بنين ولكن تحتمس الأول تزوج من ابنة امنحتب الأول ليضفي شرعية علي حكمه السعيد وكان تحتمس هذا عندما تولي الحكم رجل ناضج قد جاوز الأربعين من عمره وقد وضع اللبنة الأولي في صرح الإمبراطورية المصرية وكان قائد عسكري من الوزن الثقيل واتسعت حدود مملكته وحكم مصر حوالي ٣٠ سنة وترك العديد من الآثار الخالدة وكان هذا الملك أول من قرر الإقلاع عن التقليد القديم وهو الدفن في هرم أو مقبرة يعلوها هرم وفضل أن يدفن في مكان خفي بعيداً عن العيون

[٣٥] مصر الفرعونية – أحمد فخري صفحة ٢٩٧

ووجدت مقبرته في المكان المعروف حالياً بوادي الملوك[٣٦] وبالمناسبة لقد كانت هذه الأسرة من أكثر الأسر التي تركت آثاراً ضخمة خالدة إلي الآن ومعظمها في الأقصر ،

- واضح أن تصرف هذا الملك كان تصرف منطقي لأن كل المقابر الضخمة والأهرامات وخلافه تكون واضحة للجميع وعند حدوث أي مشاكل أو ثورات يتم اقتحامها بسهولة وسرقتها وإلقاء المومياء خارجها وبالتالي فالأضمن إخفاء القبر تماماً عن العيون ومن الممكن إظهار المعبد فقط ، هل تعرف شيئاً عن الملك تحتمس الثاني ؟ لأننا قفزنا إذا جاز التعبير إلي حتشبسوت وتحتمس الثالث ولم نذكر أي معلومات عن من قبلهم من ملوك إذا كانت معلومات تستحق أن تقال
- بالفعل لقد أغفلنا الحديث عن تحتمس الأول برغم أنه وضع أول لبنة في صرح الإمبراطورية المصرية وجاء الفرعون تحتمس الثاني بعد موت تحتمس الأول ويعتبر رابع ملوك الأسرة ١٨ وكان هذا الملك تحتمس الثاني رجل مريض علي ما يبدو وليس له طموحات وأهم ما حدث في عهده القضاء علي ثورة نشبت في شمال السودان حيث كانت هذه البقعة تحت سيطرة الأسرة ١٨ في ذلك الوقت ، وهذا الملك كانت له زوجة هي أخته في نفس الوقت وهي حتشبسوت التي تكلمنا عنها وكانت لها شخصية طاغية وقوية كما ذكرنا وهي أحق بوراثة العرش لأنها بنت الأميرة الوراثية ذات الحق في الوراثة أما باقي أبناء الملك تحتمس الأول فقد كانوا أبناء زوجات ثانويات ومنهم طبعاً الملك تحتمس الثاني الذي كان أصغر منها سناً وكان يشعر بأنه دون أخته ( زوجته حتشبسوت ) في المرتبة الاجتماعية وقد كانت هذه السيدة شريكته في الحكم وكانت صاحبة الأمر والنهي وقد ورثت الشخصية القوية عن نساء هذه الأسرة العظيمات اللاتي ذكرناهن
- وطبعاً بمجرد موت تحتمس الأول قامت صراعات علي الحكم انتهت بالزواج لحل المشكلة أليس كذلك ؟
- بالفعل فالزواج في تلك الفترة كان يحل مشاكل عديدة خاصة بشرعية الحكم فبعد أن مات زوجها تحتمس الثاني تزوجت من ابنه ( من زوجة أخري ) تحتمس الثالث لتشاركه الملك أيضاً واستمرت في وضعها من القوة والسيطرة ويقال أن تحتمس الثالث هو أخ أصغر لتحتمس الثاني وليس ابنه ، وسواء كان تحتمس الثالث قد تزوج أخته أو عمته حتشبسوت فهذا لم يغير شئ من فرض سطوتها وجبروتها علي الجميع ، بل إن مواهب تحتمس الثالث لم تظهر إلا بعد وفاة حتشبسوت التي كان يكرهها بشدة فقد كانت تعامله باحتقار علي ما يبدو فلما ماتت قام بتحطيم تماثيلها ومحو اسمها من المعابد وما إلي ذلك من الأعمال الانتقامية ويقول أحمد فخري أن علماء الآثار لم يعثروا علي جثتها وعموما قد تكون نهايتها نهاية مفجعة بلا شك[٣٧] ، ومع ذلك تم الإعلان مؤخراً عن اكتشاف جثة يحتمل أن تكون جثة حتشبسوت وكانوا يعتقدون أنها جثة سيدة أخري .

---

[٣٦] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٨٢

[٣٧] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٨٨

- موضوع أنها عمته أو أخته بالطبع قد يشغل المهتمين بالتفاصيل التي لا تقدم ولا تؤخر في العبرة التاريخية
- بالتأكيد فهل مثل هذا الاختلاف في الرأي قد يؤدي إلي مشاكل كبيرة جداً أم أن مضمون الحدث هو الأساس ؟ ، الغريب أن مثل هذه االأمور يتم مناقشتها أحياناً بعصبية شديدة وفي فترات أخري أهم من تاريخ مصر وتضيع الحقيقة الأساسية المقصود منها العبرة في وسط كلام فارغ ( عمته لا بل أخته لا بل خالته )
- بهذا الكلام تم بلورة قصة بداية الأسرة ١٨ وتحتمس الثالث فماذا بعد تحتمس الثالث ؟
- إن هذا الملك أراح المؤرخين جداً فقد كان يصطحب معه في حملاته كتاباً يسجلون تفاصيل ما يحدث ويكتبون التقارير عن المعارك٣٨ وبالتالي كان من السهل معرفة أدق تفاصيل معاركه وحملاته التي بلغ عددها ١٦ حملة عسكرية٣٩ وكان يعتمد علي الأسطول مع قواته البرية وكان بارعاً في وضع الخطط الحربية وتنفيذها ولا يأمر جنوده بأي أمر لا يستطيع أن يفعله هو شخصياً وكان شجاعاً لدرجة غير عادية فتراه دائماً في مقدمة الصفوف في أشد مراحل المعركة شراسة ، ويقال أنه أول من قام بتقسيم الجيش إلي ميمنة وميسرة وقلب وقد استطاع السيطرة علي جميع البقاع المعمورة في ذلك الوقت في الأرض وكانت طيبة في أيامه عاصمة العالم القديم وكانت تتدفق عليها خيرات أفريقيا وأسيا وجزر البحر المتوسط٤٠ ، ويعتبر هذا الرجل من الشخصيات البارزة التي تحدثنا عنها من قبل واستطاع أن يفرض نفسه علي كتب التاريخ
- يبدو أنك مولع بالحديث عن هذا الملك ، فلقد تكلمنا عنه بما فيه الكفاية فما الداعي للمزيد من الكلام إلا إذا كنت بالفعل معجب بهذا النوع من القادة ، وأرجو أن تحدثني عما حدث بعد موته

## ٥٩. امنحتب الثاني يؤكد سيطرته

- معك كل الحق فلنكمل الحديث ، فبعد أن مات تحتمس الثالث خلفه علي العرش ابنه امنحتب الثاني الذي نشأ وترعرع علي دقات طبول الحرب ورأي العالم كله ينحني أمام أبيه صاحب الشخصية الفذة والذي قام بتربية ابنه تربية عسكرية تحت إشراف أحد ضباطه الموثوق بهم
- ومن المؤكد أن الضابط الذي كان يدرب امنحتب الثاني قد سجل ذلك في مقبرته
- بالطبع فجدران المقابر يا عزيزي توضح الكثير والكثير عن العصور الفرعونية لأن كل شخص كان يسجل كل أعماله التي يفخر بها داخل مقبرته كما ذكرنا وهذا الحدث يستحق التسجيل ليؤكد أنه كان يدرب ابن الملك تحتمس الثالث ( إذ نري صورته علي أحد جدران مقبرة الضابط "مين" بطيبة وهو الذي

---

٣٨ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٨٩

٣٩ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٩٢

٤٠ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٢٩٧

كان يشرف علي تربية أمنحوتب العسكرية ويعلمه الرماية ، وهو يوجه الحديث لأمنحوتب قائلاً : شد القوس حتي أذنك مستعم كل ما في ذراعيك من قوة وثبت السهم يا أمير أمنحوتب )[41]

- فهل كان هذا الملك مقاتل شجاع علي نفس مستوي والده ؟
- بمجرد موت تحتمس الثالث أعلنت بعض الولايات في سوريا استقلالها عن الحكم المصري وهذا بالطبع يعد استخفافاً بامنحوتب الثاني فقام علي رأس جيش وخاض معركة انتقامية بشعة نكل فيها بأعدائه أشد التنكيل مما أدي إلي توطيد أركان إمبراطوريته وعرف الجميع أن الجالس علي العرش لا يقل قوة عن أبيه وسارعت كل الولايات بإرسال الهدايا وتقديم فروض الطاعة للملك الجديد ، وظل امنحتب الثاني جالس علي عرش الإمبراطورية لمدة ٢٥ سنة٤٢ كاملة ثم مات ودفن في وادي الملوك كما مات من قبله وكما مات من بعده وسبحان الحي الذي لا يموت ،
- فماذا حدث بعد موته ؟
- تولي الحكم تحتمس الرابع آخر الملوك المحاربين في الأسرة ١٨ وجاء بعد صراع علي الحكم مع أخوته بعد وفاة أبيه امنحوتب الثاني ، وكان تحتمس الرابع ملك محارب مثل أبيه وجده ويعتبر آخر الملوك المحاربين في هذه الأسرة٤٣ وقام بعدة حملات لإعادة النظام في بعض الولايات الخاضعة للإمبراطورية وترك العديد من الآثار الموجودة حتي الآن ( ومن أشهر الآثار الباقية من عهده ، اللوحة الجرانيتية التي ترجع للعام الأول من حكمه وهي المقامة للآن بين مخالب تمثال أبو الهول بالجيزة ، ويقص علينا تحتمس الرابع من خلال نص منقوش عليها ، أنه ذهب عندما كان شاباً ليحتمي بظل أبو الهول وذلك بعد رحلة صيد مرهقة فغلبه النعاس فرأي فيما يري النائم الإله حور–ام–أخت "المجسد في تمثال أبو الهول " يبشره بتاج مصر عندما يحرره من الرمال التي عليه ، ويبدو أن الملك تحتمس الرابع قد حقق للإله حور–ام–أخت رغبته بعد توليته العرش مباشرة ، هذه القصة تؤكد أن تحتمس الرابع لم يكن الوريث الشرعي ولهذا اختلق هذه النبوءة لكي يفسر لنا أن اختياره قد تم بواسطة الإله حور –ام–أخت )٤٤ وتسمي هذه اللوحة بلوحة الحلم
- طبيعي كما ذكرت أن يتم اختلاق هذه النبوءة خلال وجود صراع علي العرش ، فهل ترك آثار أخري بخلاف النبوءة المزعومة بين مخالب أبو الهول
- لقد ترك آثار أخري بالطبع من بينها مسلة موجودة حالياً في روما وتعتبر من أعلي المسلات المصرية إذ يصل ارتفاعها إلي ٣٠.٧ متر ( وقد خطي تحتمس الرابع خطوة جريئة في السياسة الخارجية وهي أنه تزوج من ابنة الملك الميتاني "ارتاتاما" وهي خطوة لها أكثر من مدلول إذ أن هذا الزواج

---

[41] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٨٨

٤٢ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٠٥

٤٣ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٠٧

[44] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٨٩ ،

الدبلوماسي يؤكد اعتراف فرعون مصر بدولة الميتاني وفي نفس الوقت يعلن إنهاء حالة الحرب بين مصر وهذه الدولة وأصبحت من الآن مملكة الحيثيين هي العدو المشترك لمصر وللميتانيين وقد أطلق المصريون علي هذه الأميرة الميتانية اسماً مصرياً هو "موت أم أويا" وهي التي أصبحت فيما بعد أم الفرعون المصري أمنحوتب الثالث )٤٥ وقد مات تحتمس الرابع شاباً حيث دام ملكه ١٤ سنة فقط ، وكان قد تولي الملك وهو في العشرين من عمره فمات وقد بلغ ٣٤ سنة ودفن في وادي الملوك

- عظيم جداً ، فماذا بعد ؟

## ٦٠. الملك امنحتب الثالث وزوجته الملكة ( تي )

- بعد أن مات تحتمس الرابع تولي ابنه الملك امنحتب الثالث حكم مصر وكان لا يميل للحروب وبدأ في عهده ما يسمي ( أيام السلم )٤٦ وقد تزوج هذا الفرعون فتاة من عامة الشعب ولم يتزوج أميرة ملكية وطبعاً مصر في عهده كانت قد تأثرت بثقافات وحضارات الشعوب الأخرى التي شملتها الإمبراطورية المصرية فأصبح المصريون أكثر مرونة في تقاليدهم الدينية القديمة وبالمناسبة زوجته كان اسمها ( تي ) وفي هذا العصر بدأ المصريون يقيمون التماثيل للملكات جالسات جنباً إلي جنب بجوار الملوك وفي نفس الحجم وعندما جلس هذا الفرعون علي عرش مصر كانت الخزائن عامرة بالذهب وجميع الولايات مستقرة ، وكانت الخيرات تعم البلاد وبدأ الناس يعيشون حياة الترف والمتعة وازدهر الفن وإقامة المباني الرائعة ذات النقوش البديعة في كل مكان
- أشعر أن الأمور ستتدهور أليس كذلك ؟
- بالفعل لقد كان هذا الفرعون وزوجته من أصحاب الذوق الفني الرفيع ، ولم يفكر هذا الفرعون أن يذهب إلي أي مكان في إمبراطوريته الشاسعة ليراه الناس ويرهبونه هو وجيشه إنما عاش حياته يتمتع بالرفاهية ، واستمتع بالرقص والغناء ولأن الناس علي دين ملوكهم فإن هذه الروح انتشرت في المجتمع المصري
- هذا الملك خير مثال علي ما ذكرناه عن الأحفاد الذين يعيشون حياة الترف والمتعة ويضيعون ما صنعه الأجداد العظماء فقد ولدوا وفي أفواههم ملاعق من ذهب ،
- أليس من المحتمل أن تكون أمه الميتانية هي السبب في تأثره بعادات غير مصرية وجعلت منه شاب لا يرقي لمستوي فراعنة مصر الكبار السابقين
- أكيد امنحتب الثالث قد ضعفت صحته من كثرة الملذات وأصبح رجلاً محطماً
- نعم مما أدي إلي سيطرة الملكة ( تي ) علي مقاليد السلطة في يدها كما أنه أشرك ابنه معه في الحكم في أواخر أيامه وهذا الابن هو الملك امنحتب الرابع المعروف باسم اخناتون ،

---

٤٥ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ١٩٠

٤٦ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٠٩

- أشم رائحة انهيار الإمبراطورية المصرية مع وصول اخناتون للحكم

## ٦١. امنحتب الرابع ( اخناتون )

- في الحقيقة بدأ امنحتب الرابع المعروف حالياً باسم اخناتون بداية عادية جداً كأي ملك في طيبة وقام بتقديم الولاء لإله الدولة آمون واتخذ لنفسه الألقاب الخمسة التقليدية المتوارثة وتزوج من نفرتيتي صاحبة أشهر تمثال لامرأة فرعونية حالياً ( رأس نفرتيتي وهو غير موجود بمصر بالطبع ) ، وكانت أمه الملكة تي تساعده في الحكم في سنواته الأولي
- الملكة تي التي هي من عامة الشعب
- نعم ( وتوضح لنا مراسلات تل العمارنة – أن الملكة تي أم أمنحوتب الرابع قد أرسلت للملك الميتاني توشراتا خطاب تبلغه فيه بموت زوجها أمنحوتب الثالث وترجوه أن يستمر في صداقته وعلاقته الودية مع ابنها فرعون مصر الجديد أمنحوتب الرابع وقد أجاب توشراتا –وهو ابن الملك السابق – علي خطاب تي بأن عليها أن تقنع ابنها بالمحافظة علي هذه العلاقات الودية بين مصر ودولة الميتاني وقد يستدل من هذه الخطابات أن أمنحوتب الرابع لم يعتل عرش مصر إلا بعد وفاة والده – أي لم يكن شريكا معه في الحكم – وفي نفس الوقت برهان علي قوة نفوذ الملكة تي سواء في السياسة الداخلية أو الخارجية ) [٤٧]
- من الجيد أن تتواجد سيدة بهذه القوة والذكاء لتساعد ابنها الملك في بداية توليه الحكم
- ( وما كادت الأمور تستتب لاخناتون حتي بدأ يفكر في دينه الجديد والدعوة له ، الدعوة إلي إله واحد يكمن في قرص الشمس أطلق عليه آتون )[٤٨]
- وهذا يُعد انقلاب ديني خطير علي معابد آمون وباقي الآلهة المزعومة في طيبة
- بالطبع فقد أقام معبد لعبادة قرص الشمس التي كان يعتبرها مصدر القوة مما جعل كهنة آمون يشعرون بالخطر علي الآلهة أمام هذا الانقلاب الديني الكبير بالرغم أن الشمس كانت تعبد من قبل بصورة أو بأخرى ، ثم قام بتغيير اسمه من امنحتب الرابع إلي إخناتون وترجمتها ( المفيد للشمس )[٤٩] واشتد العداء بينه وبين كهنة آمون بل إن أبيه وأمه غضبوا منه كثيراً لأنهم كانوا مشاركين له في الملك حتي هذه الفترة في بعض الروايات والآراء وبدأت الولايات واحدة واحدة تنفصل عن حكم مصر وتتداعي أركان الإمبراطورية التي أقامها أجداده المحاربين وهو غير مهتم ،
- فهل ترك طيبة ؟

---

[٤٧] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق – صفحة ١٩٨

[٤٨] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق – صفحة ١٩٩

[٤٩] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣١٧

- نعم وقام بتشييد عاصمة جديدة له ولعائلته ولأتباعه وأطلق عليها "أفق آتون" وهي المدينة المعروفة حالياً بتل العمارنة علي البر الشرقي للنيل بالقرب من ملوي٥٠ مما أدي إلي تدبير مؤامرات لقتله والتخلص منه لإنقاذ الأسرة المالكة ، وكان إخناتون يرفض أن يُعبد أي إله آخر سوي الإله آتون ( قرص الشمس ) وأعلن التوحيد والتخلص من تعدد الآلهة وهذا طبعاً سيؤدي إلي إن الكهنة سيفقدون مكانتهم

- هل لديك نماذج من أقواله ؟

- سأعطيك فكرة بسيطة عن النشيد الذي كان يتعبد به إلي الإله الواحد الذي يعبده لتتعرف علي طبيعة أفكار هذا الملك وإليك مقطع صغير من أحد أجزاء النشيد من منتصفه تقريباً ( ما أعظم أعمالك التي عملتها ، إنها خافية علي الناس أيها الإله الأوحد ، الذي لا شبيه له ، لقد خلقت الدنيا كما شئت عندما كنت وحدك ، الناس والماشية والوحوش الضارية وكل ما علي الأرض يسعي علي قدميه وكل ما يرتفع في السماء يطير بجناحيه ، تضع كل شئ في مكانه إنك أنت الذي يمدهم بما يحتاجونه ويحصل كل شخص علي طعامه وسنوات حياته مقدره له )٥١ وطبعاً لا تعليق علي ما ورد في هذا النشيد لكن من المهم أن نعرف أن اخناتون وعائلته فقط هم المسموح لهم بعبادة الإله آتون لأن اخناتون اعتبر نفسه الخادم الأول للإله آتون أما رعيته فكانوا يقدسون اخناتون الذي أصبح في مصاف الآلهة فقد ثبت أن اخناتون نفسه كان له كاهن مخصص له ويحمل نفس لقب اخناتون بالنسبة لآتون[٥٢] ،

- فماذا حدث للإمبراطورية المصرية ؟

- الإمبراطورية المصرية كانت تحتضر وفي طريقها إلي الموت ولم يتبقي سوي إعلان وفاتها ، وبالمناسبة اخناتون كان لديه ثلاثة بنات فقط ماتت إحداهن وهي صغيرة ولم يكن له أولاد ذكور وكانت عاصمة ملكه العمارنة بعيداً عن طيبة التي مات فيها والده وبقيت أمه ( تي ) التي قررت أن تنغص عليه حياته وتوقع بينه وبين زوجته نفرتيتي علي ما يبدو حيث أنها زارته في العمارنة وظلت ضيفة عنده لفترة ثم عادت إلي طيبة مرة أخري ومن بعد هذه الزيارة ساءت العلاقات جداً بين اخناتون وزوجته وكل منهما أقام وحده ، وكان يوجد إخوة صغار لإخناتون في الغالب منهم أمير اسمه ( سمنخ كا رع ) والثاني اسمه ( توت عنخ آتون ) وكان اخناتون يميل أكثر إلي ( سمنخ كا رع ) فقام بتزويجه من ابنته وجعله شريكاً له في ملكه بينما عاش توت عنخ آتون في ضيافة نفرتيتي بعيداً عن اخناتون ثم بدأت المؤامرات التي في الغالب قادتها الملكة الأم ( تي ) وقائد الجيش ( حور محب ) علي ما يبدو

---

٥٠ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠١

٥١ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٢٦

٥٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠٠

للتخلص من اخناتون وشريكه في الملك ( سمنخ كا رع ) وتم اغتيال ( سمنخ كا رع ) ثم بعد ذلك تم قتل اخناتون أيضاً بعد عامين من قتل شريكه في الملك

- كل هذا من أجل المحافظة علي كيان العرش بالطبع
- بالتأكيد ، وقد ( مات اخناتون وهو لا يزال شاباً في الثانية والثلاثين من عمره ، مات الملك الإله ولهذا لم يتمكن أتباعه من الاستمرار في دينهم ، فقد مات اخناتون ومات معه دينه وعقيدته إذ بموته فقدت الرعية الرمز الحي الذي يقدسونه وبالتالي فقدوا وسيلة الاتصال بالإله آتون )[٥٣]
- فماذا نستفيد من هذه القصة ؟
- أعتقد أن أي نظام حاكم مستقر إذا شعر أن أحد حكامه قد خرج عن المألوف وبدأ سياسة تؤثر علي نظام الحكم لابد أن يتم التخلص منه وبواسطة أقرب الناس إليه وهناك العديد من الأمثلة علي مر التاريخ مثل ما حدث مع يوليوس قيصر في روما وما حدث مع الحاكم بأمر الله في القاهرة وهكذا
- فمن تولي الحكم بعد مقتل اخناتون ؟

## ٦٢. توت عنخ آمون يصل للحكم

- تولي حكم البلاد توت عنخ آتون الذي تزوج من إحدي بنات اخناتون وكان صغير السن وقام بتغيير اسمه تحت ضغط من الكهنة ليصبح توت عنخ آمون[٥٤] وأعاد العاصمة مرة أخري في طيبة وتم تحطيم معظم آثار اخناتون وخربوا عاصمته في العمارنة وكان الملك الصغير توت عنخ آمون مستسلم تماماً لقرارات الكهنة وكان علي ما يبدو ملك ضعيف بالرغم من شهرته حالياً في هذه الأيام التي يرجع السبب فيها إلي العثور علي مقبرته كاملة بكل كنوزها لأنها كانت مختفية عن اللصوص كل هذه السنين ، وقد تم اكتشاف المقبرة في ٤ نوفمبر ١٩٢٢ ( بكل ما فيها من ثروة تدل علي البذخ والإسراف الذي عاش فيه ملوك الإمبراطورية ، ويجب أن يؤخذ في الاعتبار بأن توت عنخ آمون كان له كل هذه الثروة من الأثاث الجنازي ولم يكن ملكاً له مكانته التاريخية ،
- ماذا لو قيس بغيره من الملوك وفي هذه الحالة قد يستطيع الإنسان أن يتخيل ما يجب أن يكون عليه الأثاث الجنازي بالنسبة للملوك العظام أمثال تحتمس الثالث وأمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني )[٥٥]
- لم يكن لهذا الملك وريث في الحكم ومات بعد عشر سنوات فقط من حكمه وهو صغير السن ولم يكن له ولد من بعده ووصل الأمر إلي أن حكم البلاد رجل ليس من الأسرة المالكة وهو الملك ( آي ) الذي كان كاهناً ومقرباً من الكهنة ولكنه كان علي عداء شديد مع حور محب قائد الجيش الذي تولي الحكم

---

[٥٣] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٠٣-٢٠٤

[٥٤] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٤٠

[٥٥] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢١١

بعد موت ( آي ) بإجماع الآراء وبدون إراقة نقطة دم واحدة لأن البلاد كلها كانت تسعي إلي قائد شجاع يقودها إلي بر الأمان ولأن حور محب كان يريد أن يكون ملك شرعي قام بالزواج من إحدي أميرات الأسرة المالكة السابقة وقام بإجراء بعض الإصلاحات الإدارية وإعادة ترتيب الجيش وأعاد الطمأنينة إلي الشعب وحكم مصر حوالي ٣٠ سنة كاملة وكان آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة التي أسسها أحمس الأول

- لفت نظري في كلامك عبارة (البلاد كلها كانت تسعي إلي قائد شجاع يقودها إلي بر الأمان ) فهل الشعب هو الذي كان يسعي لذلك القائد أم المستفيدين من هذا النظام من نخبة الكهنة ومن شابههم من كبار رجال الدولة ؟
- من المؤكد أن استقرار نظام الحكم في مصر في تلك الفترة كان يعتمد علي وجود قائد قوي يسيطر علي الأمور بحسب البيئة الفيضية التي تحدثنا عنها من قبل وكان ما يهم النخبة والكهنة في ذلك الوقت هو ولاء الملك للآلهة المعترف بها لديهم فمثلاً ( اعتبر كاتب كل من قائمة أبيدوس وسقارة الملك حور محب أول ملك شرعي بعد الملك أمنحوتب الثالث وتجاهل عن عمد كل من أخناتون وسمنخ كارع وتوت عنخ آمون وآي الموصومين بالآتونية ) [٥٦]
- علي أي حال إذا كان لابد من وجود ديكتاتور مؤله علي العرش فمن الأفضل للشعب أن يكون عادلاً فهل كان حور محب ملكاً عادلاً ؟

## ٦٣. قوانين حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨

- كتب المؤرخ الكبير عبد الرحمن الرافعي عن الملك حور محب ما ملخصه : ( كادت البلاد أن تقع في هاوية الإنقسام الداخلي والانحلال ، لولا أن قيض الله لها زعيماً من عامة الشعب أهلته مواهبه وشخصيته لتسلم زمام الأمور وإنقاذ الوطن وهو ( حور محب ) الذي كان من ضباط الجيش في عهد اخناتون وقائد الجيش في عهد توت عنخ آمون ، ولم يكن طامعاً ولا راغباً في أن يؤسس أسرة ملكية ، ولا أن يكون ملكاً ، تولي حور محب الملك لأن الظروف دفعته إلي ذلك دفعاً ، لإنقاذ البلاد من الهاوية التي تردت فيها ، - -
- الهاوية هنا هي عدم السيطرة علي الشعب وإقامة آثار وتحقيق انتصارات والمحافظة علي مصالح الكهنة والنخبة الحاكمة أم ماذا يقصد بالهاوية ؟
- أعتقد أنه يقصد عدم استقرار الحكم
- فماذا كتب أيضاً عن حورمحب ؟
- وقد تزوج حور محب من الأميرة موت نجمت أخت الملكة نفرتيتي ليكتسب شرعية الحكم كما كانت تقتضي الأمور في العصر الفرعوني عندما يكون الملك الجديد لا ينتمي للأسرة الحاكمة السابقة ، وقد

[٥٦] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢١٦

شيد حور محب في معبد الكرنك بوابة من الجرانيت ويمتد من هذه البوابة طريق الكباش إلي الجنوب حتي معبد الإلهة موت ثم يأخذ طريقاً آخر إلي معبد الأقصر ، وقد استطاع هذا الملك أن يعيد الاستقرار للبلاد ولاستكمال هذا الاستقرار حارب الحيثيين وعقد مع ملك خيتا معاهدة ضمنت له استقرار الأمور مؤقتاً علي الحدود وتفرغ للإصلاح الداخلي حتي تستعيد البلاد قوتها وهيبتها ) ،

- أي أنه كان رجل دولة بالمعني الحقيقي ومن الواضح أنه كان محبوباً من المؤرخين علي الأقل
- نعم فقد كتب عنه الدكتور أحمد بدوي بعنوان ( حور محب أبو الشعب وصديق الفلاح ) ما ملخصه : ( كان يؤذيه ما رأي من حال الشعب ، فالفلاح المسكين قد أهمل حاله واشتد بؤسه بعد أن تجرع مرارة العيش قبل أيام حور محب ، فعزم علي إصلاح شأنه وتأمين رزقه ، وتوفير سعادته ، فعمد إلي إصدار قانون ينظم حياة الأمه أملاه بنفسه علي كتابه ،
- الحاكم هو القانون في مصر فإذا خالفت الحاكم فأنت تخالف القانون
- كما حدد القانون شروط تعيين القضاة في محاكم الدولة فاختارهم من أحسن الناس سيرة وأكرمهم خلقاً ، وأجرأهم قلباً ، وأطهرهم لساناً ، وأعفهم يداً ، وحرم علي القضاة أن يصادقوا أحداً من الناس ، أو يتهادوا مع الناس ، أو تكون بينهم وبين الناس معاملات مالية ، وهكذا كان حور محب رجل حزم وعزم ، لا يلين في الحق ، ولا تأخذه في تنفيذه لومة لائم ، وقال الملك حور محب عن القانون الذي وضعه : ( إني قد وضعته لضمان رفاهية شعبي ) ويعتبر الملك حور محب آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة وقد حكم مصر ما يقرب من ١٢ سنة ، من حوالي سنة ١٣١٩ قبل الميلاد إلي حوالي سنة ١٣٠٧ قبل الميلاد [٥٧]
- ومات حور محب
- وبموت حور محب انتقلت السلطة إلي الملك رمسيس الأول مؤسس الأسرة ١٩ وتم انتقال السلطة بهدوء شديد وبدون صراعات لأن حور محب أساساً لم يكن يطمع في الملك ولم يعمل لمصالحه الشخصية أو لتوريث ملكه من بعده لعائلته بل إن مصلحة البلاد كانت عنده أهم من ذلك كله وبالتالي لم تحدث صراعات علي خلافته فتولي الحكم أحد زملاءه بالجيش وهو رمسيس الأول وكان رجل مسن جداً وكان له ولد يسمي ( سيتي الأول ) وكان أيضاً ضابط بالجيش كأبيه وورث عنه الملك بعد وفاته
- وكانت هذه بداية الأسرة ١٩ فإن أمكن تلخيصها بالكامل قبل الحديث عن أهم ملوكها سيكون ذلك أفضل

## ٦٤. الأسرة ١٩ الفرعونية

[٥٧] نقلاً عن كتاب ( تاريخ الحركة القومية في مصر القديمة )– من فجر التاريخ إلي الفتح العربي– تأليف عبد الرحمن الرافعي – دار المعارف – صفحة ١٠٢ ، ١٠٣ – وكتاب هؤلاء حكموا مصر – حمدي عثمان – صفحة ٦٧ –

- إجمالي عدد ملوك هذه الأسرة ١١ ملك أولهم رمسيس الأول وأشهرهم سيتي الأول ورمسيس الثاني صاحب التمثال الشهير الذي كان موجود في الميدان الذي يحمل اسمه بالقاهرة حالياً وهو ميدان رمسيس وقد تم نقله من الميدان ومع ذلك لا يزال الميدان يحتفظ باسمه ، ومكتوب في موسوعة حكام مصر أن هذه الأسرة حكمت مصر من سنة ١٣١٤ ق م إلي سنة ١٢٠٠ ق م[٥٨] أي حوالي ١١٤ سنة ، بينما في كتاب مصر الفرعونية مكتوب أنها حكمت مصر من سنة ١٣٠٤ ق م إلي سنة ١١٩٥ ق م[٥٩] أي حكمت مصر حوالي ١٠٩ سنة
- وهذا دليل علي أن تواريخ حكم الفراعنة تقريبية كلها فلا تشغل بالك كثيراً بدقة التواريخ
- علي أي حال الإحصائية التي أقوم بذكرها في هذا الحوار معتمدة بالكامل علي كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري ، أما إذا عدنا للملك رمسيس الأول المسن فقد حكم مصر أقل من عامين فقط وجاء بعده ( سيتي الأول ) ويعتبر هذا الملك هو المؤسس الحقيقي للأسرة ١٩ لأنه بدأ عصر جديد يُطلق عليه "عصر الولادة" أو البعث فقد قام بعمل إصلاحات واسعة للمباني الدينية كما قام بإخماد العديد من الثورات وهزم البدو في سيناء وجنوب فلسطين بل إنه اندفع بجيشه في كل مكان ( ليبيا ، سوريا ، فلسطين --- إلخ ) لإعادة أمجاد تحتمس الثالث وسجل انتصاراته علي الجدران وترك العديد من الآثار أشهرها بهو الأعمدة الرائع في الكرنك وقد بلغت مساحة بهو الأعمدة ٥٤٠٠ متر ، فالنصف الشمالي من هذا البهو ينتمي إلي سيتي الأول والنصف الثاني ينتمي للملك رمسيس الثاني وكل هذه الأعمدة مزينة بالنقوش والمناظر واهتم بالمناجم وحفر الآبار وأشرك ابنه في الحكم لتدريبه علي الحكم وبعد أن مات تولي ابنه رمسيس الثاني حكم مصر وهو يعد أشهر فرعون في تاريخ مصر بالكامل في هذه الأيام وقد حكم مصر لمدة سبعة وستين عاماً وامتلأت مصر بآثار عديدة ومتنوعة من عهده واسم رمسيس أصله ( رع مس سو ) أي الإله رع هو الذي أنجبه ، ولقد خلد رمسيس الثاني نفسه بما أقامه من معابد ومسلات (١٠٠مسلة) ومقاصير وتماثيل ضخمة تزن مئات الأطنان ولوحات في جميع أنحاء مصر وكذلك شيد الملك رمسيس الثاني معابد في تنيس وأبيدوس والنوبة ولعل من أشهرها معبد أبي سمبل الكبير الذي كرسه لعبادة الإلهين آمون رع وبتاح والملك رمسيس الثاني نفسه ، وكذلك معبد أبي سمبل الصغير الذي كرسه لعبادة الإلهة حتحور وزوجته الملكة نفرتاري التي كانت الزوجة الرئيسية لرمسيس الثاني أو كبيرة الزوجات الملكيات واسمها تم ترجمته بمعاني مختلفة مثل جميلة الجميلات أو التي لا مثيل لها هذا إلي جانب بناء معبده الجنائزي الذي شيده في البر الغربي بطيبة ويعرف باسم معبد الرمسيوم والجدير بالذكر أن الشمس تتعامد علي وجه تمثال رمسيس الثاني في معبده في مدينة أبي سمبل ، جنوب أسوان مرتين كل عام مرة يوم تتويجه ومرة أخري يوم مولده

---

[٥٨] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٣٣

٥٩ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٥٦

وتتوغل الشمس لمسافة حوالي ٦٠ متر من مدخل المعبد لتصل إلي قدس الأقداس ، وبرغم أن الملك رمسيس الثاني شيد مقبرة عظيمة في وادي الملوك إلا أنه لم يدفن بها ، أما الملكة نفرتاري فقد دفنت في مقبرتها الشهيرة بوادي الملكات بطيبة الغربية وتعتبر من أروع المقابر الفرعونية في مصروومما يذكر أيضاً للملك رمسيس الثاني أنه لم يهمل الناحية البحرية لمصر ، فقد بني أسطولاً من السفن المحاربه ليرد به هجمات قراصنة البحار

- أعتقد أن اسم رمسيس الثاني مرتبط بمعركة قادش أليس كذلك ؟
- بالطبع فهو صاحب معركة قادش الشهيرة التي بدأ سير القتال لصالح العدو في بداية المعركة ولكنه استطاع أن يلحق بهم هزيمة منكرة في نهاية المعركة وطلبوا منه الصفح وقبلوا الأرض تحت قدميه ، وسيطر رمسيس الثاني علي فلسطين ولبنان وجزء صغير من سوريا ٦٠ بعد ان اتفق مع الأعداء ( الحيثيين ) علي احترام الحدود من كلا الطرفين وإنهاء الحرب بالرغم من انتصاره الساحق الذي جاء بعد هزيمة كادت تقضي علي حياته في بداية المعركة وتفرق عنه جنوده وفقد ثقته بهم وهذا يفسر قبوله الصلح بعد انتصاره لعدم ثقته في رجاله ويقول احمد فخري في كتابه عن ذلك ( وربما كانت حالته النفسية هي السبب في قبول الصلح وهو في انتصاره مادام رجاله لا يستحقون الاعتماد عليهم )٦١ ، وقد سجل الحيثيون في آثارهم أن نتيجة معركة قادش كانت لصالحهم هم وأنهم قاموا بمطاردة الجيش المصري ( وقد يحتار المؤرخون بين الروايتين ، فالبعض يميل إلي الرواية المصرية والبعض الآخر يفضل الرواية الحيثية ، علي أنه من الطبيعي أن يحتفظ كلا من الملكين المصري والحيثي لنفسه بكرامته ، – – وظلت حالة التوتر مستمرة بين المصريين والحيثيين إلي أن أدرك الطرفين أن السلام خير لهما ،
- ماذا حدث ؟
- أبرموا معاهدة " أمن طيب وأخوة " شهد الآلهة المصريون والحيثيون عليها ، ونعرف تفاصيل هذه المعاهدة من النصوص المصرية المكتوبة بالهيروغليفية علي أحد جدران معابد الكرنك ومن النصوص المسمارية المكتوبة علي لوحين من الطين عثر عليهما في بوغاز كوي – – بعد ذلك بدأ تبادل الخطابات الودية بين حكام الدولتين ، وقد اشتركت في هذه المراسلات أيضاً كلاً من زوجة رمسيس الثاني الملكة نفرتاري وزوجة الملك خاتو سيلي الثالث الملكة بوتو خيبا ، بل أكثر من هذا لقد قام خاتو سيلي الثالث بزيارة ودية لمصر )٦٢
- واضح أن رمسيس الثاني كان فرعون من الفراعنة الأقوياء وكان حكمه مستقر وحافل بالإنجازات

---

٦٠ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٦٩

٦١ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٦٩

٦٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٢٤–٢٢٥

- نعم ولقد كان رجل مزواج وله أولاد وبنات كثيرين لم يستطع المؤرخون حصرهم ويقال أنه تزوج ثلاثة من بناته وكان عنده ما يزيد عن ١٠٠ ولد وبنت تقريباً ، ثم مات واعتلي العرش ابنه مرن بتاح وقد كان في حوالي الستين من عمره نظراً لأن والده امتد به العمر في الحكم وكبر سنه وأغلب الحروب التي خاضها هذا الملك حروب دفاعية علي ما يبدو ومات بعد ١١ سنة من حكمه ويبدو أن هذا الملك قد قاتل بني إسرائيل لأن اسمهم علي لوحة انتصاراته ( لوحة مرنبتاح الشهيرة ) ولكن هذا الموضوع غامض حتي الآن ولكن أكد بعض العلماء أن بني اسرائيل قد خرجوا من مصر أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة٦٣ وليس في عهد هذا الملك ، وعلي العموم توقيت خروج بني إسرائيل من مصر لم يؤكده أي عالم من علماء التاريخ حتي الآن بشكل محدد كما ذكرنا من قبل ،
- فما المكتوب علي لوحة مرن بتاح ؟
- يقول د سيد توفيق : ( علي أن الخطر الذي كان يهدد مصر في عهده لم يكن من الشرق أو من الجنوب بل أتي هذه المرة من الغرب من ليبيا ، فقد بدأت هجرات لقبائل من شمال أفريقيا ومن الصحراء الغربية بنسائهم وأطفالهم للبحث عن الطعام وذلك بسبب القحط الشديد الذي ألم ببلادهم وقد أتوا بقيادة –مري– رئيس قبيلة الليبو "ليبيا" وقد أتي ومعه أولاده وزوجاته الاثني عشر وقد يدل هذا علي نية الاستيطان في وادي النيل ، ولهذا اضطر الملك مرنبتاح في العام الخامس من حكمه أن يرسل حملة عسكرية للدفاع عن حدود مصر الغربية وذلك بعد أن أعد لهم جيشاً قوياً من المشاة والمركبات الحربية فاستطاع في معركة الست ساعات من أن يقتل ٦٠٠٠ وأن يأسر ٩٠٠٠ وكانت هذه الهزيمة القاسية عقاباً لهم وردعاً لأمثالهم ، وقد ذكرت النقوش المصرية التي ترجع لعهده تفاصيل هذا القتال علي أحد جدران معابد الكرنك وقد أمر مرنبتاح باستغلال ظهر لوحة حجرية من عهد الملك أمنحوتب الثالث ليسجل عليها أن الخراب قد حل بالتحنو "ليبيا" وأن إسرائيل قد خربت وزالت بذرتها " وهذه هي المرة الأولي التي يذكر فيها اسم إسرائيل علي لوحة مصرية –) ٦٤
- لقد كان ملك مقاتل بالفعل ويفخر بذلك
- بالفعل كان مرن بتاح في أغلب الظن آخر الرجال المحترمين في الأسرة ١٩ لأن باقي ملوك الأسرة كانت فترات حكمهم قصيرة وتدهورت البلاد في عهدهم بل إنهم قد يكونوا ليس لهم أي علاقة أو قرابة للأسرة أساساً ولن أشغلك بكل الاحتمالات التي أدت إلي هذه الأحداث ، وعندما مات مرنبتاح تم دفنه بقبره بوادي الملوك ولكن تم العثور علي مومياءه في مقبرة أمنحوتب الثاني التي استخدمت بعد ذلك كمقبرة جماعية لمجموعة من مومياوات الملوك لحمايتها
- إذن لا توجد أسماء تستحق أن نتحدث عنها في الأسرة ١٩ بعد مرنبتاح

---

٦٣ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٧٨

٦٤ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٢٦–٢٢٧

## ٦٥. رمسيس الثالث أبرز ملوك الأسرة رقم ٢٠

- المهم أن هذه الأسرة قد انتهت إلي الأبد وجاءت أسرة جديدة هي الأسرة رقم ٢٠ المكونة من سبعة ملوك وكل ملك منهم اسمه رمسيس ( من الثالث إلي التاسع ) وحكموا مصر حوالي ١١٥ سنة٦٥ بحسب الدكتور ناصر الأنصاري وكان مؤسس هذه الأسرة هو الملك رمسيس الثالث الذي حكم البلاد لمدة ٣٢ سنة ، يقول عنها أحمد فخري ( -- كانت في الواقع فترة صحو بين عهدين فاسدين )٦٦ وهذا الرجل يعتبر مثل للشخصيات البارزة التي جاءت في فترات غير مستقرة فصنعت الاستقرار وانتهي الاستقرار بعد انتهاء حكمها والطريف أن كل من جاء بعده من أسرته اسمه رمسيس أيضاً
- ولكن ليس كل من سمي نفسه رمسيس يمكنه أن يصنع ما صنعه رمسيس الثاني أو رمسيس الثالث ، فلنكمل الحديث عن الملك رمسيس الثالث
- في عهده تم تشييد العديد من الآثار الرائعة واستطاع أن يحمي مصر من جميع الأخطار التي تعرضت لها وفي عهده حصل كهنة آمون علي امتيازات خاصة ( إذ نعرف مجموع ما امتلكه معبد آمون من أراضي زراعية وصل إلي ١٠% من مجموع الأراضي في حين أن نصيب جميع الآلهة الأخرى لا يزيد عن ٥% من هذه الأراضي ، فقد كان يتبع معبد آمون في طيبة بمفرده ٨٦٤٨٦ خادماً و ٤٢١٣٦٢ رأساً من الماشية كبيرها وصغيرها وكان عدد الأرغفة التي تقدم في الأعياد ٢٨٤٤٣٥٧ والطيور ١٢٦٢٥٠ كما كان يمتلك مناجم للذهب والفضة هذا فضلاً عن العديد من المصانع التي تنتج له ، وقد يوضح هذا مدي ما وصل إليه نفوذ كهنة الإله آمون في عهد رمسيس الثالث ) ٦٧
- هذا معناه أن كهنة آمون كانوا مرفهين عن باقي المعابد وهذا يفسر ما كان يحدث من صراعات بين نفوذ الآلهة طوال تاريخ العصور الفرعونية إنه صراع اقتصادي علي ما يبدو بين الكهنة لامتلاك المال والنفوذ معاً ومن دقة الأرقام المسجلة من هذه الفترة يتضح أنها كانت تخضع لحسابات صارمة
- وكان رمسيس الثالث من المعجبين جداً بالملك رمسيس الثاني وقلده في كل شئ وأطلق اسمه علي أولاده تيمناً به ثم سرعان ما تدهورت البلاد مرة أخري من بعده وأهم ما يميز هذا العصر الذي كان تمهيداً لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة بعد ذلك أن الأجانب تولوا وظائف هامة في الدولة وفي البلاط الملكي وتسبب هؤلاء الموظفون في إحضار الجنود المرتزقة الغير مصريين وساءت الحالة الاقتصادية في البلاد في آخر أيام هذا الملك وتولي حكم مصر من بعده ملوك ضعفاء عجزوا عن التغلب علي الأزمة الاقتصادية وسيطر عليهم الكهنة إلي أن انتهت هذه الأسرة تماماً وبداية ما يسمي بعصر الاضمحلال الأخير

---

٦٥ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٤

٦٦ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٣٨٩

٦٧ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٣٠

- أي أننا وصلنا لعصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة ، فهل توجد أي أحداث مهمة أو معلومات عن فترة حكم الأسرة ٢٠
- ما يمكن أن يقال من معلومات تاريخية عن فترة حكم رعامسة الأسرة ٢٠ فمعلومة قد تكون مهمة بالنسبة لك وهي من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر ( القسم الأول ) صفحة ٢٣٢ ، ٢٣٣ وهي تتحدث عن سرقات قبور الملوك نظراً لفقدان الشعب لإيمانه بالآلهة وزيادة معدلات انتشار الفساد في عهد رمسيس التاسع حيث يقول الدكتور سيد توفيق (-------- جلس علي عرش مصر بعد ذلك الملك رمسيس التاسع واستمر يحكم أكثر من عشرين عاماً ولعل شهرته ترجع للبرديات التي تتحدث عن سرقات مقابر الملوك التي حدثت في عهده ، وقد وصل الفساد الإداري ذروته في العام السادس عشر من حكمه وبدأت العصابات في طيبة تتجه لسرقة المقابر وما بها من ذهب وفضة ولم تسلم مقابر فراعنة مصر العظام أمثال أمنحوتب الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني من عبثهم ، وبدأ الناس يفقدون أيمانهم بآلهتهم وبملوكهم وحكامهم ، إذ تسجل إحدي هذه البرديات كيف أن "باسر" عمدة مدينة الأحياء الممثلة في الضفة الشرقية لطيبة تقدم بتقرير للوزير " خع إم واست " الذي كان ينوب عن الملك رمسيس التاسع يبلغه فيه عن السرقات التي تحدث في مدينة الموتي " الضفة الغربية لطيبة " تحت سمع وبصر عمدتها "باورعا" فأمر الوزير بتشكيل لجنة للتأكد من صحة ما جاء بالتقرير
- لجنة تقصي حقائق في العصر الفرعوني شئ طريف فعلاً
- ، وقد سجلت هذه اللجنة النتائج التي وصلت إليها علي أكثر من بردية لعل أهمها هي بردية "أبوت" التي أبقاها لنا الزمن لنعرف منها تفاصيل هذه السرقات وما تم بخصوصها فقد اعترف اللصوص بانتهاكهم لقدسية مومياوات فراعنة مصر كبيرهم وصغيرهم مما اضطر ملوك الأسرة الحادية والعشرين من الكهنة أن ينقلوا – سراً – بعض مومياوات فراعنة الدولة الحديثة لحمايتها من عبث اللصوص إلي أكثر من مخبأ ، فنقلوا ١٣ مومياء إلي مقبرة أمنحوتب الثاني ثم اختاروا مقبرة لم تتم بالدير البحري ووضعوا فيها ٤٠ مومياء أخري وهي ما يطلق عليها اصطلاحاً خبيئة الدير البحري ،
- ومتي تم الكشف عن هذه المومياوات ؟
- ظلت مومياوات الملوك في مخبأها إلي أن توصل "إميل بروكش " عام ١٨٨١م إلي مومياوات الدير البحري "ولوريه" عام ١٨٩٨م إلي المومياوات المختبئة في مقبرة أمنحوتب الثاني وهم جميعاً الآن بصالة المومياوات بالمتحف المصري ) ، ويعتبر الملك رمسيس الحادي عشر هو آخر ملوك الأسرة العشرين واستمر حكمه لمصر ٢٨ سنة وقد ازدادت في عهده قوة ونفوذ وجرأة كبير كهنة آمون المدعو حريحور (- كما تشهد بهذا مناظر معبد خنسو في منطقة معابد الكرنك – أن يسمح لنفسه أن يصور في نفس مرتبة الملك وبحجمه بل نراه يلبس تاج الوجهين ويعتبر نفسه ملكاً في طيبة علي الأقل وأمر بوضع اسمه داخل الخرطوش الملكي وإضافة الألقاب الملكية بل وأطلق علي فترة حكمه

اصطلاح " عصر النهضة " وأخذ يؤرخ الحوادث طبقاً لهذا العصر ورضي رمسيس الحادي عشر بالأمر الواقع مغلوباً علي أمره . وتنتهي الأسرة العشرون وبالتالي عصر الدولة الحديثة )٦٨ .

## ٦٦. عصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة

- أتمني أن نتحدث باختصار وفي عجالة عن نهاية العصر الفرعوني لأننا تكلمنا عنه أكثر من اللازم علي ما أعتقد
- كما تشاء فلنتكلم عن عصر اضمحلالهم الأخير وخضوعهم لدول أخري مثل ليبيا والنوبة والآشوريين ثم الفرس
- وأرجوا أن نقف علي أسباب الضعف والانحلال والاضمحلال حتي نأخذ العبرة والدرس ،
- يرجع السبب الرئيسي في هذا الاضمحلال من وجهة نظر بعض المؤرخين إلي زيادة عدد الجنود المرتزقة في الجيش المصري وضعف الحكام والهجرة السلمية الكثيفة التي حدثت من ليبيا إلي مصر في عصر الأسرة الحادية والعشرين المكونة من سبعة ملوك حكموا مصر من سنة ١٠٨٥ ق م إلي سنة ٩٥٠ ق م٦٩ حتي أن هؤلاء الليبيين تمكنوا من بسط نفوذهم في الوجه البحري بالكامل ولا داعي لذكر أسماء ملوك الأسرة ٢١ لأن ترتيب ملوك هذه الأسرة من الأمور التي لم يتفق عليها علماء الآثار اتفاقاً كاملاً٧٠ ، أما عصر الاضمحلال الأخير للفراعنة فمكون من عشرة أسر ويمكن أن نعتبره قد بدأ في الأسرة ٢١ وحتي الأسرة ٣٠ وهي آخر الأسر الفرعونية بالكامل وكما تعودنا سنلخص العصر بالكامل بسرعة فهذا العصر مكون من خليط من الجنسيات التي حكمت مصر فحكمها الليبيون والنوبيون والآشوريون والفرس والمصريون أيضاً الذين كافحوا من أجل الاستقلال عدة مرات وقاموا بتأسيس أسر فرعونية حتي انتهي العصر الفرعوني علي يد الفرس بلا رجعة
- فهل يوجد ملك بارز من الملوك الليبيين ؟
- الجدير بالذكر أن أول من حكم مصر من الليبيين هو الملك ( شاشنق الأول ) وهو من أصل ليبي وهو مؤسس الأسرة الثانية والعشرين ، أما قصة الليبيين فتتلخص في أنهم لم يملكوا مصر بالقوة أو بجيوش جراره بل إنهم تسربوا في هجرات جماعية إلي مصر وعاشوا فيها أجيالاً كاملة لفترات طويلة وتمكنوا من الوصول إلي العديد من المناصب الدينية الرفيعة لأنهم دخلوا الديانة المصرية من أوسع أبوابها ، حتي أن الملك شاشنق الأول كان يحتل منصب ديني راقي في هذا العصر قبل توليه الحكم وعائلة هذا الملك كان قد مضي عليها في مصر ستة أجيال كاملة٧١ أي حصلت علي الجنسية المصرية بلغة هذه الأيام التي نعيشها حالياً وبالتالي قد لا يعتبر هذا احتلالاً بالمعني المفهوم فكم من

---

٦٨ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٣٤

٦٩ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٥

٧٠ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤١٤

٧١ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤١٧

الملوك والرؤساء في العالم يعود أصلهم من بعيد إلي دول أخري نتيجة الهجرة القديمة أو التزاوج وخلافه ، والمؤكد أنهم كانوا من أصل ليبي ونجحوا في الوصول للحكم وجعلوا عاصمتهم في منطقة ( تل بسطة ) بمحافظة الشرقية الحالية وقد تزوجوا من البيت الملكي الفرعوني ليضيفوا شرعية علي حكمهم حيث تزوج الملك شاشنق الأول من ابنة الملك المصري الفرعوني السابق له وكانت هناك سلطة أخري في مدينة طيبة جنوب مصر لكهنة معبد آمون ، وشاشنق هذا استطاع أن يوطد أركان حكمه للبلاد واستطاع إرهاب هؤلاء الكهنة مما اضطرهم إلي الهروب جنوباً[٧٢] وأرجوا أن تسجل ذلك وتتذكره لأن هؤلاء الكهنة سيكون لهم دور بعد ذلك من مكان هروبهم في الجنوب ، ويبدو أن شاشنق كان من الشخصيات القوية التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ

- فما أهم الأحداث في عهده ؟

## ٦٧. مملكة بني إسرائيل

- هناك معلومة خطيرة جداً عن هذا العصر وقد تحدث مفاجأة لك عندما تسمعها وهي أن بني إسرائيل في عصر هذه الأسرة الليبية استطاعوا تكوين مملكة قوية في فلسطين حيث ظهر نبي الله داوود عليه السلام وأصبح ملكاً عظيماً هو ثم ابنه سيدنا سليمان عليه السلام وكانت عاصمتهم أورشليم وهي التي بني فيها سيدنا سليمان الهيكل الشهير وربما تكون بداية مملكة سيدنا داوود قبل بداية الأسرة الليبية في مصر بوقت قليل أو معاصره لها ويقول أحمد فخري عن ذلك (---- وبناء علي رواية التوراة أيضاً نعرف أن ملك مصر لم يكن علي علاقة سيئة بملوك إسرائيل فإن سليمان ابن داوود خلف أباه علي العرش وكانت علاقته بالبلاط المصري علي خير حاله )[٧٣] بل إن مصر وإسرائيل كانت بينهما في ذلك الوقت أنواع من التعاون في مجال الهندسة والبناء ولكن سرعان ما تدهورت العلاقات بين البلدين في عهد الملك شاشنق في مصر وعهد الملك ( رحبعام ) في بني إسرائيل في فلسطين وقام شاشنق بشن حملة علي فلسطين واستولي علي خيراتها ويقول أحمد فخري في ذلك ( ولكن التوراة تذكر لنا أنه في السنة الخامسة من حكم رحبعام حنق شيشاق ملك مصر علي أورشليم واستولي علي كنوز بيت الرب وكنوز الملك وأخذ كل شئ )[٧٤]

- تم ذكر اسم ملك مصر في التوراة ؟

- نعم وقد حكم شاشنق واحد وعشرين عاماً وبعد أن مات خلفه ابنه ( أوسر كن الأول ) ثم توالي ملوك الأسرة الثانية والعشرين علي مصر من أبناء وأحفاد شاشنق وعددهم بالكامل تسعة ملوك وكان آخرهم الملك شاشنق الرابع ودام ملكهم حوالي ٢٢٠ سنة تقريباً[٧٥] وفي آخر أيامها توالت الثورات وقوي نفوذ

---

٧٢ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤١٨

٧٣ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤١٩

٧٤ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٢٠

٧٥ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٥

أمراء الأقاليم وبدأ حكم الأسرة الثالثة والعشرين لمدة ٨٧ سنة تقريباً[٧٦] وعددهم ستة ملوك مع استمرار سلطة ملوك الأسرة الثانية والعشرين ولا تختلف كثيراً في الغموض عن سابقتها ، وكل ما يمكن قوله عن الأسرة ٢٣ في هذه الدردشة أن عدد ملوكها ستة ملوك وجاءت بعدها الأسرة ٢٤ وعدد ملوكها اثنين فقط ووصلت الحالة الداخلية في البلاد إلي الحضيض علي حد تعبير أحمد فخري

- فما الذي حدث بعد ذلك ؟

## ٦٨. الحكم النوبي لمصر

- أثناء كل هذه الصراعات علي الحكم وتعدد الأسرات المالكة في نفس الوقت ظهرت قوة جديدة طاغية اجتاحت البلاد وسيطرت عليها بقيادة ملك من طراز القادة الكبار وهو ملك النوبة في ذلك الوقت الملك ( بعنخي ) واستطاع أن يؤسس أسرة مالكة جديدة في مصر وهي الأسرة الخامسة والعشرين المكونة من خمسة ملوك حكموا مصر لمدة حوالي ٥٢ سنة
- وما الذي أدي لذلك ؟
- القصة تبدأ كما ذكرت من قبل عندما هرب كهنة آمون إلي الجنوب نتيجة لعدم اعترافهم بما يحدث في مصر أثناء الحكم الليبي لها حيث استطاعوا أن يجعلوا تقديس الإله آمون هو الشغل الشاغل لكل حكام هذه المنطقة بل إن السبب الرئيسي لتقدم جيوش الملك بعنخي نحو الشمال كان لتأييد الإله آمون وإنقاذ طيبة من أعداءه والقضاء علي الفوضى والفساد الذي عم مصر كلها ويقول أحمد فخري عن ذلك ( -- لم يرسل بعنخي هذا الجيش غازياً يريد الفتح والنصر وإنما أرسله ليؤيد آمون وكهنته وينقذ طيبة ممن حدثتهم أنفسهم بالاعتداء عليها ولهذا نري بعنخي يذكر جنوده بأنه لا حول ولا قوة إلا بآمون ويأمرهم عندما يرون أسوار طيبة أن يلقوا بأسلحتهم ويطهروا أنفسهم ويدخلوا مدينة آمون خاشعين )[٧٧]
- واضح جداً مدي تأثير كهنة آمون علي الملك بعنخي وتأثير العقيدة الدينية في قيام الأمم وانهيار الأمم الأخرى علي مدار التاريخ ،
- ويعتبر الملك بعنخي من الشخصيات البارزة أيضاً التي تفرض نفسها علي كتب التاريخ بقوة فمن الواضح أنه كان شخص محترم وملك مهاب بل إن من الطريف أن هذا الملك السوداني كان يعشق الخيول وعندما شاهد خيول القصر الملكي الذي دخله فاتحاً بعد استسلامه وجد الخيول هزيلة جداً نتيجة إهمالها فوبخ الملك المستسلم علي ذلك أكثر من توبيخه علي الفساد والفوضى التي سادت البلاد في عهده وهذا يدل علي أن الملك بعنخي كان فارس أصيل ويتمتع أيضاً بأخلاق الفرسان ، واستسلم له ملوك وأمراء مصر بالكامل تقريباً ووعدوه بأن يدينون له بالولاء ثم أخطأ خطأ شنيع في

---

٧٦ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٢٣

٧٧ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٢٨

حق نفسه فقد اعتمد علي هذه الوعود البراقة وعاد بجيشه إلي عاصمة ملكه ( نبتا ) دون أن يترك من ينوب عنه من أعوانه في مصر وبالتالي سيطر ملوك الشمال مرة أخري علي البلاد بمجرد عودة بعنخي ، وحكم مصر الملك ( تاف نخت ) الذي كان موجوداً قبل حملة بعنخي ثم بعد موت تاف نخت حكم مصر ابنه الملك ( باك أن رنف )

- أسماء غريبة جداً ،
- وهل اسم بعنخي اسم عادي ؟ المهم أن خليفة بعنخي استعاد مصر مرة أخري وكان اسمه ( شاباكو ) ويقال أن تاف نخت وولده باك أن رنف هما ملوك الأسرة الرابعة والعشرين[٧٨] وقد ذكر أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية أن كلاً من تاف نخت وبعنخي كانا بطلين من الشجعان الطموحين ولكن بعنخي لم يكن له علم بفن الحكم[٧٩] وفي عهد هذه الأسرة ظهر الخطر الآشوري وقويت شوكة الآشوريين وقرروا مهاجمة فلسطين المتواجد بها بني إسرائيل في ذلك الوقت والطريف والغريب في الموضوع أن الملك النوبي الذي كان يحكم مصر أثناء هذه الأحداث قام بإرسال جيش لمساعدة ملك أورشليم ضد الآشوريين والطريف أيضاً أن حملة الآشوريين فشلت فشل سريع وذريع وعادت مسرعة إلي بلادها حيث انتشر الطاعون بين جنود هذه الحملة وقد فسر بنو إسرائيل ذلك تفسيراً دينياً وقالوا أن هذه معجزة إلهية لإنقاذ أورشليم ، ولكن مع ذلك استمر نفوذ الآشوريين في منطقة الشام بل إن ملك آشور استطاع أن يقتحم مصر بجيوشه واستولي علي مدينة منف[٨٠] وسيطر علي منطقة الدلتا فقط وحصلت اضطرابات وحروب بين السودانيين والآشوريين وتبادلوا السيطرة علي البلاد لفترة ، إلي أن ظهرت علي مسرح الأحداث شخصية بارزة لتضبط الأمور وتسيطر علي البلاد بقوة وحزم وتعيد الطمأنينة للشعب وعموماً الملك القوي هو أساس الأمان ورمانة الميزان في أي مكان وزمان
- فمن هو ؟

## ٦٩. بسماتيك الأول يحرر البلاد

- جاء الفرعون المصري بسماتيك الأول ليطرد الآشوريين ويحرر البلاد من الأجانب الغزاة ويؤسس الأسرة السادسة والعشرين المكونة من ستة ملوك حكموا مصر حوالي ١٣٨ سنة[٨١] من سنة ٦٦٣ ق م إلي سنة ٥٢٥ ق م وقام بالعديد من الإصلاحات والإنجازات ولكنه أخطأ خطأ فادح عندما استعان بالجنود المرتزقة اليونانيين ( الإغريق ) في تحقيق أهدافه بالإضافة إلي الجنود المصريين
- مشكلة كبيرة أن يفقد الشعب الروح القتالية ويعتمد علي غيره في الدفاع عن نفسه

---

[٧٨] موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٦

٧٩ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٣٣

٨٠ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٣٨

٨١ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٦

- لنا هنا وقفة حيث أن أي شعب يفقد روح القتال والجهاد يفقد بالتالي عزته وكرامته ويهون أمره بل إن الشعب المصري في عهد هذه الأسرة لم يفقد هذه الروح بالكامل تقريباً فقط بل إنه فقد أيضاً روح الإبداع الفني فتراه يكرر ويحاكي الفن الفرعوني السابق[٨٢] دون تجديد أو ابتكار نظراً لوجود العديد من اليونانيين الإغريق في بلاده سواء بصفتهم محاربين أو بصفتهم تجار فحاول أن يتمسك علي قدر المستطاع بأمجاد سابقيه خوفاً علي هويته من الضياع في ظل الحضارة الإغريقية فأصبح يقلد الفراعنة الأوائل في فنونهم دون أن يقدم حضارة جديدة ، وكان هناك سبب قوي وراء استعانة بسماتيك الأول بهؤلاء الجنود المرتزقة ليحقق أهدافه في استقلال البلاد ، وفي عهد هذه الأسرة المكونة من ستة ملوك وبعد أن دام ملك بسماتيك الأول حوالي خمسين سنة أو أكثر نعمت فيها مصر بالاستقلال اضطربت الأحوال وحدث أن اختل ميزان القوي في العالم
- هل صعدت قوي جديدة وتراجع دور قوي أخري ؟
- بالفعل ظهرت قوي جديدة وتراجعت قوي أخري وظهرت الصراعات الدامية بين كل هذه الحضارات والدول ومصر بالطبع ليست بعيدة عن الأحداث لأن ما يحدث في العالم لا بد أن تتأثر به مصر وتتفاعل معه سواء برغبتها أو بدونها فمثلاً من الدول التي كانت تتصارع في ذلك الوقت أو بمعني أدق الممالك التي أصبح لها صوتاً مسموعاً في العالم مملكة الفرس ومملكة بابل ومملكة آشور واليونان ( الإغريق ) ومملكة بني إسرائيل في أورشليم وغيرهم ،
- فمن كان يحكم مصر في ذلك الوقت ؟
- وصل لحكم مصر الملك ( نكاو الثاني ) وهو من أسرة بسماتيك الأول وتدخل في الصراعات التي نشأت بين بابل وآشور وبعض التحالفات التي أحدثها الفرس في المنطقة ويبدو أنه أراد أن يجعل صوت مصر مسموعاً في سياسة هذه المنطقة من العالم[٨٣] فقرر التدخل بجيوشه في المنطقة فتوتر الموقف مع بني إسرائيل وغيرهم مما أدي إلي اصطدام الجيش المصري بجيش الملك ( نبو ختنصر ) ملك بابل مما أدي إلي حدوث هزيمة ساحقة وارتد الجيش المصري بخفي حنين إلي مصر ويبدو أن نكاو الثاني قد تعلم الدرس واهتم بعد ذلك بتكوين أسطول ضخم واهتم بالتجارة ومن الأحداث المهمة التي حدثت في عهد هذا الملك نتيجة لاهتمامه بالبحر والملاحة البحرية استطاع البحارة المصريون الإبحار والدوران حول إفريقيا بالكامل والعودة إلي مصر وهو ما يُعرف حالياً برأس الرجاء الصالح لأن المؤرخ الشهير القديم هيرودوت بالرغم من عدم تصديقه لذلك إلا أن الملاحين ذكروا أنهم كانوا يرون الشمس تشرق عن يسارهم أثناء الذهاب ثم تحولت وأخذت تشرق عن يمينهم[٨٤] مما يؤكد زعمهم ، ومن أهم

---

٨٢ مصر الفرعونية ( أحمد فخري) صـ ٤٤٧

٨٣ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٤٨

٨٤ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٤٨

الأحداث التي وقعت أيضاً في عهد الملك البابلي ( نبو ختنصر ) وفي رواية أخري اسمه ( بختنصر ) انهارت مملكة بني إسرائيل علي يديه وسقطت أورشليم وكل هذا بالطبع بمشيئة المولي عز وجل وتشتت بنو إسرائيل بعد ذلك وجاء بعضهم إلي مصر ، وبعد أن مات نكاو الثاني تولي بعده الملك بسماتيك الثاني ثم الملك ( واح إب رع ) ولا توجد تفاصيل كثيرة عنهم إلا أن اليهود هربوا إلي مصر في ذلك الوقت وإلي دول أخري خوفاً من مذابح البابليين التي كانت بلا رحمة ، ثم وصل للحكم الملك أحمس الثاني بعد أن اشترك مع من سبقه في المُلك لفترة وفي عهد هذا الملك أصبح الاعتماد علي الإغريق والتودد إليهم مألوفاً وقد كتب هيرودوت يمدح هذا الملك ويعد صفاته الحميدة ويعتبر عهده من الفترات المزدهرة والمستقرة إلي حد ما لأنه كان دبلوماسي ناجح وما إن مات بعد ٤٣ سنة علي العرش٨٥ حتي بدأت مشاكل من نوع جديد مع خليفته الملك ( بسماتيك الثالث ) آخر ملوك هذه الأسرة حيث لم يصبح خطر بابل هو الخطر الوحيد

- هل ظهرت قوة جديدة ؟
- نعم ظهر ملك قوي في بلاد الفرس اسمه قورش ولم تكن هناك أي خطورة منه في عهد أحمس الثاني ولكن ابنه بسماتيك الثالث عاصر ابن قورش المسمي بالملك قمبيز الذي قرر تحقيق حلم أبيه بعد أن اجتاح مملكة بابل وأراد أن يضم مصر إلي المملكة الفارسية وكان هذا في عهد الملك بسماتيك الثالث ، والجدير بالذكر أن أحد الضباط الإغريق العاملين بالجيش المصري ذهب إلي قمبيز وأعطاه كافة المعلومات التي يحتاجها لغزو مصر وأوضح له مواطن الضعف في الاستحكامات الدفاعية المصرية بل شجعه وأغراه علي دخول مصر ودخلها فعلاً بعد مقاومة عنيفة وحصار لمدينة منف إلي أن تم الاستسلام التام وأصبحت مصر ولاية فارسية لأول مرة

## ٧٠. وأصبحت مصر ولاية فارسية سنة ٥٢٥ ق م

- ولكن لماذا قرر الملك الفارسي قمبيز فتح مصر في عهد الملك بسماتيك الثالث آخر ملوك الأسرة ٢٦ الفرعونية ؟
- يجيب عن هذا السؤال الأستاذ جمال بدوي في كتابه الممتع في رحاب الفكر حيث كتب تحت عنوان ناموس الحياة ما ملخصه : ونسأل : لماذا قرر قمبيز فتح مصر ؟ رغم أن مصر كانت تعيش مرحلة من مراحل البيات والسكون ولم يصدر عنها أي إساءة للفرس ، ولم ترتكب فعلاً يهدد الأطماع التوسعية عند العاهل الإيراني ؟ قد يبدو هذا السؤال ساذجاً إذا نظرنا إليه في إطار الفكر الاستعماري التوسعي ، الذي لا يسمح لك بأن تسأل دولة عظمي عن سبب عدوانها علي دولة صغري مسالمة ولا يجوز لك مثلاً أن تسأل بريطانيا لماذا احتلت مصر وضربت الاسكندرية في يوليو ١٨٨٢ ، ولا يجوز أن تسأل فرنسا لماذا احتلت الجزائر ١٨٣٠ ومكثت فيها ١٣٠ سنة ، كما لا يجوز لك أن تسأل الوحوش في

---

٨٥ مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٥٤

الغابات لماذا تفتك بالغزلان ، ولا تسأل الأسماك الكبيرة في البحار عن سر حبها للأسماك الصغيرة .. ولكن إذا سألت دهاقنة السياسة فسيقولون لك إن هذا هو ناموس الحياة منذ نشأة الحياة .. فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه . وكانت مصر تعيش حالة الضعف عشية الغزوة الفارسية في الوقت الذي بلغت فيه الإمبراطورية الفارسية ذروة قوتها

- فطالما أن هناك فراغاً في جهة ما .. فلا تلوم من يملأه أعتقد أن هذه العبارة تفسر معظم المعارك والفتوحات علي مر التاريخ ، عفواً أكمل ما قاله الأستاذ جمال بدوي
- نعم كانت مصر حينئذ تعيش مرحلة آخر انبعاثة وطنية في تاريخها القديم ، عصر النهضة الأخيرة التي استعادت فيه استقلالها في العصر الصاوي وفي ظل الأسرة ٢٦ ولكن هذه الفورة كانت أقصر دورات الإمبراطورية في تاريخ مصر ، أقصرها عمرا وقامة علي حد تعبير جمال حمدان فهي لم تعمر أكثر من القرن وثلث القرن ولم تصل إلي آفاق القرون السابقة كأنما هو الهدوء الذي يسبق العاصفة ، لأن ظهور قوة بابل الصاعدة لم يسمح بالمحافظة علي تلك المكاسب ودخلت مصر مرحلة الشيخوخة التي ضعفت فيها داخلياً وتغلغل النفوذ والتوطن الإغريقي فيها بالتدريج ، إلي أن أتت النهاية علي يد الغزو الفارسي فانتهت الدولة والدورة معاً .- - - - - كانت حملة قمبيز في الإطار التاريخي أمراً متوقعاً بل محتوماً من قوة متعاظمة نحو قوة غاربة
- يالها من دورات علي مر التاريخ ، ومن المستحيل أن يعرف أحد في ذلك الوقت وفي جميع العصور ما الذي سيحدث ،
- الظريف أن قمبيز أرسل حملة إلي الواحات وحملة أخري إلي الجنوب وقد فشلت الحملة علي الجنوب عند حدود مملكة نبتا أما الجيش الذي ذهب في اتجاه سيوه فلم يصل إليها ولم يرجع أيضاً بل إنه مدفون حتي الآن تحت الرمال نتيجة لعاصفة رملية هائلة أطاحت به وهلك عن آخره في الصحراء ، وقام الفرس بتأسيس أسرة حاكمة جديدة في مصر وهي الأسرة السابعة والعشرين من سنة ٥٢٥ ق م إلي سنة ٤٠٤ ق م[٨٦] وهذه الأسرة تكونت من خمسة ملوك وبالرغم من بعض الإصلاحات والتودد الذي أبداه بعض ملوك هذه الأسرة للمصريين إلا أنهم قاوموا الاحتلال بشدة ونشبت ثورة عظيمة أدت إلي قيام الفرس بأعمال قمع وعنف للسيطرة علي البلاد بقبضة من حديد وكان أيامها الإغريق في صراع مع الفرس
- وكانوا يسعدون بالطبع كلما ثار المصريون علي الفرس ، فماذا كان موقف اليهود في مصر؟
- أما اليهود الموجودين في مصر فقد كانوا أعواناً للفرس ضد المصريين[٨٧] دائماً وفي سنة ٤٤٩ ق م تم توقيع معاهدة صلح بين الفرس واليونانيين (الإغريق) ثم بعد ذلك بسنة تقريباً قامت ثورة رهيبة

---

٨٦ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٧

[٨٧] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٦٢

ومعارك عنيفة بين المصريين والفرس انتهت بتحرير البلاد منهم وطردهم خارج مصر وبدأ المصريون هذه الثورة بقتال اليهود لشدة العداء والكراهية بينهما ثم قاتلوا الفرس وكان سبب تملق ومساعدة اليهود للفرس هو أن يسمحوا لهم ببناء معبدهم وإعادة تشييد هيكلهم فقرروا الوقوف بجانبهم ضد المصريين لتحقيق مصالحهم الخاصة مما أدي إلي هذه الكراهية الشديدة لهم من المصريين فأطاحت الثورة بهم وبالفرس

- أعتقد أنه لم يختلف أسلوب اليهود بعد ذلك طوال تاريخهم مع الدول القوية في العالم فهم يتعاونون مع أقوي دولة في العالم في كل عصر وقد يسيطرون عليها ويتحكمون في قراراتها وقد يفشلون مع بعض الدول وينجحون مع دول أخري نجاحاً نسبياً ،
- بالتاكيد وسوف نري ذلك عندما كان اليهود يرسلون مندوباً لهم إلي الإمبراطور الروماني أثناء تواجدهم في الإسكندرية إذا وصلنا في هذا الحديث إلي العصر الروماني إن شاء الله
- وهل استمرت هذه الثورة فترة كبيرة من الزمن ؟
- استمرت هذه الثورة حوالي أربعة سنوات وكان قائدها أحد الشخصيات البارزة وهم القادة الذين نتحدث عنهم بصفتهم من مؤسسي الدول وقد استمر حكمه من سنة ٤٠٤ ق م إلي سنة ٣٨٩ ق م وهو مؤسس الأسرة الثامنة والعشرين وكان عدد ملوك هذه الأسرة ملك واحد فقط هو نفسه هذا الشخص واسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر ( أمير تي ) أما في كتاب مصر الفرعونية فاسمه ( آمون حر ) وعلي العموم هذا الملك هو الملك الوحيد في هذه الأسرة وكان يحكم مصر من عاصمته ( سا ) "سايس" صان الحجر حالياً ولا توجد أي آثار توضح ما تم في عهد هذا الملك ثم بعد ذلك وبهدوء تم نقل الحكم إلي أسرة جديدة وهي الأسرة التاسعة والعشرين ( ٣٩٨-٣٧٨ ق م ) وهي مكونة من أربعة ملوك[٨٨] أولهم الملك ( نايف عاو رود ) "نفريتس الأول" وكان علي ما يبدو من زملاء أمون حر في حربه ضد الفرس ، وكانت عاصمة الأسرة التاسعة والعشرين مدينة مندس ( تل الإمديد وتل الربع شمال شرق السنبلاوين ) ، (وكان أهم ملوك هذه الأسرة هو مؤسسها نايف عاو رود الذي حكم ست سنوات من ٣٩٩-٣٩٣ ق م وتحالف مع الأسبرطيين ضد الفرس وأمدهم بالقمح بما يكفي لتجهيز أسطول مكون من مائة سفينة مقاتلة ولكن المدد لم يصلهم إذ اعترضه القائد الأثيني " وهو قائد الأسطول الفارسي" وحطمه عند رودس ، وتولي بعده الملك هكر واستمر حكمه سبع سنوات من ٣٩٣ إلي ٣٨٠ ق م حاول فيها القيام بإصلاحات داخلية في البلاد فرمم المعابد وتعاون بالمال والمئونة مع أثينا ضد الفرس وانتهت أيامه ، وتولي بعده ملكين حكم كل منهما مصر بضع شهور ثم انتقل العرش إلي أسرة جديدة هي الأسرة الثلاثين )[٨٩]

---

[٨٨] موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٣٨

[٨٩] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الأول – د سيد توفيق– صفحة ٢٥٩

- الأسرة الثلاثون ، أليست هذه آخر أسرة في العصر الفرعوني بالكامل ؟
- بلي ، ولقد أسس هذه الأسرة ملك اسمه مكتوب في موسوعة حكام مصر الملك ( نقطانب الأول ) بينما في كتاب مصر الفرعونية اسمه الملك ( نخت نبف ) أو ( نختنبو ) وعلي ما يبدو قد اعتلي عرش مصر بمساعدة الكهنة
- وكم عدد ملوك هذه الأسرة ؟

## ٧١. نهاية العصر الفرعوني

- هذه الأسرة عدد ملوكها ثلاثة ملوك فقط واستمرت في الحكم من سنة ٣٧٨ ق م إلي سنة ٣٤١ ق م وفي عهد أول ملوكها نقطانب الأول حاول الفرس اقتحام مصر لإعادة احتلالها ولكنهم عادوا فاشلين بسبب فيضان النيل الذي كان عائقاً أمام قواتهم ، وكان نقطانب الأول لا يفكر في إثارة من حوله من دول وجيوش تحيط بمصر وكان كثير البناء للمعابد والمباني وقد ترك هذا الفرعون آثاراً خالدة كما يقول أحمد فخري في كتابه مصر الفرعونية صـ ٤٦٦ ( وتمتع نخت نبف بعد ذلك بشئ من الهدوء وكان نشاطه المعماري كبيراً فخلف آثاراً كثيرة في أكثر بلاد مصر في الدلتا والصعيد ) وشيخ الأثريين أحمد فخري في هذه الجملة يقصد بكلمة بعد ذلك أي بعد ارتداد الفرس من حملتهم الفاشلة علي مصر ، وتمر الأيام ويأتي ابنه ( جد حر ) أو ( تاخوس ) الذي لم يقتنع علي ما يبدو بالسلم والهدوء فقرر أن يعيد أمجاد الفراعنة القدماء ونسي أو غفل عن أن أسباب القوة التي كانت معهم تختلف عن ما معه ، وقام بحشد جيش كبير وأسطول وكان الجيش به عدد غير قليل من الإغريق المرتزقة وإليك ما جاء عن عدد هذا الجيش في كتاب مصر الفرعونية صفحة ٤٦٧ ( وكان غرض جد حر من ذلك جمع جيش كان فيه ٨٠٠٠٠ جندي مصري و ١٠٠٠٠ من المرتزقة الليبيين و ١٠٠٠ من جنود اسبرطة وكان معه أيضاً أسطول يزيد عدد سفنه علي مائتي سفينة من ذات الثلاث طبقات وتقدم جد حر علي رأس جيشه العظيم واثقاً من النصر بعد أن ترك أخاه نائباً عنه في الحكم ) و كان ابن جد حر معه في الجيش بينما أخوه كان في مصر وتآمر العم مع ابن أخيه ضد الملك أثناء المعركة وأرسل إليه يبايعه بملك مصر في وجود أبيه ونتيجة لهذه الخيانة ترك الابن أبيه في المعركة وعاد إلي مصر ومعه عدد ضخم من الجنود مما أدي إلي تسرب باقي الجيش ، ووجد جد حر نفسه بلا نصير ووسط كل هذه المؤامرات هرب الملك إلي معسكر الفرس الأعداء
- إنه هو موقف غريب جداً أن يفر الملك إلي أعداءه أثناء المعركة مما يؤكد أن مرارة الخيانة والتواجد وسط الخونة كانت أمر من الذهاب إلي العدو
- كل هذا بالطبع كان متوقع وطبيعي أقصد الخيانة التي حدثت لأن الجيش الذي يتكون من عدة عناصر يفقد ولاءه بسهولة وفي أي لحظة ويغادر ميدان القتال وهكذا المرتزقة دائماً يقاتلون في سبيل المال ، وأخيراً جاء الحديث عن الملك نقطانب الثاني ( نختنبو الثاني ) آخر فرعون مصري في التاريخ وآخر

ملوك الأسرة ٣٠ وقد عرفنا كيف وصل له الحكم والسلطة وكان هذا الملك لا يفضل الحروب مثل نقطانب الأول فحاول أن يعيد الاستقرار لمصر ويبني المعابد ويهتم بالفن ، ونعمت مصر في عهده بالهدوء والطمأنينة ستة عشر عاماً علي الأقل[٩٠] إلي أن جاء اليوم الموعود الذي قرر فيه الفرس تكوين جيش ضخم مخصوص لغزو مصر بعد أن صفوا حساباتهم مع باقي الدول وتفرغوا تماماً لمصر وملكها الذي كان يهتم بالخطط الدفاعية فقط

- لقد أرادوا ملء الفراغ مرة أخري بالتأكيد
- بالتأكيد فقد وقعت المعركة الفاصلة التي أنهت العصر الفرعوني بالكامل
- فهل لديك معلومات ولو قليلة عن هذه المعركة التاريخية المثيرة ؟
- بالطبع إنها المعركة الفاصلة التي أنهت حكم الفراعنة للأبد بل إن شئت فقل أنهت حكم المصريين لمصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة حيث أن الحاكم المصري الذي جاء بعد نقطانب الثاني هو اللواء محمد نجيب فلم يحكم مصر مصرياً واحداً بعد هذه المعركة[٩١] إلا بعد ثورة يوليو ١٩٥٢ م ، وسيكون مصدر هذه المعلومات عن هذه المعركة من الجزء رقم ١٣ من موسوعة سليم حسن مصر القديمة حيث ذكر أعداد الجنود وجنسياتهم في الجيش المصري بقيادة نقطانب الثاني ( الفرعون الأخير ) بل إن هذا الفرعون لم يحتوي جيشه علي جنود فقط من الإغريق ولكنه كان يضم جنود من ليبيا وكان يعاونه في القيادة اثنين من القادة الإغريق ، فكان الجيش المصري مكون من عشرين ألف مقاتل من الجنود الإغريق المرتزقة وعشرين ألفاً من الليبيين المرتزقة وستين ألفاً من المصريين[٩٢] بينما كان الجيش الفارسي مكون من ثلاثة أضعاف الجيش المصري كله بل إن من الطريف أنه كان يضم أيضاً عدداً كبيراً من الجنود الإغريق المرتزقة وبدأت المعركة وتساقطت المدن المصرية مدينة وراء أخري وكانت بعض المدن ومن فيها من حاميات إغريقية تتفاوض علي الاستسلام بدون علم الفرعون نفسه ،
- أعتقد أن هذا وضع طبيعي فالمرتزقة متواجدون في كلا الجانبين المتحاربين ، ولكن ماذا حدث للفرعون الأخير نقطانب الثاني ؟
- نقطانب الثاني قرر الفرار بعد كل هذه الهزائم المريرة ومعه كنوز أجداده ربما لإعادة المحاولة مرة أخري من الجنوب أو ربما لفقده الثقة في الجيش أو أي سبب آخر ، ودخل الفرس مصر هذه المرة بعنف غير عادي وخربوا المعابد واحتقروا الآلهة وقبضوا علي السلطة بيد من حديد ، وبالمناسبة قد ورد في موسوعة حكام مصر أن الفرس في هذه المرة أسسوا الأسرة الواحدة والثلاثين وهي مكونة من ثلاثة ملوك فقط حكمت مصر من سنة ٣٤١ ق م إلي سنة ٣٣٣ ق م تقريباً وهي فترة قصيرة نسبياً انتهت

---

[٩٠] مصر الفرعونية ( أحمد فخري ) صـ ٤٦٨

٩١ في الواقع نجح أحد المصريين في طرد الفرس من البلاد بعد نقطانب الثاني بفترة ولم يدم حكمه طويلاً وسرعان ما استعادوها

٩٢ موسوعة مصر القديمة ( سليم حسن ) ج ١٣ صـ ٣٢٦

بدخول الإسكندر المقدوني مصر وسيطرته عليها كما سيطر علي معظم دول العالم ولكن هذه قصة أخري ، ولكن قبل أن نترك الفراعنة يجب أن نذكر أن عهد نقطانب الأول والثاني كان هدف الملك إرضاء الكهنة والاعتماد علي الأجانب في الدفاع عن مصر بالإضافة للجيش المصري واهتموا بالبناء حتي أن الأسرة الثلاثين تركت في طول البلاد وعرضها آثاراً تكاد تصل في كثرتها وعظمتها لآثار الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية الشهيرة ربما يكون السبب في ذلك هو حلاوة الروح الفرعونية عندما كان العصر الفرعوني يحتضر ، وها قد انتهينا من الحديث عن العصر الفرعوني فما تعليقك بشكل عام علي العصر الفرعوني بالكامل ؟

- لا شك أن الفراعنة قدموا للبشرية الكثير في العديد من المجالات كالطب والهندسة والفلك والفن والأدب والكتابة والورق وغيرها ولا زالت آثارهم الخالدة تشهد علي حضارتهم والمستوي العلمي الراقي الذي وصلوا إليه بل إن هناك العديد من آثارهم يعجز الناس حالياً عن تخيل كيفية إبداعهم لها بهذه الروعة والدقة المتناهية ولولا ادعاءاتهم الدينية وآلهتهم المتعددة وكفرهم بالله عز وجل وتأليه ملوكهم لولا ذلك كله لكنت قد افتخرت بهم وبعصورهم العريقة وقد سيطر الفراعنة علي جزء كبير من العالم في عصر إمبراطوريتهم التي أسسها الفرعون تحتمس الثالث كما ورد في حوارنا وقاموا بنشر حضارتهم لفترة طويلة من الزمن ولا زالت أسرارهم تحير العلماء إلي الآن وخصوصاً سر التحنيط الذي برعوا فيه وكان الكهنة هم محور حياتهم ولا يهنأ أي ملك فيهم علي العرش ويكتسب شرعيته إلا إذا نال رضا الكهنة وقد كان الكهنة يزينون للفرعون سوء عمله ويمجدونه وينسبون إليه ألقاباً ما أنزل الله بها من سلطان ،{كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (١١) سورة آل عمران ،{النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (٤٦) سورة غافر
- أعتقد أنك قد تحدثت عن العصر الفرعوني بشكل منطقي جداً ولكن قد يختلف معك البعض في تقييم ذلك العصر فالنظر إلي التاريخ يختلف من عصر إلي عصر ، فكما يقول الدكتور حسين مؤنس أن التاريخ حوار بين الماضي والحاضر
- فماذا كتب عن هذا الموضوع ؟

## ٧٢. التاريخ حوار بين الماضي والحاضر

- تحت هذا العنوان كتب د حسين مؤنس في كتابه الممتع التاريخ والمؤرخون ما ملخصه : يقول كثير من العلماء أن كل عصر ينبغي أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ، لأن تقدير كل عصر لما هو مهم وذو معني بالنسبة له يختلف عن تقدير العصر الآخر ، وكل عصر كذلك يحاول أن يري الماضي من خلال اهتماماته والأفكار السائدة فيه ومن هنا قال كثيرون من المؤرخين إن التاريخ حوار بين الحاضر والماضي ، وهذا في ذاته يكشف لنا عن جانب من جوانب المتعة في الدراسة التاريخية ، فإن التاريخ

بطبعه –كدراسة للإنسان وأعماله– تتأثر صورته التي يراها المؤلف تأثراً واضحاً بالأحوال المادية والمعنوية في الوسط الذي كتبت فيه ، وليس في هذا عيب أو مأخذ علي التاريخ فكل العلوم الإجتماعية تخضع لهذا التأثر ، وصورة المتنبي كما يرسمها مؤرخ أدب في القرن الثامن عشر مثلاً تختلف عن صورته كما يرسمها مؤرخ أدب اليوم ، وكذلك الحال مع الدولة الأموية مثلاً فإن تصوير الجاحظ لها يختلف تماماً عن تصويرنا نحن لها ، – – – ومن الواضح أن اهتمامات المؤرخين في عصر ما تختلف عن اهتماماتهم في عصر آخر – –

- ولكن أعتقد أن رؤيتنا للعصر الفرعوني لا تختلف كثيراً عن رؤية العصور الأخري له أليس كذلك ؟
- بل تختلف بالطبع حتي في العصر الواحد ، فحالياً مثلاً هناك من ينظر للعصر الفرعوني نظرة دينية ليتعظ من هلاكهم بالرغم من قوتهم وعلمهم وهناك من ينظر إليهم بزهو وافتخار بل إن هناك من المصريين حالياً من يريد اتخاذ الفرعونية هوية لمصر وينتسب لها أكثر من انتسابه للأمة الإسلامية نفسها فبالتالي تختلف نظرة كل منا للعصر الفرعوني ونحن نعيش معاً في عصر واحد فما بالك بالعصور الأخري
- فماذا كتب د حسين مؤنس أيضاً عن اختلاف اهتمامات المؤرخين من عصر إلي عصر؟
- وهذا يؤكد لنا الحقيقة التي مازال الكثيرون يجادلون فيها ، وهي أن الماضي لا يُدرس لذاته ، بل للحاضر والمستقبل ، وإن كتابة التاريخ إنما هي صورة من الحوار الذي لن يتوقف بين عصرنا والعصور التي سبقته ومن المؤكد –علي أي حال– أن المؤرخ مهما بلغ تجرده لا يستطيع التخلص من روح عصره ، وفي بعض الأحيان نشعر أن المؤرخ يبحث عن حاضره في الماضي الذي يدرسه ، – – وبديهي أن أي مؤرخ ذكي يتحري دائماً أن يكتب ما يكتب من التاريخ علي صورة تنفع معاصريه ، أو تكون ذات قيمة ونفع علي الأقل ، ومن هنا كانت كتابة سير عظماء الرجال موضوعاً مطلوباً دائماً لأن النفس الإنسانية تميل دائماً إلي معرفة تفاصيل حياة أولئك الرجال ، ولهذا فكُتُب التراجم كُتُب ذات معني للحاضر ، والهدف الرئيسي من الحوار التاريخي أو من النظر إلي التاريخ كحوار بين عصرنا والعصور الماضية هو أن نري أين أخطأوا لكيلا نقع فيما وقعوا فيه ، – – – ومن هنا يجوز لنا أن نقول إن الماضي كما يراه جيلنا يختلف عن نفس الماضي كما رآه الجيل السابق علينا وكما سيراه الجيل الذي سيأتي بعدنا ، ومن هنا يصدق القول بأن للأمة الواحدة أكثر من تاريخ ، ولابد –لهذا– لكل عصر أن يكتب التاريخ من وجهة نظره ،
- كل هذا ليس له علاقة بالحقائق التاريخية والأحداث فهي لا تتغير ولكن النظر إليها فقط يتغير وتفسيرها كذلك يتغير ، فوجهات النظر تتغير ولكنها لا تحذف حدث تاريخي قد وقع أو تضيف حدث لم يقع ولكنها تتناول الأحداث التاريخية برؤية مختلفة طبقاً لروح كل عصر

- بالطبع ، ويكمل د حسين مؤنس فيقول : وكما أننا نتعجب من السخافات التي ملأ بها ابن اياس (بدائع زهوره) فإن الأجيال القادمة دون شك ستتعجب من نظرتنا لماضينا ، بل أغلب الظن أن عجبها سيكون أشد من نظرتنا إلي حاضرنا ، وهذا الكلام لا يقلل من قيمة (بدائع الزهور) كمرجع أساسي من مراجع تاريخ مصر والإسلام ، فإن الكتاب عظيم القيمة ، ولكن ابن إياس –تمشياً منه مع روح عصره– أورد أحياناً تفاصيل تبدو لنا اليوم وكأنها غير ذات قيمة ، ولو أن الواقع هو أن كل شئ ورد في الكتب القديمة له معناه وقيمته بالنسبة لنا أو لغيرنا ، وما يبدو قليل القيمة في نظرنا قد يكون عظيم القيمة في نظر آخر ، أو في نظر عصر آخر ، والمسألة نسبية[٩٣]
- عظيم جداً ، دعنا نسترسل في الحديث ونتناول تاريخ ما بعد العصر الفرعوني
- لا مانع ولكن دعنا أولاً نتأمل العصر الفرعوني من جوانب آخري
- مثل ماذا ؟
- مثل ما قاله الخليفة المأمون عند زيارته لمصر ، فهو موقف من المواقف التاريخية المحببة لي ، فقد حضر المأمون إلي مصر من بغداد عاصمة خلافته وعندما قارنها ببغداد قال قولته الشهيرة في بعض كتب التاريخ
- فماذا حدث في هذه الزيارة وما هي أسبابها ؟

## ٧٣. عندما قيل للخليفة المأمون عن مصر (فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته )

- كتب الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المأمون (صفحة ٢٤٥) ما يلي ( – – كان المأمون أفضل رجال بني العباس حزماً وعزماً وحلماً وعلماً ورأياً ودهاء وهيبة وشجاعة وسؤدداً وسماحة وله محاسن وسيرة طويلة لولا ما أتاه من محنة الناس في القول بخلق القرآن ، ولم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه وكان فصيحاً مفوهاً – – )[٩٤] وكان المأمون أماراً بالعدل فقيه النفس ، يعد من كبار العلماء[٩٥] وقد حضر المأمون إلي مصر للقضاء علي ثورة شعبية عارمة ضد الوالي عيسي بن منصور طبقا لما كتبه الدكتور جمال الدين الشيال بكتاب تاريخ مصر الإسلامية ( ج ١ صفحة ٦١ ) : ( – وفي سنة ٢١٦ هـ في ولاية عيسي بن منصور علي مصر من قبل الخليفة المأمون ، ثار سكان أسفل الأرض " الوجه البحري " عرباً وقبطاً – وكان سبب الثورة – كما يذكر الكندي " سوء سيرة العمال فيهم " وبذل الوالي عيسي بن منصور والقائد العباسي الأفشين جهدهما لإخضاع الثورة التي ظلت قائمة نحو ثمانية شهور – من جمادي الأولي إلي ذي الحجة من سنة ٢١٦ هـ – حتي اضطر الخليفة المأمون أن يأتي إلي مصر بنفسه لإخضاع هذه الثورة ، وأخضعها

---

٩٣ مقتطفات مختصرة من كتاب (التاريخ والمؤرخون للدكتور حسين مؤنس)

٩٤ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٤٥

٩٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٤٥

وعاقب كلاً من الحاكم والمحكومين بما يستحق ، أما الوالي عيسي بن منصور فقد عزله المأمون بعد أن عنفه بقوله " لم يكن هذا الحدث العظيم إلا من فعلك وفعل عمالك ، حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتموني الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد – –)٩٦ وقد حدث موقف له معني رائع عند حضور المأمون إلي مصر وقد ورد في كتاب الحسن ابن زولاق أن مصر لم تعجب المأمون كثيراً عندما قارنها ببغداد وكانت بغداد في ذلك الوقت في قمة مجد وازدهار الدولة العباسية فقال لمن معه ما معناه ( لعن الله فرعون حيث قال : { يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ}٩٧ (فلو رأي فرعون بغداد وجمالها ما كان ليقول ذلك عن مصر ) فقال له صاحبه يا أمير المؤمنين ألم تقرأ قول الله تعالي {وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ}٩٨ ( فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته )٩٩

- وما أكثر شئ أعجبك في هذه القصة ؟
- هذه القصة أو الحدث التاريخي عندما نتأمله نجد أن مصر أثناء زيارة المأمون كانت قمة في الروعة والجمال وإن لم تصل إلي مستوي بغداد في عصر العباسيين ، وكذلك يمكن تخيل كيف كانت مصر في عهد الفراعنة عندما شعر فرعون بالفخر لأنه يملكها ، كما أننا يمكن أن نجتهد فنعتبر أن هذا التدمير الذي لحق بكل ما صنعه فرعون كان يشمل تدمير علومهم أيضاً فلم تصل إلينا رغم أنهم قد وصلوا في مجال العلم إلي مستويات لا نستطيع أن ندركها حالياً وهو شئ معجز بالنسبة لنا ، وقد ترك المولي عز وجل لنا من آثار الفراعنة ما نعتبر به ونري ما تركه قوم كانوا أشد منا قوة وآثاراً في الأرض ، كما أن المولي عز وجل قد نجي بدن فرعون ليكون آية لنا ، وأنت تري الآن العديد من جثث ملوك الفراعنة المحنطة لتتذكر فرعون وأمثاله من الطغاة الذين لا يملكون لأنفسهم شيئاً
- ويمكنك أيضاً أن تتخيل مصر ومدي روعتها عندما ذكرها المولي عز وجل في كتابه الكريم ووصفها بالمقام الكريم عند خروج بني اسرائيل ووراءهم فرعون وجنوده ({فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ *وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ }١٠٠
- حسناً يمكننا الآن متابعة الحديث عن تاريخ مصر وقد وصلنا إلي عصر الاسكندر والبطالمة
- كلي آذان صاغية

## ٧٤. الإسكندر والبطالمة يسيطرون علي مصر

---

٩٦ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صفحة ٦١

٩٧ (٥١) سورة الزخرف

٩٨ (١٣٧) سورة الأعراف

٩٩ فضائل مصر وأخبارها وخواصها ( ابن زولاق ) صفحة ٥٤

١٠٠ الشعراء ٥٧ ، ٥٨

- بدأ عصر الاسكندر والبطالمة في مصر سنة ٣٣٢ قبل الميلاد واستمر حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد أي حوالي ثلاثة قرون وفيه اندمجت الحضارة الإغريقية مع الحضارة المصرية وأصبحت الإسكندرية عاصمة لمصر ومركزاً للعلم والعلماء وتوافد عليها الإغريق حتي كما لو كانت قطعة من بلاد الإغريق وُضِعت في مصر أو جزيرة إغريقية في المحيط المصري
- لقد ذكرت لي أن الإغريق تواجدوا بكثرة في مصر خلال العصر الفرعوني كجنود مرتزقة أو كتجار
- نعم ، ولقد كان ذلك من أسباب نقل العديد من العلوم من مصر إلي بلادهم ، ولكن هذه المرة جاءوا ليحكموا مصر ويفرضوا حضارتهم بها
- فكيف بدأ عصر الاسكندر والبطالمة في مصر ؟ وما هي المعلومات المتوفرة عن الاسكندر ؟
- ولد الإسكندر عام ٣٥٦ ق م وكان تلميذاً للفيلسوف أرسطو وأعتلي عرش مقدونيا في سن الـ ٢٠ بعد مقتل أبيه فيليب في عام ٣٣٦ ق م ، ويلقب عادةً بالإسكندر الأكبر ، وكان شديد التعلق بأمه أوليمبياس ، وقد غيرت فتوحاته مجري التاريخ ، وفي مستهل ربيع عام ٣٣٤ ق م خرج الإسكندر علي رأس جيش مقدوني إغريقي وخرج معه عدد من العلماء والأدباء وعبر الدردنيل وكان الإسكندر معجباً بعصر البطولة وبالأبطال الإغريق الأسطوريين ، وكان يحمل معه نسخة من الإلياذة ، والتحم الإسكندر بالجيش الفارسي وانتصر عليه عام ٣٣٤ ق م ، واحرز انتصاره الثاني علي الملك الفارسي دارا الثالث في نوفمبر ٣٣٣ ق م ، وفر دارا الثالث بعد الهزيمة تاركاً أسرته التي وقعت في يد الإسكندر ، وقد عامل الإسكندر زوجة وبنات الملك الفارسي معاملة كريمة وردهن إليه ، وكانت مصر ولاية فارسية وكان التنافر شديداً بين الفرس والمصريين لاختلاف العقائد الدينية ، وقد دخل الإسكندر مصر في خريف عام ٣٣٢ ق م وأدرك الوالي الفارسي عبث المقاومة فاستسلم دون قتال ودخل الإسكندر ممفيس حيث نهج نهجاً يختلف تماماً عن نهج الفرس فقدم ولاءه للآلهة الوطنية ، واعتبره المصريون وريثاً للفراعنة ، وقبلوه ملكاً علي الفور ، وعند قرية مصرية قديمة تسمي راقودة أسس الإسكندر مدينة إغريقية تحمل اسمه ولاتزال ، وهي مدينة الإسكندرية في يناير ٣٣١ ق م ، وتابع الإسكندر سيره نحو الغرب حيث بلغ موقع مرسي مطروح الحالية ومنها انحرف جنوباً ضارباً في قلب الصحراء قاصداً واحة الإله آمون المعروفة الآن بواحة سيوة ودخل قدس الأقداس بمعبد الإله آمون ، حيث حياه كاهن المعبد كابن للإله آمون ، ثم عاد الإسكندر إلي منف وأعاد نظام الحكم والإدارة علي أسس جديدة ، ومنح مصر استقلالاً داخلياً ،ولم يعين حاكماً عاماً للبلاد ، وإنما وزعت السلطة بعناية شديدة ليمنع أي حاكم بمفرده من أن يقوي سلطانه ويتمكن من الاستقلال بالبلاد
- وهذا يؤكد أن الإسكندر اكتشف ما لمصر من إمكانيات تؤهلها للاستقلال فاتخذ فيها إجراءات خاصة تختلف عن باقي الولايات الخاضعة لحكمه أليس كذلك ؟

- بالتأكيد ، ثم غادر الاسكندر مصر في ربيع عام ٣٣١ ق م ، ليواصل قتال الفرس وتواصلت انتصاراته وفتوحاته في آسيا ، ثم قفل راجعاً إلي بابل التي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته وفيها مرض بالحمي ومات في ١١ يونيو عام ٣٢٣ ، وكان الاسكندر هو أول من نبه أذهان الإغريق إلي فكرة الإمبراطوية وما يستتبعها من السيطرة علي العالم المأهول وقتئذ ، وما فيه من شعوب وعناصر مختلفة وفتوحاته الواسعة هي أوضح دليل علي تبلور هذه الفكرة في ذهنة ، وقد أفصح عن هذا في رسالته التي بعث بها إلي دار الثالث بعد انتصاره عليه ، في معركة أسوس عام ٣٣٣ ق م ، وفيها يصف نفسه بسيد آسيا ويمضي الإسكندر قائلاً له : لقد انتصرت عليك وأصبحت أمتلك أراضيك بفضل الآلهة ، وهكذا يجب أن تراسلني الآن باعتباري ملك آسيا العظيم ، وحاذر من أن تكتب إلي كما تكتب إلي ند (نظير) لك ، لكن اذكر دائماً عندما تلتمس مني مطلباً إلي سيد كل ما تملكه ، وجدير بالذكر أن وفاة الملك الإسكندر الأكبر كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس (بطليموس الأول) الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وكانت الاسكندرية هي العاصمة التي أصبحت منارة للحضارة الإغريقية[١٠١]
- مات الاسكندر إذن ولم يعرف أنه سيتم تفتيت إمبراطوريته
- كما سيموت بعد ذلك بطليموس الأول دون أن يعرف أن دولته ستسقط في يد الرومان سنة ٣٠ ق م ، أما الاسكندر فهناك رواية تقول أنه توقع أن يحدث تنافس علي عرشه بعد موته ولكن لا أعتقد أنه توقف تفتيت إمبراطوريته ، فالرواية تقول أن أكبر قادة الاسكندر الجنرال ( برديكاس ) قائد القوات المقدونية الذي كان الإسكندر قد سلمه وهو في النزع الأخير أختامه الخاصة وأوراقه روت أحد الأقاويل أن الإسكندر وهو في النزع الأخير سأله أحد قواده " من أجدر بإرث الإمبراطورية ؟ " فأجاب علي الفور " للأقوي منكم "[١٠٢] ، وقد اتفق القادة بعد موته علي توزيع الولايات بينهم والوصاية علي العرش لتكون للجنرال برديكاس المسن نسبياً ،
- لقد سمعت أن بطليموس الأول هذا كان أكثر قادة الاسكندر دهاء فهل هذا صحيح ؟
- بالفعل فلقد كان شخصية غير عادية وكان علي قدر كبير من المكر والدهاء وقد اختار مصر لتكون من نصيبه تمهيداً لتحقيق أغراضه لأن هذا الرجل قد عرف ما لمصر من إمكانيات تجعله يشيد ملكاً عظيماً له ولأولاده من بعده ، وقد كان بطليموس علي يقين أن عرش الإمبراطورية في طريقه إلي الموت وسوف يستقل رسمياً بمصر بعد ذلك وهذا ما تم بالفعل ولكنه أجّل تنفيذ هذه الأحلام والأهداف

---

[١٠١] نقلاً باختصار عن كتاب دراسات في العصر الهللينستي ، إعداد د فادية محمد أبو بكر أستاذ مساعد التاريخ القديم كلية آداب جامعة الإسكندرية – دار المعرفة الجامعية

[١٠٢] معالم وتاريخ حضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٦

لحين استقرار الأمور وحتي لا يفطن برديكاس وباقي القادة لما يريده ، والطريف أن باقي القادة لم يرغبوا في اختيار مصر عند تقسيم الإمبراطورية وهو الوحيد الذي اختارها

- يبدو أنه كان يعرف أن كل منهم سيحكم كملك ، أما هو فسيقوم المصريون بوصفه كإله معبود والعياذ بالله ، فإذا كانت لديك معلومات عن هذا البطليموس أرجو أن تخبرني بها
- سأقرأ لك بعض ما كُتِب عنه من كتاب هؤلاء حكموا مصر حيث ورد ما ملخصه :

## ٧٥. الملك بطليموس الأول (سوتير) Ptolemy I Soter

- رغم فتوحات الملك الإسكندر الأكبر ابن الملك فيليب المقدوني والملكة أوليمبياس ، ورغم زيجاته العديدة سواء في الشرق أو في الغرب ، فإنه لم يعقب ولداً ليكون خليفة له علي الإمبراطورية المقدونية ، فوفاته كانت مبكرة مع بداية شبابه ، فلم ير ابنه الأول الوحيد من زوجته الأميرة روكسانا ابنة الملك الفارسي دارا الثالث ، وفي الوقت نفسه كان أخوه الملك فيليب أرهيدايوس مختلاً عقلياً فأصبحت الإمبراطورية بلا إمبراطور رشيد يتولي أمورها ، فاتفق قادة جيوش الإسكندر علي تقسيم البلاد فيما بينهم ، فكانت مصر من نصيب القائد بطليموس بن لاجوس الذي يعتبر مؤسس دولة البطالمة في مصر منذ سنة ٣٢٣ قبل الميلاد والتي استمرت حتي سنة ٣٠ قبل الميلاد ، أي حوالي ثلاثة قرون وفي بداية حكمه استطاع أن يعيد إلي شعب مصر التماثيل والكتب المقدسة التي كان الفرس قد نهبوها من مصر ، كرد لاعتبارهم ، فلقي بذلك تأييد الكهنة والشعب المصري علي السواء ، ثم تخلص من وزير المالية الإغريقي الذي كان يستغل أموال الشعب المصري ومحاصيلهم ، ولقد استطاع بطليموس الأول أن يأتي بالموكب الجنائزي للإسكندر الأكبر إلي مصر ، وأن يقوم بدفنه في مدينة الإسكندرية المحببه إليه ، وقد أحسن المصريون استقبال الجثمان وأثنوا علي تقوي بطليموس بن لاجوس الذي فضل أن تكون مصر هي مثوي الإسكندر الأكبر ، وليس مقدونيا كما هو متبع ، وبذلك أصبحت الإسكندرية هي كعبة الإغريق يأتون إليها من كل حدب لمشاهدة ضريح معبود الإغريق العظيم وقائدهم المظفر الذي فرض نفسه علي تاريخ البشرية ، وكانت سياسة بطليموس الأول سوتير تتلخص من خلال أعماله في حماية مصر وحدودها من الشرق والغرب ، وإقامة قاعدة بحرية للأسطول في قبرص لتساعده علي نشر نفوذه في آسيا الصغري أو بلاد اليونان ، كما كان في مخططه دائماً الإستيلاء علي سوريا لتأمين الطرق التجارية والاستفادة من أخشاب الأرز من أجل بناء الأسطول القوي ، واستطاع إخضاع منطقة ليبيا ، كما صالح حكام مملكة مروي في الجنوب وكسب صداقتهم ، ولتحقيق هذه الأهداف استلزم الأمر دخول بطليموس الأول في العديد من الحروب السياسية والعسكرية ، حتي استطاع بناء دولة بطلمية عظيمة قاعدتها مصر ، ولقد حمل الملك بطليموس الأول سوتيروس الألقاب المصرية الفرعونية التقليدية ، أما لقب سوتيروس فيعني المنقذ أو المخلص ، وإرضاء للشعب المصري الذي ينظر إلي الملك الفرعون الذي لابد أن يجري في عروقه الدم

الملكي المقدس تزوج بطليموس الأول من إحدي الأميرات المصريات حتي يعطي لنفسه الحق في تولي عرش مصر طبقاً للتقاليد المصرية المتبعة ، كما أبقي علي نظام الإدارة الفرعوني القديم واحترم حقوق طبقة الكهنة وامتيازاتها ، وجعل الإسكندرية هي عاصمة البلاد بدلاً من منف ، وقد حرص بطليموس الأول علي الحفاظ علي الدم الإغريقي نقياً حتي لا يضيع في بحر المصريين ، ولهذا فرغم احترامه لمشاعر المصريين حرم الزواج بين الشعبين ، ولقد اهتم بطليموس الأول بتوطيد ودعم تجارة مصر في حوض البحر المتوسط وقام بسك عملة مصرية تحمل إحداها علي وجهيها صورة كل من الإسكندر الأكبر وبطليموس الأول ، وفي الوقت نفسه حرص علي دقة وزن العملة وصفاء ونقاء وزنها ، سواء كانت ذهبية أو فضية

- أكثر ما لفت نظري في كل هذه المعلومات أن بطليموس الأول حرص علي إرضاء الكهنة وزواجه من إحدي أميرات البيت الفرعوني ليؤكد رغبته في أن يحصل علي ألقاب الفرعون المؤله
- وقد فكر بطليموس الأول في وضع ديانة جديدة لتوحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً من أجل السلام والتعايش السلمي وهي ديانة سيرابيس المصرية المتأغرقة ( عبارة عن توفيق بين الديانتين ) وحرص بطليموس الأول علي حضور جميع الاحتفالات الدينية وقام بترميم المعابد الشهيرة
- لقد حرص علي توحيد الشعب المصري والإغريقي روحانياً أما تحريم الزواج بينهما فهو قمة العنصرية فيما أعتقد ليظل السيد سيد والعبد عبد ، ويبدو أن المسلمين فقط هم أول من تزاوجوا مع شعب مصر بعد الفتح ، فماذا كتب عنه أيضاً
- ولم يهمل بطليموس الأول النواحي الثقافية والفكرية فأحدث نهضة فنية وعلمية كبري في مصر تذكرنا بحضارة مصر الفرعونية القديمة ، وإن كانت اقتصرت علي الإسكندرية أكثر من سواها من مدن مصر ، وعندما زاد عدد العلماء والفنانين والفلاسفة في مدينة الإسكندرية قرر بطليموس بناء أكاديمية لهم أطلق عليها اسم الموسيون أي بيت ربات الفنون والآداب التسع ، وتم بناء مكتبة عظمي أحضرت لها الكتب والمخطوطات النادرة من كل مكان وازدادت أعداد الكتب في عهد خلفاء بطليموس الأول حتي وصلت إلي ٧٠٠ ألف كتاب بمكتبة الإسكندرية ، وقد ظل بطليموس الأول يعمل بنشاط لا يكل وبعزيمة لا تلين حتي بلغ الثمانين من عمره ثم أعلن تنازله عن العرش لابنه بطليموس الثاني فيلادلفوس سنة ٢٨٥ قبل الميلاد ، ومما يذكر لعهد الملك بطليموس الأول أنه أمر ببناء منارة الإسكندرية في جزيرة فاروس وقد اكتمل بناءها في عهد بطليموس الثاني ، وقد تواجد بالإسكندرية العديد من العلماء والأدباء والمؤرخين والفلاسفة والفنانين فمن هؤلاء إقليدس وهيروفيلس وثيودوروس وإراستوثنيس وغيرهم فأصبحت الإسكندرية منارة للإشعاع الحضاري بعد اندماج الحضارتين المصرية والإغريقية ، وفي عهد البطالمة كتب المؤرخ المصري مانيتون كتابه الشهير عن تاريخ مصر ورتب الأسرات الفرعونية وقوائم ملوك الفراعنة ، وقد اتخذ بطليموس الأول سياسة ثابتة لتشجيع هجرة الإغريق

وتنظيمها إلي مصر ، واستمرت دولة البطالمة تحتفظ بمكانتها إلي أن دب فيها الضعف والاضمحلال ، فسقطت حين دخلها الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد فتحولت مصر إلي ولاية رومانية منذ ذلك التاريخ[١٠٣]

- يالها من معلومات تاريخية رائعة عن هذا الملك ، ولكن ألا يذكرك هذا الرجل بعض الشئ بمحمد علي باشا

- بكل تأكيد فقد كان هو ومحمد علي باشا وغيرهم من ذلك الطراز من القادة الذين عرفوا إمكانيات مصر جيداً وعلي حد تعبير الأستاذ جمال بدوي عنهم ( وضعوا أيديهم علي مفتاح شخصيتها فباحت لهم بسرها وجعلت منهم حكاماً يلهج بذكرهم التاريخ )[١٠٤] ، ولقد كان بطليموس الأول ومحمد علي متشابهان في الكثير من الأمور ، ولكن هناك فرق بين الرجلين في مسألة تجنيد المصريين في الجيش المصري ، فقبل أن نترك هذا البطليموس الأول لا بد أن نتوقف عند معلومة في منتهي الخطورة تخص هذا الرجل وقد تبدو بسيطة أو عادية للبعض ولكنها من وجهة نظري المتواضعة تعد عملاً خطيراً أدي إلي قهر هذا الشعب وتحجيم دوره لفترة طويلة جداً من الزمن حيث أنه حرم علي المصريين دخول الجيش خوفاً من اندلاع الثورة ضده[١٠٥] وقام بتشجيع هجرة الإغريق للاستعانة بهم في تكوين دعائم ملكه وقوته واستخدمهم كتجار وخبراء ومهندسين وجنود في الجيش وهذا العمل أدي إلي إبعاد المصريين عن القتال وهذه كارثة لا تخفي عليك نتائجها يا صديق العزيز ، وبطليموس الأول لم يهنأ بعرش مصر بسهولة ولكنه دخل في حروب طاحنة ومؤامرات مستمرة مع ورثة الإسكندر بل إن مصر تعرضت للغزو مرتين لخلعه من العرش ولكنه كان يستغل فيضان النيل في صد هجوم أعداءه وعلي العموم لو تأملت قصة بطليموس الأول ستجدها مشابهة إلي حد ما مع قصة محمد علي باشا في العصر الحديث فكلاهما دخل مصر وسيطر عليها وتودد للسلطة الدينية بها مع عدم المقارنة طبعاً بين الكهنة الخبثاء ومشايخ الأزهر الأتقياء وكلاهما كسب ود الشعب المصري وكلاهما قام بإجراءات عديدة متشابهة منها مثلاً التحالف مع بعض الأعداء ومقاتلة البعض الآخر طبقاً لمقتضيات الموقف وكلاهما أشرك أكبر أبناءه في حروبه بل كانوا قادة علي أعلي مستوي من المهارة والخبرة ولكن أكبر اختلاف بين بطليموس الأول ومحمد علي باشا أنه استبعد المصريين من الجيش بينما استعان بهم محمد علي بعد أن اضطر لتجنيدهم وقد استطاع هذا الجيش المصري الذي وضع لبنته الأولي محمد علي أن يطيح بآخر ملوك أسرة محمد علي وهو الملك فاروق واستعادة حكم المصريين لمصر

- وماذا بعد بطليموس الأول ؟

---

[١٠٣] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك – إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – صفحات ١١١، ١١٢ ، ١١٣

[١٠٤] محمد علي وأولاده ( جمال بدوي ) صفحة ٣٣

[١٠٥] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٣٨

## ٧٦. عصر البطالمة بعد بطليموس الأول

- تولي الملك بطليموس الثاني الحكم في حياة أبيه وتولي الحكم وهو في الخامسة والعشرين من عمره وكان سياسي علي أعلي مستوي ولقد استكمل ما بدأه والده وقام بإصلاحات إدارية وثقافية كبيرة وبلغت البلاد في عهده قمة الثراء والتقدم في جميع المجالات وليس معني هذا أن عهده كان خالياً من الحروب والصراعات والمؤامرات الخارجية بل إن المحافظة علي ممتلكات الدولة وتوسعاتها التي ورثها عن أبيه كلفته العديد من الصراعات والمؤامرات ولكنه كان غالباً ما يرسل القادة للقتال دون أن يذهب بنفسه علي رأس الجيش وقام بطليموس الثاني بالدعوة لعبادة أبيه وأنشأ له ضريح ضخم كما أنه كان متزوجاً من أخته وكان يحبها حباً شديداً لدرجة أن اسمه (فيلادلفوس ) ترجمته ( المحب لأخته ) ، وقد حكم مصر من سنة ٢٨٥ ق م إلي سنة ٢٣٦ ق م١٠٦ وفي رواية أخري مات سنة ٢٤٦ ق م١٠٧ وتولي حكم مصر بعده ابنه بطليموس الثالث وقبل أن نترك بطليموس الأول والثاني ونبدأ في الكلام عن أولادهم وأحفادهم لابد أن نتوقف عندهما قليلاً فقد استطاع الأول أن يؤسس واستطاع الثاني أن يحافظ ويدعم المملكة واستكمال ما بدأه الأول بجدارة واقتدار ويكفي أن أقول لك أن الإسكندرية في ذلك الوقت كانت قبلة العلماء والشعراء والمفكرين الإغريق وغيرهم بل إن أهم ما يحسب لهما إنشاء مكتبة الإسكندرية العظيمة التي أمر بإنشائها بطليموس الأول ودعمها بالكتب الوفيرة بطليموس الثاني١٠٨ وكذلك المخطوطات النادرة ، وكذلك قام بإنشاء حديقة للحيوانات جمع فيها كل ما هو غريب من الحيوانات والطيور من أنحاء العالم وبلغت ثروة مصر في هذا العصر قمتها
- لا شك أن ثروة مصر كان يتمتع بها النخبة الحاكمة والكهنة ومن علي شاكلتهم
- بالتأكيد ولكن علي أي حال كان ثراء مصر يبقي داخلها ولا يتم إرساله للخارج كما سيحدث بعد ذلك في العصر الروماني ، وما يذهب لا يعود كما يقال
- وماذا حدث بعد بطليموس الثاني ؟
- نأتي إلي بطليموس الثالث الذي كان داهية سياسية فقد استطاع أن يحافظ علي المملكة بأقل عدد ممكن من الحروب كما أنه كان يتسم بذكاء حاد وكان علي علاقة طيبة بالكهنة وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، ويقول عنه د سيد الناصري في القسم الثاني من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر صفحة ٧٥ ( -- وبذلك نجح بطليموس الثالث عن طريق الذكاء والدبلوماسية أن يحفظ توازن القوي وهو جالس في قصره

---

١٠٦ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٤١

١٠٧ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ٦٩

١٠٨ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٦٠

بالإسكندرية لكنه حرص في نفس الوقت علي دعم مركزه في الداخل أي عند المصريين ويعتبر بطليموس الثالث من أعظم البطالمة اعتدالاً واتزاناً --)

- هل ظل خلفاء الاسكندر يتقاتلون ويوسعون حدود الدول التي يحكمونها ؟
- بالتأكيد ، فكل منهم كان يحكم جزء من الإمبراطورية الضخمة التي تركها الاسكندر ، وكان يعتقد أنه لا يقل عظمة عن الاسكندر وأنه يجب أن يضم باقي الدول لحكمه ويعيد تأسيس إمبراطورية الاسكندر وبالتالي لم تتوقف الحروب بينهم ، أما بطليموس الثالث الداهية فكان يعتمد علي إثارة الاضطرابات بينهم حتي يأمن شرهم ويثير شعوبهم فيشغلهم دائماً بمشاكل داخلية ، وبالتالي لم يعتمد علي الجيش كثيراً لتحقيق أهدافه وهذا البطليموس الثالث علي ما يبدو كان آخر الرجال المحترمين في هذه الأسرة ، فمثلاً في عهد بطليموس الرابع كان الجيش في حالة يرثي لها وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيوش ، وقبل أن يأخذنا الحديث عن أهم الأحداث في عصر البطالمة أريد أن ألفت نظرك إلي المنافسات الرياضية التي كانت تتم في ذلك العصر وهي ما تسمي بالألعاب الأوليمبية
- هل من المعقول أن يقيموا منافسات وبطولات رياضية وسط كل هذه الحروب والصراعات ؟
- هذا هو الطريف في الموضوع فقد كانت تتوقف الحروب أثناء هذه البطولات الرياضية كالأشهر الحرم بالنسبة للعرب بعد ذلك وسوف أتلو عليك بعض ما قرأت عن هذا الموضوع

## ٧٧. عندما كانت تتوقف الحروب بسبب الألعاب الأوليمبية في العصر الهيلنستي

- كانت فتوحات الاسكندر لها عواقب عديدة بالنسبة للدول اليونانية. فقد وسعت آفاق كبيرة لليونانيين، وأدت إلى هجرة مطردة، وخاصة للشباب والطموحين، للامبراطوريات اليونانية الجديدة في شرق البلاد فهاجر كثير من اليونانيين إلى الإسكندرية وأنطاكية والعديد من المدن الهلنستية الجديدة التي تأسست في أعقاب الاسكندر الأكبر ، فبعد وفاته قُسمت امبراطوريته، بعد فترة من الصراع، بين جنرالاته، مما أدى إلى المملكة البطلمية استنادا إلى مصر(، والإمبراطورية السلوقية) استنادا إلى بلاد الشام، بلاد ما بين النهرين وبلاد فارس، وأسرة انتيجونيد التي مقرها في مقدونيا . والعصر الهيلينستي فترة في التاريخ القديم كانت فيها الثقافة اليونانية تزخر بالكثير من مظاهر الحضارة في ذلك الحين. وقد بدأت بعد وفاة الإسكندر الأكبر عام ٣٢٣ ق.م، واستمرت حوالي ٢٠٠ سنة في اليونان وحوالي ٣٠٠ سنة في الشرق الأوسط .ويستخدم اصطلاح هيلينستية لتمييز هذه الفترة عن الفترة الهلينية وهي فترة الإغريقيين القدماء التي اعتبرت أوج عبقرية وعظمة الفكر والعلوم والفلسفة الإغريقية في ظل الامبراطورية الأثينية. والجدير بالذكر أن الفترات الوحيدة تقريباً التي كانت تتوقف فيها الحروب بين الممالك الهيلينستية هي الفترات التي كانت تقام فيها دورات الألعاب الأوليمبية فتتحول الصراعات الحربية إلي منافسات رياضية ثم تعود الحروب مرة أخري بعد انتهاءها ،

وكانت قبل ذلك قد بدأت الدورات الاولمبية القديمة في عام ٧٧٦ قبل الميلاد. وكانت تقام كل أربع سنوات على شرف زيوس كبير آلهة اليونان وزوجته هيرا وتدوم لمدة سبعة أيام. ولم تكن دورات الألعاب الأولمبية القديمة مجرد رياضة فقط بل كان لها معان دينية ووطنية. ولم تشهد دورات الالعاب الاولمبية القديمة أي توقفات حتى أثناء الحرب الفارسية حيث أقيمت الدورة عام ٤٨٠ قبل الميلاد.

- وهل استمرت الألعاب الأوليمبية في العصر الروماني ؟
- في عام ١٤٦ قبل الميلاد سيطر الرومان على اليونان وفرضوا سيطرتهم بالتالي على الدورات الاولمبية ورغم ذلك ظلت الدورات الاولمبية تقام كل أربع سنوات حتى عام ٣٩٣ الميلادي قبل أن يلغيها الامبراطور البيزنطي المسيحي تيودوروس الاول ليقضي علي مظاهر الوثنية وكان يعتبر أن هذه الدورات من هذه المظاهر لتتوقف الدورات الاولمبية بعد نشاط دام ١١٧٠ عاماً.
- ومتي عادت مرة ثانية ؟
- بعد ١٥ قرناً كاملة غابت فيها الشمس عن دورات الالعاب الاولمبية منذ قرار الامبراطور البيزنطي تيودوروس الأول بإلغاء دورات الالعاب الاولمبية القديمة عادت الشمس لتشرق من جديد على الدورات الاولمبية من خلال الدورات الحديثة التي انطلقت في أواخر القرن التاسع عشر ، وكان النبيل الفرنسي بيير دي كوبرتان هو صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وبالفعل بعث هذا المهرجان الرياضي من مقره الأساسي في اليونان عندما أقيمت أولى الدورات الاولمبية الحديثة في العاصمة اليونانية أثينا عام ١٨٩٦. وأقيمت الدورة الأولى في أثينا باليونان خلال الفترة من السادس إلى ١٥ نيسان/أبريل ١٨٩٦ وافتتحها الملك اليوناني جورج الأول والنبيل الفرنسي بيير دي كوبيرتان صاحب فكرة إحياء الدورات الاولمبية الحديثة وذلك على الاستاد الاولمبي بالعاصمة اليونانية أثينا والذي غطي بالرخام والمرمر. وكانت الدورة مهددة بعدم إقامتها أو بنقلها إلى العاصمة المجرية بودابست لعدم وجود استاد أولمبي في أثينا، بالاضافة لعدم وجود الامكانات المناسبة لدى الحكومة اليونانية لإقامة هذا الاستاد. ولكن الاستاد بني في غضون ١٨ شهرًا فقط بعدما تبرع الثري اليوناني جورج أفيروف أحد أبناء مدينة الإسكندرية المصرية بمبلغ ١٠٠ ألف دولار لتشييد الاستاد الذي اتسع لأكثر من ٧٠ ألف مشجع
- حقاً ، قد تصنع الرياضة ما تعجز عنه السياسة
- نعود إلي الحديث عن البطالمة وقد وصلنا إلي بطليموس الرابع الذي اعتلي عرش مصر بعد بطليموس الثالث
- عرش مصر والإسكندرية أليس كذلك ؟

## ٧٨. الاسكندرية في عصر البطالمة مدينة إغريقية

- أنت محق تماماً فقد كانتا دولتان مختلفتان تمام الاختلاف ولكل منهما شعب وثقافة وحضارة ، فقد كانت الإسكندرية عاصمة البطالمة عبارة عن قطعة من بلاد الإغريق تم انتزاعها ولصقها بمصر بمنازلها وأسواقها ومعابدها ومنشآتها ، أما باقي مصً ر فكانت لشعب مصر
- إذن هو استعمار استيطاني وليس احتلال عادي
- نعم لقد اتخذ الإغريق مصر وطناً لهم وتركزوا في الإسكندرية ، ولأن الاسكندرية أصبحت تنافس بلاد الإغريق نفسها في حضارتها بل وتتفوق عليها أحياناً بمكتبتها وعلماءها بحيث أصبحت منارة للحضارة الإغريقية في العالم كله وبالتالي أصبحت منطقة جذب لكل إغريقي ، كما كان البطالمة يشجعون الإغريق علي الهجرة إلي الإسكندرية
- شئ عجيب جداً أن يأتي شعب ويسيطر علي شعب آخر ولا يختلط به ولا يتزوج منه ويحتفظ كل منهم بثقافته وحضارته ولغته
- ولكن لا تنسي أن بطليموس الأول قد وضع ديناً جديداً ليوفق بين الديانتين الفرعونية والإغريقية
- إنه قمة العبث أن يضع ديناً جديداً أو يوفق بين ديانتين فهل كان نبي مثلاً
- إنه قد اكتسب عند المصريين قداسة الفراعنة الأوائل ، وكان الكهنة يحتاجون لوجود مثله حتي يستطيعون أن يستمروا في أعمالهم
- ولكن أعتقد أن اللغة المصرية القديمة قد تأثرت بالفعل من كل هذا
- بالطبع لقد نشأت لغة جديدة نتيجة لكل هذا ، حتي أن حجر رشيد الذي سنتكلم عنه بعد قليل خير دليل علي وجود نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة علي هذا الحجر في عصر البطالمة مما سهل فك رموز اللغة المصرية القديمة (الهيروغليفية)
- ألم يقم البطالمة بتأسيس مدن إغريقية أخري في مصر ؟
- كان بطليموس الأول قد قام بتأسيس مدينة في الصعيد تحمل اسمه ( مدينة بطلمية ) تشبهاً بالإسكندر والغرض منها نشر الحضارة الإغريقية في الجنوب لأن الجنوب دائماً مصدر المقاومة والاضطرابات ، كما كانت هناك مناطق أخري يتجمع فيها الإغريق منذ العصر الفرعوني ، ولكن بالطبع أصبحت الاسكندرية قلعة الحضارة الإغريقية ليس في مصر ولكن في العالم إلي حد ما
- وهل ظلت الاسكندرية علي طبيعتها الخاصة بعد انتهاء عصر البطالمة ؟
- بالتأكيد ظلت كذلك وحتي عندما احتل الرومان مصر أعطوا لشعب الإسكندرية وضع خاص يختلف عن شعب مصر فكأن الرومان قد احتلوا مصر واحتلوا الاسكندرية أيضاً
- أي أصبح هناك شعبان تحت الاحتلال ، المصري والإغريقي أليس كذلك ؟
- في الحقيقة بل ثلاثة شعوب إذا أضفنا الأقلية اليهودية التي كانت مركزة في الاسكندرية أيضاً والشعب الرابع هم الرومان أنفسهم

- فماذا سيكون التصنيف إذا صنفناهم كمواطنين بالرؤية الحالية للمواطنة العنصرية إذا جاز التعبير ؟
- إنه سؤال وجيه فعلاً ، وأعتقد أن المواطن الروماني كان مواطن من الدرجة الأولي بالطبع فهو سيد الجميع ، ثم يليه الإغريق ثم اليهود ثم المصريين ، ولا تنسي أنهم جميعاَ وثنيين عدا اليهود ، فقد كانوا الوحيدين في العالم الذين يعبدون الله ويدينون بدين سماوي ،ولكن لم يكن وجودهم يقلق أحد لكونهم أقلية علي أي حال
- ومنا هنا نفهم أن شعب الإسكندرية عندما يُذكر في كتب التاريخ التي تتناول تلك الفترة من تاريخ مصر ليس مقصود به المصريين أطلاقاً
- بالتأكيد ، ولقد ظلت الإسكندرية عاصمة لمصر طوال عصر البطالمة ثم عصر الرومان وحتي دخلها القائد عمرو بن العاص فاتحاً فاتخذ عاصمة جديدة لمصر وهي مدينة الفسطاط ، ونعود إلي الحديث عن أهم الأحداث في عصر البطالمة وقد وصلنا لبطليموس الرابع وتعتبر معركة رفح الشهيرة هي أهم حدث وقع في عهه
- وماذا قرأت عن هذه المعركة ؟

## ٧٩. معركة رفح تلهب الحماس وتبعث الروح مرة أخري في الشعب المصري

- حرص حكام مصر في بداية عصر البطالمة علي عدم تجنيد المصريين في جيش دولتهم كما ذكرنا ، فكان اعتمادهم علي المقدونيين والإغريق ( اليونانيين ) فقط في الحروب ، وكانوا يكتفون من المصريين بخدمة الجيش البطلمي من الناحية الإدارية فقط ونقل ما يحتاجه أثناء الحروب ، وكان مغزي ذلك واضحاً ، حيث أن ابتعاد المصريين عن القتال بشكل عام يفقدهم روح المقاومة ، ونجح بطليموس الأول وتلاه بطليموس الثاني في تكوين جيش بطلمي قوي بدون مصريين واستطاعا تحقيق جميع أهداف دولة البطالمة باستخدام هذا الجيش ، وقلنا أيضاً أن بطليموس الثالث عندما جلس علي عرش مصر لم يكن يعتمد علي القتال في تحقيق أهدافه حيث كان داهية سياسية وكان أعداءه في الخارج مشغولين بالمشاكل والثورات الداخلية في بلادهم والتي كانت تحدث بسببه هو شخصياً ، وبعد وفاة الملك بطليموس الثالث تولي ابنه بطليموس الرابع فيلوباتور وقد حكم مصر ما يقرب من ١٦ سنة أي من حوالي سنة ٢٢١ قبل الميلاد إلي سنة ٢٠٥ قبل الميلاد ويعتبر عهده بداية النهاية لدولة البطالمة ، وكانت الممالك الإغريقية الأخري تتطلع للنيل من الإمبراطورية المصرية البطلمية وخاصة مملكة السليوكيين بآسيا الصغري ، ففي عهد بطليموس الرابع تقدمت جيوش الدولة السليوكية نحو الشام واستطاعت إخضاع سوريا وفلسطين وأصبحت تدق أبواب مصر نفسها ، و كان الجيش البطالمي في حالة يرثي لها عندما وصل بطليموس الرابع للحكم ، وذلك لأن بطليموس الثالث أهمله بعض الشئ لاعتماده علي الدبلوماسية التي حقق بها ما يمكن تحقيقه بالجيوش ، وبالتالي اضطر بطليموس الرابع أن يجند حوالي عشرين ألف مقاتل مصري مع الجنود الإغريق ليدافع عن ملكه ، وحدثت المعركة

الشهيرة في التاريخ باسم معركة رفح سنة ٢١٧ ق م ، التي أبرزت معدن ابن وادي النيل بالانتصار الساحق علي القوات السليوكية ، الأمر الذي جعل الملك السليوكي يعترف بالسيادة المصرية علي سوريا ، وذلك نصر اشتاقت إليه نفوس المصريين منذ أيام الفراعنة ، فمنذ ذلك التاريخ حدثت الصحوة الكبري للمصريين في عصر البطالمة ، وبالتالي واجه البطالمة بعد ذلك ثورات عنيفة في البلاد لم تكن لتحدث قبل تجنيد المصريين

- وكأنه كما يقال في الأمثال الشعبية قام بتحضير عفريت مارد ولم يتمكن من صرفه
- بالطبع فقد كان بطليموس الرابع لا يمتلك دهاء بطليموس الثالث ولا قوة جيوش بطليموس الأول والثاني فحدث له ما حدث
- فماذا عن حجر رشيد الشهير والذي قلت أنه كُتِب في عصر البطالمة ؟
- هذا الحجر مكتوب عليه ثلاث خطوط وهي الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية وقد تم كتابة هذا الحجر في عهد الملك بطليموس الخامس بواسطة الكهنة تمجيداً لأعماله الدينية واهتمامه بالمعابد وكان ذلك حوالي سنة ١٩٦ قبل الميلاد وكان بطليموس الخامس كسائر البطالمة يتودد إلي الكهنة المصريين ويهتم بمعابدهم اهتمام خاص ، وكان في مصر في ذلك الوقت تستخدم أكثر من لغة نتيجة لاندماج الحضارة الإغريقية والحضارة المصرية مما نتج عن ذلك ظهور لغة مشتركة ، وقد استطاع العالم الشهير شامبليون فك رموز هذا الحجر عندما اكتشف أن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة للنص الهيروغليفي أي أن المنقوش علي الحجر نص واحد مكتوب بثلاث لغات مختلفة وبالمقارنة استطاع أن يفك الرموز ، وبناءاً علي ذلك تمكن العلماء من معرفة كل هذه المعلومات التاريخية والأحداث التي دونها الفراعنة بلغتهم التي تجمع بين الحروف والرموز في وقت واحد وهذا الحجر موجود في بريطانيا حاليا
- لقد سمعت والله أعلم أن اسم الملك المكتوب داخل خرطوشة ملكية في الثلاث لغات كان السبب في تسهيل عملية المقارنة بينها ، فهل تعرف ما الكلمات التي كانت مدونة علي هذا الحجر ؟
- أعرف مقتطفات قصيرة جداً وفيما يلي بعض من المكتوب علي هذا الحجر : ملك مصر العليا والسفلي ---- تجسيد حي لآمون ----- ابن رع --- بطليموس الخالد المحبوب من بتاح --- ---(- - - حيث أن الملك يقوم بواجبه نحو الآلهة ويقدم المساعدات المالية للمعابد - -- - - وحيث أنه قدم الهبات إلي محراب عجل أبيس ونظم إجراءات دفنه وحيث أنه أمر بترميم المعابد والمحاريب للآلهة في كافة أنحاء البلاد وحيث أن الملك قام بجميع هذه الأعمال فإن المجمع قد عقد العزم علي أن يزيد من ألقاب الشرف الممنوحة له ولأسلافه وأن يقيم في كل معبد مصري تمثالاً لبطليموس - )١٠٩

[١٠٩] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري )صـ ٨٦ ، ٨٧

- آمون ورع وبتاح ، يبدو أننا لم نترك الديانة الفرعونية حتي الآن ، فماذا حدث بعد ضعف دولة البطالمة ؟
- لقد صعدت روما كقوة عظمي في العالم وتدخلت في شئون مصر
- فهل لديك أمثلة علي ذلك ؟
- في حوالي عام ١٧١ قبل الميلاد خرجت روما منتصرة في الحرب التي نشبت بينها وبين مقدونيا فأطاحت بما كان لمقدونيا من سلطان وجاه وأصبحت روما صاحبة الجاه والسلطان في كل العالم كما أصبحت حكماً في كل الخصومات التي كانت تظهر بين الدول المتنافسة بوجه عام ، وفي ذلك الوقت كان يشترك في حكم مصر ملكان شقيقان من ملوك البطالمة وهما بطليموس السادس الملقب بفيلوميتور ، وأخاه بطليموس الملقب بيورجيتس الثاني بينما كان هناك خطر يهدد مصر من دولة السليوكيين في سوريا كالعادة ، فقد استطاع ملك سوريا أنتيوكوس الرابع احتلال مصر وحصار الإسكندرية واستفحل الأمر وفرض هيمنته علي مصر ، إلي أن لجأ البطالمة إلي روما فتدخلت لصالح البطالمة وأرسلت مبعوثيها لتحذير الملك أنتيوكوس الرابع ، وقد وصف المؤرخون مدي الكبرياء والتعالي الذي قام به مندوب روما وهو يسلم الملك رسالة مجلس الشيوخ الروماني ، ففي هذه اللحظة كان أنتيوكوس يحاول أن يتخلص من هذا الموقف ، غير أنه لما رأي في نهاية الأمر أنه كان مجبراً علي أن يجيب الرومان علي الرسالة ، قال بصوت متهدج : سأفعل ما يرغب فيه مجلس الشيوخ
- لهذه الدرجة بلغت قوة روما ؟
- نعم ، فقد كانت القوة العظمي الوحيدة في العالم ولا يجرؤ أحد أن يقف ضد مصالحها
- ولكن البطالمة كانوا يتوددون لها كما هو واضح ، فماذا كانت رغبة مجلس الشيوخ الروماني ؟
- كان ما يرغب فيه مجلس الشيوخ الروماني من أنتيوكوس هو أن ينسحب من مصر جميعها في الحال علي أن يكون خارج حدودها في توقيت محدد وطبقاً للترتيبات التي قررتها روما وهكذا أنقذ الرومان عرش البطالمة في مصر ، غير أن الرومان لم يتركوا البلاد المصرية وشأنها لتحكم نفسها بنفسها ولكنها كانت تتدخل في شئونها ، وتستغل الانقسام الموجود نتيجة الصراع بين الملكين الشقيقين فتشعل الموقف بينهما تارة وتقوم بدور المصالحة بينهما تارة أخري ، وطبقاً لما يحقق مصالحها وعلي حد تعبير سليم حسن : وهكذا نري أن السياسة الرومانية تحت ستار الصلح والتراضي بين الأخوين قد نقضت العمل العظيم الذي جاهد في إتمامه البطالمة الأول ، فقد ضربت بمعولها البناء الذي كانوا قد أقاموه ، وكذلك نجد أنها إدخرت لنفسها الحق في أن تثير عند الحاجة طمع أحد الأخوين عندما يشعر أنه قد نال نصيباً أقل من ملك والده ، والجدير بالذكر أن سيطرة روما علي مصر استمرت حتي نهاية عصر البطالمة عندما قررت روما ضم مصر كولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية التي اتسعت حدودها

وابتلعت كل دول المنطقة فكانت مصر آخر دولة سقوطاً في يد الرومان ، ودخلها الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس منتصراً سنة ٣٠ قبل الميلاد[١١٠]

- أي أننا الآن قد وصلنا إلي عصر اضمحلال بطلمي

## ٨٠. بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتذلل لروما

- نعم والفرق بين العصر الفرعوني والعصر البطلمي أن الفراعنة لهم ثلاثة عصور اضمحلال أما البطالمة فعصر اضمحلال واحد فقط ، فقد حكم مصر في بداية عصر البطالمة بطليموس الأول والثاني والثالث وغيرهم وكانت مصر في عهدهم من أقوي الدول وأعظم الحضارات وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت بمكتبتها الشهيرة وعلماءها مركزاً للإشعاع الحضاري ثم بدأ رويداً رويداً ينحدر عصر البطالمة نحو الهبوط وبدأ يعتلي عرش مصر بطالمة ضعفاء إلي أن وصل الحال أن أصبح بطليموس الثاني عشر علي عرش مصر وكان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب ( الزمار ) لأنه كان يحب الرقص والغناء وشرب الخمر ويحب العزف علي المزمار ، وأصبح هذا البطليموس وصمة عار في جبين الأسرة البطلمية ، وكان الزمار يتذلل لروما ويرسل لها الرشاوى والهدايا ويقول عنه الدكتور سيد الناصري (- - ولكي يحظي باعتراف الرومان راح الزمار يتذلل ويريق ماء وجهه ويدفع الهدايا والرشاوى ويشتري ذمم القادة الرومان من أمثال بومبي ويوليوس قيصر وغيرهم وكان زعماء الحزب الجمهوري الأرستقراطي في روما يفضلون أن يظل الزمار في هذا الوضع المهين ويدفع لهم الأموال التي لا تقل عن دخل مصر إذا ما ضموها - - )[١١١] فكان حكم بطليموس الثاني عشر لمصر أفضل لقادة روما من أن يتم احتلالها وتعيين والي روماني عليها
- أعتقد أنه إذا فكر قادة روما في احتلال مصر سيقوم الوالي الروماني المعين عليها بإرسال أموال وقمح مصر إلي روما بصفة رسمية وطبقا لحسابات خاصة بولايات الإمبراطورية ولكنه بالطبع لن يضطر إلي إرسال هدايا ورشاوى شخصية للقادة في بيوتهم أما الزمار فكان يرسل ما يفيد روما بشكل عام ويفيد القادة بشكل خاص وبالتالي هذا الوضع قد يكون أفضل من الاحتلال ولهذا كانت مصر هي آخر ما سقط من تركة الإسكندر في يد الرومان وهذا منطقي إلي حد كبير
- وظل هذا الحال إلي أن ثار علي الزمار شعب الإسكندرية فهرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة التي سيطرت علي قادة روما ولكن بطريقة أخري مستغلة جمالها

---

[١١٠] نقلاً عن كتاب ( موسوعة سليم حسن – مصر القديمة ) الجزء السادس عشر (من عهد بطليموس الخامس إلي نهاية عهد بطليموس السابع ) مكتبة الأسرة ٢٠٠١ بتصرف من صفحة ٢٤١ – ٢٤٤

[١١١] من كتاب ( معالم تاريخ وحضارة مصر – من أقدم العصور حتي الفتح العربي ) – القسم الثاني – د سيد الناصري– صفحة ١٠٥ دار النهضة العربية ( الطبعة الثانية ) ١٩٨٠

- أخيراً وصل الحديث إلي الملكة كليوباترا الشهيرة ، فهات ما عندك

## ٨١. الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر

- كانت مصر آخر الدول سقوطا في أيدي الرومان ويرجع السبب إلي أن البطالمة كانوا علي صلة طيبة بالرومان وكانوا يساعدونهم في حروبهم بتزويدهم بخيرات وقمح مصر حتي أن الرومان في فترة من الفترات وجدوا أن البطالمة في أواخر أيامهم كانوا يحكمون مصر كما لو كانوا ولاة تابعين لروما بحيث كانت تأتي الخيرات من مصر إلي روما دون الحاجة إلي احتلال فعلي ، وكان البطالمة في ذلك الوقت يفعلون ذلك ليأمنوا هجوم الرومان عليهم ، كما زاد نفوذ روما في مصر وتدخلت في شئونها الداخلية في عهد البطالمة الضعفاء في نهاية العصر البطلمي الذي كان يحتضر بل مات فعلاً وينتظر شهادة الوفاة الرسمية ، وعندما تولي بطليموس الثاني عشر حكم مصر وتزوج أخته كليوباترا السادسة كان أهل الإسكندرية يطلقون عليه لقب ( الزمار ) ، وعندما ثار عليه شعب الإسكندرية هرب سراً إلي روما وأوصي في وصيته أن يتولي عرش مصر من بعده أكبر بناته وهي كليوباترا السابعة وكان يتحتم عليها أن تتزوج من أخيها الصغير بطليموس الثالث عشر طبقاً لوصية أبوها ولكنها حاولت التخلص منه والانفراد بالسلطة وحدها ، وهنا تدخلت روما أيضا في هذا الصراع حيث حاول يوليوس قيصر التوفيق وفض النزاع بين كليوباترا وأخيها وطلب حضورهما للقصر الملكي في الإسكندرية وهذا يعتبر تدخل سافر وإهانة عظمي
- أعتقد أن موكب يوليوس قيصر في شوارع الإسكندرية كان يثير كراهية الجماهير بلا شك أليس كذلك ؟
- نعم وقد استطاع يوليوس قيصر أن يدعم موقف كليوباترا ويجعلها ملكة علي البلاد بعد مقتل أخيها أثناء الصراع ، وظل قيصر في مصر مع كليوباترا لفترة ثم عاد إلي روما بعد أن ترك لكليوباترا قوة رومانية لحمايتها ، ثم أنجبت كليوباترا منه ولدا ولم تعترف روما بهذا الزواج ، ثم قامت كليوباترا بزيارة روما ومعها ابنها من يوليوس قيصر ليتم الاعتراف به دون جدوي ، وحاولت كليوباترا أن تعيد أمجاد البطالمة الأوائل وتنهض بمصر مستغلة جمالها وسيطرتها علي قادة روما ، يوليوس قيصر ثم أنطونيوس بعد مقتل يوليوس قيصر ،
- طبعاً قصة انطونيو وكليوباترا قد تم صياغتها أدبياً وأصبحت من أشهر قصص الحب في العالم
- نعم ولكن القائد الروماني الشهير أوكتافيوس لم يرض بهذا الوضع لأن أوكتافيوس وجد أن كليوباترا لها تأثير عجيب علي القادة الرومان وتقريباً تحكم نصف الإمبراطورية الرومانية مستغلة حب أنطونيوس لها ، فقرر حسم الموقف وأن يضم مصر نهائياً للإمبراطورية الرومانية
- فماذا فعل ؟

- وقعت معركة بحرية كبيرة ( معركة أوكتيوم ) انتصر فيها أوكتافيوس ودخل مصر منتصراً وضمها رسمياً إلي الإمبراطورية الرومانية وكان ذلك في شهر أغسطس عام ٣٠ ق م١١٢ ،
- فماذا حدث لأنطونيوس وكليوباترا ؟
- أما أنطونيوس فقد هرب إلي مصر عندما تأكد من هزيمة أسطوله أمام أوكتافيوس وعندما وصل أشاعت كليوباترا أنها انتحرت ولم يتحمل أنطونيوس خبر انتحار كليوباترا فانتحر علي الفور وجاء الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس إلي مصر وأرسل قوة للبحث عن كليوباترا لينتقم منها بعد كل ما فعلته في قادة الرومان يوليوس قيصر ثم ماركوس أنطونيوس ، وعندما شعرت كليوباترا أنها ستُهان وتُعاقب عقاب لا يليق بها قامت بالانتحار عن طريق لدغة ثعبان لتهرب من المصير السئ الذي ينتظرها وتم قتل ابن يوليوس قيصر الذي أنجبه من كليوباترا وبدخول أوكتافيوس تم إعلان وفاة عصر البطالمة للأبد بعد أن استمر أكثر من ثلاثة قرون تزوجت خلالها الحضارتين المصرية والإغريقية١١٣
- يا له من عصر مثير بالفعل وبه أحداث كثيرة
- المهم أنهم قد ماتوا جميعاً وتركوا آثارهم لنعتبر ونتعلم
- وأصبحت مصر ولاية رومانية
- نعم ولمدة ٦٤٨ سنة تقريباً
- كم من الأجيال قد وُلِدت وعاشت وماتت في ظل الاحتلال الروماني إنها مأساة بالفعل
- ولكن هذه المدة تتضمن دولتين في الحقيقة الرومانية والبيزنطية ، ولكنه احتلال علي أي حال
- وبدأ النهب الفعلي لمصر أليس كذلك

## ٨٢. وأصبحت مصر ولاية رومانية

- بالتأكيد ( – – – كان حكم الرومان لمصر يتشابه مع حكم الفراعنة والبطالمة وهو استغلال هذا البلد واعتباره ضيعة خاصة ، سواء للفرعون أو للبطليموس أو للإمبراطور الروماني ، ولكن هناك فرق كبير بين حكم الفراعنة والبطالمة وبين حكم الرومان ففي الحالتين السابقتين كان ثراء مصر يبقي داخلها بالرغم من أنه يذهب إلي خزانة الفرعون أو البطليموس ، أما في العصر الروماني فإن خيراتها كانت تنقل إلي الخارج ، إلي روما ليتمتع بها الشعب الروماني ، وما يذهب لا يعود ، أي أنه مع الحكم الروماني بدأ نهب مصر الفعلي ، وكأن روما كانت الثري الذي يؤجر ضيعته وهو مقيم في أوروبا حيث ينفق ريعها هناك – – – )١١٤ ، وقد بلغ عدد الأباطرة الرومان في روما الذين سيطروا علي مصر ٢٧ إمبراطور وتولي حكم مصر في عهدهم ٨٦ والياً رومانياً١١٥ لمدة حوالي ٣٥٣ سنة

---

١١٢ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري )صـ ١١٤

١١٣ نقلا بتصرف عن كتاب –معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري)

١١٤ من كتاب معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ١٤٣

١١٥ موسوعة حكام مصر ( ناصر الأنصاري ) صـ ٤٥

كاملة ثم جاء بعده العصر البيزنطي نسبة إلي مدينة بيزنطة وبدأ هذا العصر سنة ٣٢٣ م وتولي حكم مصر في هذا العصر ٧٩ والياً عاصروا ٢٢ إمبراطوراً[١١٦]

- **فهل كان الإمبراطور أغسطس من الشخصيات البارزة التي احتلت مصر ؟**
- شعر الإمبراطور أغسطس بأهمية مصر كولاية غير عادية في الإمبراطورية الرومانية فاتخذ بها عدة إجراءات خاصة بها فقط ، ومن أهم الإجراءات أنه قام بتوزيع عدد ضخم جداً من القوات الرومانية في مواقع حساسة ومهمة في أنحاء مصر وبلغت هذه القوة ثلاثة فرق رومانية كاملة وعدداً من الكتائب المساعدة وهذا يعادل حوالي ٢٢٨٠٠ مقاتل وهو عدد يفوق بكثير متطلبات الموقف[١١٧] وذلك يعكس حقيقة قلق أغسطس البالغ ، كما قسم مصر إلي ثلاثة مناطق إدارية وأصدر قرار غريب جداً يمنع بمقتضاه أي شخص من عظماء روما أن يزور مصر إلا بإذنه شخصياً سواء كان من مجلس السناتو أو من كبار القادة الطموحين[١١٨] لأنه كان يخشي أن يتولي حكم مصر والي ذو طموح يمكنه الاستقلال بها باستغلال إمكانياتها وهذا يدل علي حكمته البالغة وخبرته الواسعة في أمور القتال والسياسة أيضاً ، كما قام بإجراء العديد من الإصلاحات الزراعية ومشاريع الري وتطهير القنوات وشق الترع وإصلاح المرافق وأعطي تعليماته للوالي أن يستكمل كل هذه الأعمال بعد مغادرته إلي روما وكان اهتمام أغسطس بالزراعة وخاصةً زراعة القمح في مصر لأنها ستصبح المصدر الرئيس للقمح في الإمبراطورية حيث أصبحت مصر تطعم روما بعد ذلك كما جعل لمصر عملة خاصة بها وأطلق علي هذه الإجراءات ( سر الإمبراطورية)[١١٩] ،
- **من الواضح أنه فهم جيداً طبيعة مصر وشعبها ، كما وضع يده علي مفتاح شخصيتها وأكبر دليل علي ذلك اهتمامه بتنظيم الري**
- نعم ، (– – ولقد جعل أغسطس مصر إحدي الممتلكات الشخصية والخاصة بالإمبراطور والتي يرتبط حكمها بشخصه مباشرةً ، وقد رأي أغسطس عدم إدماج مصر إدماجاً كاملاً في الإمبراطورية ، بل أصر علي عزلها وعدم المساس بنظمها الإدارية والدينية التي كانت موجودة بها قبل دخول الرومان ، وعين علي البلاد والياً من طبقة الفرسان يساعده ثلاثة من كبار الموظفين ، هم المشرف علي العدالة والمسئول عن الحسابات الخاصة وأمين الخزانة ، وكان أغسطس بالنسبة للمصريين فرعوناً وابن الإله آمون رع وله كل مظاهر القداسة والتأليه من المصريين ، فحمل الألقاب المقدسة التقليدية حسب العقيدة والفكر المصريين

---

١١٦ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٥٢

١١٧ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ١٢٣

١١٨ ويسري هذا القرار حتي علي آل البيت الإمبراطوري الحاكم

١١٩ من كتاب ( معالم تاريخ وحضارة مصر – من أقدم العصور حتي الفتح العربي ) – القسم الثاني – د سيد الناصري – صفحة ١٢٣

- **لا يمكن للكهنة الحياة بدون وجود فرعون مؤله بالتأكيد حتي إذا كان من الرومان**
- **أما بالنسبة للإغريق " شعب الإسكندرية في ذلك الوقت " فقد كان الوريث لسلطان البطليموس ، وقد صادر قسماً كبيراً من أراضي المعابد ونقل إدارتها إلي الدولة مقابل صرف رواتب ومنح للكهنة ، ومما أثار حنق السكندريين " الإغريق " علي الحكم الروماني المحاباة التي أظهرها أغسطس لليهود الموجودين بمدينة الإسكندرية – التي كانت بمثابة مدينة إغريقية كاملة علي أرض مصر – إذ وافق علي استمرار كل الإمتيازات التي كان اليهود يتمتعون بها إبان عصر البطالمة ، وقد فعل أغسطس ذلك لإيجاد توازن بين السكندريين واليهود ومكافأة اليهود علي ولائهم للرومان وكذلك لأن الرومان كانوا مطمئنين من ناحية اليهود لأنهم أقلية ، بالإضافة إلي أنهم سيكونون عملاء للرومان في المستقبل ، وكما ترك أغسطس حامية عسكرية بالإسكندرية ، وترك أخري بضاحية بابليون التي كانت امتداداً لمنف عبر النيل شرقاً ، كما وضع أوكتافيوس أغسطس فرقة رومانية ثالثة عند مدينة طيبة " الأقصر " ، كذلك وزع عدداً من الكتائب المساعدة لترابط عند المناطق الاستراتيجية ، وكان الوالي الروماني جايوس كورنيليوس جاللوس هو أول والي روماني يعينه الإمبراطور أغسطس علي مصر ، وكان قبل ذلك يقوم بدور الاتصال والوساطة بين الملكة كليوباترا السابعة البطلمية والقائد أوكتافيوس أغسطس الروماني وهو أحد قواد أوكتافيوس ، وقد أسدي هذا القائد خدمة جليلة له عندما استولي علي منطقة مرسي مطروح ورد الهجوم البري والبحري الذي قام به ماركوس انطونيوس علي المدينة لاسترداد فرقه العسكرية التي تخلت عنه ، وقد حكم كورنيليوس مصر من سنة ٣٠ ق م إلي سنة ٢٧ ق م أي ما يقرب من ٣ سنوات ، وهو أحد رجال الفرسان وكان صديقاً شخصياً لأغسطس ، وبالإضافة لصفته العسكرية كان أديباً وشاعراً معروفاً لدي الأوساط الأدبية ، وأهم ما يذكر في عهده قيام أول حركة تمرد ضد الحكم الروماني بالقرب من خليج السويس ، وقد تمكن جاللوس من القضاء علي هذا التمرد ، ولم يكد يمضي عام حتي هب بركان الثورة في طيبة سنة ٢٩ ق م بمجرد وصول جباة الضرائب الرومان ، وبلغ من شدة هذه الثورة أن قام الوالي الروماني بنفسه بقيادة القوات الرومانية لقمع هذه الثورة ، وأدرك الثوار أنهم أمام والي قاسي جاد لا يسمح بأي تساهل ، واشتبك الجيش الروماني مع الثوار المصريين في معركتين سحق فيهما خمس مدن ، وبعد الانتهاء من هذه المهمة قرر الوالي كورنيليوس جاللوس أن يسير جنوباً لتأمين حدود الإمبراطورية في أفريقيا ، وقد سمح الوالي كورنيليوس بأن تقام التماثيل من أجله وأن تنقش أخبار انتصاراته علي واجهة المباني العامة ، الأمر الذي أزعج الإمبراطور أوكتافيوس أغسطس فعزله ونفاه ، فاشتد الحزن بجاللوس حتي انتحر ذلك الوالي الذي كان أول من حمل لقب والي الإسكندرية ومصر)[١٢٠] ،**

---

[١٢٠] نقلاً عن كتاب ( هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك ) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – مقتطفات مختصرة من صفحة ١٣٨ إلي صفحة ١٤١ ١٢٠

- من الواضح أن أغسطس كان يعرف كل ما يدور في مصر وله عيونه بها ، فهل كانت هناك أحداث مهمة أخري في عصر هذا الإمبراطور ؟
- سنذكر حدث من أهم الأحداث التي وقعت في عهده ، ألا وهو زيارة العائلة المقدسة لمصر ، حيث وُلِد السيد المسيح عيسي بن مريم في عهد هذا الإمبراطور الروماني أوكتافيوس أغسطس وكانت مصر ولاية تابعة للإمبراطورية الرومانية ، وقد لجأت السيدة العذراء إلي مصر بولدها وكان يحكم مصر أثناء هذه الرحلة والي روماني يسمي (جايوس تورانيوس) وكان قد تولي حكم مصر سنة ٥ قبل الميلاد ، وفي عهده ولد السيد المسيح في بيت لحم بفلسطين ، حيث كانت فلسطين أيضاً تابعة لنفوذ الإمبراطور الروماني أغسطس وكان يحكم فلسطين الملك اليهودي (هيرودس) الكبير بتكليف من الإمبراطور ، ولقد هربت السيد مريم العذراء بولدها علي ما يروي إنجيل متي إلي مصر ، وإن هناك شبه إجماع علي أن كنيسة أبي سرجة بمصر القديمة شيدت في نفس المكان الذي أقامت به العائلة المقدسة عندما هربت إلي مصر من وجه هيرودس ، وقد جاءت العائلة المقدسة إلي مصر عن طريق صحراء سيناء ودخلوها من جهة الفرما (قرب بورسعيد) ، ومنها إلي مدينة بسطة (تل بسطة بجوار الزقازيق) ، واتجهوا غرباً فعبروا فرع النيل الشرقي عند سمنود وظلوا سائرين غرباً إلي فرعه الغربي فعبروه ومروا بوادي النطرون ، ومن هناك ساروا إلي الوجه القبلي فنزلوا بمدينة الاشمونين ، ثم مضوا إلي القوصية إلي قرية ميرة وهبطوا حيث يوجد دير المحرق ، وبعد أن اقاموا به بضعة أشهر علي الأكثر انحدروا شمالاً حتي جاءوا بابليون (مصر القديمة) وكان بها حي لليهود ونزلوا في الموقع الذي به كنيسة القديس سرجيوس المعروفة بكنيسة سرجة ، وغادروها إلي عين شمس ، وكانت مدينة عامرة باليهود فأقاموا يستظلون بشجرة يقال إن موضعها حيث توجد الآن الشجرة المعروفة بشجرة العذراء بالمطرية ، ومن هناك انطلقوا إلي فلسطين عن طريق محافظة الشرقية [١٢١]
- {وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ } (٥٠) سورة المؤمنون ، صدق الله العظيم ، ، هل يمكنك أن تحدثني عن الأباطرة الرومان بعد انتهاء عصر أغسطس ؟

## ٨٣. الإمبراطور كاليجولا ومؤامرة اليهود علي الوالي الروماني بالإسكندرية

- بالطبع إن هناك العديد من الأباطرة الرومان يمكننا التحدث عنهم ولكن سنهتم في هذا الحوار بمن كان لهم مواقف انعكست علي مصر وشعبها ، أو كانت هناك أحداث مهمة في عصورهم كمؤامرة اليهود مثلاً علي الوالي الروماني في عصر الإمبراطور كاليجولا
- لقد سمعت هذا الاسم من قبل فهو من أشهر الأباطرة الرومان ، فماذا حدث في عهده ؟

[١٢١] نقلاً عن كتاب ( هؤلاء حكموا مصر – من مينا إلي مبارك ) إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية ٢٠١٢ – صفحة ١٤٤

- كان كل من الشعبين الإغريقي واليهودي علي خلاف دائم ونزاع حول الامتيازات المخصصة لكل منهم فكان الإغريق أصحاب ديانة وثنية أما اليهود فكانوا أصحاب ديانة سماوية ، وبعض المؤرخين عندما يكتبون عن شعب الإسكندرية يطلقون عليهم الإغريق المصريين أو المصريين الإغريق ويقصدون بذلك شعب الإسكندرية ، ومنذ أن تم احتلال مصر بواسطة الرومان كان يلقب الوالي الروماني بوالي مصر والإسكندرية علي أساس أن الإسكندرية تمثل دولة في حد ذاتها داخل الدولة المصرية ، أما عن قصة مؤامرة اليهود علي أحد الولاة الرومان بالإسكندرية وكان اسمه أولوس افيليوس فلاكوس ، فقد وردت في كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان) في صفحة ١٤٦ وصفحة ١٤٧ وفيما يلي بعض ماورد عن هذا الموضوع بالكتاب : تولي أفيليوس فلاكوس حكم مصر في سنة ٣٤ م ، وقد اشتهر بالحزم في إدارة شئون مصر ، وقد عاصر حكم فلاكوس أواخر عهد الإمبراطور الروماني تيبريوس وأوائل عهد الإمبراطور كاليجولا ، وأهم ما يذكر في عصر فلاكوس الحرب الأهلية بين الإغريق المصريين وبين طائفة اليهود ، ولذلك أصدر منشوراً يحرم فيه حمل الأسلحة إلا بإذن منه ، ويحدد عقوبة مخالفة ذلك بالإعدام ، فأمر بتفتيش منازل اليهود بحثاً عن الأسلحة ، وقد اندلعت الشرارة الأولي في الحرب الأهلية بين المصريين الإغريق وبين الطائفة اليهودية سنة ٣٨م ،ومن الواضح أن الوالي الروماني وقع ضحية لحرب ذكية بين فريقين متعادلين لأنه لم يكن منحازاً لأهل الإسكندرية ، بل كان رومانياً مخلصاً يهمه إرضاء سيده الجالس علي العرش قبل كل شئ ، فاستطاع اليهود عن طريق ممثلهم في روما إيغار صدر الإمبراطور كاليجولا علي الوالي فلاكوس ، فأرسل الإمبراطور قوة عسكرية تحت إمرة قائد يدعي (باسوس) وحرصت القوة علي أن تنزل بالميناء ليلاً ، ثم تسللت إلي داخل المدينة واتجهت أولاً إلي بيت قائد الجيش الروماني وأبلغته أمر القبض علي الوالي ، وبعدئذ بحثت عن الوالي فعرفت أنه مدعو في وليمة عند أحد أصدقائه ، فاقتحمت المكان وألقت القبض عليه ونقلته إلي روما في أكتوبر سنة ٣٨م ، حيث قدم للمحاكمة التي قررت إدانته ، وصودرت أملاكه وأمواله ونفي إلي جزيرة أندروس الصخرية الموجودة في بحر إيجة وبقي فيها حتي إعدامه

- يا لها من مؤامرة أطاحت بشخص مخلص للإمبراطور وماذا حدث أيضاً في العصر الروماني ؟

## ٨٤. الإمبراطور تراجانوس وإعادة القمح إلي المصريين

- سأحدثك عن الإمبراطور الروماني تراجانوس فبرغم أنه لم يزر مصر ، إلا أن اهتمامه بها كان بالغاً ، فقد تولي الإمبراطور تراجانوس عرش الإمبراطورية الرومانية من سنة ٩٨ م إلي سنة ١١٧ م ، وقد كان الإمبراطور تراجانوس حالة خاصة جداً في تاريخ الرومان ، فكان ينظر في المظالم والشكاوي بنفسه ، وكثيراً ما أبدل مركز روما التقليدي من مصر بأن أطعم الثانية علي حساب الأولي ، فقد أراد في إحدي السنوات أن يخفف من وطأة المجاعة التي كانت تجتاح مصر بسبب انخفاض النيل ، فأعاد إلي مصر أسطولاً محملاً بالقمح ،

- لقد خشي بالتأكيد أن يموت الفلاحين المصريين فلا يجد بعد ذلك من يزرع القمح
- وقد شجع تراجانوس التجارة المصرية مع الشرق وذلك بشق قناة تصل بين البحر الأحمر والبحر المتوسط عن طريق نهر النيل وهذا بالقرب من رأس الدلتا أطلق عليها قناة تراجان ، فعاد هذا العمل علي مصر بالخير فزادت تجارتها إلي حد كبير وأصبحت الهند هدف التاجر المصري المُجِد ، ورغم أن الرحلة كانت تستغرق ١٢ شهراً فإن الأرباح الناتجة عنها كانت تبرر متاعبها ومشاغلها ، وقد قام تراجانوس إبان حكمه بعدة تغييرات عسكرية وأعمال عسكرية ، منها بناء قلعة بابليون علي ضفة النيل الشرقية ، كذلك أنشأ فرقة عسكرية رومانية جديدة وجعلها تعسكر في حصن بابليون ، (كما فعل من قبل الإمبراطور أغسطس وأنشأ ضاحية النصر بالإسكندرية لتتمركز فيها أحد الفرق الرومانية وهي المنطقة المعروفة حالياً باسم فيكتوريا بالإسكندرية ) ، وقد تولي حكم مصر في عهد الإمبراطور تراجانوس الوالي جايوس فيبيوس ماكسيموس الذي عزله الإمبراطور بسبب اتهامه من شعب الإسكندرية بعدة اتهامات منها الابتزاز والرشوة واستغلال النفوذ ، وكذلك تولي حكم مصر في عهد تراجانوس الوالي روتيليوس لوبوس ، وكذلك تولي حكم مصر في عهده الوالي ماركوس توريو ١٢٢
- ألم تحدث أي ثورات علي الحكم الروماني في مصر ؟

## ٨٥. الإمبراطور ماركوس أوريليوس واندلاع ثورة عارمة في مصر

- عندما تم احتلال مصر سنة ٣٠ قبل الميلاد بواسطة الرومان في عهد الإمبراطور أغسطس ، اعتني بمصر واتخذ بها مجموعة من الإجراءات الخاصة كي تصبح المصدر الرئيس للقمح
- أي كان كمن يعتني بالبقرة قبل أن يحلبها ،
- بالتأكيد ، وبمرور الوقت وتعاقب الأباطرة الرومان في حكم الإمبراطورية قل الاهتمام بالعناية بمصر واستمر النهب فقط حتي أصبحت مصر تعاني من الإهمال الشديد ، وفي عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس الذي تولي الحكم سنة ١٦١ ميلادياً[١٢٣] قام المصريون الوطنيون بثورة عارمة وكان قائد الثورة كاهن مصري يُدعي ( ايسودوروس ) ، ولم يتمكن الرومان من قمع الثورة بالقوة ويقول عنها د سيد الناصري : ( -- وكان مبعث هذه الثورة هو تفشي السخط بين الفلاحين المصريين بسبب بهاظة الضرائب وتعددها وبسبب أعمال السخرة المهينة لدرجة أنهم لم يعودوا يتحملون عملية الاستنزاف الاقتصادي والنهب المالي لمواردهم والذي وصل إلي حد تسخير طاقاتهم البشرية ذاتها -- )[١٢٤] ، وقد أصبحت الإسكندرية العاصمة نفسها في ذلك الوقت مهددة بالسقوط في يد الثوار مما أدي إلي استخدام الرومان أساليب أخري للسيطرة علي الثورة لأن القوة لم تفلح معها ، وكان يوجد في ذلك

---

[١٢٢] نقلا عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر) (إعداد حمدي عثمان)

١٢٣ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٤٧

١٢٤ معالم تاريخ وحضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري ) صـ ٢١٠

الوقت قائد روماني يتسم بالمكر والدهاء اسمه (افيديوس كاسيوس ) وقام بإحداث وقيعة بين صفوف الثوار أنفسهم فتحولوا من قتال الرومان إلي قتال بعضهم البعض وهكذا انتهت هذه الثورة بالحيلة وليس بالقوة ،

- دائماً يستخدم الطغاة سلاح الانقسام بين الثوار للقضاء علي أي ثورة إذا فشلت القوة في قمعها
- وظل الرومان يستنزفون خيرات مصر بأسلوب مبالغ فيه جداً مما أدي إلي دخول مصر في أزمات اقتصادية حادة فتم اعتماد روما علي قمح شمال أفريقيا في المقام الأول بدلاً من مصر لأن إنتاج القمح المصري لم يعد يسد حاجة روما[١٢٥]
- أي يأخذونها لحم ويرمونها عظم كما يقال ، فهل من أحداث مهمة أخري ؟

## ٨٦. الملكة زنوبيا تسيطر علي مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية

- في عام ٢٧٠ م استطاعت القوات العربية التدمرية غزو مصر وهزيمة القوات الرومانية المستقرة بها حيث قامت قوات الملكة زنوبيا بهزيمة قوات الوالي تيناجينو بروبوس ، الذي آثر الانتحار علي العار ،
- يبدو أن الانتحار كان شائعاً بين قادة الرومان عندما يشعرون بالعار
- ونودي بالأمير وهب اللات (واباالاثوس) ابن الملكة زنوبيا (الزباء) والذي كان صبياً في العاشرة من عمره إمبراطوراً حيث رسمت صورته علي عملة مدينة الإسكندرية – عاصمة مصر في ذلك الوقت – جنباً إلي جنب مع صورة الإمبراطور الروماني كلاوديوس جوثيكوس مع بقاء الإدارة الرومانية ، أي كان الحكم امتزاجاً بين العربي والروماني ، ---وعندما تولي الإمبراطور الروماني أوريليانوس عرش الإمبراطورية الرومانية ، اعترف – مؤقتاً – بوهب اللات شريكاً له في حكم ولايات الشرق وظهرت عملة مدينة الإسكندرية تحمل صورة الإمبراطور أوريليانوس علي الوجه وصورة وهب اللات علي الوجه الآخر ، -- وبعد ذلك بفترة سُكَّت عملة في الإسكندرية سنة ٢٧١ م تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وتلقبه باسم (الإمبراطور المؤله) وهو اللقب التقليدي لأباطرة الرومان ، بينما ظهرت صورة أمه علي الوجه الآخر ، ٠وفي ربيع سنة ٢٧١ م تأزمت العلاقات بين وهب اللات العربي والإمبراطور أوريليانوس الروماني ، فأعلن وهب اللات نفسه إمبراطوراً لا علي الشرق فحسب بل علي الإمبراطورية الرومانية كلها ، لأنه كان يطمع في تأييد قوات الشرق له ،
- إلي هذا الحد بلغت سلبية الإمبراطور الروماني بعد كل هذا التحدي ؟
- رداً علي ذلك قام الإمبراطور الروماني بإرسال قواته للقضاء علي وهب اللات وأمه حيث استطاع القائد الروماني أن يستولي علي الإسكندرية ولكن باقي مصر ظل خارج سلطان الرومان – – – وبعد العديد من المعارك سقطت زنوبيا ووقعت أسيرة وسار بها الإمبراطور الروماني في شوارع روما مقيدة بسلاسل

---

١٢٥ معالم تاريخ وحضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري ) صـ ٢١٨

ذهبية وتوقف سك العملة التي تحمل صورة وهب اللات علي الوجه وصورة أمه زنوبيا علي الظهر ، وحلت محلها العملة التي تحمل صورة أوريليانوس وحده إمبراطوراً[١٢٦]

- وأين تقع مملكة تدمر ؟
- تقع مملكة تدمر العربية في منطقة الشام الحالية
- هل معني هذا أن الرومان في تلك الفترة كانوا في عصر اضمحلال ؟
- بالفعل بدأ عصر اضمحلال لأباطرة روما من سنة ١٩٣ م إلي سنة ٢٨٤ م[١٢٧] نتيجة لوصول شخصيات ضعيفة إلي عرش روما وطبعاً تأثرت مصر بهذه الفترة كثيراً وسارت الأمور من سيئ إلي أسوأ وأبسط مثال علي سرعة تغير الأحوال في روما أن المصريين تعودوا كتابة اسم أي إمبراطور جديد في نقوشهم الفرعونية ولم يتمكنوا من كتابة أسماء بعض الأباطرة نتيجة سرعة زوالهم من علي العرش ، وقد حدثت عدة اضطرابات في الإمبراطورية الرومانية وفي مصر بالطبع وكل فترة قصيرة يأتي إمبراطور ويذهب إمبراطور وأحياناً يكون إمبراطور قوي ومسيطر وأحياناً يكون ضعيف ، والمصريون كانوا بلا شك يشعرون بكل حاكم منهم سواء كان قوي أو ضعيف لأن النوع الأول كان يقوم ببعض الإصلاحات أما النوع الثاني فتنتشر في عهده الفوضى ،ولن أشغل بالك يا صديقي بكل هذه التقلبات والصراعات التي حدثت لأنني وعدتك بالالتزام بالاختصار ، والمهم في كل هذا أن مصر لم تعد ولاية مؤثرة علي أمن الإمبراطورية الرومانية ولم تعد تشكل أي خطورة أو ثروة ويبدوا أن الرومان تحولوا إلي نهب مناطق أخري وأهملوا مصر بعد أن نهبوها تماماً كما أن الخطر الفارسي أصبح يهدد الرومان ويقلقهم ويشغلهم عن أمور أخري كثيرة وسبحان مغير الأحوال ، وقد وصل الشعب المصري في تلك الفترة إلي مرحلة قاسية جداً من اليأس والقهر والظلم
- مسكين هذا الشعب

## ٨٧. الديانة المسيحية في مصر

- وأثناء هذه الفترة من الاضمحلال الروماني سعي المصريون للخلاص وأصبحوا يبحثون عن من ينقذهم من كل هذه الويلات والخراب ثم وجدوا ضالتهم أخيراً في الديانة المسيحية التي بدأت تنتشر في مصر بشكل ملحوظ ويقول عن ذلك د سيد الناصر ( – – وفي أثناء ازدياد التدهور والاضمحلال الإقتصادى برز خطر سياسي عقائدي علي الإمبراطورية الرومانية ، ألا وهو انتشار المسيحية في مصر بين أواسط الفقراء والمعوزين المصريين إيماناً بفكرة الخلاص من الظلم والجور وتحطيماً لتلك الفروق الإجتماعية ، لأن الجميع أبناء الله في نظر المسيحية وأن السعادة الكبري هي سعادة الروح والرب – كما أن مبادئ المسيحية التي تدعوا المظلوم لترك الظالم لعقاب الله ، وعدم منازعته – – ولاقت

---

[١٢٦] نقلاً عن كتاب (هؤلاء حكموا مصر ) حمدي عثمان – صفحة ١٦٧ ، ١٦٨ – الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٢٧ معالم تاريخ وحضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري ) صـ ٢١٩

صدي في نفوس المصريين المضطهدين والذين لا يستطيعون مقاومة الرومان )١٢٨ ودخل أيضاً في هذه الديانة بنسبة كبيرة المصريين المتأغرقين أو طبقة الإغريقومصريين الذين وجدوا في هذه الديانة البلسم الشافي علي حد تعبير د سيد الناصري ، وقد انتشرت المسيحية في مصر تدريجياً ، وقد كانت رحلة العائلة المقدسة إلي مصر ( السيدة مريم وابنها سيدنا عيسي ) هرباً من مؤامرات اليهود وقسوة الرومان كانت هذه الرحلة قد تركت انطباعاً رقيقاً لدي المصريين وتسببت في تعاطفهم مع السيدة مريم (-- ولم يكن هناك شعب أرحم بها ولا أرض أحن عليها وعلي وليدها غير شعب مصر --)١٢٩ وجدير بالذكر أن القديس مرقس الرسول كان قد حضر إلي الإسكندرية سنة ٥٠ م١٣٠ وأسس الكنيسة المرقسية بها وكانت الإسكندرية علي درجة عالية من العلم والثقافة ، وبدأ ظهور المسيحية في مصر في عهد الإمبراطور نيرون ثم بدأت في التنامي والإزدياد بعد ذلك وكان الرومان في ذلك الوقت لا يتدخلون في العقائد الدينية لشعوبهم ثم بدأ التدخل بعد ذلك فكانت أول مواجهة حقيقية بين الإمبراطور الروماني وبين الديانة المسيحية في عهد الإمبراطور ( ديقيوس ٢٤٩-٢٥١ م ) عندما شعر بخطورة هذه الديانة علي مركزه لأن المسيحيين بالطبع كانوا يرفضون مركز الإمبراطور الديني كشخص مؤله ويقول عن ذلك د سيد الناصري (-- ومن هنا فرض ديقيوس علي المصريين تقديم إثبات بأنهم قدموا القرابين والأضاحي -- وذاقوا طعم هذه القرابين توكيداً للوثنية وعبادة الإمبراطور بالقوة ومن يمتنع عن ذلك الإجراء في حضور اللجنة التي عينها الإمبراطور لهذا الغرض ، يحكم عليه بالموت --)١٣١

- أعتقد أن الديانة المسيحية انتشرت في مصر بهذا الشكل لأسباب كثيرة من بينها عدم الحاجة لبناء مقبرة بشكل معين وبالتالي فالحياة الآخرة لا تحتاج إلي الطقوس الفرعونية المعقدة ففي هذه الديانة الخلاص من الديانة الفرعونية ومن عبادة الفرعون ومن سيطرة الكهنة كما أنها ديانة سماوية بعيدة عن الأوثان ، والروحانيات فيها تصل إلي أعلي مستوي فلاقت لدي المصريين قبول ووجدوا فيها ضالتهم
- لقد كانت المسيحية في مصر في ذلك الوقت بعيدة عن الجدل الذي انتشر بعد ذلك حول طبيعة السيد المسيح فكانت ديانة صافية تدخل القلوب بحب ويسر ، وكانت المحبة شعارها وجوهرها
- حسناً لنستكمل حديثنا عن باقي الأباطرة الرومان الذين تأثرت بهم مصر أو وقعت في أيامهم أحداث مهمة كما اتفقنا

## ٨٨. الإمبراطور دقلديانوس وعندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية

---

١٢٨ معالم تاريخ وحضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري ) صـ ٢٣٥

١٢٩ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٢٤

١٣٠ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٢٧

١٣١ معالم تاريخ وحضارة مصر القسم الثاني( د سيد الناصري) صـ ٢٣٦

- عندما جلس الإمبراطور دقلديانوس علي عرش الإمبراطورية الرومانية قرر أن يقوم بإجراء تعديلات جوهرية لتطبق علي جميع الولايات الرومانية ، وشملت هذه التعديلات مجالات عديدة مالية[١٣٢] واجتماعية وعسكرية[١٣٣] ، وقد تأثرت مصر بهذه التعديلات وتغير وضعها تماماً عن ذي قبل بل إن هذا الإمبراطور بالذات بلغ في عهده الاضطهاد الديني في مصر ذروته ، وكان من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية ، حتي أن عهده يعرف باسم عصر الشهداء وكان طبعاً لليهود دور كبير في محاربة الديانة المسيحية فكانوا يقومون بالوشاية لدي السلطات الرومانية لتعذيب وقتل المسيحيين بل إنهم كانوا يحاولون بث الخلاف المذهبي والفكري بينهم وكان عدد ولاة مصر في عهد هذا الإمبراطور سبعة ولاة[١٣٤] حكموا مصر في عهده حوالي ٢١ سنة ، كانت خلالها مصر أتعس الولايات الرومانية فمثلاً بعد أن كانت لها عملة خاصة بها تميزها عن سائر الولايات الرومانية أصبح هناك عملة رومانية موحدة للإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ، وكل المزايا والقواعد التي وضعها الإمبراطور أغسطس لمصر هدمها دقلديانوس ، والطريف أن في بداية عهده قامت ثورة في الإسكندرية وكان قائدها ضابط روماني الجنسية ، وقد أعلن التمرد علي روما بل التفت حوله جماهير الإسكندرية فقد أعلن نفسه إمبراطوراً[١٣٥] وكانت هذه الصدمة الكبرى الأولي لدقلديانوس مما أدي إلي حضوره بنفسه إلي مصر بقوات ضخمة وحاصر الإسكندرية لمدة ٨ شهور كاملة حتي جاع الناس فيها ، ودخلها بعنف ودمر وحرق العديد من منشآتها ومبانيها ثم قرر أن يتودد لأهلها ، ويقول عن ذلك د سيد الناصرى ( - - وربما حاول دقلديانوس شراء صبر السكندريين وولاءهم ، حفاظاً علي هيكل الإمبراطورية الآيل للسقوط ، عندما أصدر قراراً بأن تخصص نسبة حيازة القمح لرفع الجوع عن أهل المدينة فأقام الوالي الروماني أثراً ضخماً لشكر الإمبراطور ، ويعرف حالياً بعمود السواري - - )[١٣٦] ، لكن المشكلة الحقيقية أن دقلديانوس قرر استئصال الديانة المسيحية التي كانت منتشرة في عهده أكثر من العهود السابقة فقد كان يعتبر أن هذه الديانة تحدياً سافراً لسلطانه المؤله علي شعوب الإمبراطورية لأن المسيحيين رفضوا في عناد عبادة الإمبراطور (- - - ومما دفع الإمبراطور إلي فقدان اتزانه ، أن يحدث هذا في مصر التي عرفت بعبادة فراعنتها ثم عبادة ملوك البطالمة كفراعنة وعبادة أباطرة الرومان كآلهة وفراعنة

---

[١٣٢] من ضمن الإجراءات المالية توحيد العملة علي مستوي الإمبراطورية بالكامل بما فيها مصر ولم تعد لمصر العملة الخاصة بها وقام هذا الإمبراطور بنسف كل ما تبقي من إجراءات الإمبراطور أغسطس في مصر والمعروفة بسر الإمبراطورية

[١٣٣] من أهم الإجراءات العسكرية التي قام بها هذا الإمبراطور هو انسحاب القوات الرومانية من حدود الإمبراطورية إلي خطوط أقوي

[١٣٤] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٥٠

١٣٥ معالم وتاريخ حضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري )صـ٢٥٤

١٣٦ معالم وتاريخ حضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري )صـ ٢٥٥

فلماذا يحدث هذا لشخصه دون أسلافه ، ولهذا اعتبر هذا الرفض تحدياً لشخصه ولم يفهم الدوافع النفسية أو العقائدية وراء هذا الإصرار – – )١٣٧ ،

- أي أنه اعتبر عدم عبادته مسألة شخصية ، فما الفرق بينه وبين كل من سبقه من أباطرة رومان وبطالمة وفراعنة حتي لا يعبده المصريون كما تعودوا ذلك دائماً إنه شئ مثير للأعصاب بالفعل بالنسبة له
- وتم قتل مئات الآلاف (– – وقد بلغ من هول الجريمة أن المسيحيين المصريين رغم مرور أكثر من خمسة عشر قرناً من الزمان علي ذلك إلا أن ذكراها لم تخبو ولهذا بدأت الكنيسة المرقسية القبطية المصرية تقويمها فيما بعد بتاريخ اعتلاء ديوقلديانوس عرش الإمبراطورية "٢٨٤م" حيث أطلقوا علي هذا التاريخ عام الشهداء – – )١٣٨ ،
- التاريخ القبطي حالياً تم حسابه منذ حكم هذا الإمبراطور ، إنها معلومة مفيدة جداً ولكنها محزنة بالطبع لما قاساه المصريون من ألوان العذاب والتنكيل في عهده
- (– – وكان المسيحيين يتسابقون نحو الشهادة وهم فرحون ويرتلون أغاني الحمد والشكر لله الذي أهلهم أن يموتوا من أجله – – )١٣٩ ، وقد بلغ عدد القتلى أكثر من ٨٠٠٠٠٠ نسمة١٤٠ وكانت أساليب القتل والتعذيب في عهد دقلديانوس متعددة ومختلفة مثل الحرق بالنار والزيت المغلي وتمزيق الأجساد بالآلات الحادة وإطلاق الحيوانات المفترسة عليهم في أماكن مغلقة وغير ذلك من أفظع الوسائل وأبشعها
- هذه المعلومات لكل من يعتقد أن مصر لم تمر بفترة أسوأ من الفترة التي عاصرها
- ليست هذه الفترة فقط هي الفترة السيئة الوحيدة في تاريخ مصر فقد عاني الشعب المصري العديد من الفترات السيئة علي مر التاريخ ولا يشترط أن يكون بسبب القتل أو التعذيب بل سنجد فترات مجاعات وأوبئة أفنت ما لم يستطع المؤرخون حصره من أعداد
- فماذا فعل أيضاً هذا الإمبراطور ؟
- لقد قام دقلديانوس من ضمن إجراءاته وتعديلاته بتقسيم الإمبراطورية الرومانية إلي قسمين رئيسيين قسم شرقي وقسم غربي وجعل علي كل قسم حاكم بلقب أغسطس ونائب بلقب قيصر وبعد أن مات تصارع خلفاءه علي العرش ووصل الأمر إلي نشوب القتال بين الفريقين واستمر هذا الصراع والتنافس بين الأباطرة والقياصرة إلي أن استطاع قسطنطينوس ( والد قسطنطين ) أن يهزم منافسه ويجلس علي العرش ، واتخذ بعد ذلك قسطنطين عاصمة جديدة له وكانت عبارة عن مدينة قديمة اسمها بيزنطة

---

١٣٧ معالم وتاريخ حضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري )صـ ٢٦١

١٣٨ معالم وتاريخ حضارة مصر ( القسم الثاني ) ( د سيد الناصري )صـ ٢٦٢

١٣٩ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٤١

١٤٠ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٥٢

وأطلق عليها اسمه لتكون القسطنطينية (مدينة استنبول حالياً بتركيا ) والتي أصبحت بعد ذلك عاصمة الجزء الشرقي للإمبراطورية الرومانية١٤١

- ومدينة بيزنطة هذه هي التي سُمِّي العصر الروماني بعد ذلك بالعصر البيزنطي نسبةً لها أليس كذلك؟

## ٨٩. العصر البيزنطي

- بالتأكيد فيعتبر هذا الإمبراطور هو مؤسس العصر البيزنطي نسبة إلي اسم هذه المدينة وبدأ هذا العصر سنة ٣٢٣ م وتولي حكم مصر في هذا العصر ٧٩ والياً عاصروا ٢٢ إمبراطوراً١٤٢ أشهرهم بالنسبة لنا حالياً قسطنطين الأول وهرقل ، وقد حدث أن الإمبراطور قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية فهو يعتبر أول إمبراطور مسيحي في الرومان بالكامل وقد أسعد ذلك بالطبع المصريين في البداية ولكن سرعان ما اختفت هذه السعادة لظهور خلاف بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية فقد حدثت المشاكل وبدأ الاضطهاد بعد حدوث هذا الخلاف الحاد بين الكنيسة بالإسكندرية وكنيسة الإمبراطورية حول طبيعة السيد المسيح نفسه ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - - ولكن ثبت أن اضطهاد الأباطرة الوثنيين كان عاملاً مساعداً، ليس في انتشار المسيحية فحسب بل في توحيد جبهتها وتناسي خلافاتها العقائدية إذ سرعان ما برزت هذه الصراعات العقائدية حول قانون الإيمان المسيحي والأسس الفلسفية للعقيدة الجديدة وكان الصراع الأكبر بين الأسقف الكسندر روس وشماسه أثناسيوس من ناحية وبين خصم لدود هو أسقف آخر اسمه آريوس حول علاقة الأب بالابن وهل الابن هو نفس الأب أم شبيه به ، لقد رفضت الكنيسة المرقسية في الإسكندرية بشدة رأي آريوس الذي رأي أن الابن لا يمكن أن يكون وجوده مع الأب بل يليه وبالتالي فهو ليس نفسه بل شبيه به ، بينما تمسكت الإسكندرية بأن الأب ظهر في جسم الابن الذي هو المسيح وكانت خطورة هذا الجدل اللاهوتي ما نتج عنه من ردود فعل سياسية ، هددت الإمبراطورية بالعودة إلي الحروب الأهلية - - )١٤٣
- نفهم من هذا أن الضغط الرهيب الذي كان موجوداً علي المسيحيين في جميع أنحاء الإمبراطورية الرومانية جعلهم متحدين أمام القهر الإمبراطوري ، أما بعد أن أصبحت الإمبراطورية تعترف بالديانة المسيحية فقد أعطاهم الفرصة للجدل حول طبيعة السيد المسيح فهل هي طبيعة إله أم طبيعة إنسان أم الاثنين معاً فهل فارقته طبيعته اللاهوتية أثناء وجوده علي الأرض فمثلاً عندما كان ينام من الذي كان يدير الكون وما إلي ذلك
- وهكذا استمر الجدل حول علاقة الابن بالأب وهل كلاهما واحداً أم اثنين والمؤكد أن هذا الجدل أصبح مشهور جداً في بيزنطة حتي أننا اليوم عندما نجد شخص ما كثير الجدال نقول له علي سبيل المثال

---

١٤١ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٦٣

١٤٢ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٥٢

١٤٣ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٦٣ -

(لا داعي للجدل البيزنطي ) الذي لا يؤدي إلي أي نتيجة ، ومع ذلك فمن واجبي هنا طالما تطرقنا إلي الكلام عن السيد المسيح عليه السلام أن أقرأ معك ما بعض ما جاء في هذا الموضوع بالقرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه

- كلي آذان صاغية
- فوسط كل هذا الجدل البيزنطي وهذه الافتراءات علي السيد المسيح عليه السلام لابد أن نتوقف وقفة سريعة عند هذا الموضوع فلا يصح إطلاقاً أن نمر علي كل هذا دون أن نتوقف ونتذكر ما جاء في كتاب الله عز وجل ، فالقرآن الكريم من تحدث به صدق ومن حكم به عدل ومن ابتغي الهدي في غيره أضله الله وإليك بعض وليس كل الآيات التي وردت عن سيدنا عيسي عليه السلام في كتاب الله والتي تؤكد أنه بشر رسول وعبد لله عز وجل أرسله في بني إسرائيل بل وكان آخر أنبياء بني إسرائيل وكانت ولادته معجزة إلهية وآية ربانية كما أن هذه الآيات ترد علي من قال أن المسيح هو ابن الله وأيضاً ترد علي من قال أن المسيح هو الله ، - - - وأنا طبعاً لا أدعي أنني أقوم بتفسير القرآن وبالتالي سوف أتلو بعض هذه الآيات بدون تفسير وعليك أن تبحث في كتب التفسير المتخصصة وتسأل العلماء عن ما جاء بها - - - {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ} (٧٢) سورة المائدة {لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِن لَّمْ يَنتَهُواْ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (٧٣) سورة المائدة ، {قَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ إِنْ عِندَكُم مِّن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ} (٦٨) سورة يونس ، {قُلْ إِن كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} (٨١) سورة الزخرف ، {مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلاَنِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٧٥) سورة المائدة ، {وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ *مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ *إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (١١٦-١١٧-١١٨) سورة المائدة ، {فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِآيَاتِ اللّهِ وَقَتْلِهِمُ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلاَ يُؤْمِنُونَ إِلاَّ قَلِيلاً*وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَانًا عَظِيمًا*وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} (١٥٥-١٥٧) سورة النساء

- هل الاضطهاد الوثني تحول إلي اضطهاد من نوع آخر لاختلاف الكنيستين ؟
- لقد كان هذا الخلاف بين الكنيستين من أسباب عودة الاضطهاد الديني مرة أخري بعد أن فشلت جميع محاولات قسطنطين في احتواء هذه الأزمة ويأس من توحيد الإمبراطورية علي مذهب واحد بوضع أساس قانون الإيمان المسيحي وكان قد اعتقد أن بصفته إمبراطوراً يمكنه السيطرة علي الكنيسة ويقول د سيد الناصري عن ذلك (- - - وقد ردت الكنيسة التي كانت قد أصبحت قوية ومسيطرة بأن الإمبراطور مسيحي قبل أن يكون إمبراطوراً وأنه قبل توليه العرش يجب أن تباركه الكنيسة بالشعائر الخاصة ومن حق الكنيسة عدم الموافقة علي أداء مثل هذه الشعائر - - )١٤٤ بل إن الكنيسة ادعت لنفسها الحق في الاستقلال المالي والإداري ، وهكذا عادت الإسكندرية إلي التمرد علي الرومان ولكن بزعامة الكنيسة هذه المرة ، ويبدوا أن السكندريين (الإغريق) كانوا يتمنون أن تكون عاصمة الإمبراطورية هي الإسكندرية بدلاً من بيزنطة التي اختارها الإمبراطور وكان هذا سبباً آخر لزيادة السخط علي الإمبراطور وحدثت مشاكل بين الإسكندرية والإمبراطور رغم محاولته تفاديها ، وبالمناسبة تم تقسيم الإمبراطورية بالفعل بعد موت قسطنطين إلي شرقية وغربية وأصبحت الإمبراطورية الشرقية هي الأقوى والأكثر ازدهاراً وحضارة بينما انهارت الإمبراطورية الغربية بعد ذلك نتيجة لتعرضها لغزوات وحروب خارجية ليس هذا مجالاً للحديث عنها
- فمتي تم استخدام تعبير أقباط مصر أو قبط مصر ؟

## ٩٠. العصر القبطي

- مصطلح العصر القبطي في مصر هو الذي أصبح سائداً بعد أن فرضت اللغة القبطية نفسها والتي نشأت في البداية في ريف مصر لإحياء اللغة المصرية القديمة وكتابتها بحروف أبجدية إغريقية مع بعض التعديلات ، وأصبح لفظ القبط والأقباط والعصر القبطي وغير ذلك هو الذي متداولاً حتي أن هناك ما يعرف بالفن القبطي واللغة القبطية والآثار القبطية وغير ذلك ، وعندما كان يتحدث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن أهل مصر فقد كان يستخدم لفظ القبط والله أعلم ، وقد استمر الاضطهاد للمسيحيين في مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية حتى أن الإمبراطورية البيزنطية كانت تفرض علي الكنيسة المصرية أسقفاً عليها من طرفها وكان في حراسة قوة رومانية وطبعاً هذا الأسقف كان علي علاقة سيئة برجال الكنيسة المصريين ( ويقوم هذا الأسقف باضطهاد رجال الكنيسة المصريين الذين كانوا يهربون إلي الكهوف والأديرة في الصحراء )١٤٥
- معني ذلك أنه عندما نقول الكنيسة القبطية فمعناها الكنيسة المصرية لأن القبطية هنا جنسية وليست ديانة لأن مصر هي بلاد القبط

---

١٤٤ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٦٦

١٤٥ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨١

- نعم ، حتي أن كلمة قبط ستلاحظ أنها كلمة (مصر) حاليا باللغة الإنجليزية وباقي اللغات ( إيجيبت ) (EGYPT)، ولمزيد من التوضيح فإنه بعد دخول عمرو بن العاص مصر وفتحها أسلم العديد من الأقباط وظل أقباط آخرين علي ديانتهم المسيحية ، والذين أسلموا تزاوجوا بعد ذلك بقبائل عربية وشعوب وعناصر من المسلمين غير مصريين ، وبالتالي فقد تكون أنت أو أنا قبطي مسلم أو قبطي مسيحي بمعني مصري مسلم أو مصري مسيحي ، والفرق أن القبطي المسلم قد دخل في أصوله جنسيات مسلمة أخري تزاوجت مع المصريين .
- وهل ظل العداء بين الكنيستين مستمر ولم تحدث أي محاولات لتحسين العلاقة بينهما ؟
- جدير بالذكر أن العلاقة بين كنيسة الإسكندرية وكنيسة القسطنطينية تحسنت إلي حد ما في عهد الإمبراطور ثيودسيوس الأصغر ( ٣٨٠-٤٥٠ م ) وتوقفت الاضطهادات١٤٦ وكان الأسقف كيرلس هو أسقف الإسكندرية في ذلك الوقت وقد قاد المعارضة ضد شخص اسمه نسطوريوس وكان بطريرك القسطنطينية وكان يدعوا إلي الفصل بين الصفات الربانية والصفات البشرية للسيد المسيح بينما كان يصر البطريرك كيرلس علي إدماج الصفتين الربانية والبشرية في جسد المسيح ، وأصبح الأسقف كيرلس ذو مكانة خاصة عند الإمبراطور
- عظيم جداً فهي فترة هدنة لتخفيف التوتر
- ثم عادت المشاكل مرة أخري في عهد الإمبراطور مرقيانوس عام ٤٥٤ م ( فقد اندلع عام ٤٥١ م خلاف بين كنيسة روما والإسكندرية أدي إلي انقسام الكنيستين حتي يومنا هذا حيث أصبح أتباع كنيسة الإسكندرية ومن سار علي نهجهم يعرفون باسم الأرثوذوكس أي أتباع النظرية السليمة وقد انضم إليها السوريان ، وقد أطلق علي هذه الجبهة اسم اليعاقبة بينما أصبح أتباع كنيسة روما يطلقون علي أنفسهم اسم الكاثوليك أي أصحاب المذهب الجامع لكل الآراء علي مستوي العالم بأسره أما أتباع كنيسة القسطنطينية فقد عرفوا باسم الملكيين أي أتباع مذهب الملك " الإمبراطور " )١٤٧ وفي عهد مرقيانوس عاد العنف ضد أقباط مصر والكنيسة المرقسية بالإسكندرية مرة أخري بسبب مذهب الطبيعتين ومذهب الطبيعة الواحدة للمسيح ( وقامت ثورات دموية ضد القسطنطينية ، وتعرض الأقباط -- لمذابح بشعة فاقت حتي تلك التي قام بها الأباطرة الوثنيون ضدهم ، بل إن عدد الذين استشهدوا من الأقباط -- علي أيدي أتباع مذهب الطبيعتين يفوق بكثير عدد الذين استشهدوا علي أيدي الأباطرة الوثنيين )١٤٨

---

١٤٦ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨١

[١٤٧] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨٢

[١٤٨] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨٣

- هذا نستنتج منه أن بابا الإسكندرية هو بابا الأرثوذوكس في العالم كله وليس في مصر فقط والشعب المصري المسكين شعر بسعادة كبيرة جداً بعد أن أصبح الإمبراطور الروماني يدين بنفس ديانة الشعب المصري المسيحي وأعتقد الشعب أن الاضطهاد والقتل سوف ينقشع ولكن للأسف كان اختلاف المذاهب أبشع من الوثنية نفسها التي كان عليها الأباطرة الوثنيون
- كان الشعب يعاني من الاضطهاد والظلم والفقر والضرائب الباهظة فإن مشكلة المذاهب لم تكن المشكلة الوحيدة رغم أنها الرئيسية وكان الرومان قد قرروا أن يكون والي مصر هو نفسه الأسقف في نفس الوقت مما أدي إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً ( وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام ٥٧٦ م )[١٤٩] وفي عام ٦٢٢ تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر ، وظلت هذه الأوضاع إلي أن بدأت تعود الإمبراطورية الفارسية للأضواء مرة أخري وأصبح لها جيوش جرارة تنافس بل تتفوق علي الرومان وتجتاح ممتلكاتهم وتضم ولاياتهم إليها ومن بينها مصر
- مسكين والله هذا الشعب المصري فهل يواجه الرومان أم الإغريق أم الفرس أم اليهود ؟
- صحيح فهو علي الرغم من اعتناقه الديانة المسيحية التي شعارها وجوهرها المحبة والتسامح {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُواْ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ قَالُوَاْ إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ*وَإِذَا سَمِعُواْ مَا أُنزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (٨٢-٨٣) سورة المائدة ، هكذا وصف المولي عز وجل النصارى في القرآن الكريم ، فهم أقرب الناس مودة للمؤمنين علي عكس اليهود تماماً وقد قرأت في كتاب المسيحية والإسلام في مصر للدكتور حسين كفافي صفحة ٣٤ ما يلي (أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا إلي مبغضيكم وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم فمن لا يعرف المحبة لا يعرف الله – إنجيل متي الإصحاح ٥ ) ، وبالرغم من أنهم كانوا يهربون إلي الصحراء في الأديرة المختلفة التي أصبحت مراكز للإشعاع الديني ومقراً للعبادة والرهبنة إلا أن المصائب والمشاكل لم تتركهم في حالهم رغم تسامحهم مع الناس جميعاً طبقاً لتعليمات دينهم ، وبالمناسبة يعتبر أقدم دير في العالم علي الإطلاق هو دير الأنبا أنطونيوس علي ساحل البحر الأحمر ( ولذلك فإن الأنبا أنطونيوس الذي أنشأ الدير المسمي باسمه يسمي أبا الرهبان أو كوكب البرية الشرقية أي الصحراء الشرقية )[١٥٠] وعلي الرغم من كل هذا إلا أن الاضطهاد الديني الروماني للمصريين أصبح روتينياً ومألوفاً فالحاكم الروماني نفسه أصبح هو البطريرك المخالف للمذهب بينما كان هناك البطريرك المصري المنتخب سراً ، وفي أثناء كل هذه الأحداث من اضطهاد وظلم وفقر

---

[١٤٩] معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨٥

[١٥٠] المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٤٨

وتدهور استطاع الفرس إلحاق هزيمة ساحقة بالرومان "" الم (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُم مِّنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لله الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ العَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللَّهِ لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ (٦) "" سورة الروم

- فمن كان الإمبراطور الروماني عند ظهور الإسلام ؟

## ٩١. الإمبراطور البيزنطي هرقل

- كان الإمبراطور هرقل وهو يُعد من أعظم أباطرة الروم وأكثرهم شهرة في المصادر العربية ، لأن اسمه اقترن بالفتوحات الإسلامية وتحرير بلاد الشام ومصر من الحكم الروماني ، فبعد تمكُن الدعوة الإسلامية حرص النبي عليه الصلاة والسلام على بعث الرسائل إلى كسرى وهرقل وغيرهم ليعرض عليهم الإسلام، وقد بعث برسالة إلى هرقل يطلب فيها منه أن يُسلِم حتى يسلم، ويأتيه الله أجره مرتين، وعندما وصل كتاب رسول الله إلى هرقل قرأه وهو مقيم في بيت المقدس، وقد كان عنده أبو سفيان بن حرب حيث طلبه هرقل ليسأله عن النبي الذي بُعِث فيهم. وتشير الروايات التاريخية إلى أن هرقل كاد أن يسلم ويؤمن بدعوة الإسلام لولا خوفه من قساوسته، ومن حوله الذين كانوا يكرهون العرب كرهاً شديداً، وقد توفي هرقل في سنة ٦٤١ ميلادي بعد أن شهد هزيمة الروم في اليرموك ورحيلهم عنها سنة ٦٣٦ ميلادي. ومن أبرز الأحداث التي وقعت في عهده زيارة عمرو بن العاص رضي الله عن لمصر قبل الإسلامي ،

- فهل لديك معلومات عن هذه الزيارة ؟

- قد وردت بعض تفاصيل عن هذه الزيارة في بعض المراجع كالآتي : زار عمرو بن العاص مصر قبل الإسلام تقريباً في ( صيف عام ٦٠٢ م )١٥١ ففي أثناء رحلة من رحلاته التجارية إلي الشام وأثناء وجوده في جنوب فلسطين ( - - - فإذا به يقابل شماساً مصرياً وقد أصابه عطش شديد في يوم صيف قائظ شديد الحرارة ، فسقاه عمرو من قربه له فشرب حتي ارتوي ونام الشماس مكانه من فرط الإعياء والتعب وكان الشماس من شمامسة الروم من أهل الإسكندرية قدم للصلاة في بيت المقدس ويبدو أنه كان يتعبد في جبال المنطقة التي تقابل فيها مع عمرو بن العاص وأثناء نوم هذا الشماس في ظل شجرة هائلة عجفاء خرجت حية من حفرة لها بجوار الشماس فبصر بها عمرو فنزع لها بسهم فقتلها )١٥٢ وعندما أحس الشماس بأن عمرو أنقذ حياته مرتين أصر علي أن يعطيه مكافأة مقابل لذلك فسأله كم تكون دية القتيل عندكم في بلاد العرب وما نظير ذلك من الدنانير فأخبره عمرو أنها ألف دينار فقرر الشماس أن يدفع لعمرو ديتين أي ألفي دينار نظير إنقاذ حياته مرتين وعرض عليه

---

١٥١ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٩٣

١٥٢ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٩٤

أن يصحبه إلي مصر كي يتمكن من تنفيذ وعده ( فقال عمرو : كم يكون مكثي في تلك الرحلة ؟ قال له الشماس : شهراً ، تنطلق معي ذاهباً عشرة أيام وتقيم عندنا عشرة أيام وترجع في عشرة أيام ولك علي أن أصحبك وأحفظك ذاهباً وأن أبعث معك من يرافقك ويحفظك راجعاً – – )١٥٣ وبعد أن شاور عمرو أصحابه انطلق مع الشماس إلي مصر وكانت أول زيارة له لمصر ، وأثناء الرحلة استطاع عمرو أن يعرف الكثير عن مصر وشاهد في مصر ( – – مروراً بالقري والريف والمدن ومخالطة للأهالي الفقراء والأغنياء والريف والتجار والفلاحين والكهان والرهبان والقساوسة ، هذا بالإضافة إلي جحافل الاستعمار البيزنطي من ضباط وجنود وموظفين ، وخلال هذا الحشد الهائل من البشر سواء كانوا مصريين مستعبدين أو بيزنطيين مستعمرين ، عرف الكثير والكثير عن بعض الأمور ، وعرف خلالها المداخل والطرق والمسالك والوديان والجسور والأماكن التي يمكن الإقامة فيها ، واستطاع أن يحس بالشعب المصري وما يعانيه من جنود الروم وما يقاسيه من ظلم وقهر – – )١٥٤

- وبالطبع كان الشماس المصري يتحدث مع عمرو في الطريق عن أحوال مصر والمصريين وعن سر الاضطهاد الديني للمصريين من أباطرة بيزنطة
- نعم كما تحدث معه عن حضارة الإسكندرية العريقة وانبهر عمرو بالإسكندرية ومبانيها المختلفة وتجول في أنحاءها ودخل أسواقها وشواطئها وأحياءها ومكث بها عشرة أيام كاملة فكانت هذه الزيارة تمهيد وإعداد لفاتح مصر بعد ذلك ولقد كان العالم في ذلك الوقت قد وصل إلي مرحلة وصفها العقاد وصفاً رائعاً في كتابه الممتع عبقرية محمد صلي الله عليه وسلم ، حيث كتب ما ملخصه : ( كان عالماً متداعياً قد شارف النهاية – – خلاصة ما يقال فيه أنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام – – أي أنه فقد أسباب الطمأنينة في الباطن والظاهر – – طمأنينة الباطن التي تنشأ من الركون إلي قوة في الغيب تبسط العدل وتحمي الضعيف وتجزي الظالم وتختار الأصلح والأكمل من جميع الأمور ، وطمأنينة الظاهر التي تنشأ من الركون إلي دولة تقضي بالشريعة وتفصل بين البغاة والأبرياء وتحرس الطريق وتخيف العائثين بالفساد )١٥٥ هكذا وصف العقاد بأسلوبه الرائع الأحوال في العالم ثم يشرح بعد ذلك موقف كل دولة علي حدة فيقول (بيزنطة قد خرجت من الدين إلي الجدل العقيم الذي أصبح بعد ذلك علماً عليها وتضاءلت سطوتها في البر والبحر حتي طمع فيها من كان يحتمي بجوارها ، وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس – وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة وبواعث الفتن ونوازع الشهوات ، والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة – عالم يتطلع

---

١٥٣ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ٩٥

١٥٤ المسيحية والإسلام في مصر ( د حسين كفافي ) صـ ١٠١

١٥٥ عبقرية محمد ( صلي الله عليه وسلم ) ( عباس محمود العقاد ) صـ٩

إلي حال غير حاله – عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم البناء – – )١٥٦ ، ووسط هذا كله بعث المولي عز وجل نبيه محمد صلي الله عليه وسلم من ذرية إسماعيل عليه السلام الذي تركه أبوه سيدنا إبراهيم عليه السلام بجوار بيت الله الحرام {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَـٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ (١٢٩)}١٥٧

- **بالتأكيد كان لظهور الإسلام تأثير علي شعوب المنطقة بما فيها مصر**
- بظهور الإسلام في الجزيرة العربية تم تحرير شعوب المنطقة بالكامل من بطش الفرس واضطهاد الروم لتصبح القومية الإسلامية فقط أعلي من أي قومية أخري وليس العربية أو الفارسية أو الرومانية أو أي جنسية أخري ليعيش البشر طبقاً لمنهج الله سبحانه وتعالي فليس لأحد أن يضع منهج بشري ويفرضه علي الناس وتم هزيمة الروم والفرس علي يد المسلمين ، ولقد كان النصر حليفهم لأنه دائماً من عند الله سبحانه
- **فهل كان العرب علي استعداد للقيام بهذا الدور قبل الإسلام ؟**
- لقد كان العرب مؤهلين لهذه المعارك قبل الإسلام ولكن كان ينقصهم أحد أهم أسباب النصر كما يقول العقاد رحمه الله ( فالذي لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال علي حروب العصابات التي تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها وأن البدوي قد عاش زمناً كما جاء في التوراة " يده علي كل إنسان ويد كل إنسان عليه " فحصل من ذلك حكمة مطبوعة يصح أن تسمي " حاسة الحرب " أو أهبة الميدان الخالد التي لا تفارقه في ليل أو نهار فلا يزال حياته في حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذي يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار وهذه الملكة لا تحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخري ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدي في مكان العمل ثم يطرح عن العاتق في سائر الأوقات )١٥٨ ويؤكد العقاد في كتابه الرائع عبقرية خالد أن العرب كانوا علي دراية بكافة أنواع الخطط الحربية وفنون القتال ويؤكد أيضاً أن ( -- النهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفي بل هي قد انتصرت لأنها كانت

---

١٥٦ عبقرية محمد (صلي الله عليه وسلم) ( عباس العقاد ) صـ ٩

[١٥٧] البقرة ١٢٦-١٢٩

١٥٨ عبقرية خالد ( عباس العقاد ) صـ ٦

تستحق النصر بأسبابه التي لا مصادفة فيها ولا محاباة ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت في أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها – )١٥٩

- أتمني أن تحدثني بشكل أكثر تفصيلاً عن العرب قبل الإسلام وكيف أصبحوا بالإسلام خير أمة
- الأمة الإسلامية خير أمة أخرجت للناس {كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} (١١٠) سورة آل عمران وسوف نتكلم عن نشأتها وظهورها واتساع حدودها من داخل الجزيرة العربية إلي خارجها ومن المهم جداً أن تعرف أن الإسلام هو السبب الرئيسي بل الوحيد الذي أعز الله به هذه الأمة ، فقد كان العرب قبل الإسلام لا تربطهم رابطة واحدة ( كانوا متفرقين بغير باعث إلي الوحدة والنهوض فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم في سبيلهم فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر في شرعة الأرض والسماء )١٦٠ ولو كان الإسلام نزل علي أمة قوية ناهضة بالفعل علماً وحضارة وقوة وثروة لأرجع البعض السبب في عزتها إلي المقومات الموجودة بالفعل فيها ولكن الرسالة نزلت في قوم متفرقين ونبي أمي صلي الله عليه وسلم مما يؤكد أن الرسالة هي التي صنع الله بها هذه الدولة القوية ، وظلت عزة هذه الأمة مقرونة بالتمسك بتعاليم الإسلام دائماً فكل من تولي أمر المسلمين بعد ذلك وأدرك هذه الحقيقة ستجده يحقق بفضل الله تعالي النصر والمجد للأمة ، أما من يبتعد عن هذه الحقيقة في هذه الأمة فستراه يذل لغير الله ويخضع هو وقومه لدول وأمم أخري ، وعندما أمسكت دولة الإسلام بعجلة القيادة العالمية إذا جاز التعبير اختلفت عن الدول الأخرى التي ذكرناها في هذا الحوار اختلاف شاسع في تطبيق المنهج والثقافة والحضارة ، فالأمم التي أخضعت العالم لحكمها مثل الفراعنة والإغريق والفرس والروم كانوا ينشرون منهجهم البشري علي البشر أما هذه الأمة فقد قامت بنشر منهج الله سبحانه وتعالي
- فهل لديك معلومات عن قبيلة قريش وفضلها علي سائر العرب ؟

## ٩٢. أفضل العناصر البشرية علي الأرض

- لقد كان بهذه القبيلة أفضل العناصر البشرية علي الأرض ولكنها كانت مكونة من عدة بطون تتنافس علي الشرف والسيادة فيما بينها وبالتالي لم يكن من الممكن أن يكون فيها ملك واحد يحكمها ، وخير ما يمكن أن يقال في هذا الحوار عن التنافس قبل الإسلام في هذه القبيلة العظيمة التي شرفها الله سبحانه بخاتم أنبياءه ورسله ، ما قاله العقاد ( واحتالوا علي التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم علي بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم ، فانتهي الشرف إلي عشرة بطون هم هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدي وجمح وسهم ، فكانت لهاشم سقاية الحاج وكانت لأمية

---

١٥٩ عبقرية خالد ( عباس العقاد ) صـ ١١

١٦٠ عبقرية خالد ( عباس محمود العقاد ) صـ ١١

راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها إلي قائدهم المختار ، وكانت لنوفل الرفادة وهي إعانة الحجاج المنقطعين بالمال ، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء ، وكانت لبني أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى في مهمات الأمور ، وكانت لبني تيم الديات والمغارم وكانت لبني جمح الأيسار والأزلام ولبني سهم الحكومة والأموال المحجرة وظلوا يتولونها جيلاً بعد جيل إلي ظهور الإسلام – – ولم يكن لهذه الوظائف الموزعة شأن واحد في جميع الأوقات والأحوال بل كانت تعلو وتهبط علي حسب الزعيم الذي يتولاها وعلي حسب القوة التي يكون عليها بيته عند ولايته إياها ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به " جبر الخاطر " والإرضاء – – – ولم تجد بينها سلطات فعالة – – غير ثلاث متفرقات وهي السلطة الروحية لهاشم وعبد الدار والسلطة السياسية لأمية والسلطة العسكرية لمخزوم )١٦١ ، ومن كلام العقاد يتضح أن هاشم وأمية ومخزوم تقريباً كانوا هم أكثر البطون فعالية وتأثيراً ، وسأذكر لك بعض أسماء من هذه البطون لكي تتعرف عليها فقد تعرف البطن من شخصيات تنتمي لها فمثلاً سيدنا أبي بكر من بني تيم وسيدنا عمر من بني عدي وسيدنا عثمان بن عفان من بني أمية وسيدنا علي بن أبي طالب من بني هاشم ( آل البيت ) وسيدنا الزبير بن العوام من بني أسد وسيدنا خالد بن الوليد من بني مخزوم وسيدنا عمرو بن العاص من بني سهم وهناك شخصيات تعرفها جيداً من بني أمية مثل أبي سفيان بن حرب وابنه معاوية وكذلك مروان بن الحكم ، وكانت ( هاشم وأمية وعبد الدار ) ثلاثة بطون يلتقون في جد واحد أقرب من الجد الذي يجمعهم ببني مخزوم وهو مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر جد قريش أجمعين١٦٢ ، وكان أبو جهل من بني مخزوم وكان لا يعجبه أن يكون النبي المبعوث من بطن غير مخزوم وكذلك الوليد بن المغيرة سيد بني مخزوم الذي قال ما معناه " أينزل علي محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ) ، وقد كان موضوع العصبية داخل قبيلة قريش من أهم أسباب رفض دعوة رسول الله (صلي الله عليه وسلم) في بدايتها حتي أن تصريحات هؤلاء الكفار يتضح منها أن المشكلة ليست في القرآن بل إنهم شهدوا بعظمته واعترفوا بإعجازه وأيضاً المشكلة ليست النبوة في حد ذاتها ولكن تكمن المشكلة في من سيكون هذا النبي الذي سينزل عليه هذا القرآن وفي أي بطن من بطون قريش {وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ} (٣١) سورة الزخرف بل إنهم بلغ بهم عنادهم أن دعوا الله سبحانه وتعالي الذي يعرفونه جيداً {وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ} (٦١) سورة العنكبوت ، وتأمل معي هذا الدعاء العنيد الذي يطلبون فيه من الله أن يدمرهم ويهلكهم إذا ثبت أن محمداً صلي الله عليه وسلم صادقاً {وَإِذْ قَالُواْ اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ

---

١٦١ عبقرية خالد ( عباس العقاد ) صـ ١٥

١٦٢ عبقرية خالد ( عباس العقاد ) صـ ١٦ ، ١٧

عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاء أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ(٣٣)} سورة الأنفال

- إذن فقد وصلنا في الحديث إلي بعثة النبي صلي الله عليه وسلم وانتشار الإسلامي
- نعم إنها أعظم فترة في تاريخ البشرية كلها ، فهو صلي الله عليه وسلم رحمة الله للعالمين ، وبسيرته نهتدي وننهل منها ما نقوي به علي حل كل مشاكلنا
- وماذا نتعلم أيضاً من سيرته العطرة صلي الله عليه وسلم ؟

## ٩٣. أهمية دراسة سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم

- إن دراسة الهدي النبوي أمر له أهميته لكل مسلم ، فهو يحقق عدة أهداف ، من أهمها : الاقتداء برسول الله صلي الله عليه وسلم من خلال معرفة شخصيته صلي الله عليه وسلم ، وأعماله وأقواله وتقريراته وتكسب المسلم محبة الرسول صلي الله عليه وسلم وتنميها وتباركها ، وتعرفه بحياة الصحابة الكرام ، الذين جاهدوا مع رسول الله صلي الله عليه وسلم ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم ، والسير علي نهجهم ، واتباع سبيلهم ، كما أن السيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول صلي الله عليه وسلم بدقائقها ، وتفاصيلها منذ ولادته ، وحتي موته ، مرورا بطفولته وشبابه ودعوته وجهاده وصبره ، وانتصاره علي عدوه ، وتظهر بوضوح أنه كان زوجاً وأباً وقائداً ومحارباً ، وحاكماً ، وسياسياً ، وداعية وزاهداً وقاضياً ، وعلي هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها ، فالداعية يجد له في سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم أساليب الدعوة ومراحلها المتسلسلة ، ويتعرف علي الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها ، فيستفيد منها في اتصاله بالناس ، ودعوتهم للإسلام ، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله صلي الله عليه وسلم من أجل إعلاء كلمة الله ، وكيفية التصرف أمام العوائق والعقبات والصعوبات ، وما هو الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن ، ويجد المربي في سيرته صلي الله عليه وسلم دروساً نبوية في التربية ، والتأثير علي الناس بشكل عام ، وعلي أصحابه الذين رباهم علي يده وكلأهم بعنايته ، فأخرج منهم جيلاً قرآنياً فريداً ، وكون منهم أمة هي خير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهي عن المنكر ، وتؤمن بالله ، وأقام بهم دولة نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها ، ويجد القائد المحارب في سيرته صلي الله عليه وسلم نظاماً محكماً ـ ومنهجاً دقيقاً ، في فنون قيادة الجيوش والقبائل ، والشعوب والأمة ، فيجد نماذج في التخطيط واضحة ، ودقة في التنفيذ بينة ، وحرصاً علي تجسيد مبادئ العدل ، وإقامة قواعد الشوري بين الجند والأمراء ، والراعي والرعية ،
- ويتعلم منها السياسي كيف كان صلي الله عليه وسلم يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين ، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول ، الذي أظهر الإسلام ، وأبطن الكفر والبغض لرسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكيف كان يحيك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسئ إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم لإضعافه وتنفير الناس منه ، وكيف عامله رسول الله صلي الله عليه وسلم وصبر عليه

، وعلي حقده ، حتي ظهرت حقيقته للناس ، فنبذوه جميعاً حتي أقرب الناس له ، وكرهوه وألتفوا حول قيادة النبي صلي الله عليه وسلم ، ويجد العلماء فيها ما يعينهم علي فهم كتاب الله تعالي ، لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي ، ففيها أسباب النزول وتفسير لكثير من الآيات فتعينهم علي فهمها والاستنباط منها ، ومعايشة أحداثها ، فيستخرجون أحكامها الشرعية ، وأصول السياسة الشرعية ، ويحصلون منها علي المعارف الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة ، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ ، وغيرها من العلوم ، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية ، ويجد فيها الزهاد معاني الزهد ، وحقيقته ومقصده ، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة ، وأنظمتها وطرقها ، ويتعلم منها المبتلون أسمي درجات الصبر والثبات فتقوي عزائمهم علي السير في طريق دعوة الإسلام ، وتعظم ثقتهم بالله عز وجل ، ويوقنون أن العاقبة للمتقين ، وتتعلم منها الأمة الآداب الرفيعة ، والأخلاق الحميدة ، والعقائد السليمة ، والعبادة الصحيحة ، وسمو الروح ، وطهارة القلب ، وحب الجهاد في سبيل الله وطلب الشهادة في سبيله ، إن دراسة الهدي النبوي في تربية الأمة وإقامة الدولة ، يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام ، علي معرفة الطريق إلي عز الإسلام والمسلمين من خلال معرفة عوامل النهوض وأسباب السقوط ، ويتعرفون علي فقه النبي صلي الله عليه وسلم في تربية الأفراد وبناء الجماعة المسلمة وإحياء المجتمع وإقامة الدولة ، فيري المسلم حركة النبي صلي الله عليه وسلم في الدعوة والمراحل التي مر بها ، وقدرته علي مواجهة أساليب المشركين في محاربة الدعوة وتخطيطه الدقيق في الهجرة إلي الحبشة ، ومحاولته إقناع أهل الطائف بالدعوة ، وعرضه لها علي القبائل في المواسم وتدرجه في دعوة الأنصار ثم هجرته المباركة إلي المدينة ، إن من تأمل حادثة الهجرة ورأي دقة التخطيط ودقة التنفيذ من ابتدائها إلي انتهائها ، ومن مقدماتها إلي ما جري بعدها يدرك أن التخطيط المسدد بالوحي في حياة الرسول صلي الله عليه وسلم قائم ، وأن التخطيط جزء من السنة ، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طولب به المسلم[١٦٣] ،

- حقاً لا غني لأحد عن دراسة سيرته صلي الله عليه وسلم ،
- بالتأكيد ، وبعد ذلك لابد من معرفة صحابته رضي الله عنهم
- حسناً ولكننا لن نستطيع في هذا اللقاء أن نوفيهم حقهم ، فإذا عدنا إلي مصر –موضوع الحوار– مرة أخري سنجد أن فتحها قد تم في عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب الفاروق رضي الله عنه ، فكيف وصلت له الخلافة من الخليفة الأول أبو بكر الصديق الذي تم مبايعته بالخلافة بعد وفاة النبي صلي الله عليه وسلم بالمدينة في سقيفة بني ساعدة كما هو معروف ؟

## ٩٤. ثاني اثنين

[١٦٣] نقلاً عن مقدمة كتاب السيرة النبوية –د علي الصلابي

- سنتحدث بالتأكيد عن الفاروق عمر رضي الله عنه لأن فتح مصر تم في عهده ولكن اسمح لي أن نتحدث قليلاً عن الخليفة الأول رضي الله عنه وبالتأكيد أنت تعرف الكثير عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه وحيث أن الحوار الغرض منه التبسيط والتوضيح للأحداث التي قد تكون غامضة ، مع عدم تكرار المعلومات الشائعة والمعروفة للجميع ، فسوف أكتفي بلمحات سريعة ونقاط محددة عن سيدنا أبي بكر رضي الله عنه وهي لا تفي بحقه بالطبع وإنما قد تكون معلومات جديدة بالنسبة لك فهل تعلم مثلاً أن أبا بكر رضي الله عنه كان أشجع الصحابة في القتال بشهادة سيدنا علي كرم الله وجهه حيث يقول ( – – إنه لما كان يوم بدر فجعلنا لرسول الله صلي الله عليه وسلم عريشاً فقلنا : من يكون مع رسول الله صلي الله عليه وسلم لئلا يهوي إليه أحد من المشركين ؟ فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر شاهراً بالسيف علي رأس رسول الله صلي الله عليه وسلم لا يهوي إليه أحد إلا هوي إليه ، فهو أشجع الناس – )١٦٤ ، وكان أبو بكر رضي الله عنه يدفع الأذي عن رسول الله صلي الله عليه وسلم ويدافع عنه في بداية الدعوة في مكة ويضرب المشركين ويقول : ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ، وبالمناسبة هذا القول هو ما قاله مؤمن آل فرعون عن سيدنا موسي عليه السلام دفاعاً عنه من بطش فرعون ، ويقول سيدنا علي رضي الله عنه في ذلك عندما سأل من معه في أحد المجالس ( – – أنشدكم بالله ، أمؤمن آل فرعون خير أم أبي بكر ؟ فسكت القوم ، فقال : ألا تجيبونني ؟ فوالله لساعة من أبي بكر خير من ألف ساعة من مثل مؤمن آل فرعون ، ذلك رجل يكتم إيمانه وهذا رجل أعلن إيمانه – )١٦٥
- هو يقصد بالطبع أن أبا بكر أفضل من مؤمن آل فرعون لأن أبا بكر أعلن إيمانه في شجاعه أمام قريش كلها في توقيت كان فيه المسلمون يتعرضون لأذى قريش في بداية الدعوة ،
- كما أن أبا بكر كان يجود بماله في سبيل الله كما نعلم جميعاً ، كما أنه كان أعلم الصحابة بالسنة وكان خطيباً بليغاً ، وقال سيدنا عمر رضي الله عنه ( – – لوددت أني شعرة في صدر أبي بكر )١٦٦ ، وخير مثال علي مكانة أبو بكر في الإسلام وعند رسول الله صلي الله عليه وسلم أن امرأة أتت النبي صلي الله عليه وسلم لتسأله شيئاً فأجابها وطلب منها العودة مرة أخري في وقت لاحق ، فقالت : يا رسول الله أرأيت إن جئت ولم أجدك ؟ ( كأنها تقصد الموت ) فقال صلي الله عليه وسلم : إن لم تجديني فأتي أبا بكر١٦٧ ، ولما تولي أبو بكر الخلافة خطب في الناس وقال ما معناه ( – – أما بعد فإني قد وليت أمركم ولست بخيركم فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة ، والضعيف فيكم قوي عندي حتي أريح عليه حقه إن شاء الله ، والقوي فيكم ضعيف عندي حتي آخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع

---

١٦٤ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٣٢

١٦٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٣٣

١٦٦ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٤٨

١٦٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٥٠

الفاحشة في قوم إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم ، قوموا إلي صلاتكم يرحمكم الله – – )١٦٨ ،

- والله إننا لفي أمس الحاجة لهذه الخطبة حالياً ، فما أهم الأحداث التي وقعت في خلافته رضي الله عنه
- أهم ما وقع في خلافة أبي بكر من أحداث ( تنفيذ جيش أسامة وقتال أهل الردة ومانعي الزكاة ، ومسيلمة الكذاب وجمع القرآن )١٦٩ ، أما موضوع جيش أسامة فيتلخص في أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قبل وفاته كان قد عقد لواء الجيش بقيادة أسامة بن زيد ليتوجه إلي الشام لقتال الروم ومات رسول الله صلي الله عليه وسلم وكان الجيش لم يزل بالقرب من المدينة وتوقف عند سماع نبأ وفاته صلي الله عليه وسلم لينتظر الأوامر الجديدة إن وُجِدت ، وحدث أن ارتدت العرب حول المدينة عن الإسلام ، فاجتمع الصحابة حول أبي بكر ليحاولوا إقناعه بعدم دفع جيش أسامة إلي مهمته نظراً لحساسية الموقف ، فأقسم أبو بكر بأنه لن يرد جيشاً وجهه رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا يحل لواء عقده صلي الله عليه وسلم بل إنه قام بالاستئذان من قائد الجيش في أن يترك عمر بن الخطاب في المدينة ليعاونه فقد كان عمر رضي الله عنه ضمن هذا الجيش ،
- استأذن رضي الله عنه من قائد الجيش وهو خليفة رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟
- نعم وسوف أترك العقاد يوضح لك هذا المشهد الرائع كما ورد في كتابه عبقرية الصديق صـ ١١٨ (– – فشيع البعثة وهو ماشي علي قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره ، فقال أسامة : يا خليفة رسول الله والله لتركبن أو لأنزلن ، فقال : والله لا تنزل ووالله لا أركب وما عليّ أن أغبر قدمي في سبيل الله ساعة ، ثم استأذن أسامة قائلاً : إن رأيت أن تعينني بعمر فافعل ، فعاد عمر بإذنه ، بإذن القائد الذي هو في مقام الطاعة هناك حتي علي الخليفة وعلي أكبر الصحابة من بعده ثم قال لأسامة : اصنع ما أمرك به رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا تقصرن في شئ من أمر رسول الله – – ) وقد كان إرسال بعثة أسامة تصرفاً حكيماً من أبي بكر بلا شك فقد أعطي المؤمنين مثلاً ودرساً في الطاعة وكانت القبائل المرتدة عندما سمعت بجيش أسامة وخروجه للقتال تقول ( – – لو لم يكن المسلمون علي قوة لما خرج من عندهم هؤلاء ، – – – فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزاً لدفع خطر فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة وهو يومئذ ألزم الدروس )١٧٠ وكان أبو بكر رضي الله عنه يقول عن نفسه ( إنما أنا متبع ولست بمبتدع )١٧١ ، ( كما تهيّب جمع القرآن في المصحف حين أشار به عمر فقال " كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلي الله عليه

---

١٦٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٥٦

١٦٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٥٩

١٧٠ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١١٩

١٧١ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١٠٦

وسلم ؟ ثم استصوب جمعه لم فيه من خير )١٧٢ وهذا يدل علي أن أبا بكر كان يخشي أن يحدث شيئاً في الأمة بجمع القرآن ولكنه قرر جمعه في النهاية لإقتناعه بأنه أمر فيه خير للأمة ،

- **فماذا كانت وصاياه رضي الله عنه لأسامة ؟**
- من وصايا أبي بكر لأسامة بن زيد وهو ذاهب للقتال ( – – لا تخونوا ، ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا إمرأة ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة إلا لمأكله ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له ، وسوف تقدمون علي قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شئ فاذكروا اسم الله عليها ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم ، وتركوا حولها مثل العصائب فأخفقوهم بالسيف خفقاً ، اندفعوا باسم الله – – )١٧٣
- **لقد كان أبو بكر رضي الله عنه مسلماً في تصرفاته مع المسلمين وغير المسلمين أيضاً ،**
- نعم بلا شك وقد كان يكره التمثيل بالجثث أو أن تقطع رءوسهم وترسل إليه ويقول عن ذلك العقاد (– – وليس أكثر من الشواهد التي تشهدنا علي قوة الدين في نفوس من آمن به إلا أننا نعلم بينها شاهداً لأصدق في الدلالة علي تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه ، كما يدينها به أمام إخوانه في اعتقاده ، ومن شواهد ذلك في إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدي الأعداء في ميدان القتال ، فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد الإنكار ، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة ابن عامر له : إنهم يصنعون ذلك بنا ، بل قال : أيستنون بفارس والروم ؟ لا يحمل إلي رأس ، إنما يكفي الكتاب والخبر – – )١٧٤ ومن هنا يتضح أن أبا بكر لا يستن بأعداء الدين وإنما يستن بسنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فليس معني أن الأعداء يفعلون بالمسلمين الأهوال أن يفعل المسلمون مثلهم ( – فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو في قتال – – )١٧٥ ، أما الكلام عن حروب الردة فقد أقسم أبو بكر أن يقاتل من فرق بين الصلاة والزكاة ( –– وعن حنظلة بن علي الليثي أن أبا بكر بعث خالداً وأمره أن يقاتل الناس علي خمس من ترك واحدة منهن قاتله كما يقاتل من ترك الخمس جميعاً : علي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت ، وسار خالد ومن معه في جمادي الآخرة ، فقاتل بني أسد وغطفان وقتل من قتل وأسر من أسر ورجع الباقون إلي الإسلام – – )١٧٦ ، ويقول العقاد رحمه الله عن هذه الفتنة ( – ولإنصاف التاريخ ينبغي أن تفهم هذه الفتنة علي أنها أصدق امتحان للدعوة

---

١٧٢ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١٠٨

١٧٣ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١٠٩

١٧٤ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١١٠

١٧٥ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١١٠

١٧٦ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٦١

المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات ، فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهي قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان ، وجاءت الشهادة الأولي علي لسان رجل من أصحاب طليحة " أحد زعماء الردة " : ويلكم ما يهزمكم ؟ فقال له : أنا أحدثك ما يهزمنا ، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله وإنا لنلقي قوماً كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه " يقصد المؤمنين " )١٧٧ وجدير بالذكر أن خالد بن الوليد كان بطل حروب الردة بلا شك ، كما أن جيش أسامة عاد سالماً غانماً وكانت كل هذه النتائج تؤكد نفاذ بصيرة أبو بكر الصديق رضي الله عنه وحسن قيادته للأمة من خير إلي خير ومدي ثقته بالله ، وقد ورد عن أبى رجاء البصري أنه دخل يوماً المدينة المنورة فوجد عمر يقبل رأس أبي بكر ويقول : أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا )١٧٨ وإلي هنا أكتفي بهذا القدر البسيط جداً عن فضل إبي بكر الصديق رضي الله عنه وأرجوا أن أكون قد أوضحت لك بعض ما لا تعرفه عن الخليفة الراشد الأول وسوف أختم كلامي عنه ببعض الأقوال المأثورة التي وردت عن أبي بكر ، فمن كلامه يتضح الكثير عن بلاغته وقوة إيمانه ومعدنه الأصيل ، فمن أقوال أبو بكر رضي الله عنه التي وردت بكتاب عبقرية الصديق للعقاد صـ ١٧٠ ، صـ ١٧١ : ( إحرص علي الموت توهب لك الحياة ) ، ( أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة ) ، ( الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله ) ، ( إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه ) ، وقال لأحد الولاة ( إذا وعظتهم فأوجز ، فإن كثير الكلام ينسي بعضه بعضاً ) ، وكان إذا مدحه أحد يقول ( اللهم أنت أعلم مني بنفسي وأنا أعلم بنفسي منهم ، اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفر لي ما لا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون )١٧٩ ، وقال يخاطب طائراً ( طوبي لك يا طير تأكل من الشجر وتستظل بالشجر وتصير إلي غير حساب ، يا ليت أبا بكر مثلك )١٨٠

- فهل تحفظ شيئاً من الشعر قيل في أبي بكر رضي الله عنه ؟
- إذا تذكرت شجواً من أخي ثقة - - - فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
  خير البرية أتقاها وأعدلها - - - إلا النبي وأوفاها بما حملا
- والثاني التالي المحمود مشهده - - - وأول الناس منهم صدق الرسلا١٨١

ومات أبو بكر بعد أن قضي عامين في الخلافة ثم أوصي أن يكون الخليفة من بعده عمر بن الخطاب رضي الله عنه ويقول عن ذلك الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي رحمه الله في كتابه تاريخ الخلفاء

---

١٧٧ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١٢٧

١٧٨ عبقرية الصديق ( عباس العقاد ) صـ ١٣١

١٧٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٨٥

١٨٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٨٥

١٨١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٤٠ ( شعر حسان بن ثابت )

صـ ٢٦ ( – – ثم ختم ذلك بمهم من أحسن مناقبه وأجل فضائله ، وهو استخلافه علي المسلمين عمر رضي الله عنه وتفرسه فيه ووصيته له واستيداعه الله الأمة ، فخلفه الله عز وجل فيهم أحسن الخلافة وظهر لعمر الذي هو حسنة من حسناته وواحدة من فعلاته تمهيد الإسلام وإعزاز الدين وتصديق وعد الله تعالي بأنه يظهره علي الدين كله – – ) ، ومن هنا نري أن هناك من يعتبر أن سيدنا عمر وخلافته عبارة عن حسنة من حسنات أبي بكر ،

- وكيف استقبل المسلمين قراره رضي الله عنه باستخلاف عمر رضي الله عنه عليهم ؟
- عندما سأله بعض الصحابة : ما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد تري غلظته ؟ فقال أبو بكر : بالله تخوفني ؟ أقول : اللهم إني استخلفت عليهم خير أهلك ، أبلغ عني من وراءك ثم دعا عثمان ، فقال : اكتب : بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما عهد أبو بكر بن أبي قحافة في آخر عهده بالدنيا خارجاً منها ، وعند أول عهده بالآخرة داخلاً فيها ، حيث يؤمن الكافر ، ويوقن الفاجر ، ويصدق الكاذب ، إني استخلفت عليكم بعدي عمر بن الخطاب ، فاسمعوا له وأطيعوا وإني لم آل الله ورسوله ودينه ونفسي وإياكم خيراً ، فإن عدل فذلك ظني به وعلمي فيه ، وإن بدّل فلكل إمرئ ما اكتسب ، والخير أردت ، ولا أعلم الغيب ، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ثم أمر بالكتاب فختمه ثم أمر عثمان فخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا أبو بكر عمر خالياً فأوصاه بما أوصاه ثم خرج من عنده – – )[١٨٢]
- من هذا تتضح أهمية المبايعة لهذا العهد الذي تركه أبو بكر رضي الله عنه فهي لازمة لشرعية خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه ، وها قد وصلنا في حوارنا عن الفاروق عمر الذي في عهده تم فتح مصر

## ٩٥. الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه

- لعلك لاحظت أننا ابتعدنا في هذا الحوار قليلاً بل كثيراً عن تاريخ مصر الذي هو الغرض الأساسي من هذا الحوار ولكن هل يمكن أن نترك هؤلاء العظماء دون أن نتحدث عنهم ؟ فلقد تحدثنا في بداية هذا الحوار عن قادة وفراعنة وملوك وبطالمة وأباطرة ، ولا يليق أن نمر علي عظماء التاريخ الإسلامي دون أن ننوه عن فضلهم أو علي الأصح بعض فضلهم ، حتي لو كان الكلام عنهم بعيداً عن تاريخ مصر ، ومع ذلك فإنني أعدك أن نعود إلي تاريخ مصر بعد أن نوضح بعض النقاط عن الخليفة الراشد الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ( الفاروق ) وقد اقتربنا بالفعل من العودة إلي الكلام عن تاريخ مصر مرة أخري لأن في عهده تم فتح مصر ، كما سيكون الكلام عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه في إيجاز شديد بقدر المستطاع لأنني علي ثقة أنك تعرف الكثير عنه وعن مناقبه وقد ذخرت الكتب والمراجع العديدة بمعلومات وافرة وغزيرة عن سيدنا عمر الفاروق رضي الله عنه وبالتالي سأحاول أن أذكر هنا ما أعتقد أنك لا تعرفه ، وأهم ما نبدأ به عندما نتحدث عن الفاروق هو دعاء النبي صلي الله عليه وسلم أن يعز

---

١٨٢ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صـ ٦٦ ، صـ ٦٧

الله الإسلام بعمر بن الخطاب أو بعمرو بن هشام ( أبو جهل ) ، وقد فرح المسلمون بإسلامه بل إن إسلامه استبشربه أهل السماء أيضاً ، وعندما أسلم عمر قال لرسول الله صلي الله عليه وسلم : يا رسول الله ألسنا علي الحق ؟ قال : بلي ، فقال : ففيم الإخفاء ، ثم خرجوا من المسجد صفين كان الفاروق في أحد الصفين وحمزة في الصف الآخر ، فنظرت قريش إلي عمر وإلي حمزة ( فأصابتهم كآبة شديدة لم يصبهم مثلها ومن هنا سماه رسول الله صلي الله عليه وسلم الفاروق لأنه أظهر الإسلام وفرق بين الحق والباطل )١٨٣ ويقول ابن مسعود ( كان إسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت إمامته رحمة )١٨٤ ( وعن أبي ذر قال : سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول : إن الله وضع الحق علي لسان عمر يقول به )١٨٥ ويقول معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ( أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده ، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها وأما نحن فتمرغنا فيها ظهراً لبطن )١٨٦ ، ( وقال أبو أسامة : أتدرون من أبو بكر وعمر ؟ هما أبو الإسلام وأمه ، وقال جعفر الصادق : أنا برئ ممن ذكر أبا بكر وعمر إلا بخير )١٨٧ وكان عمر رضي الله عنه يري الرأي فينزل به القرآن وهناك عدة أمثلة علي ذلك ، وكان عمر قد تولي الخلافة بعد أبي بكر كما ذكرنا من قبل وكان ذلك سنة ١٣ هجرياً ، فكان أزهد الناس وأتقاهم لله وكان شديداً في حساب نفسه وشديداً في الحق وكان أول من سمي أمير المؤمنين وأول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان ( في جماعة ) وأول من طاف بالليل ( ليشرف علي أحوال الرعية ) وأول من اتخذ الديوان ، وكثرت الفتوح في أيامه ففتحت دمشق والأردن والعراق ومصر وفلسطين وغيرها وكان أول من أمر الولاة بعودة المقاتلين إذا زادت غيبتهم عن أهلهم أكثر من أربعة أشهر وحدث هذا عندما سمع شكوي سيده غاب عنها زوجها ،

- **فكيف كانت تسميته بأمير المؤمنين ؟**
- أما عن لقب أمير المؤمنين وكيف بدأ استخدامه ؟ فيقول عن ذلك الإمام السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة ١١٢ ( – – – وكان عمر يكتب من خليفة خليفة رسول الله حتي كتب عمر إلي عامل ( والي ) العراق أن يبعث إليه برجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله ، فبعث إليه لبيد بن ربيعة وعدي بن حاتم ، فقدما المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمرو بن العاص فقالا : استأذن لنا علي أمير المؤمنين ، فقال عمرو : أنتما والله اصبتما اسمه ، فدخل عليه عمرو فقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، فقال : ما بدا لك في هذا الاسم ؟ لتخرجن مما قلت ، فأخبره وقال : أنت الأمير ونحن

---

١٨٣ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٩٣

١٨٤ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ٩٣

١٨٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صـ ٩٥

١٨٦ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صـ ٩٨

١٨٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صـ ٩٩

المؤمنون ، فجري الكتاب بذلك من يومئذ – – ) ، وهناك العديد والعديد من المواقف التي تتحدث عن سيدنا عمر الفاروق (ر) وأنا في حيرة من أمري فأمامي بعض الكتب والمراجع التي تتناول حياة هذا الخليفة العظيم فمن كثرة هذه المواقف الرائعة أعجز عن الاختيار بينها ما أقدمه لك وعزائي أنك تستطيع أن تبحث في الكتب عن حياة أبي بكر وعمر وتقرأ عنهما وعن باقي الصحابة والتابعين وقبل كل هذا سيرة سيدنا رسول الله العطرة ( صلي الله عليه وسلم ) ، ولعل هذا الحوار يكون حافزاً لك لكي تحاول أن تعرف المزيد عن هذه الموضوعات الرائعة ، وجدير بالذكر أن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكونوا بالكامل من العرب فقد كان هناك الحبشي والرومي والفارسي وكلهم رجال لا تكفي المجلدات الضخمة في التعبير عن فضلهم وعظمتهم ، فقد تربوا في مدرسة النبوة ، وسوف أتناول بمشيئة الله بعض المواقف عن سيدنا عمر رضي الله عنه خلال حديثي عن فتح مصر عندما يأتي الكلام عنه ، وبالتالي لن يكون هذا هو نهاية الكلام عن الفاروق رضي الله عنه

- فهل تحفظ أيضاً بعض ما قيل من شعر في الفاروق رضي الله عنه ؟
- إليك مقتطفات بسيطة وقصيرة من قصيدة رائعة كتبها شاعر النيل حافظ ابراهيم في مدح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : يا رافعاً راية الشوري وحارسها – – – جزاك ربك خيراً عن محبيها

وما استبد برأي في حكومته – – – إن الحكومة تغري مستبديها

رأي الجماعة لا تشقي البلاد به – – – رغم الخلاف ورأي الفرد يشقيها

يا من صدفت١٨٨ عن الدنيا وزينتها – – – فلم يغرك من دنياك مغريها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته – – – في الذهد منزلة سبحان موليها

فمن يباري أبا حفص وسيرته – – – أو من يحاول للفاروق تشبيها

كذاك أخلاقه كانت وما عهدت – – – بعد النبوة أخلاق تحاكيها

- فكيف اتخذ عمر رضي الله عنه قراره بفتح مصر ؟

## ٩٦. كيف أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر

- ظل عمرو يستغل كل فرصة تتاح له لإقناع الخليفة بفتح مصر لأنه يعتبرها نصراً للإسلام ولينال شرف تنفيذ ما بشر به رسول الله صلي الله عليه وسلم بفتح مصر وظل عمرو رضي الله عنه يصف لأمير المؤمنين مصر وخيراتها كما أنها أصبحت آخر معاقل الروم في المنطقة وقد يتخذونها قاعدة للهجوم علي الشام واستعادتها مرة أخري من المسلمين أي أن فتحها يعتبر ضرورة حربية أيضاً ،
- فلماذا كان عمر يرفض في البداية فتح مصر ؟
- كان أمير المؤمنين يخاف الله في دماء المسلمين ( –– – كان يخشي أن يراق دم مسلم واحد ظلماً أو خطأ فيُسأل عنه أمام ربه في اليوم الآخر ، كان عمر أحرص الناس علي رعيته وكان يري أن أمر

---

١٨٨ صدف : أعرض وصد

العرب لم يستقر بعد في الشام فكيف يستطيع أن يرسل جيشاً جديداً لفتح جديد في مصر ؟ - - )١٨٩ ، ثم نجح عمرو أخيراً في إقناع الخليفة بفتح مصر ( - - فوافق عمر ، علي أن تمتد المشورة إلي ما بعد عودته للمدينة – وفيها كبار الصحابة – وعلي أن يظل القرار النهائي معلقاً بنتائج الشوري - - وبدخول الجيش الفاتح إلي الديار المصرية - - وعاد عمر إلي المدينة في ديسمبر ٦٣٩ م في الوقت الذي سار فيه عمرو بن العاص علي رأس جيش الفتح المكون من أربعة آلاف مقاتل قاصداً فتح مصر فلما وطئت أقدام الجيش الإسلامي أرض مصر أدركهم رسول أمير المؤمنين بكتابه الذي يدعوهم إلي الرجوع إن لم يكونوا قد دخلوا أرضها )١٩٠ ، ( - - لم يكد عمرو يحصل علي موافقة عمر حتي أسرع بالمسير فخرج في جوف الليل وترك عمر يفكر ويعيد التفكير ، وبينما هو كذلك إذ دخل عليه عثمان بن عفان وهو من نعرف من ورعاً وتؤدة ، فسأل عمر ما به ، فأخبره بما كان من موافقته عمرو علي المسير إلي مصر فأجاب عثمان في الحال : يا أمير المؤمنين إن عمراً لمجرأ وفيه إقدام ----- ، فأخشي أن يخرج في غير ثقة ولا جماعة فيعرض المسلمين للهلكة رجاء فرصة لا يدري تكون أم لا ، - - وندم عمر علي ما فعل ولكنه لا يدري ماذا يفعل الآن وقد سار عمرو بجيشه نحو مصر فسأل عثمان الرأي فقال عثمان : فاكتب إليه إن أدركك كتابي هذا قبل أن تدخل مصر فارجع إلي موضعك وإن كنت دخلت مصر فامض لوجهك )١٩١ ،

- وبالطبع كان عمرو من الذكاء بحيث فهم ما تحتويه رسالة أمير المؤمنين ،
- نعم ويقال أنه استمهل رسول الخليفة ولم يقرأ كتابه حتي دخل مصر ( - - ثم سأل من حوله – وهو أعلم منهم بأرض مصر وحدودها : أنحن في أرض مصر أم في الشام ؟ فقيل له : نحن في مصر فقرأ عليهم كتاب الخليفة ثم قال : إذن نسير في سبيلنا علي بركة الله كما يأمرنا أمير المؤمنين - - )١٩٢
- وقد تم فتح مصر بالطبع كما نعلم جميعاً ، وأصبح عمرو بن العاص رضي الله عنه أول والي عليها في ظل الخلافة الإسلامية

## ٩٧. أحداث فتح مصر علي يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه

- نعم وقد قسم الدكتور جمال الدين الشيال حوادث فتح مصر إلي ثلاثة مراحل ، الأولي من بدء الفتح وحتي وصول المدد ، والثانية تنتهي بموقعة عين شمس – وفتح – حصن بابليون ، والثالثة تنتهي بفتح الإسكندرية١٩٣ ، ووصف د جمال الدين الشيال الطريق الذي سلكه الجيش الإسلامي فقال ( -

---

١٨٩ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ١٤

١٩٠ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة )صـ ٣٤

١٩١ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ١٦

١٩٢ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ١٦

١٩٣ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صـ ١٧

– وصل – المسلمون – إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة " يناير ٦٤٠ م " وكانت العريش أول مدينة – تم فتحها– ثم غادروها وسلكوا بعد ذلك الطريق التي تصل بين العريش والفرما ( بورسعيد حالياً ) وهي طريق رملية بعيدة شيئاً ما عن البحر تتخللها عيون وقري صغيرة وقد سلكها منذ أقدم العصور كل وافد علي مصر )١٩٤ ، (– – وأدرك عمرو بعد – فتحه – هذه المدينة ذات الموقع الممتاز والأهمية الكبيرة وبعد الصدام الأول مع هذه الفئة القليلة من جند الروم أنه سوف لا يستطيع – فتح – حصون مصر الأخري وخاصة حصن بابليون إلا إذا وصله إمدادات جديدة من – أمير المؤمنين – عمر رضي الله عنه – – )١٩٥ ، وبعد هزيمة الروم في الفرما اتجه عمرو بالجيش الإسلامي إلي الجنوب الغربي تاركاً الطريق الساحلي ، وعند بلبيس وقعت ثانية وقائع القتال الشديد بينه وبين الروم ودامت هذه المعركة هي الأخري نحواً من الشهر انتصر فيها المسلمون علي الرومان١٩٦ ، واستمر عمرو بن العاص في التقدم إلي أن حاصر حصن بابليون ، وجاءه المدد أثناء الحصار ويقول عن هذا المدد الدكتور محمد عمارة ( – – أمده أمير المؤمنين عمر بـ ٤٠٠٠ مقاتل ، وعلي رأس كل ألف منهم واحد من أبطال صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم قدّر عمر بن الخطاب أنه يزن ألفاً من المقاتلين فأصبح عدد الجيش الفاتح ٨٠٠٠ ووزنه ١٢٠٠٠ من المقاتلين – – )١٩٧

- فمن هم هؤلاء الأربعة ؟

- الزبير بن العوام والمقداد بن عمرو وعبادة بن الصامت ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم ، ثم حدثت المعركة الفاصلة التي انتهت بحصار حصن بابليون حصار محكم تخلله مفاوضات مع المقوقس وكان عمرو قد استقبل رسل المقوقس وسمح لهم بالتجول في معسكره ، وعندما عادوا سألهم المقوقس ( – – كيف رأيتموهم ؟ قالوا : رأينا قوماً الموت أحب إلي أحدهم من الحياة ، والتواضع أحب إليهم من الرفعة ، ليس لأحدهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، إنما جلوسهم علي التراب وأكلهم علي ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، ما يعرف --- سيدهم فيهم من العبد ، وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد ، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم ، فقال المقوقس : والذي يحلف به ، لو أن هؤلاء استقبلوا الجبال لأزالوها وما يقوي علي قتال هؤلاء أحد – – )١٩٨ ومن هنا أيقن المقوقس أن جيش المسلمين سينتصر لا محالة ، فقرر أن يعقد صلحاً مع عمرو بن العاص وتم – فتح – الحصن بعد ذلك ثم توجه عمرو بجيشه إلي الإسكندرية وحاصرها ثم فتحها وتم عقد صلح بالإسكندرية وهو الصلح

---

١٩٤ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صـ ١٧

١٩٥ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صـ ١٨

١٩٦ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة ) صـ ٣٥

١٩٧ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة ) صـ ٣٥

١٩٨ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة ) صـ ٣٧

الثاني بعد صلح المقوقس ببابليون ومعاهدة الصلح تم توقيعها في أوائل شهر نوفمبر سنة ٦٤١ م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م١٩٩ ، وإذا حسبنا مدة فتح مصر بالكامل سنجدها حوالي سنتين

- وماذا حدث للأنبا بنيامين ؟

## ٩٨. الأنبا بنيامين يجلس علي كرسي بطركيته الذي كان مغتصب من قِبَل الرومان

- ذكرنا أنه عند دخول عمرو بن العاص الإسكندرية -- كانت الدولة البيزنطية تفرض علي المصريين بطريرك للكنيسة في مصر مخالف لمذهب مصر مما أدي إلي أن المصريين كانوا ينتخبون البطريرك الخاص بهم سراً ( وأول بطريرك تم انتخابه سراً هو بطرس الرابع وذلك عام ٥٧٦ م )٢٠٠ وفي عام ٦٢٢ تم انتخاب الأنبا بنيامين الذي عاصر ظهور الإسلام والفتح العربي لمصر ، ويقول د حسين كفافي في كتابه الممتع ( المسيحية والإسلام في مصر ) صفحة ١٩٤ ( - - - لم تكن الإسكندرية تهون علي الرومان إذ كانوا يعتبرونها جزء لا يتجزأ من الدولة البيزنطية ، فحشدوا لها الحشود لكي تبقي في أيديهم إلا أن المصريين كانوا يقدمون للمسلمين العون والمساعدة في القتال ، بل كانوا يبذلون أرواحهم من أجل التخلص من المستعمرين الرومان ، فأيام التعذيب وعصور الاستشهاد ليست بعيدة ، فما زالت ذاكرة المصريين تجتر هذه الأيام السوداء ، الحالكة الظلام ، هكذا تعود المصريون علي التضحية والفداء والاستشهاد ، وها هي الفرصة جاءت لهؤلاء الشجعان ليبذلوا النفس والنفيس ) ليتخلصوا من حكم الروم والاضطهاد الديني البغيض ، ويقول المقريزي المؤرخ الشهير في كتابه ( الخطط ) صفحة ٥٣٤ ، ٥٣٥ بالجزء الثالث ( - - وكتب عمرو لبنيامين بطرق اليعاقبة أماناً ، في سنة عشرين من الهجرة فسره ذلك وقدم علي عمرو وجلس علي كرسي بطركيته بعد ما غاب عنه ثلاث عشرة سنة – فغلبت اليعاقبة علي كنائس مصر وأديرتها كلها ، وانفردوا بها دون الملكية - - )٢٠١ ، ويقول الدكتور محمد عمارة في كتابه ( عندما دخلت مصر في دين الله ) صفحة ٥٣ ( - - - وبعد أن كانت كنائسها وأديرتها مغتصبة من قبل مسيحية الدولة الرومانية الاستعمارية ومذهبها الملكاني – حرر الفتح الإسلامي هذه الكنائس الوطنية وأعادها إلي الأقباط فكانت المرة الأولي التي يحرر فيها أهل دين مقدسات دين آخر - - )٢٠٢

- فهل لديك نص العهد المكتوب لأهل مصر ؟

## ٩٩. ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول عن فتح مصر

---

١٩٩ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ٢٥

٢٠٠ معالم تاريخ وحضارة مصر – القسم الثاني ( د سيد الناصري ) صـ ٢٨٥

٢٠١ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة ) صـ ٥٣

٢٠٢ عندما دخلت مصر في دين الله ( د محمد عمارة ) صـ ٥٣

- لقد كتب المؤرخ البريطاني ستانلي لينبول عن هذا الموضوع عندما ذكر أحداث فتح مصر وتكلم عن مدينة كانت تعرف باسم مدينة مصر بالقرب من حصن بابليون الروماني ، ثم نشأت بعد ذلك مدينة عربية تعرف باسم الفسطاط بالقرب من نفس الحصن فكتب ما ملخصه : ويذكر لنا يوحنا أسقف نقيوس – الذي نعتمد علي تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية – أن العرب لم يلاقوا أية مقاومة إلا حينما حاولوا الإستيلاء علي الحصن ، ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماماً من عالم التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها ، وأخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها عمرو بن العاص ، وهاك نصها : ( بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عليه عمرو بن العاص أهل مصر ، علي أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لا يدخل في شئ من هذا ولا ينقص ، وأن يسمح لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألف إذا هبط ماء نهرهم ، وكل منهم مسئول عما يأتيه سراقهم من أعمال العنف ، ومن لم يدخل في هذا الصلح أدي ما علي غيره من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته ، وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية تبعاً لهذا النقصان ، ومن رضي من الروم والنوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من أهل مصر ، ومن أبي وأراد الخروج أمن علي نفسه حتي يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا ، وستجمع الضرائب علي أقساط ثلاثة كل ثلث منها علي حدة ، وعلي عهد الله وعهد رسوله وعهد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين ، ، شهد علي ذلك الزبير وولداه عبد الله ومحمد وكتبه وردان ) ، ويربط المؤرخون العرب هذه المعاهدة ، التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها ، باستسلام مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس ، ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر المصري كما يقصد بها الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن الفاتح العربي قد توخي الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر ، فهي لا تذكر شيئاً واضحاً صريحاً عن مدينة مصر التي أصبحت تسمي بعد قليل الفسطاط [٢٠٣]
- ما يلفت النظر في هذه المعاهدة هو ارتباط قيمة الجزية بموقف الزيادة والنقصان في ماء النيل مما يدل علي مدي إلمام الفاتح المسلم بظروف وطبيعة البلد الذي قام بفتحه
- بالتأكيد ، وقد كان عمرو بن العاص هو أول والي في عصر الولاة وقد اتسم هذا العصر بالكثير من الإيجابيات
- حسناً ، فهل لك أن تحدثني عن عصر الولاة بشكل عام ؟

## ١٠٠. عصر الولاة

[٢٠٣] نقلا عن كتاب (سيرة القاهرة) تأليف المؤرخ البريطاني ( ستانلي لينبول) ترجمة د حسن ابراهيم حسن ، و د علي ابراهيم حسن ، وإداور حليم – صفحة ٥٠ وصفحة ٥١ – مكتبة الأسرة ١٩٩٧– الهيئة المصرية العامة للكتاب

- **منذ أن تم فتح مصر علي يد القائد العربي عمرو بن العاص[٢٠٤] حرص الخلفاء في الدول الإسلامية المختلفة علي انتقاء أفضل العناصر من القادة والولاة لحكم مصر ، بحيث يتسم والي مصر بالولاء والإخلاص وكذلك الكفاءة ، وقد وصل الأمر إلي أن قام الخليفة الأموي مروان ابن الحكم بتعيين ابنه شخصياً عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر كما أقره علي حكمها أخوه عبد الملك بن مروان عندما تولي الخلافة ، وقد كتب المؤرخون عن عصر الولاة ما يلي : تولي حكم مصر في أعقاب الفتح العربي لها ولاة كانوا يعينون من قبل الخلافة الإسلامية في المدينة المنورة[٢٠٥] ثم دمشق[٢٠٦] ثم بغداد[٢٠٧] ، وقد اعتاد المؤرخون أن يسموا العصر الذي يبدأ بفاتح مصر عمرو بن العاص حتي قيام الدولة الطولونية سنة ٢٥٤ هـ "٨٦٨م" بعصر الولاة وقد روعي في اختيار هؤلاء الولاة أن يكونوا من أصحاب السمعة الطيبة والنزاهة والعدالة فإذا أهمل أحدهم شئون مصر أو**
- **استبد بأهلها عزله الخليفة وأتي بغيره طبقاً لتعاليم الإسلام التي تقرر أن الحكم ينبغي أن يكون في أصلح الناس له ، ولهذا كان الولاة أو علي وجه الدقة معظمهم ، يحرصون علي استثمار ثروات مصر**

---

٢٠٤ وصل العرب إلي أرض مصر في الشهر الأول من سنة ١٩ للهجرة " يناير ٦٤٠ م وأبحرت جنود الروم إلي بلادها في ١٧ سبتمبر سنة ٦٤٢ م

٢٠٥ المدينة المنورة عاصمة دولة الخلفاء الراشدون وقد بلغ عدد ولاة مصر ستة ولاة في عصر الراشدين الثلاثة ( عمر وعثمان وعلي ) رضي الله عنهم أجمعين ، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص فاتح مصر تولي من سنة ٦٤٠ م إلي سنة ٦٤٦ م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة ٦٤٦ م إلي سنة ٦٥٦ م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة ٦٥٦ م إلي سنة ٦٥٧ م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر ٦٥٧ م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو ٦٥٨ م والجدير بالذكر أن عمرو بن العاص تولي حكم مصر مرتين مرة بعد فتحها في عصر الراشدين والمرة الثانية مع بداية الدولة الأموية في عصر معاوية بن أبي سفيان

٢٠٦ دمشق عاصمة الدولة الأموية التي استمرت من سنة ٤٠ هجرياً ٦٦١ ميلادياً إلي سنة ١٣٢ هجرياً ٧٥٠ ميلادياً أي حوالي ٨٩ سنة ، تولي فيها الخلافة ١٢ خليفة وتولي خلالها علي مصر ٢٥ والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلي أن توفي بها سنة ٦٦٤ ميلادياً ، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقرة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة

٢٠٧ بغداد عاصمة الدولة العباسية وقد أسسها العباسيون علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدي إلي ضعف شأن الخلافة إلي أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م وقد حدث أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله ، وتولي حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (٩٦) والياً

ومواردها فيما يعود بالنفع علي الشعب المصري الذي ارتضي الإسلام ديناً وبدأ يتعرب من الجيل الأول بعد الفتح ، وفي عصر الولاة اهتم حكام مصر بشئونها الاقتصادية ، فأولوا عنايتهم بالزراعة عقب الفتح مباشرة وعملوا علي زيادة الغلات والمحاصيل واهتموا بشئون الري ، ويلاحظ أن الصناعة في مصر في عصر الولاة كان يقوم بها القبط ثم أصبح معظم الذين يقومون بها من المصريين الذين ظلوا علي دينهم والذين أسلموا لأن العرب في أول ذلك العصر كان بيدهم السياسة والحكم والحرب

- فما هي أهم الأحداث التي وقعت في عصر الولاة ؟
- يقول بن عبد الحكم رحمه الله ( المؤرخ المعروف ) في كتابه ( فتوح مصر والمغرب ) صفحة ٨٧ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه ( - - - واعتبر الأقباط أهل ذمة وفرض علي كل من بلغ الحلم ديناران ويستثني من هذه الضريبة النساء والصبية والشيوخ - - )٢٠٨ ، ومن هنا يتضح أن المصريين قد عاشوا فترة من أفضل فترات تاريخهم كما ذكرنا فلم يعد هناك اضطهاد ديني أو ضرائب فادحة ظالمة بل إن عمرو قام بإصلاحات ضخمة في العديد من المجالات وخاصة مشاريع الري التي تهم المصريون بوجه خاص ، كما قام ببناء عاصمة جديدة لمصر هي مدينة الفسطاط ، كما أنها أصبحت مركزاً تجارياً كبيراً فقد كانت السفن تصل إليها من البحر المتوسط عن طريق أفرع النيل الممتدة من الفسطاط للبحر المتوسط كما أن خليج أمير المؤمنين ربط بينها وبين البحر الأحمر أيضاً وقد أمر بحفره أمير المؤمنين ، وبالتالي انتعشت الحركة التجارية بل والصناعية أيضاً في الفسطاط ، كما أنها أصبحت مركزاً علمياً كبيراً حيث برز فيها بعد ذلك العديد من العلماء في مجالات عديدة مثل علوم الدين ( عبد الله بن عمرو ، وابن لهيعة ، والليث بن سعد ) وعلم التاريخ ( عبد الرحمن بن عبد الحكم ) والأدب والشعر والطب والهندسة وغيرها من العلوم الدنيوية وبالمناسبة استمر تشجيع الولاة المسلمون للعلم بكافة مجالاته وخصوصاً في مدينة الإسكندرية التي كانت منارة للعلم كادت أن تخبو لولا الفتح الإسلامي الذي شجع علماءها ( - - - وقد نشأت في مصر إلي جانب هذه الحياة الدينية حياة علمية خالصة هي في الواقع استمرار للحياة العلمية التي كانت قائمة في مصر في العصور القديمة ، وكانت أنشط ما تكون في الإسكندرية ، وقد عنيت هذه الحركة العلمية بعلوم الهندسة والطب والفلك والتنجيم - - إلخ ونقلت الكتب القديمة عن القبطية واليونانية والسريانية ، فكان معظم المشتغلين بها من النصارى واليهود ثم انضم إليهم بعد قليل المسلمون الذين نبغوا في هذه العلوم-)٢٠٩ ، وجدير بالذكر أن عصر الراشدين يعد من أفضل العصور التي مرت بها مصر طوال تاريخها بالكامل إن لم يكن أفضلها علي الإطلاق ،

---

٢٠٨ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ٥٩

٢٠٩ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صفحة ٩٢

- هذا وضع طبيعي فبالرغم من أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كان يعيش في المدينة المنورة إلا أن كل فرد في الأمة بالكامل كان يشعر بعدله ،
- وكانت مصر كما نعرف قبل الفتح في حالة لا تُحسد عليها ثم تحولت إلي ولاية إسلامية تنعم بالأمن والأمان والعدل والرحمة في ظل خلافة عمر وولاية عمرو بن العاص ، وسنذكر هنا مثال واحد فقط علي ذلك قد يغنينا عن الكثير من الأمثلة ، وهو ما ورد في كتاب المستطرف في كل فن مستظرف تأليف شهاب الدين محمد بن أحمد الأبشيهي حيث كتب ما يلي : ومما تضمنته أخبار الأخيار : ما رواه أنس رضي الله عنه قال : بينما أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه قاعد إذ جاءه رجل من أهل مصر فقال : يا أمير المؤمنين هذا مقام العائذ بك ، فقال عمر رضي الله عنه : لقد عذت بمجير فما شأنك ، فقال : سابقت بفرسي ابناً لعمرو بن العاص وهو يومئذ أمير علي مصر فجعل يقنعني بسوطه ويقول : أنا ابن الأكرمين ، فبلغ عمراً أباه فخشي أن آتيك فحبسني في السجن فانفلت منه فهذا الحين أتيتك ، فكتب عمر بن الخطاب إلي عمرو بن العاص : إذا أتاك كتابي هذا فاشهد الموسم أنت وولدك فلان ، وقال للمصري : أقم حتي يأتيك ، فأقام حتي قدم عمرو وشهد موسم الحج فلما قضي عمر الحج وهو قاعد مع الناس وعمرو بن العاص وابنه إلي جانبه قام المصري فرمي إليه عمر رضي الله عنه بالدرة ، قال أنس رضي الله عنه : فلقد ضربه ونحن نشتهي أن يضربه فلم ينزع حتي أحببنا أن ينزع من كثرة ما ضربه وعمر يقول : اضرب ابن الأكرمين : قال : يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت ، قال : ضعها علي ضلع عمرو ، فقال : يا أمير المؤمنين لقد ضربت الذي ضربني : قال : أما والله لو فعلت ما منعك أحد حتي تكون أنت الذي تنتزع ، ثم أقبل علي عمرو بن العاص وقال : يا عمرو متي استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً ؟ فجعل عمرو يعتذر إليه
- وهل هناك مواقف أخري حدثت بين عمرو بن العاص وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؟
- سأتلو عليك بعض المواقف التي وردت في كتب التاريخ عن ولاية عمرو في عهد عمر رضي الله عنهما ، فقبد قال بعض المؤرخين : إنه لما استقر عمرو بن العاص رضي الله عنه علي ولاية مصر كتب إليه عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن صف لي مصر فكتب إليه : ورد كتاب أمير المؤمنين أطال الله بقاءه يسألني عن مصر ، اعلم يا أمير المؤمنين أن مصر قرية غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر (أيام) ، يكنفها جبل أغبر ، ورمل أعفر ، يخط وسطها نيل مبارك الغدوات ميمون الروحات ، تجري فيه الزيادة والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان يدر حلابه ، ويكثر فيه دبابه ، تمده عيون الأرض وينابيعها حتي إذا ما اصلخم (اشتد) عجاجه وتعظمت أمواجه ، فاض علي جانبيه فلم يمكن التخلص من القري بعضها إلي بعض إلا في صغار المراكب ، وخفاف القوارب – – فإذا تكامل في زيادته ، نكص علي عقبيه كأول ما بدأ في جريته ، وطما في درته ، (زيادته وفيضه) ، فعند ذلك يحرثون بطون الأرض ويبذرون بها الحب ، يرجون بذلك النماء من الرب

، – – فإذا أحدق الزرع وأشرق ، سقاه الندي وغذاه من تحته الثري ، فبينما مصر يا أمير المؤمنين لؤلؤة بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زمردة خضراء ، فإذا هي ديباجة رقشاء فتبارك الله الخالق لما يشاء ، -- – – – فلما ورد الكتاب علي عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : لله درك يابن العاص ، لقد وصفت لي خبراً كأنني أشاهده [٢١٠]

- لؤلؤة بيضاء وعنبرة سوداء وزمردة خضراء وديباجة رقشاء ، يا لها من بلاغة
- وقال ابن عبد الحكم : حدثنا عبد الله بن صالح وغيره ، عن الليث بن سعد ، أن الناس بالمدينة أصابهم جهد شديد في خلافة عمر عام الرمادة ، فكتب إلي عمرو بن العاص وهو بمصر : من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلي عمرو بن العاص : سلام عليك ، أما بعد : فلعمري يا عمرو ما تبالي إذا شبعت أنت ومن معك ، أن أهلك أنا ومن معي ، فيا غوثاه ، ثم يا غوثاه ، يردد قوله ، فكتب إليه عمرو بن العاص : لعبد الله عمر أمير المؤمنين ، من عمرو بن العاص ، أما بعد فيالبيك ، ثم يالبيك ، قد بعثت إليك بعِير أولها عندك وآخرها عندي ، والسلام عليك ورحمة الله ، فبعث إليه بعير عظيمة ، فكان أولها بالمدينة و آخرها بمصر ، يتبع بعضها بعضاً ، فلما قدمت علي عمر وسع بها علي الناس [٢١١]
- حقاً لقد كان عصر الراشدين من أفضل العصور في الأمة الإسلامية بالكامل وليس في مصر فقط ، ولكن هل لديك معلومات عن الفتنة التي حدثت في عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه واستمرت إلي عهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه
- بالطبع يمكننا أن نتطرق إلي الحديث عن هذه الفتنة ولكن بحذر شديد حتي لا نقع في المحظور ولكن أحب أولاً أن أقوم بتلخيص سريع لعصر الراشدين من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري حيث ذكر ( صفحة ٥٨ ، ٥٩ ) في كتابه ما يفيد أن عدد ولاة مصر ستة ولاة في عصر الراشدين الثلاثة ( عمر وعثمان وعلي ) رضي الله عنهم أجمعين ، وأول والي كان بالطبع أبو عبد الله عمرو بن العاص من سنة ٦٤٠ م إلي سنة ٦٤٦ م ثم عزله عنها سيدنا عثمان بن عفان وتولي مصر عبد الله بن سعد من سنة ٦٤٦ م إلي سنة ٦٥٦ م ثم محمد ابن أبي حذيفة بن عتبة من سنة ٦٥٦ م إلي سنة ٦٥٧ م ثم قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري في عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ثم الأشتر مالك بن الحارث النخعي في ديسمبر ٦٥٧ م ولكنه مات قبل وصوله إلي مقر ولايته ثم محمد ابن أبي بكر الصديق حتي يوليو ٦٥٨ م ، وفي الحقيقة حدثت في خلافة سيدنا عثمان وسيدنا علي فتنة كبري في الأمة الإسلامية تأثرت بها مصر بالطبع وبالتالي سنجد أن الولاة الذين

---

- [٢١٠] نقلاً باختصار عن كتاب النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة – تأليف جمال الدين أبي المحاسن يوسف بن تغري بردي الأتابكي (٨١٣-٨٧٤) – قدمه وعلق عليه محمد حسين شمس الدين – دار الكتب العلمية – صفحة ٤٢ ، ٤٣

[٢١١] نقلاً عن كتاب حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة للحافظ جلال الدين عبد الرحمن السيوطي

سنتحدث عنهم في هذه الفترة مر بعضهم بفترات عصيبة بل تم قتل بعضهم أيضاً أثناء أحداث هذه الفتنة وجدير بالذكر أن سياسة الخلفاء الراشدين في مصر وغيرها لم تختلف عن بدايتها مع سيدنا عمر وحتي سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الأحداث المأساوية الناتجة عن الفتنة تؤثر فقط علي الولاة وتغييرهم وانتمائهم إلي أحد الفريقين المتنازعين ولا تؤثر علي سياستهم تجاه مصر وشعبها حتي أن غالبية الشعب كان يشاهد ويراقب هذه الأحداث في دهشة ويتساءل عن الأسباب التي أدت إلي هذا الصراع الدامي بعد مقتل سيدنا عثمان شهيداً وكذلك سيدنا علي بن أبي طالب فقد كانت هذه الفتنة الكبري امتحاناً للأمة الإسلامية إذا جاز التعبير أثبتت فيها أن الخلافات والصراعات ليست لها علاقة برسالة هذه الأمة تجاه الشعوب التي تحت قيادتها كما سنري ، وجدير بالذكر أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد تحدث عن هذه الفتنة في عدة مواقف وأشار إليها صلي الله عليه وسلم وسوف نتحدث عنها في هذا الحوار كما قلت في حذر شديد ومن المصادر الموثوق بها وبإيجاز شديد أيضاً لأنها جزء من التاريخ الذي يجب أن تعرفه ولأن اسم مصر تردد في كتب التاريخ التي تناولت هذه الأحداث وبالتالي تعتبر جزء من تاريخ مصر الذي يتناوله هذا الحوار،

- ولكن قبل أن نخوض في هذا الحديث أرجو أن نتوقف عند انتهاء خلافة سيدنا عمر بن الخطاب عندما قُتِل شهيداً أيضاً وسبحان الذي يهب الشهادة لمن يشاء حتي ولو كان في عاصمة الخلافة وجيوشه تقاتل في كل مكان بعيداً عن العاصمة لتنال الشهادة أو النصر

## ١٠١. مقتل أمير المؤمنين والخلافة من بعده

- رفع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يديه إلي السماء يدعو ربه ويقول ( – – اللهم كبرت سني وضعفت قوتي وانتشرت رعيتي فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط ، فما انسلخ ذو الحجة حتي قتل ، أخرجه الحاكم )٢١٢ ، كما أخرج البخاري عن عمر رضي الله عنه أنه قال ( – – اللهم ارزقني شهادة في سبيلك واجعل موتي في بلد رسولك )٢١٣ ، هكذا طلب عمر من الله الشهادة وكان مقتله علي يد أبو لؤلؤة المجوسي وكان عبداً للمغيرة بن شعبة وقام بطعن الخليفة بخنجر في صلاة الفجر وهو يؤم الناس في الصلاة وطعن معه ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم ستة وقال عمر : الحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدّعي الإسلام ، وأرسل ابنه عبد الله إلي أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها يستئذنها في أن يتم دفنه مع رسول الله صلي الله عليه وسلم وأبي بكر فوافقت علي ذلك ، وأوصي أن تكون الخلافة من بعده شوري بين ستة من كبار الصحابة ليختاروا من بينهم الخليفة وقال ( – – ما أري أحداً أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهو عنهم راض –

---

٢١٢ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٠٨

٢١٣ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٠٨

– )٢١٤ وهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص رضي الله عنهم ، وكان سيدنا عمر وهو يحتضر يتمني أنه مات في صحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم حيث قال ( – – أما والله وددت أني خرجت منها كفافاً لا عليّ ولا لي وأن صحبة رسول الله صلي الله عليه وسلم سلمت لي – – ) ويقول أيضاً ( – – لو أن لي طلاع " ملء " الأرض ذهباً لافتديت به من هول المطلع – –) وأوصي الخليفة من بعده بتقوى الله وقال ( – – أوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين والأنصار وأوصيه أهل الأنصار خيراً – – )٢١٥ ،

- فماذا حدث بعد ذلك بين الصحابة الستة رضي الله عنهم ؟
- ملخص ما حدث أن أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف الذي كان لا يريد الخلافة قد أشار عليهم أن يدير عملية الشورى في اختيار الخليفة من بينهم فقال (– – إن شئتم اخترت لكم منكم – – )٢١٦ ووافقوه علي ذلك فكان نِعم الرأي فقد استطاع سيدنا عبد الرحمن بن عوف أن يدير الأمور بحكمة شديدة بفضل الله سبحانه وتعالي حيث كان يسأل كل منهم سؤال مهم جداً علي انفراد ألا وهو ( إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ ) ( ويروي أن عبد الرحمن قال لعثمان في خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ فقال : علي ، وقال لعلي خلوة : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : عثمان ، ثم دعا الزبير فقال : إن لم أبايعك فمن تشير علي ؟ قال : علي أو عثمان ثم دعا سعداً فقال : من تشير علي فأما أنا وأنت فلا نريدها ؟ فقال عثمان ، ثم استشار عبد الرحمن الأعيان فرأي هوي أكثرهم في عثمان – )٢١٧ وظل عبد الرحمن يسأل المسلمين ويستطلع رأيهم ووجد أن الأغلبية تؤيد خلافة عثمان بن عفان فبايع الناس عثمان علي الخلافة عندما جمعهم عبد الرحمن في المسجد ودعاهم إلي مبايعة عثمان وقال في آخر حديثه ( – – اللهم اشهد اللهم إني قد جعلت ما في رقبتي من ذلك في رقبة عثمان – – )٢١٨ ، وهكذا تولي عثمان الخلافة بعد عمر وكان ذلك في ذي الحجة ٢٣ هجرياً الموافق شهر أكتوبر سنة ٦٤٤ م وتولي عبد الله بن سعد بعد ذلك بفترة قصيرة ولاية مصر من قبل عثمان بن عفان بعد عزل عمرو بن العاص عنها
- إن هذه المعلومات أسمعها لأول مرة ، وقد كنت أعرف من قبل أن هناك ستة من كبار الصحابة كانت بينهم الشوري ولكنني لم أكن أعرف تفاصيل ما دار إلي أن تم مبايعة عثمان رضي الله عنه ، فأشكرك علي هذه المعلومات القيمة ، فكم كانت مدة خلافة عثمان رضي الله عنه وما الذي يمكن أن تخبرني به عن خلافته ؟

---

٢١٤تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٠٩

٢١٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١١٠

٢١٦ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ١٢٣

٢١٧ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ١٢٣ ، ١٢٤

٢١٨ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ١٢٤

## ١٠٢. ذو النورين

- تولي عثمان بن عفان رضي الله عنه الخلافة لمدة ١٢ سنة٢١٩ وكان ليناً عن عمر رضي الله عنه وأحبه الناس وكان من بني أمية وهي بطن قوية من بطون قريش وكان غنياً ذا مال وفير وكان ينفقه في سبيل الله وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأول من هاجر من المسلمين إلي الحبشة بأهله ثم إلي المدينة بعد ذلك ، ويعتبر رضي الله عنه من السابقين الأولين في الإسلام وكان متزوجاً من السيدة رقية ابنة رسول الله صلي الله عليه وسلم فلما مرضت وماتت تزوج أختها السيدة أم كلثوم بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم ولذلك سمي بذي النورين لأنه تزوج بنتين من بنات رسول الله صلي الله عليه وسلم ( وأخرج ابن عساكر عن علي – رضي الله عنه – قال : سمعت النبي صلي الله عليه وسلم يقول لعثمان : لو أن لي أربعين ابنة زوجتك واحدة بعد واحدة حتي لا يبقي منهن واحدة – – )٢٢٠ فقد كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يحب عثمان ويقول عنه ( – – إن الملائكة لتستحي من عثمان كما تستحي من الله ورسوله – – )٢٢١ وأخرج الشيخان عن عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم جمع ثيابه حين دخل عثمان وقال ألا استحي من رجل تستحي منه الملائكة٢٢٢ وقد كان عثمان قد جهز في أحد الغزوات ثلاثمائة بعير بكافة لوازمها علي نفقته الخاصة في سبيل الله وهذه الغزوة اشتهر جيشها باسم جيش العسرة لتعسر نفقات تجهيزه وعندما قام عثمان رضي الله عنه بتجهيز هذا الكم الكبير من الجيش في سبيل الله قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ما علي عثمان بعد هذه شئ٢٢٣ وقال صلي الله عليه وسلم عن عثمان أيضاً ( – – مر بي عثمان وعندي ملك من الملائكة فقال : شهيد يقتله قومه ، إنا نستحي منه )٢٢٤ ، وفي عهد خلافة عثمان كثرت الفتوحات الإسلامية حتي أن المسلمين ركبوا البحر وفتحوا قبرص بقيادة معاوية بن أبي سفيان وقام والي مصر في عهده عبد الله بن سعد بن أبي سرح بالتوسع في فتح أفريقيا وفتح الكثير من بلادها ووصل إلي الحبشة أيضاً كما أن الأندلس أيضاً فتحت في عهد عثمان٢٢٥ وكان عهده يتسم بالاستقرار والرخاء حيث زاد دخل الدولة الإسلامية بشكل ملحوظ وذلك نتيجة لكثرة الولايات التي تم فتحها ، ولسيدنا عثمان مناقب كثيرة لا يتسع المقام لذكرها ، يقول سعيد بن المسيب ( – – قتل عثمان مظلوماً ومن قتله كان ظالماً ومن خذله كان معذوراً )٢٢٦ ،

---

٢١٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٦
٢٢٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٣
٢٢١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٤
٢٢٢ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٢
٢٢٣ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٢
٢٢٤ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٣
٢٢٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٥
٢٢٦ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٦

- فكيف بدأت الفتنة ؟

## ١٠٣. بداية الفتنة

- وبدأت مقدمات الفتنة عندما قام عثمان رضي الله عنه بتولية العديد من الولاة من بني أمية وكان يوصيهم بتقوى الله وكان معاوية بن أبي سفيان من بني أمية وكان والياً علي الشام ، وكانت تولية بني أمية من الأسباب التي أثارت قلق وغضب البعض وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء أن أهل مصر كانوا يتظلمون من واليهم عبد الله بن أبي سرح٢٢٧ ،
- المقصود هنا بأهل مصر القبائل العربية التي دخلت مصر مع عمرو بن العاص وسكنت بها لأن القبط في مصر كان أغلبيتهم لم يدخل الإسلام بعد بل إن اللغة العربية لم تكن قد انتشرت في مصر أيضاً أليس كذلك ؟
- بالطبع فلما حدث ذلك كتب عثمان إلي الوالي علي مصر كتاباً ينهاه ويشدد عليه فيه ولكنه لم ينتهي فخرج من أهل مصر سبعمائة رجل فنزلوا المسجد وشكوا إلي الصحابة فتحدث الصحابة إلي عثمان في هذا الأمر فقرر عثمان عزل الوالي وتولية من يرضي به أهل مصر فطلبوا منه تولية محمد بن أبي بكر الصديق عليهم فوافقهم علي ما أرادوه وعادوا من حيث جاءوا ومعهم الوالي الجديد ، وفي طريق عودتهم وجدوا رسولاً برسالة متوجهاً إلي والي مصر وكان مضمون الرسالة أن يظل الوالي كما هو ويحتال في قتل هؤلاء ويحبس المعارضين له ، وبالطبع لم يكن عثمان رضي الله عنه قد كتب هذه الرسالة ولم يأمر بكتابتها ويؤكد المؤرخون أن الذي كتب هذه الرسالة وأرسلها وعليها ختم عثمان بدون علمه هو مروان بن الحكم وهو أحد الشخصيات البارزة في بني أمية وسيأتي الحديث عنه في حينه ولكن يبدو أن مروان بن الحكم والله أعلم قد تعامل مع هؤلاء علي أساس أنهم متمردون وخارجون علي أولي الأمر ويستحقون القتل عندما تتاح الفرصة لذلك
- التعامل مع مثل هذه المواقف تختلف من شخص إلي آخر طبقاً لخبرته وطبقاً لحماسه لحل المشكلة واجتهاده لتفريق المتمردين الخارجين الذين استفحل خطرهم وحاصروا الخليفة في داره و تبقي حسن النوايا التي هي من علم المولي عز وجل وحده
- وبالطبع وفد مصر عندما وجد هذه الرسالة عاد بأكمله إلي المدينة مرة أخري وعرضوها علي الصحابة فواجهوا الخليفة فأنكرها بشدة وورد عن ذلك في كتاب تاريخ الخلفاء ما يلي ( – – وأما الخط فعرفوا أنه خط مروان وشكوا في أمر عثمان وسألوه أن يدفع إليهم مروان ، فأبي وكان مروان عنده في الدار فخرج أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم غضاباً وشكوا في أمره ، وعلموا أن عثمان لا يحلف بباطل إلا أن قوماً قالوا : لن يبرأ عثمان من قلوبنا إلا أن يدفع إلينا مروان حتي نبحثه ونعرف حال الكتاب ،

---

٢٢٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٧

وكيف يأمر بقتل رجل من أصحاب محمد صلي الله عليه وسلم بغير حق ؟ فإن يكن عثمان كتبه عزلناه ، وإن يكن مروان كتبه علي لسان عثمان نظرنا ما يكون في أمر مروان ولزموا بيوتهم ،

## ١٠٤. أمير المؤمنين محاصر في داره

- (وأبي عثمان أن يخرج إليهم مروان وخشي عليه من القتل وحاصر الناس عثمان – – )[٢٢٨] ، وملخص هذا الكلام أن عثمان رضي الله عنه عندما رفض تسليم مروان بن الحكم حدثت هذه المشكلة الضخمة فقد خاف الخليفة أن يفتك الناس بمروان الذي اجتهد في التعامل مع هؤلاء المتمردين حفاظاً علي هيبة الخلافة من وجهة نظره ، أما كبار الصحابة فقد غضبوا من موقف الخليفة الخاص بمروان ولزموا بيوتهم وظل الخليفة محاصراً في داره وكان كبار الصحابة لا يتوقعون علي الإطلاق أن حصار عثمان كان الغرض منه قتله وإنما كانوا يعتقدون أن الغرض منه هو تسليم مروان لهم ليواجهوه بالرسالة وينظروا في أمره وبالرغم من هذا الاعتقاد فإنهم خافوا علي الخليفة من القتل فأرسل كل صحابي منهم ابنه ليقف علي باب دار عثمان وكان وجود أبناء كبار الصحابة أمام الباب كدرع بشري علي قدر كبير من الأهمية حيث أن أحداً لن يجرؤ علي اقتحام الباب وأمامه أحب الناس إليهم وأفضلهم فقد كان أبناء الصحابة من الشباب الذي تربي في مدرسة النبوة وشبوا علي مبادئ الإسلام ونموا مع نموه واتساع دولته وكانت لهم مكانة لا حدود لها عند المسلمين جميعاً ومن هؤلاء الذين وقفوا علي باب الدار الحسن والحسين ومحمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم ، وورد في كتاب تاريخ الخلفاء عن هذا الموقف ما يلي ( – – فبلغ علياً أن عثمان يراد قتله ، فقال : إنما أردنا منه مروان ، فأما قتل عثمان فلا ، وقال للحسن والحسين اذهبا بسيفيكما ، حتى تقوما علي باب عثمان فلا تدعا أحداً يصل إليه ، وبعث الزبير ابنه وبعث طلحة ابنه ، وبعث عدة من أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم أبناءهم يمنعون الناس أن يدخلوا علي عثمان ويسألونه إخراج مروان
- أنا لا أريد أن أسأل أو أقطع حديثك حتي تنتهي لأن هذه المعلومات لم أسمعها من قبل ولا تحتمل حتي المناقشة ، فاستمر في السرد

## ١٠٥. اقتحام الدار

- من هنا يتضح أن صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم بما فيهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه كانوا أحرص الناس علي الخليفة والدفاع عنه فقد قاموا بعملاً إيجابياً يحسب لهم في هذا الموقف ، وقد نجحت خطة الدفاع عن دار عثمان بالفعل فلم يجرؤ أحد علي اقتحام الباب ، وشاء المولي عز وجل أن يصعد ثلاثة من المحاصرين إلي سطح الدار ومن بينهم محمد بن أبي بكر دون أن يشعر بهم أحد ونزلوا من أعلي الدار إلي الخليفة ، وقال أمير المؤمنين إلي محمد بن أبي بكر عندما واجهه ( –

---

٢٢٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٨

٢٢٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٨

- والله لو رآك أبوك لساءه مكانك مني - - )٢٣٠ ، فشعر محمد بن أبي بكر الصديق بندم شديد وتراجع علي الفور عن موقفه وتاب إلي الله ، ولكن الاثنين الذين كانا معه قاما بقتل الخليفة رضي الله عنه ، ( - - وصرخت امرأته فلم يسمع صراخها لما كان في الدار من الجلبة وصعدت امرأته إلي الناس فقالت : إن أمير المؤمنين قد قتل ، فدخل الناس فوجدوه مذبوحاً وبلغ الخبر علياً ، وطلحة والزبير وسعداً ومن كان بالمدينة فخرجوا وقد ذهبت عقولهم للخبر الذي أتاهم حتى دخلوا علي عثمان فوجدوه مقتولاً فاسترجعوا وقال علي لابنيه : كيف يُقتل أمير المؤمنين وأنتما علي الباب ؟ ورفع يده فلطم الحسن وضرب صدر الحسين وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وخرج وهو غضبان ، حتى أتي منزله وجاء الناس يهرعون إليه ، فقالوا له نبايعك فمد يدك فلابد من أمير ، فقال علي : ليس ذلك إليكم ، إنما ذلك إلي أهل بدر ، فمن رضي به أهل بدر ٢٣١ فهو خليفة ، فلم يبق أحد من أهل بدر إلا أتي علياً فقالوا له : ما نري أحداً أحق بها منك ، مد يدك نبايعك ، فبايعوه وهرب مروان وولده - )٢٣٢

- فما الخيارات التي كانت أمام الخليفة رضي الله عنه في هذا الموقف العصيب ؟

## ١٠٦. الخيارات التي كانت أمام الخليفة

- وهكذا انتهت مأساة حصار عثمان رضي الله عنه لتبدأ مأساة جديدة وفتنة كبري حيث أن أهل الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان قرروا عدم مبايعة علي بن أبي طالب إلا بعد الأخذ بثأر عثمان أولاً ودخل المسلمون في الفتنة الكبرى والتي وصلت إلي القتال بين الشام والحجاز ، وجدير بالذكر أن عثمان بن عفان رضي الله عنه رفض أن يقاوم الحصار بالقوة وكان قادراً علي ذلك بل إن البعض قد عرض عليه القتال لفك الحصار عنه ولكنه رضي الله عنه كان لا يريد أن يراق دم من دماء المسلمين في عهده كما أنه كان في إمكانه الهرب إلي معاوية بن أبي سفيان في الشام لحمايته وإعادة الأمور إلي ما كانت عليه وهو قادر علي ذلك ولكنه رفض أيضاً هذا العرض ، كما كان بمقدوره الهرب إلي مكة بجوار بيت الله الحرام حيث لن يمسه أحد بسوء هناك ولكنه رفض أيضاً وظل محصوراً في بيته صابراً متماسكاً ينتظر قضاء الله :

فكف يديه ثم أغلق بابه - - - وأيقن أن الله ليس بغافل
وقال لأهل الدار لا تقتلوهم - - عفا الله عن كل امرئ لم يقاتل
فكيف رأيت الله صب عليهم -- العداوة والبغضاء بعد التواصل
وكيف رأيت الخير أدبر بعده - - عن الناس إدبار الرياح الجوافل٢٣٣

---

٢٣٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٩
٢٣١ أهل بدر المقصود بهم الذين قاتلوا في غزوة بدر الشهيرة وكانت لهم مكانة خاصة جداً عند المسلمين
٢٣٢ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٢٩
٢٣٣ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣١ شعر كعب بن مالك

ومات الخليفة مقتولاً شهيداً رضي الله عنه وأرضاه وكان ينفذ وصية رسول الله صلي الله عليه وسلم له عندما أخبره بهذه الفتنة من قبل ، فعندما استأذن يوماً ليدخل إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لمن جاء بالإذن ( -- ائذن له وبشره بالجنة علي بلوى تصيبه )٢٣٤ ، ( عن عائشة أن النبي صلي الله عليه وسلم جعل يسار عثمان ( أي يتحدث إليه سراً ) ولون عثمان يتغير ، فلما كان يوم الدار وحصر فيها ، قلنا : يا أمير المؤمنين ألا تقاتل ؟ قال : إن رسول الله صلي الله عليه وسلم عهد إلي عهداً وإني صابر نفسي عليه )٢٣٥ ، ومن هنا يتضح أنه رضي الله عنه كان قد عرف من رسول الله صلي الله عليه وسلم أنه سيصبر علي شدة حتي يلقاه ، فكان صابراً إلي النهاية عاملاً بوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم ، وكان من أهم ما حدث في عهد أمير المؤمنين عثمان بن عفان بالإضافة إلي الفتوحات الكثيرة ورخاء الأمة أنه رضي الله عنه قام بفضل الله بجمع الأمة علي مصحف واحد وأدركها قبل الاختلاف رضي الله عنه ، وقبل أن نترك الحديث عن سيدنا عثمان رضي الله عنه هناك مقارنة بين طبعه وبين طبع سيدنا عمر رضي الله عنه أريد نقلها كما هي كالآتي ( كان عمر رضي الله عنه شديداً ، وكان عثمان رضي الله عنه حليماً رءوفاً ، غير أنه لم يكن ضعيفاً كما يدعي كثير من الناس ، بل كان حليماً ، ولذلك عندما حاصروه في البيت قال : أتدرون ما جرأكم علي ؟ ما جرأكم علي إلا حلمي ، وقال عبد الله بن عمر : والله لقد نقموا علي عثمان أشياء لو فعلها عمر ما تكلم منهم أحد ، إذن لماذا نقموا علي عثمان ؟ لأن عثمان كان يسامح ويترك ويفوت لهم تلك الأخطاء ويعفوا رضي الله عنه )٢٣٦

- ثم كانت خلافة علي رضي الله عنه

## ١٠٧. الإمام علي كرم الله وجهه

- تولي الإمام علي كرم الله وجهه الخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه ، والإمام علي هو رابع الخلفاء الراشدين وهو ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وزوج ابنته السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وهو أبو الحسن والحسين وأحد العشرة المبشرين بالجنة ويقول عنه الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء صفحة ١٣٤ ( - - وعلي رضي الله عنه أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ، وأخو رسول الله صلي الله عليه وسلم بالمؤاخاة ، وصهره علي فاطمة سيدة نساء العالمين – رضي الله عنها – وأحد السابقين إلي الإسلام وأحد العلماء الربانيين ، والشجعان المشهورين والزهاد المذكورين والخطباء المعروفين - - ) ، ولم يعبد الأوثان قط في الجاهلية ، ولما هاجر النبي صلي الله عليه وسلم إلي المدينة نام علي رضي الله عنه

---

٢٣٤ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ١٨٧

٢٣٥ ٢٣٥ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ ابق صـ ١٨٩

٢٣٦ حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه – عثمان بن محمد الخميس – صفحة ٩٧

علي فراشه كما نعلم جميعاً وظل بمكة لفترة يؤدي الأمانات والودائع التي تركها مشركي مكة عند رسول الله صلي الله عليه وسلم لأنهم كانوا يتركون الودائع عنده صلي الله عليه وسلم لعلمهم أنه الصادق الأمين ، وشارك علي رضي الله عنه في جميع الغزوات مع رسول الله صلي الله عليه وسلم عدا غزوة واحدة فقط وهي غزوة تبوك عندما استخلفه النبي صلي الله عليه وسلم علي المدينة ( – – فقال : يا رسول الله ، تخلفني في النساء والصبيان ؟ ، فقال[٢٣٧] صلي الله عليه وسلم: أما ترضي أن تكون مني بمنزلة هارون من موسي غير أنه لا نبي بعدي – – )[٢٣٨] ، ويعتبر سيدنا علي رضي الله عنه أول خليفة من بني هاشم ، وكلنا يعلم الكثير من المعلومات عن مناقب وفضل سيدنا علي وشجاعته في القتال والأمثلة علي ذلك كثيرة ومنها أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أعطاه الراية يوم فتح خيبر وقال ( – – لأعطين الراية غداً رجلاً يفتح الله علي يديه يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله – )[٢٣٩] فبات الناس يتمني كل واحد منهم أن يكون صاحب الراية فلما أصبح الناس وتوجهوا إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم سأل عن علي بن أبي طالب الذي كان يشكو مرض في عينه فعالجه رسول الله صلي الله عليه وسلم وأعطاه الراية وكان الفتح بالفعل علي يديه رضي الله عنه ويقول عن ذلك ( – – ما رمدت ولا صدعت منذ مسح رسول الله صلي الله عليه وسلم وجهي وتفل في عيني يوم خيبر حين أعطاني الراية – )[٢٤٠] ، وقال ( دعاني رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال : يا علي إن فيك مثلاً من عيسي ، أبغضته اليهود حتي بهتوا أمه ، وأحبته النصاري حتي أنزلوه بالمنزل الذي ليس به ألا وإنه يهلك فيّ اثنان محب مفرط يفرطني بما ليس فيّ ، ومبغض مفتر يحمله شنآني علي أن يبهتني – – )[٢٤١] وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يحب علياً وعنه أنه قال ( – – من أحب علياً فقد أحبني ومن أحبني فقد أحب الله ومن أبغض علياً فقد أبغضني ومن أبغضني فقد أبغض الله – – )[٢٤٢] ، وعلي رضي الله عنه من آل البيت وكان عالماً فقيهاً قاضياً مقاتلاً شجاعاً وإماماً وشاعراً وخطيباً وأميراً للمؤمنين زاهداً عادلاً ( – – وعن أبي سعيد الخدري قال : كنا نعرف المنافقين ببغضهم علياً – – )[٢٤٣] ، وفي عهد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبعد مبايعته مباشرةً حدث أن خرج طلحة والزبير رضي الله عنهما مع السيدة عائشة رضي الله عنها إلي البصرة يطلبون دم عثمان ( – – وبلغ ذلك علياً فخرج إلي العراق فلقي بالبصرة طلحة والزبير وعائشة ومن معهم وكانت وقعة الجمل وكانت في جمادي الآخرة سنة ست وثلاثين " هجرياً " – – ، وأقام علي بالبصرة خمس

---

[٢٣٧] برجاء مراجعة جميع الأحاديث الواردة بهذا الحوار ومدي صحتها

٢٣٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٥

٢٣٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٥

٢٤٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٨

٢٤١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٩

٢٤٢ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٩

٢٤٣ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٣٦

عشرة ليلة ثم انصرف إلي الكوفة ، ثم خرج عليه معاوية بن أبي سفيان ومن معه بالشام فبلغ علياً فسار إليه فالتقوا بصفين٢٤٤ في صفر سنة سبع وثلاثين ودام القتال بها أياماً فرفع أهل الشام المصاحف يدعون إلي ما فيها – – ، فكره الناس الحرب وتداعوا إلي الصلح وحكموا الحكمين – – وكتبوا كتاباً علي أن يوافوا رأس الحول ( بعد سنة ) بأذرح ( إحدي قري الشام ) فينظروا في أمر الأمة فافترق الناس ورجع معاوية إلي الشام ، وعلي إلي الكوفة ، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا : لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء ( موضع بالكوفة ) فبعث إليهم ابن عباس – – )٢٤٥ ومن هنا يتضح أن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه هو أول خليفة يتم في عهده انفصال جزء من الأمة الإسلامية سياسياً فقد كانت الشام بقيادة معاوية بن أبي سفيان لم تبايع أمير المؤمنين علي بالخلافة ، ولم يعلن معاوية نفسه خليفة أو أمير للمؤمنين بل اكتفي بعدم المبايعة وكان السبب الرئيسي لعدم المبايعة هو طلب الثأر أولاً من قتلة عثمان رضي الله عنه ثم النظر ثانياً في موقف المبايعة لأنه كان يشعر بمسئوليته عن البيت الأموي وأنه أصبح ولي دم عثمان والله أعلم أما سيدنا علي رضي الله عنه فكان يقدم وحدة الأمة أولاً علي الأخذ بثأر سيدنا عثمان فهي قضية تخضع للاجتهاد في فقه الأولويات فمن اجتهد وأصاب له أجران ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد فهل المبايعة أولاً ثم الثأر لدم الخليفة أم الثأر أولاً ثم المبايعة ؟ ، مجرد أولويات طبقاً للاجتهاد في فقه الأولويات

- وهل قرأت شيئاً عن هذا الخلاف لأحد المفكرين المعاصرين ؟

## ١٠٨. الصراع سياسي وليس ديني

- رأي الدكتور محمد عمارة المفكر الإسلامي الكبير والذي أورده في كتابه ( الإسلام والحرب الدينية ) حيث أكد أن الصراع بين علي رضي الله عنه وبين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كان صراعاً سياسياً وليس اختلافاً عقائدياً ، واسمح لي أن نقرأ معاً بعض ما كتبه د محمد عمارة في هذا الموضوع ( – – وفي القتال بين علي بن أبي طالب وبين معاوية بن أبي سفيان كاد إجماع المسلمين أن ينعقد علي أن معاوية وأنصاره يمثلون الفئة الباغية علي أمير المؤمنين علي وأنصاره ، وعلي أن قتال هذه الفئة الباغية واجب حتي تفئ إلي أمر الله ، ومع ذلك فهم مؤمنون مسلمون ، وقتالهم سياسة بلغت مرحلة العنف المسلح وليست ديناً ، لأن الفريقين أبناء دين واحد ، يؤمنون بإله واحد ، ويشهدون بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام ويحتكمون إلي القرآن الكريم ويصلون إلي ذات القبلة الواحدة وليس بعد شهادة علي بن أبي طالب بإيمان خصومه هؤلاء شهادة تقطع بالطبيعة السياسية لهذا القتال وتنفي عنه أية شبهة دينية – – فلقد سأل أبو سلامة الدالاتي وهو من أصحاب علي – سأله عن أمر معاوية وصحبه فقال :

---

٢٤٤ معركة صفين

٢٤٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٤٠

- – يا أمير المؤمنين ، أتري لهؤلاء القوم حجة فيما طلبوا به من هذا الدم ( أي دم عثمان بن عفان ) إن كانوا أرادوا الله بذلك ؟
- – نعم
- – وتري لك حجة بتأخيرك ذلك ؟
- – نعم ، إن الشئ إذا كان لا يدرك فالحكم فيه أحوط وأعود نفعاً
- – فما بالنا ومالهم إن ابتلينا بقتال غداً ؟
- – إني لأرجوا أن لا يقتل أحد نقي قلبه منا ومنهم إلا أدخله الله الجنة
- فهو قتال سياسي بين فرقاء اختلفت وجهات نظرهم في السياسة – – والحكم علي المواقف فيها داخل في نطاق الخطأ والصواب وليس في نطاق الكفر والإيمان ، بل إنه بنص كلمات علي بن أبي طالب قتال بين أهل الجنة ، فلم يكن علي يشك في عقيدة خصومه ، أو يشك في إيمانهم – – )٢٤٦ ، ومن هنا يتضح أن القتال الذي دار بين علي ومعاوية لم يكن سوي اختلاف حول قضية سياسية وهي مقتل الخليفة الراشد الثالث عثمان بن عفان وكيفية معالجة الموقف من وجهة نظر كل منهما ( المبايعة ثم الثأر لدم عثمان أم الثأر أولاً ثم المبايعة ) ، بل إن معاوية كان يرسل من يسأل علي في بعض الأمور الفقهية ويستفتيه في الدين وليس الخلاف في نطاق الكفر والإيمان ، حتي أن الخوارج الذين أقحموا الدين في هذه القضية واستخدموا مصطلحات الكفر والإيمان في هذه المسألة تصدي لهم الإمام علي وقال ( – – إننا والله ما قاتلنا أهل الشام علي ما توهم هؤلاء " الخوارج " من التكفير والفراق في الدين وما قاتلناهم إلا لنردهم إلي الجماعة وإنهم لإخواننا في الدين ، قبلتنا واحدة ورأينا : أننا علي الحق دونهم – – لقد أصبحنا نقاتل إخواننا في الإسلام علي ما دخل فيه من الزيغ والاعوجاج والشبهة والتأويل – – )٢٤٧ وظل علي أميراً للمؤمنين من سنة ٦٥٦ م (٣٥ هـ ) إلي أن مات شهيداً سنة ٦٦١ م ( ٤٠ هـ )٢٤٨ وتولي مصر في عهده قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري ثم الأشتر بن مالك بن الحارث النخعي الذي مات قبل وصوله مصر ثم تولي مصر محمد بن أبي بكر الصديق ، ويعتبر سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه آخر الخلفاء الراشدين الأربعة وقامت من بعده الدولة الأموية في الشام وله العديد والعديد من الأقوال المأثورة والشعر والحكم البليغة التي رويت عنه رضي الله عنه والتي تنم عن بلاغته وقدره ، فمن أقواله ( – لا يخافن أحد منكم إلا ذنبه ، ولا يرجو إلا ربه ، ولا يستحي من لا يعلم أن يتعلم ، ولا يستحي من لا يعلم إذا سئل عما لا يعلم أن يقول الله أعلم ، وإن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، إذا ذهب الصبر ذهب الإيمان وإذا ذهبت الرأس

---

٢٤٦ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صـ ٥٨ ، ٥٩

٢٤٧ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صـ ٦٠

٢٤٨ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٦٠

ذهب الجسد – – )٢٤٩ ومن أقواله أيضاً ( – – الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولم يرخص لهم معاصي الله ، ولم يؤمنهم من عذاب الله ، ولم يدع القرآن رغبه عنه إلي غيره ، لأنه لا خير في عبادة لا علم فيها ، ولا علم لا فهم معه ، ولا قراءه لا تدبر فيها – – )٢٥٠ ( وقال الحسن البصري عن قيس بن عباد قال : قال علي يوم الجمل : يا حسن ، ليت أباك مات منذ عشرين سنة ، فقال له : يا أبت قد كنت أنهاك عن هذا ، قال : يا بني لم أر أن الأمر يبلغ هذا – )٢٥١ وكان مقتله رضي الله عنه علي يد أحد الخوارج الثلاثة الذين اتفقوا علي قتل كل من ( علي ومعاوية وعمرو بن العاص ) بحيث يقتل كل واحد منهم أحد هؤلاء الثلاثة في توقيت متزامن لاعتقادهم أن بموتهم ستنتهي خلافات الأمة ، وفشل قاتل معاوية وفشل قاتل عمرو والوحيد الذي نجح في الثلاثة هو قاتل علي رضي الله عنه ومات أمير المؤمنين شهيداً ورثاه أبو الأسود الدؤلي بأبيات من الشعر هذه مقتطفات منها :

ألا يا عين ويحك أسعدينا – – – ألا تبكي أمير المؤمنينا
ألا قل للخوارج حيث كانوا – – – فلا قرت عيون الحاسدينا
أفي شهر الصيام فجعتمونا – – – بخير الناس طراً أجمعينا
قتلتم خير من ركب المطايا – – – وذللها ومن ركب السفينا
وكل مناقب الخيرات فيه – – – وحب رسول رب العالمينا
لقد علمت قريش حيث كانت – – – بأنك خيرهم حسباً ودينا
إذا استقبلت وجه أبي حسين – – – رأيت البدر فوق الناظرينا
وكنا قبل مقتله بخير – – – نري مولي رسول الله فينا
يقيم الحق لا يرتاب فيه – – – ويعدل في العدي والأقربينا
وليس بكاتم علماً لديه – – – ولم يخلق من المتكبرينا

- هل تعرف شيئاً عن شخصية مروان بن الحكم الذي أثير حوله مشاكل كثيرة والذي أعتقد أنه كان يعمل طبقاً لاجتهاده الشخصي ومن وجهة نظره والله أعلم لصالح الخليفة والخلافة وسواء كان مخطئاً أو غير مخطئ فحسابه علي الله ونرجو له العفو والمغفرة كما نرجو لجميع أمة محمد صلي الله عليه وسلم ،
- بالتأكيد فمن حقه علينا بعد تحدثنا عنه أن أذكر جوانب أخري من شخصيته حتي نكون منصفين في حوارنا وسأتلو عليك ترجمته من كتاب تاريخ الإسلام للإمام الذهبي رحمه الله حيث كتب ما يلي :

---

٢٤٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٤٨
٢٥٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٤٨
٢٥١ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ١٩٤

(مروان بن الحكم بن أبي العاص بن عبد شمس أو عبد الملك القرشي الأموي ---- وقد روي عن النبي صلي الله عليه وسلم حديث الحديبية بطوله ، وفيه إرسال ، لكن أخرجه البخاري - - ، وكان كاتب ابن عمه عثمان وولي إمرة المدينة والموسم لمعاوية غير مرة ، - - وقال عبد الملك بن عمير ، عن قبيصة بن جابر قال : بعثني زياد إلي معاوية في حوائج ، فقلت : من تري لهذا الأمر من بعدك ؟ فسمي جماعة ، ثم قال : وأما القارئ لكتاب الله ، الفقيه في دين الله ، الشديد في حدود الله : مروان ، وقال أحمد بن حنبل : يقال : كان عند مروان قضاء ، وكان يتبع قضاء عمر ، - - وقال يونس ، عن ابن شهاب ، عن قبيصة بن ذؤيب : أن امرأة نذرت أن تنحر ابنها عند الكعبة ، وقدمت المدينة تستفتي ، فجاءت ابن عمر ، فقال : لا أعلم في النذر إلا الوفاء ، قالت : أفأنحر ابني ؟ قال : قد نهي الله عن ذلك ، فجاءت ابن عباس فقال : أمر الله بوفاء النذر ، ونهاكم أن تقتلوا أنفسكم ، - - فبلغ الحديث مروان وهو أمير المدينة ، فقال : إنه لا نذر في معصية الله ، فاستغفري الله تعالي وتوبي إليه ، واعملي ما استطعت من الخير ، فسُر الناس بذلك وأعجبهم قوله ، ولم يزل الناس يفتون بأنه لا نذر في معصية الله )[٢٥٢] ،

- أعتقد أنك تحدثت عن هذه الفتنة من الكتب التي قرأتها عنها فكيف ينظر إليها الناس حالياً ؟

## ١٠٩. العدسة التي تري الأحداث

- اختلفت الآراء حول الفتنة التي وقعت أحداثها عند حصار الخليفة الراشد الثالث عثمان رضي الله عنه ثم أثناء خلافة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب الخليفة الراشد الرابع رضي الله عنه ، فكل إنسان ينظر إليها بالعدسة التي يفضلها فهناك من ينظر إليها بعدسة الشماتة في الإسلام والمسلمين وخاصة المؤرخين الأجانب المستشرقين وهم بالطبع غير مسلمين وبالتالي لم يفهموا طبيعة هذا الدين جيداً فهم لا يؤمنون به ، وبالرغم من أنهم يؤرخون الأحداث بحياد كامل كما يزعمون إلا أنهم يمسكون بالعدسة التي تري الأشياء من وجهة نظر بعيدة عن الإيمان ، وهناك من يري هذه الفتنة بعدسة العصبية القبلية ويعتبر ما دار بين علي ومعاوية رضي الله عنهما هو مجرد صراع بين بطنين كبيرين من بطون قريش علي الحكم والإمارة كما كانا يتصارعان قبل الإسلام علي الشرف والفخر بالأعمال البطولية ، وهناك من ينظر إلي هذه الفتنة علي أنها صراع سياسي مجرد ولا علاقة له بالدين وهناك من ينظر بعدسة التكفير لإحدي الطائفتين المتصارعتين كالخوارج مثلاً ، وهناك من يعتبر أن هذا الصراع هو صراع بين الخلافة الدينية والخلافة الدنيوية إذا جاز التعبير أو بمعني أوضح : هل يظل الخليفة زاهداً ينام تحت شجرة ويرتدي ثياباً بسيطة ؟ أم يسكن الخليفة في قصر كبير وحوله الحاشية والأتباع كملوك تلك الفترة في العالم ، ويعتقد من يمسك بهذه العدسة أن علي رضي الله عنه آخر رمز للخلافة الزاهدة

---

٢٥٢ تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام – الحافظ المؤرخ شمس الدين الذهبي – الجزء الثاني – صفحة ٤٩٩ ، ٥٠٠ ( مقتطفات )

وأن معاوية رضي الله عنه هو أول رمز للخلافة التي تنعم برفاهية الحكم مع التمسك بتعاليم الدين ، وهناك عدسة أخري تنظر إلي هذه الفتنة بإشفاق وتعتبرها ابتلاء للأمة ، وهناك من يعتقد أن هذه الفتنة قد أصابت الصحابة في ذلك العهد بهذه القوة لتتناسب مع مستوي إيمانهم علي اعتبار أن الابتلاء يكون علي مستوي الإيمان وهؤلاء قد تعرضوا لفتن التعذيب قبل ذلك ولم تؤثر في إيمانهم وفتحت لهم كنوز الدنيا كلها في بلاد الفرس والروم ولم تؤثر في إيمانهم أيضاً وجاهدوا في سبيل الله وشاركوا رسول الله صلي الله عليه وسلم في غزواته فأي ابتلاء يمكن أن يصيب هؤلاء فسبحان الله لقد كانت هذه الفتنة فيما بينهم شديدة وقوية كما كان إيمانهم شديداً وقوياً أيضاً وهناك من لا يعرف أي شئ عن هذه الفتنة حالياً من عامة المسلمين ، فهل أنت من هؤلاء ؟ وإذا كنت تعرف ما حدث أو بعضه فبأي العدسات التي تحدثنا عنها تنظر إلي هذه الأحداث ؟

- يبقي السؤال المهم الذي أردده بيني وبين نفسي دائماً : هل يجب أن نعرف هذه الأحداث ونفكر فيها ؟ أم أن الأفضل ألا نعلم عنها شيئاً ولا نقرأ عنها شيئاً ؟ ويحضرني هنا بيت طريف من الشعر كتبه أبو الطيب المتنبي عن الشقاء الذي يسببه العقل لصاحبه حتي إذا كان يعيش في النعيم وعن النعيم الذي يعيش فيه الجاهل حتي ولو كان في شقاء حقيقي ولا يعلم : ذو العقل يشقي في النعيم بعقله - - - وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم
- عموماً لعلك لاحظت أنني ذكرت ما ورد في الكتب والمراجع دون أن أذكر وجهة نظري الخاصة في هذه الأحداث لأنني غير مؤهل لذلك ، بل إنني مجرد قارئ يقوم بتلخيص ما يقرأه ويحاول تبسيطه بقدر المستطاع ، ولكني أنصحك إذا أردت أن تعرف المزيد عن هذه الفتنة من كتاب قيّم يتناولها بأسلوب علمي حديث وملتزم بالكتاب والسنة فيمكنك أن تقرأ كتاب اسمه ( حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه ) وهو من تأليف عثمان بن محمد الخميس وصادر عن مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع ، وفي مقدمة هذا الكتاب يقول المؤلف عن جيل الصحابة كلاماً جميلاً وإليك القليل مما كتبه المؤلف ( ولما كانت كلمة الحق نوراً يهتدي به ، ولما لذلك الجيل المبارك من فضل علينا ، كان لزاماً أن نؤدي بعض ما لهم علينا من حقوق ، فشأنهم ليس كشأن غيرهم ، وعلمهم وعملهم لم يُسبقوا إليه ، ولن يُلحقوا به ، فبهؤلاء أعز الله الدين وأظهره ، ونحن وإن كنا نلهج بفضائل أصحاب رسول الله صلي الله عليه وسلم ، إلا أننا لا ندعي لهم العصمة ، فما جعل الله عز وجل العصمة ، إلا لأنبيائه وملائكته عليهم السلام ، نعم ، لقد أخطأ بعضهم في حياة النبي صلي الله عليه وسلم وبعد وفاته لأنهم بشر وغير معصومين مثلهم مثل باقي البشر ، لكن ما تحملوه من الأذى والقهر والتنكيل في سبيل الإيمان بالله ورسوله والدعوة إلي الدين القويم وملة إبراهيم ، وما بذلوه من هجرة الأهل والأوطان ، وجهادهم بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، وذبهم عن رسول

الله صلي الله عليه وسلم بكل ما يملكون ، يجعل هذه الأخطاء في جانب هذه الحسنات العظيمة والأعمال الصالحة كحبات رمل في جبال ، وقطرات ماء في عباب )٢٥٣ ،

- إنه كلام رائع بالفعل
- نعم وأعتقد أنه بقي ما يجب أن تعرفه عن هذه الفتنة ومن الذي أوقد نارها وأشعل فتيلها ( والفتنة نائمة ، لعن الله من أيقظها )
- وهل هناك من أشعل نار هذه الفتنة وأغضب الناس وأثارهم علي الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه ؟

## ١١٠. فتش عن اليهود

- بالطبع فقد كان عبد الله بن سبأ يهودياً من أهل صنعاء ودخل الإسلام واعتنقه خصيصاً ليشعل نار الفتنة بين المسلمين وتنقل في بلاد الإسلام يحاول ضلالتهم٢٥٤ فذهب إلي الحجاز ثم البصرة ثم الشام ثم مصر وكان يحاول جاهداً أن يثير المسلمين ضد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه بحجة أن سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه أحق بالخلافة منه وأن عثمان أخذها بغير حق ، وزعم عبد الله بن سبأ ( – – أنه كان ألف نبي ولكل نبي وصي وكان علي وصي محمد )٢٥٥ وقال ( محمد خاتم الأنبياء وعلي خاتم الأوصياء )٢٥٦ وللأسف كان لهذا الرجل اليهودي السابق أعوان يساعدونه في تحريك الفتنة وكانوا يتظاهرون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتي يستميلوا الناس إليهم وللأسف وجد عبد الله بن سبأ صدي لما يقول في مصر وكانت كل ولاية تصلها أخبار مزيفة عن باقي الولايات تثير فيهم السخط علي الخليفة حتي أن أهل كل ولاية كانوا يقولون : إنا لفي عافية مما ابتلي به هؤلاء ( – – إلا أهل المدينة فإنهم جاءهم ذلك عن جميع الأمصار ( البلدان ) فقالوا : إنا لفي عافية مما فيه الناس – – )٢٥٧
- فماذا حدث في مصر أثناء تلك الفتنة ؟

## ١١١. محمد بن أبي حذيفة يسيطر علي مصر

- عندما وصل الخبر إلي عثمان رضي الله عنه استدعي إليه الولاة لاستشارتهم وليعرف حقيقة الأمر ( – – فخرج إليه عبد الله بن سعد والي مصر واستخلف عقبة بن عامر الجهني أو السائب بن هشام في رجب سنة ٣٥ هجرياً فثار عليه محمد بن أبي حذيفة في شوال وأخرجه من الفسطاط واستولي علي إمارة مصر وتابعه أهل مصر جميعاً إلا جماعة من أنصار عثمان ودعا محمد بن أبي حذيفة إلي خلع

---

٢٥٣ حقبة من التاريخ – ما بين وفاة النبي صلي الله عليه وسلم إلي مقتل الحسين رضي الله عنه – عثمان بن محمد الخميس – صفحة ٥

٢٥٤ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ٩

٢٥٥ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٠

٢٥٦ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٠

٢٥٧ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١١

عثمان وحرض عليه بكل ما استطاع فكان يكتب الرسائل علي ألسنة زوجات النبي صلي الله عليه وسلم ثم يأخذ النوق فيضمرها والرجال الذين يريد أن يتظاهروا بالإتيان بهذه الرسائل من المدينة فيجعلهم علي ظهور البيوت لتلوحهم الشمس تلويح المسافر ثم يأمرهم بالخروج إلي الطريق الآتي من المدينة إلي مصر - - )٢٥٨ ومن هنا يتضح أن المؤامرة كانت محكمة ومخططة ولك أن تتخيل مفعول هذه الرسائل في قلوب المسلمين في مصر ، فإن مضمون هذه الرسائل المزيفة يؤكد شكوى أمهات المؤمنين من عثمان ، ويطلبن إنقاذ الإسلام منه ولم تفلح محاولات عثمان رضي الله عنه في تهدئة هؤلاء بل إن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه عندما جاء مصر ليصلح الأمر ( - - قلبوا عليه خيمته وجرحوه وسبوه فركب من وقته وعاد من حيث جاء - - )٢٥٩ ثم حدث أخطر الأمور بعد ذلك حيث أرسل المعارضين لعثمان رسائل لبعضهم البعض في الولايات المختلفة وليحددوا مواعيد الخروج إلي المدينة جميعاً في وقت واحد ليحاسبوا الخليفة علي أفعاله ( - - فأخرج محمد بن أبي حذيفة ستمائة مصري٢٦٠ علي كل مائة منهم قائد وعليهم جميعاً عبد الرحمن بن عديس البلوي وخرجت الوفود جميعاً مظهرة أنها تريد الحج وتقابلوا بذي خشب علي ثلاث ليال من المدينة ، وكان هوي أهل البصرة في طلحة وأهل الكوفة في الزبير وأهل مصر في علي - - )٢٦١ ومن هنا بدأت أحداث حصار الخليفة كما تكلمنا عنها في إيجاز إلي أن مات شهيداً ، ثم تولي علي رضي الله عنه الخلافة وعادت الوفود إلي بلادها ، ( - - ولم تهدأ الأحوال بمصر بل انقسمت إلي فئتين فئة علوية آلي إليها الحكم وعلي رأسها محمد بن أبي حذيفة وفئة عثمانية تطالب بالثأر لدم عثمان وعلي رأسها معاوية بن حديج وابتعد أنصار الثأر لعثمان إلي الصعيد ليكونوا بمنأى عن محمد بن أبي حذيفة فأرسل إليهم جيشاً - - )٢٦٢ وظل الصراع في مصر بين أنصار أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وبين المطالبين بثأر عثمان ووصل الأمر إلي أن أرسل المطالبين بثأر عثمان رسالة إلي معاوية بن أبي سفيان أمير الشام ليدخل مصر وينتزعها من محمد بن أبي حذيفة وحدثت بالفعل معارك بين معاوية وعمرو بن العاص من جهة وبين محمد بن أبي حذيفة من جهة أخري ولكن مصر ظلت تحت سيطرة الخليفة وهدأت الأحوال لفترة من الزمن في مصر وتولي محمد بن أبي بكر ولاية مصر بأمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وحاول محمد بن أبي بكر أن يفاوض معاوية بن حديج قائد المعارضة المطالبة بدم عثمان ولكن هذه المفاوضات فشلت فشل ذريع وبدأت المشاكل مرة أخري من جديد ، وكان معاوية بن أبي

---

٢٥٨ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١١

٢٥٩ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٢

[٢٦٠] أريد التأكيد علي أن المقصود من كلمة مصري هنا ليس الشعب المصري نفسه ولكن العرب الذين استوطنوا مصر بعد الفتح لأن المصريين لم يتدخلوا في أحداث الفتنة لأنها كانت فتنة عربية خالصة ولا شأن بباقي الشعوب بها من قريب أو بعيد بل إن أغلبية الشعب المصري في ذلك الوقت كانت أغلبية مسيحية وليست أغلبية مسلمة

٢٦١ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٢

٢٦٢ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٣

سفيان يتمني السيطرة علي مصر لأنه يعلم جيداً أنها قوة لمن يسيطر عليها ونعم العون له ، وكان معاوية بن حديج وأتباعه يحرضون معاوية بن أبي سفيان علي ضم مصر إلي الشام تحت قيادته ، وكان وقوف عمرو بن العاص إلي صفه مكسباً كبيراً بلا شك

- فماذا كان موقف عمرو بن العاص ؟

## ١١٢. موقف عمرو بن العاص من الأحداث

- كان عمرو بن العاص كما تحدثنا عنه من قبل شخصية طموحة وغير عادية وكان في بداية هذه الفتنة بعيداً عن الأحداث ولا يريد التدخل لصالح أي طرف منها ، حتي كانت وقعة الجمل التي اشتركت فيها أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، ففي هذا الوقت تحديداً قرر التدخل بعد المعركة مباشرةً ، ولكنه فكر قليلاً واستشار ابنيه عبد الله ومحمد وأرسل إليهما وقال لهما ( – – إني قد رأيت رأياً ولستما باللذين ترداني عن رأيي ولكن أشيرا علي ، إني رأيت العرب صاروا عيرين يضطربان وأنا طارح نفسي بين جداري مكة ولست أرضي بهذه المنزلة ، فإلي أي الفريقين أعمد ؟ قال عبد الله : إن كنت لا بد فاعلاً فإلي علي ، قال : إني إن أتيت علياً قال : إنما أنت رجل من المسلمين وإن أتيت معاوية يخلطني بنفسه ويشركني في أمره ، فأتي معاوية – – )٢٦٣ ، ( وعن عروة أو غيره قال : دعا ابنيه ( أي عمرو بن العاص ) ، فأشار عليه عبد الله أن يلزم بيته لأنه أسلم له ، فقال له محمد : أنت شريف من أشراف العرب وناب من أنيابها لا أري أن تتخلف ، فقال عمرو لعبد الله : أما أنت فأشرت علي بما هو خير لي في آخرتي ، وأما أنت يا محمد فأشرت علي بما هو أنبه لذكري – – )٢٦٤ ومن هنا يتضح أن عمرو كان يفضل أن يقف في صف معاوية وأصبح له نعم العون في صراعه مع أمير المؤمنين فأيد الرأي الذي يقول بضرورة الأخذ بثأر عثمان أولاً قبل مبايعة علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين وقد ذكر بعض المؤرخين أن عمرو بن العاص عقد صفقة مع معاوية علي أن ينصره بشرط أن يعيده والياً علي مصر مرة أخري والله أعلم

- فهل خاض عمرو بن العاص رضي الله عنه معارك في هذه الفتنة ؟

## ١١٣. موقعة المسناة

- أرسل معاوية بن أبي سفيان عمرو بن العاص إلي مصر في جيش مكون من ستة آلاف رجل ، انضم إليه الساخطون من المصريين٢٦٥ ولكنه لم يقاتل الروم هذه المرة ولكنه قاتل والي مصر محمد بن أبي بكر الذي ولاه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ، وكانت المعركة في مكان يعرف بالمسناة ( – – فجعل عمرو يرسل الكتيبة بعد الكتيبة وجعل كنانة بن بشر ( قائد جيش محمد بن أبي بكر ) لا تأتيه

---

٢٦٣ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٩٧

٢٦٤ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٩٧

٢٦٥ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٥

كتيبة من أهل الشام إلا شد عليها بمن معه فضربها حتي تفر إلي عمرو ، فلما رأي عمرو ذلك رأي أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج رأس عثمانية مصر فأتاه في مثل الظلام فأحاط بكنانة وأصحابه واجتمع أهل الشام عليهم من كل جانب ولما رأي كنانة ذلك نزل عن فرسه ونزل أصحابه وضاربهم بسيفه حتي استشهد فتفرق أصحاب محمد بن أبي بكر عنه ففر ولجأ إلي خربة فأخذوه وقتل -- ، وبلغ عنف القتال يومئذ أن قال عمرو بن العاص : شهدت أربعة وعشرين زحفاً فلم أر يوماً كيوم المسناة ولم أر الأبطال إلا يومئذ ، وكانت تلك الموقعة في صفر ٣٨ هجرياً وكان فيها القضاء المبرم علي العلويين في مصر - - )٢٦٦

- المصريون الذين يتحدث عنهم المؤرخون في هذه الأحداث كانوا عرباً سكنوا مصر مع الفتح عند دخول عمرو بن العاص أليس كذلك ؟
- بالتأكيد وأكبر دليل علي ذلك أن د حسين نصار في روايته يقول ما معناه أن عمرو بن العاص أراد أن يضرب المصريين بالمصريين فبعث إلي معاوية بن حديج وهذا باعتباره مصرياً ولكنه عربياً اشترك في تأسيس مدينة الفسطاط المكونة من عدة قبائل عربية وكان معاوية بن حديج التجيبي علي رأس أحد هذه القبائل الذين قسموا العاصمة الجديدة فيما بينهم ليفصلوا بين القبائل ومن هنا تم تسميتهم أهل مصر ولكن القبط أنفسهم وهم أهل البلاد الأصليين لم يشتركوا في هذه الأحداث لأن غالبية المصريين في ذلك الوقت كانوا علي الديانة المسيحية ولم تكن اللغة العربية قد انتشرت بينهم ولكن الجدير بالذكر أن المصريين كانوا يشاهدون هذه الأحداث في حزن عميق ويتساءلون علي ما يبدو عن سر كل هذه الصراعات بين العرب المسلمين الذين لم تختلف سياستهم تجاه مصر وغيرها من البلدان برغم كل هذه الصراعات وسبحان الله ، فقد كانت هذه الصراعات فيما بينهم بعيدة كل البعد عن أي ظلم أو جور علي الشعوب التي تحت مظلة حكمهم ، فبرغم كل هذه الأحداث فقد كانت فترة حكم الراشدين لمصر وغيرها من البلاد تتسم بالعدل والرحمة وحرية العقيدة كما ذكرنا من قبل ولم يؤثر هذا الصراع السياسي بين المسلمين علي هذه السياسة الداخلية ،
- فكيف قامت الدولة الأموية بعد كل هذه الأحداث ؟
- قبل الحديث عن قيام الدولة الأموية أرجو أن أكون قد وفقت في توضيح بعض الغامض من الأمور من واقع الكتب والمراجع التاريخية وكل هذا مجرد اجتهاد يتوفر فيه حسن النية إن شاء الله ولك أن تعود إلي ما ذكرت من مراجع وكتب لتفهم ما لم أستطع فهمه وتستوضح ما لم أتمكن من إيضاحه وأسأل المولي عز وجل أن يغفر لي ولك ولأمة محمد صلي الله عليه وسلم وأن يهدينا إلي سواء السبيل وقبل الكلام عن قيام الدولة الأموية في دمشق بالشام بعد دولة الراشدين بالحجاز ، أريد أن أعقد مقارنة

---

٢٦٦ الثورات الشعبية في مصر الإسلامية ( د حسين نصار ) صـ ١٥

سريعة بين عهد الراشدين وعهد الأمويين دون الدخول في تفاصيل ، وأعتقد أن هذه المقارنة ستوضح الكثير من الأمور لأنها ليست فقط مقارنة بين هذين العهدين بل إنها مقارنة بين عهد الراشدين وجميع العصور التي جاءت بعد ذلك تقريباً ، فمثلاً كان في عصر الراشدين يتم اختيار الخليفة بالشوري ويستمد شرعيته بالمبايعة وأصبحت بعد ذلك الخلافة وراثية بولاية العهد مثل الملوك تقريباً مع ضرورة المبايعة أيضاً لتأكيد شرعية الحكم ، كما أن معايير اختيار الخليفة في عهد الراشدين كانت تعتمد علي مكانته في الإسلام وفضله وقدره بين المسلمين ولا تعتمد علي انتمائه العائلي أو قرابته لأحد بطون قريش فمثلاً نجد أن أبا بكر من بني تيم وعمر من بني عدي وعثمان من بني أمية وعلي من بني هاشم وكلهم رضي الله عنهم أجمعين من قريش ، بمعني أن الخلفاء الأربعة كانوا ينتمون إلي أربعة بطون مختلفة من قريش ، فالأساس في الاختيار ليس له علاقة ببطن محددة من قريش بل نري أبا بكر يستخلف من بعده خليفة من بطن أخري وبايعه الناس ، أما في العصور التي تلت عصر الراشدين بعد ذلك فكان الانتماء العائلي هو الأساس فنجد أن الأمويين من بطن واحدة بالطبع ( أمية ) وبني العباس بعد ذلك من بطن أخري ( هاشم ) ولكن ظلت المبايعة هي أساس الشرعية أيضاً كما ذكرنا، ومن نقاط المقارنة الأخري بين عهد الراشدين والعهود التي تلته نجد أن الخلفاء الراشدين كانوا يصرون علي التمسك بالبقاء في المدينة المنورة بالحجاز كمقر لهم كما فعل رسول الله صلي الله عليه وسلم وكانوا يهتمون بالتعامل معاملة كريمة مع أهلها ( الأنصار ) عملاً بوصية رسول الله صلي الله عليه وسلم عندما أوصي بالأنصار خيراً ، علي حين أن باقي الخلفاء بعد ذلك لم يتخذ أحدهم المدينة عاصمة له فنجد أن الأمويين اتخذوا دمشق عاصمة لهم ثم بعد ذلك أسس العباسيون عاصمة جديدة لخلافتهم وهي بغداد ، كما أن أهل المدينة تعرضوا في بعض الأحيان لمواقف عصيبة لم تكن لتحدث في عهد الراشدين ، ومن وجوه المقارنة أيضاً بين الراشدين ومن بعدهم أنهم كانوا يعيشون حياة الزهد ويرفضون المظاهر الدنيوية في الحكم بل إن عمر رضي الله عنه رفض أن يغادر كبار الصحابة المدينة إلي البلاد التي تم فتحها حتي لا تلوثهم الدنيا بزينتها ولم يخرج بعضهم منها إلا في عهد عثمان رضي الله عنه ، أما باقي الخلفاء بعد ذلك ( باستثناء القليل ) فكانوا يعيشون حياة عادية وكانت تحيط بهم مظاهر الحكم والحاشية وما إلي ذلك مع تمسكهم بالحكم بما أنزل الله بالطبع ، وللعقاد رأي في هذه النقطة حيث يقول ( -- لقد كان قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة حادثاً جللاً بالغ الخطر في تاريخ الإسلام وتاريخ العالم ، وما كان أحد ليطمع في بقاء عصر الخلافة علي سنة الصديق والفاروق أبد الآبدين ودهر الداهرين لأن اطراد النسق من ولاة الأمر علي هذه الطبقة العليا من الخلق والتقوي أمر تنوء به طاقة بني الإنسان ، فما كان دوام الخلافة الصديقية أو الفاروقية بمستطاع علي طول الزمن ، وما كان قيام الملك بعد الخلافة بالأمر الذي يؤجل إلي زمن بعيد --- )[٢٦٧]

---

٢٦٧ معاوية بن أبي سفيان ( عباس العقاد ) صـ ٩

- فهل اختلف وضع مصر أيضاً ؟
- أحوال مصر في هذه المقارنة لا تختلف كثيراً عن استمرارها أحد أهم وأغني ولايات الأمة الإسلامية علي مر عصورها المختلفة ولكن حدث بها العديد من التغييرات في نظم الإدارة وتطور دواوين الحكم وانتشار اللغة العربية والديانة الإسلامية مع مرور الزمن ، وظل الخلفاء يتعاملون معها معاملة خاصة ويتولي عليها كما سنري في العصر الأموي وما بعده والياً له مكانته كإبن الخليفة نفسه أو أخوه أو أحد أقاربه أو أحد الموثوق بولاءهم للدولة القائمة ، وظلت مصر تحتل هذه المكانة المرموقة في العصر الأموي والعصر العباسي الأول وهو ما يسمي بعصر الولاة إلي أن جاء أحمد بن طولون وقام بتأسيس الدولة الطولونية بمصر
- فما هي ظروف قيام الدولة الأموية ؟

## ١١٤. نشأة الدولة الأموية

- أما عن الظروف والملابسات التي أدت إلي قيام الدولة الأموية في دمشق فيمكن إيجازها في بساطة شديدة وذلك بإجتماع الأمة بالكامل علي معاوية بن أبي سفيان ليكون خليفة للمسلمين وأميراً للمؤمنين بعد أن قام الحسن بن علي رضي الله عنه بمبايعة معاوية لحقن دماء المسلمين وجمع شمل الأمة وتوقف الفتنة فقد كان الحسن بن علي رضي الله عنهما قد تولي الخلافة بعد مقتل الإمام علي رضي الله عنه وتم مبايعته بالخلافة بالفعل وقد أورد السيوطي اسمه كخامس الخلفاء في كتابه تاريخ الخلفاء بالرغم أنه تولي الخلافة لشهور قليلة ظلت فيها الأحوال كما هي وظل الخلاف بين الشام والحجاز إلي أن تنازل عن الخلافة لمعاوية في هدوء وحكمة ، واسمح لي أن أتوقف قليلاً عند الحسن بن علي بن أبي طالب حفيد رسول الله صلي الله عليه وسلم لتوضيح بعض النقاط المهمة عنه رضي الله عنه
- رضي الله عنه
- ريحانة النبي صلي الله عليه وسلم وابن ابنته السيدة فاطمة رضي الله عنها وكان يشبه النبي صلي الله عليه وسلم ( - - - وكان سيداً حليماً ذا سكينة ووقار وحشمة وكان يكره الفتن والسيف وكان جواداً - - )[٢٦٨] ( وقال ابن سيرين : إن الحسن كان يجيز الرجل الواحد بمائة ألف درهم وقال غيره: حج الحسن بن علي خمس عشرة مرة وقال أنه حج أكثرها ماشياً من المدينة إلي مكة وأن نجائبه تقاد معه وقال جرير : بايع أهل الكوفة الحسن وأحبوه أكثر من أبيه )[٢٦٩] ، ( - - - أخرج الحسن من ماله لله مرتين وقاسم الله ماله ثلاث مرات ، حتي أنه كان يعطي نعلاً ويمسك نعلاً ويعطي خفاً ويمسك خفاً - - )[٢٧٠] وهناك العديد والعديد من المواقف الرائعة والمناقب التي لا يمكن حصرها في هذا المقام

---

[٢٦٨] تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٧٧

٢٦٩ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٧٧

٢٧٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٥٢

ويكفي أن نقول أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحبه ويدعوا الله له أن يحبه ( – – وأخرج الشيخان عن البراء قال : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم والحسن علي عاتقه وهو يقول : اللهم إني أحبه فأحبه ، وقد تولي الحسن بن علي الخلافة سنة ٤٠ هجرياً فأقام فيها ستة أشهر وأياماً – – )٢٧١ ثم قرر أن يصلح بين الناس ويجتمعوا علي مبايعة شخص واحد فقط لتنتهي هذه الفتنة بالرغم من وجود حشد ضخم من المقاتلين كانوا رهن يديه وعلي استعداد للقتال ولكنه فضل حقن دماء المسلمين وبايع معاوية علي الخلافة حتي أن هناك من المسلمين من كره هذا التصرف منه ولكنهم أطاعوه لقدره وفضله ، وجدير بالذكر أن الحسن عندما بايع معاوية طلب منه معاوية الصعود إلي المنبر ليتكلم ويخطب في الناس ، فصعد المنبر وحمد الله وأثني عليه ثم قال ( – – أيها الناس إن الله هداكم بأولنا وحقن دماءكم بآخرنا وإني قد أخذت لكم علي معاوية أن يعدل فيكم وأن يوفر لكم غنائمكم وأن يقسم فيكم فيأكم ، ثم أقبل علي معاوية فقال : أكذاك ؟ قال : نعم ، ثم هبط من المنبر وهو يقول ويشير بإصبعه إلي معاوية : {وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ} (١١١) سورة الأنبياء فاشتد ذلك علي معاوية – – – )٢٧٢ ( – – وقال أبو بكرة : رأيت رسول الله صلي الله عليه وسلم علي المنبر والحسن بن علي إلي جنبه وهو يقول : إن ابني هذا سيد ولعل الله أن يصلح به بين فئتين من المسلمين ، أخرجه البخاري – – )٢٧٣ ، ومن هنا يتضح أن الحسن جعله الله سبباً في انتهاء المعارك والخلافات في هذه الفترة والله أعلم وفي حديث رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الحسن رضي الله عنه إشارة إلي ذلك ، وكانت وفاته رضي الله عنه سنة ٤٩ هجرياً في خلافة معاوية بن أبي سفيان مؤسس الدولة الأموية في دمشق

- أرجو أن تحدثني عن معاوية رضي الله عنه

## ١١٥. معاوية بن أبي سفيان :

- كان معاوية بن أبي سفيان يتوقع أن يسود ويتولي الأمر في يوم من الأيام منذ أن قال له رسول الله صلي الله عليه وسلم ( – – يا معاوية إذا ملكت فأحسِن )٢٧٤ ( وكان معاوية رجلاً طويلاً أبيض جميلاً مهيباً وكان عمر ينظر إليه فيقول : هذا كسري العرب ، وعن علي قال : لا تكرهوا إمرة معاوية فإنكم لو فقدتموه لرأيتم الرءوس تندر عن كواهلها )٢٧٥ وكان يُضرب بحلم معاوية المثل وقد كان إسلام معاوية وأبيه أبي سفيان في عام فتح مكة والعام الذي تولي فيه الخلافة أطلق عليه بعض المؤرخون عام الجماعة لاجتماع الأمة علي خليفة واحد ، وظل معاوية في الخلافة عشرين سنة كاملة

---

٢٧١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٥٣

٢٧٢ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٧٨

٢٧٣ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٧٦

٢٧٤ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٥٥

٢٧٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٥٥

لا ينازعه فيها أحد وجدير بالذكر أنه قد كان والياً قبل ذلك في الشام عشرين سنة أخري ، وكانت فترة خلافته مستقرة إلي حد كبير وتولي في عهده ولاية مصر عمرو بن العاص وولاية المدينة مروان بن الحكم ، وقام بالسيطرة الكاملة علي الأمور ، وقد أراد معاوية أن يورث الخلافة لابنه يزيد

- يبدو أنه أراد أن يضع نظام مستقر وآمن لتداول وانتقال السلطة في الدولة الأموية وذلك بعد أن رأي الصراعات والخلافات التي مزقت وحدة الأمة فقرر والله أعلم أن يحصل علي المبايعة لابنه يزيد حتي تنتقل السلطة في هدوء بعد موته ، والمبايعة هي نوع من أنواع الشورى قبل اتخاذ القرار
- ( – – خطب معاوية فقال : اللهم إن كنت إنما عهدت ليزيد لما رأيت من فضله فبلغه ما أملت وأعنه ، وإن كنت إنما حملني حب الوالد لولده وإنه ليس بأهل فاقبضه قبل أن يبلغ ذلك )٢٧٦
- سبحان الله ، إنه يدعو علي ابنه بالموت حتي لا يتولي الخلافة إذا كان لا يستحقها
- ( – – وعن المنكدر قال : قال ابن عمر حين بويع يزيد ، إن كان خيراً رضينا وإن كان بلاء صبرنا – )٢٧٧ ، وما يهمنا في هذا الحوار أن نعرف أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي أسس هذه الدولة التي نحن بصدد الحديث عنها الآن وغاية ما يقال عنه ما قاله هو عن نفسه في أحد خطبه ، وإليك بعض ما قال ( – – أما بعد ، فإني والله ما وليت أمركم حين وليته إلا وأنا أعلم أنكم لا تسرون بولايتي ولا تحبونها – – – – ، ثم تحدث عن الخلفاء الذين قبله وقال : وأين مثل هؤلاء هيهات أن يدرك فضلهم أحد من بعدهم – – – فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم – – )٢٧٨
- إن لم أكن خيركم فأنا خير لكم ، يا له من تعبير
- وهكذا شعر معاوية أنه أفضل من سيقود هذه الأمة إلي الاستقرار والرخاء والأمان بالرغم من علمه التام أنه ليس أفضل من بقي من صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم ، ( – – عن ثابت مولي أبي سفيان : أنه سمع معاوية يخطب ويقول : إني لست بخيركم ، وإن فيكم من هو خير مني : عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو وغيرهما من الأفاضل ولكني عسيت أن أكون أنكاكم في عدوكم وأنعمكم لكم ولاية – – )٢٧٩

## ١١٦. ملخص العصر الأموي :

- لقد عودتني علي تلخيص كل عصر فهل يمكن تلخيص العصر الأموي أيضاً ؟
- سيكون ذلك بالطبع كما تعودنا من موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري الذي تناول العصر الأموي من صفحة ٦٠ إلي صفحة ٦٥ حيث ذكر أن الدولة الأموية استمرت في دمشق من سنة ٤٠ هجرياً ٦٦١ ميلادياً إلي سنة ١٣٢ هجرياً ٧٥٠ ميلادياً أي حوالي ٨٩ سنة ، تولي فيها الخلافة ١٢

---

٢٧٦ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٣٢٨

٢٧٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٥٧

٢٧٨ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٣٧٩

٢٧٩ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٣٧٩

خليفة وتولي خلالها علي مصر ٢٥ والياً كان أولهم عمرو بن العاص الذي عينه معاوية وظل والياً إلي أن توفي بها سنة ٦٦٤ ميلادياً ، وأشهر من تولي حكم مصر في العهد الأموي من الولاة عمرو بن العاص وعتبة ابن أبي سفيان أخو معاوية وعبد العزيز بن مروان بن الحكم في خلافة أبيه ثم أخيه ، وقرة بن شريك العبسي في خلافة الوليد بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل في خلافة عمر بن عبد العزيز ، وبشكل عام كانت ولاية مصر من الأمور المهمة جداً في الخلافة الأموية ، أما أشهر خلفاء الدولة الأموية بعد معاوية ، ابنه يزيد وعبد الملك بن مروان وأولاده الوليد بن عبد الملك الذي بُني في عهده المسجد الأموي الشهير في دمشق وسليمان بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك وابن عمهم عمر بن عبد العزيز بن مروان ولنا هنا وقفة قصيرة عند عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه

- رضي الله عنه

## ١١٧. عمر بن عبد العزيز

- يعتبر عمر بن عبد العزيز من أفضل خلفاء الدولة الأموية كما رأي المؤرخون فإن هناك العديد من المواقف التي تشهد بفضله وعدله وورعه وتقواه ، فمن الطريف أن الصحابي الشهير أنس بن مالك رضي الله عنه طال به العمر حتي أنه صلي وراء عمر بن عبد العزيز عندما كان أميراً علي المدينة المنورة فقال عنه ( ما صليت وراء إمام بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم أشبه صلاة برسول الله من هذا الفتي ، يعني عمر بن عبد العزيز )[٢٨٠] وأعتقد أن هذه شهادة من أحد كبار الصحابة تشير إلي الكثير من المعاني عن هذا الخليفة الأموي الذي يحلو للبعض أن يصفه بخامس الخلفاء الراشدين وقد كانت فترة خلافته رخاءاً عم كل أنحاء الأمة حتي أنه لم يعد هناك فقيراً في الأمة الإسلامية كلها في عهده ( عن عمر بن أسيد قال : والله ما مات عمر بن عبد العزيز حتي جعل الرجل يجئ بالمال العظيم فيقول : اجعلوا هذا حيث ترون ، فما يبرح حتي يرجع بماله كله ، قد أغني عمر الناس )[٢٨١] وجدير بالذكر أنه حفيد عمر بن الخطاب من ناحية الأم كما نعلم جميعاً وكان خلفاء بني أمية بشكل عام يكثرون من الفتوحات الإسلامية ويسعون إلي استقرار الأمة ورخاءها وكان آخرهم مروان بن محمد بن مروان الذي يعتبر آخر خليفة أموي في دمشق كما سنذكر ذلك في حينه

- فما هي أهم الأحداث التي وقعت في العصر الأموي ؟

## ١١٨. أهم الأحداث في العصر الأموي

- في الحقيقة تعتبر الأحداث التي دارت في هذا العصر في الدولة الإسلامية بشكل عام من أخطر الأحداث في تاريخ الإسلام وأهمها مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، ثم خلافة عبد الله بن الزبير الذي قاتل بني أمية وسيطر علي الأمة الإسلامية بالكامل تقريباً لفترة من الوقت

---

٢٨٠ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٣ صـ ٢٩٤

٢٨١ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٣ صـ ٢٩٨

كأميراً للمؤمنين وأرسل والياً علي مصر هو عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم الفهري ، وهذين الموضوعين من الموضوعات المهمة جداً في تاريخ هذه الفترة كما أن هناك أموراً وتغيرات قد حدثت في مصر خلال عصر الأمويين ، وأنا متردد في ذكر أحداث مقتل الحسين وخلافة ابن الزبير رضي الله عنهما ، فهل أذكر هذه الأحداث أم استمر في تناول تاريخ مصر فقط خلال العصر الأموي ؟

- وما الذي يجعلك متردداً هكذا ؟
- لأنها موضوعات حساسة جداً وقد لا أتمكن من شرحها بطريقة صحيحة فأقع في المحظور
- لا تقلق طالما أنك تتناول الأحداث من المراجع
- وعلي العموم لا مانع من الإشارة باختصار إلي هذه الأحداث نظراً لأهميتها التاريخية وتأثيرها علي جميع الولايات الإسلامية بما فيها مصر ، ولكن اسمح لي أن أوجز بقدر المستطاع فقد لا أشبع رغبتك في معرفة هذه الأمور بدرجة كبيرة ولكن سوف أذكر أهم النقاط التي تهمك وأول ما سوف أتحدث معك فيه في هذا الحوار الآن هو موضوع مقتل الإمام الحسين بن علي رضي الله عنهما ثم موضوع عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ثم تطورات الأحداث بعد ذلك والجدير بالذكر أن عصر الأمويين عموماً يتميز بالعديد والعديد من الفتوحات الإسلامية[٢٨٢] التي يصعب حصرها واختصارها في هذا الفصل كما اتسم عصر الدولة الأموية بوحدة الدولة ككل والتمسك بكل ما هو عربي من حيث الهوية والثقافة واللغة وسوف نري بعد ذلك عند قيام الدولة العباسية مدي انفتاحها علي ثقافات أخري خلاف الثقافة العربية
- فلنتحدث عن الحسين رضي الله عنه

## ١١٩. مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه

- ( - - قال رسول الله صلي الله عليه وسلم " حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسيناً ، حسين سبط من الأسباط " قال الترمذي : هذا حديث حسن - - )[٢٨٣] ومن هنا يتضح فضل الحسين ومدي حب رسول الله صلي الله عليه وسلم له ، وهناك العديد من المواقف التي تدل علي فضله وقدره عند المسلمين أظنك تعرفها جيداً وقد وعدتك بالإيجاز الشديد وسأكتفي بذكر أحداث مقتله رضي الله عنه شهيداً في كربلاء ، وتبدأ القصة عندما مات معاوية بن أبي سفيان وتولي الخلافة من بعده ابنه

---

[٢٨٢] إذا حسبنا عدد من أتيحت له الفرصة للدخول في الدين الإسلامي نتيجة لفتوحات الدولة الأموية لوجدناهم أعداد ضخمة جداً في مناطق متعددة من العالم في ذلك الوقت ونحسب إن شاء الله أن كل صلاة وزكاة وأعمال صالحة والله أعلم قد تكون في ميزان حسنات هؤلاء الفاتحين فالدولة الأموية تذخر بالعديد من الفتوحات الإسلامية الرائعة التي أتاحت الفرصة لنشر الإسلام في ربوع الأرض عن طريق إعطاء الفرصة للدعاة للوصول إلي مناطق لم يكن من الممكن الوصول إليها قبل الدولة الأموية والتي نسأل الله سبحانه وتعالي أن يجعل كل هذا في ميزان حسناتهم وكل فاتح في كل عصر من عصور الإسلام

[٢٨٣] تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٤٤٥

يزيد بن معاوية فلم يدخل في طاعته ( الحسين بن علي ولا عبد الله بن الزبير ولا من شايعهما )٢٨٤ فأما عبد الله بن الزبير فقد عاذ بالبيت الحرام بمكة وأما الحسين بن علي فقد بايعه أهل الكوفة علي الخلافة فتوجه إليهم وقد نصحه الكثيرون بعدم الخروج إلي الكوفة ومن بين الناصحين كان أبو سعيد الخدري رضي الله عنه حيث قال له ( – – يا أبا عبد الله إني لك ناصح ومشفق ، وقد بلغني أن قوماً من شيعتكم كاتبوك ، فلا تخرج فإني سمعت أباك بالكوفة يقول : والله إني مللتهم وأبغضوني وملوني ، وما بلوت منهم وفاء ، ومن فاز بهم فإنما فاز بالسهم الأخيب ، والله ما لهم ثبات ولا عزم ولا صبر علي السيف – – )٢٨٥ وكان من بين الناصحين له أيضاً عبد الله بن عمر وعبد الله بن عباس ولكن الحسين رضي الله عنه صمم علي التوجه إلي العراق ليجتمع مع من بايعوه ويقاتل بني أمية وكان بنو أمية في ذلك الوقت قد تمكنوا من السلطة وسيطروا علي كافة ولايات الأمة الإسلامية ولم يكن الموقف السياسي مشابهاً عندما بويع الحسن رضي الله عنه فهناك فارق كبير بين سيطرة الأمويين في عهد مبايعة الحسن بن علي وبين سيطرتهم عند خروج الحسين بن علي رضي الله عنهما ، فقد كان للحسن قوة ضخمة قادرة علي قتال بني أمية عندما تنازل عن الخلافة لمعاوية ، أما الموقف بالنسبة للحسين فقد كان مختلف تماماً عندما رفض مبايعة يزيد بن معاوية ، وكان يزيد ومروان في قلق شديد عندما عرفوا بخروج الحسين وكان والي الأمويين علي الكوفة في ذلك الوقت اسمه عبيد الله بن زياد ، فأرسل إليه يزيد ومروان رسالة يدعونه فيها لصد الحسين عند وصوله إلي الكوفة وقال في رسالته ( – – إن حسيناً صائر إلي الكوفة – – وقد ابتلي به زمانك من بين الأزمان وبلدك من بين البلدان وأنت من بين العمال – – )٢٨٦ ، ( وقال الحسين لأصحابه : قد ترون ما يأتينا ، وما أري القوم إلا سيخذلوننا ، فمن أحب أن يرجع فليرجع ، فانصرف عنه جماعة ، وبقي فيمن خرج معه من مكة ، فكانت خيلهم اثنين وثلاثين فرساً وأما ابن زياد " والي الكوفة " فجمع المقاتلة وأمر لهم بالعطاء – – )٢٨٧ ، وبالفعل أيقن الإمام الحسين رضي الله عنه أنه مقتول لا محالة ( – – فقام في أصحابه ، فحمد الله وأثني عليه ، ثم قال : قد نزل بنا ما ترون ، إن الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها واستمرت حتي لم يبق منها إلا صبابة كصبابة الإناء وإلا خسيس عيش كالمرعي الوبيل ، ألا ترون الحق لا يُعمل به ، والباطل لا يتناهي عنه ، ليرغب المؤمن في لقاء الله ، وإني لأري الموت إلا سعادة ، والحياة مع الظالمين إلا برما – – )٢٨٨ وقاتل الحسين ببسالة وشجاعة حتي أصابه سهم قاتل ثم قطعوا رأسه وأرسلوها إلي يزيد بن معاوية ، ثم ندم يزيد بعد ذلك علي ما حدث للحسين ( فكان يقول : وما علي لو

---

٢٨٤ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٣٢٧

٢٨٥ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٣٩٩

٢٨٦ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٤٠٢

٢٨٧ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٤٠٢

٢٨٨ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٤٠٣

احتملت الأذي وأنزلت الحسين معي ، وحكمته فيما يريد ، وإن كان علي في ذلك وهن في سلطاني حفظاً لرسول الله صلي الله عليه وسلم ورعاية لحقه وقرابته – – )٢٨٩ ، وكانت هذه قصة مقتل الإمام الحسين رضي الله عنه شهيداً في كربلاء بإيجاز شديد وقد هز هذا الحدث الأمة بالكامل وللآن لا يزال الشيعة يبكون ويندمون علي عدم نصر الحسين ويبالغون في ذلك أشد المبالغة

- فماذا عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما ؟

## ١٢٠. عبد الله بن الزبير أميراً للمؤمنين

- يعتبر عبد الله بن الزبير بن العوام هو أول من وُلِد في المدينة بعد الهجرة للمسلمين وفرح بولادته المسلمون جميعاً لذلك يطلقون عليه أول مولود في الإسلام ، وأبوه هو الزبير بن العوام رضي الله عنه حواري رسول الله صلي الله عليه وسلم وأحد العشرة المبشرين بالجنة وأمه أسماء بنت أبي بكر ( ذات النطاقين ) رضي الله عنها ، وعبد الله بن الزبير من قريش وتحديداً من بني أسد ( – – وكان صواماً قواماً طويل الصلاة وصولاً للرحم ، عظيم الشجاعة ، قسم الدهر ثلاث ليال ، ليلة يصلي قائماً حتي الصباح ، وليلة راكعاً وليلة ساجداً حتي الصباح )٢٩٠ ، وظل عبد الله بن الزبير علي موقفه من عدم مبايعة يزيد بن معاوية حتي مات يزيد ، فلما مات يزيد بويع عبد الله بالخلافة وأصبح أميراً للمؤمنين بينما بايع أهل الشام معاوية بن يزيد بن معاوية علي الخلافة ولم تدم خلافته في بني أمية طويلاً ثم بايعوا مروان بن الحكم ، وهنا لنا وقفة فيما ذكره الإمام الحافظ جلال الدين السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء فهو لم يعتبر مروان خليفة بل أقر عبد الله بن الزبير في قائمة الخلفاء واعتبره الخليفة التاسع واعتبر مروان خارجاً عليه ، بل اعتبر عبد الملك بن مروان أيضاً خارجاً عليه إلي أن مات عبد الله بن الزبير ، ثم بعد ذلك اعتبر السيوطي عبد الملك بن مروان الخليفة العاشر في قائمة الخلفاء ، وجدير بالذكر أن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أطاعه أهل الحجاز واليمن والعراق وخراسان في بداية خلافته ثم أرسل والياً علي مصر أيضاً ، وكان مروان بن الحكم ومن معه علي عداء شديد مع عبد الله بن الزبير واستطاع مروان أن ينتزع مصر من عبد الله بن الزبير وولي عليها ابنه عبد العزيز بن مروان سنة ٦٨٥ م ، وكان لمروان أبناء منهم عبد العزيز ومحمد وعبد الملك ، وكان عبد الملك بن مروان فقيهاً عابداً حتي أن عبد الله بن عمر عندما كبر سنه قال له البعض ( إنكم معشر أشياخ قريش يوشك أن تنقرضوا فمن نسأل بعدكم ؟ فقال : إن لمروان ابناً فقيهاً فسلوه – )٢٩١ وعن ابن عمر أنه قال : ولد الناس أبناء وولد مروان أباً٢٩٢ وهناك قصة طريفة عن عبد الملك بن مروان عندما رأي جيشاً متوجهاً لقتال عبد

---

٢٨٩ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٤٠٧

٢٩٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صـ ١٦٨

٢٩١ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٣ صـ ٥١

٢٩٢ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٣ صـ ٥١

الله بن الزبير أرسله مروان أبوه ، فاستوقف عبد الملك أحد المقاتلين في هذا الجيش ودار هذا الحوار الذي يرويه المقاتل نفسه ( -- - قال عبد الملك : أمن هذا الجيش أنت ؟ قلت : نعم ، قال : ثكلتك أمك ، أتدري إلي من تسير ؟ إلي أول مولود ولد في الإسلام ، وإلي ابن حواري رسول الله صلي الله عليه وسلم وإلي ابن ذات النطاقين ، وإلي من حنكه رسول الله صلي الله عليه وسلم أما والله إن جئته نهاراً وجدته صائماً ولئن جئته ليلاً لتجنده قائماً ، فلو أن أهل الأرض أطبقوا علي قتله لأكبهم الله جميعاً في النار - - ، فلما صارت الخلافة إلي عبد الملك ، وجهنا مع الحجاج حتي قتلناه )[٢٩٣] وبالفعل كان مقتل عبد الله بن الزبير في عهد عبد الملك بن مروان عندما أرسل الحجاج بن يوسف الثقفي إلي مكة لقتال عبد الله بن الزبير ،

- كلنا يعرف جيداً الحجاج ونسمع عنه ، فهو سيف من سيوف بني أمية ويدين لهم بالولاء الشديد
- كان عبد الملك يعرف إمكانيات الحجاج حق المعرفة وأرسله إلي مكة كما ذكرنا وحاصر ابن الزبير وضرب عليه بالمنجنيق وقاتل عبد الله بن الزبير في شجاعة لا نظير لها حتي قُتِل ، وهكذا انتهت قصة البطل الشجاع عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أمير المؤمنين العائذ بمكة بعد أن قاتل بني أمية حتي النهاية ، وجدير بالذكر أن عبد الملك بن مروان عندما مات ابن الزبير أصبح خليفة لا ينازعه أحد علي الخلافة إلي أن مات وتولي الخلافة أبناءه من بعده ، وأقر أخيه عبد العزيز بن مروان والياً علي مصر إلي أن مات عبد العزيز وهو والي عليها ،
- ما يلفت النظر في هذه الأحداث هو اختلاف نظرة عبد الملك لعبد الله بن الزبير قبل وبعد وصول الخلافة إليه ، فهو قبل أن يموت مروان والده وقبل أن يصبح خليفة كان يري عبد الله بن الزبير ذو مكانة دينية عالية ورفيعة ويقدر قدره وفضله وتقواه ، أما بعد أن أصبح عبد الملك مسئولاً عن الأسرة الأموية وقائداً لها ، أصبح عبد الله بن الزبير في نظره مجرد خصماً سياسياً عنيداً يجب ردعه ولو بالقوة حتي تجتمع الأمة تحت قيادة أموية وتستمر السيادة للأمويين فأرسل إليه الحجاج وزوده بجيش قوي ليقضي علي سلطته مما أدي إلي مقتله رضي الله عنه ،
- نعم ونلاحظ أيضاً مدي شدة الأمويين ضد من يقف في طريق سيادتهم السياسية وتوليهم السلطة مما أدي إلي إطاحتهم بكل المعارضين لهم مهما كانت مكانتهم الدينية عند المسلمين بل عند الأمويين أنفسهم ،
- أي يمكن القول أن بني أمية قد أيقنوا أنهم قادة لا نظير لهم وأن من حقهم تولي أمر هذه الأمة مع علمهم التام أن هناك من هو خير منهم من حيث المكانة الدينية ونذكر معاً ما قاله معاوية بن أبي سفيان مؤسس هذه الدولة بعد أن استمد شرعية حكمه من مبايعة الحسن بن علي رضي الله عنه

---

٢٩٣ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٣ صـ ٥٢

حيث قال معاوية كما ذكرت من قبل ( فإن لم تجدوني خيركم فأنا خير لكم – – ) ، فكيف كانت أحوال مصر خلال العصر الأموي ؟

## ١٢١. أحوال مصر في العصر الأموي :

- حسناً فلنعود مرة أخري إلي مصر لنتعرف معاً علي أهم وأبرز الأحداث التي تمت فيها خلال العصر الأموي ، وقد ذكرت أن عمرو بن العاص قد تولي للمرة الثانية ولاية مصر عندما سيطر عليها الأمويون وظل والياً عليها إلي أن مات في عيد الفطر سنة ٤٣ هجرياً علي الأصلح فصلي ابنه عليه ثم رجع فصلي الناس صلاة العيد ، ثم ولي مصر بعده عتبة أخو معاوية فبقي سنة ومات فولي مصر مسلمة بن مخلد[٢٩٤] ،
- عفواً ، قبل أن تسترسل في الحديث عن أحوال مصر في العصر الأموي هل يمكن أن نتوقف قليلاً عند وفاة عمرو بن العاص رضي الله عنه فلعلك لاحظت أن هذه الشخصية عاشت معنا في هذا الحوار منذ الكلام عن فتح مصر وحتي الآن ، وكان من الممكن أن يموت عمرو قبل إسلامه وهو في موقف العداء من المسلمين ، وكان أيضاً من الممكن أن يموت ورسول الله صلي الله عليه وسلم علي قيد الحياة أو أثناء خلافة الراشدين عندما كان في قمة عطاءه للإسلام واشتراكه في الفتوحات الإسلامية ، ولكن قدّر الله له أن يموت في المرحلة الثالثة من حياته وأقصد بها مرحلة النزاع بين الحجاز والشام والفتن والصراعات السياسية وقد وقف في صف معاوية كما ذكرت ،
- بالفعل إن شخصية عمرو بن العاص رضي الله عنه فاتح مصر شخصية ثرية جداً وحياته حافلة بالأحداث وسوف أتلو عليك ما قاله عمرو بن العاص رضي الله عنه نفسه وهو يتكلم عن مراحل حياته في لحظاته الأخيرة في الحياة وهو علي فراش الموت حيث قال : ( – – إني كنت علي ثلاث أطباق ليس منها طبقة إلا عرفت نفسي فيها : كنت أول شئ كافراً وكنت أشد علي رسول الله صلي الله عليه وسلم فلو مت حينئذ لوجبت لي النار ، فلما بايعت رسول الله صلي الله عليه وسلم كنت أشد الناس منه حياء ، ما ملأت عيني منه ، فلو مت حينئذ لقال الناس هنيئاً لعمرو أسلم علي خير ومات علي خير أحواله ، ثم تلبست بعد ذلك أشياء فلا أدري أعليّ أم لي – – وعن عبد الله بن عمرو أن أباه قال حين احتضر : اللهم أمرت بأمور ونهيت عن أمور تركنا كثيراً مما أمرت ووقعنا في كثير مما نهيت اللهم لا إله إلا أنت – – )[٢٩٥] وروي أنه قال : اللهم خذ مني حتي ترضي ،
- إن عمرو بن العاص قد أحبه المصريون كثيراً حتي الآن فهو صاحب أول بيت من بيوت الله في مصر وأفريقيا والمعروف حالياً باسم جامع عمرو ( الجامع العتيق ) في الفسطاط ، اللهم ارحم عمرو بن العاص واغفر له وارض عنه آمين ،

---

٢٩٤ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٩٦

٢٩٥ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج٢ صـ ٢٩٩

- نعود مرة أخري للحديث عن مصر وأحوالها في العصر الأموي ، وقد كانت القبائل اليمنية هي التي تشكل الأغلبية العربية عند فتح مصر في عهد الراشدين وحتي بداية عهد الأمويين ولكن حدث في خلافة هشام بن عبد الملك بن مروان أن زادت هجرة القبائل القيسية إلي مصر ( – – ويبدو أن هجرة هذه القبائل من قيس كانت تتصل بالسياسة العامة لهشام في الدولة كلها إذ كان هشام يرمي إلي إضعاف شأن القبائل اليمنية بالإعلاء من مركز القيسية – – )[٢٩٦] واستمر توافد قيس علي مصر إلي نهاية العهد الأموي ، وهذا الموضوع في الحقيقة يعتبر من أهم الأحداث التي تمت في مصر أثناء العصر الأموي فهي نقطة مهمة في تكوين الشعب المصري بعد فتح مصر ،
- بالتأكيد فهذا الشعب علي مر العصور السابقة قد توافد عليه العديد من الشعوب سواء بالهجرة السلمية مثل الليبيين أو للعمل كجنود مرتزقة وتجار مثل الإغريق ، والإغريق قد اتخذوا الإسكندرية وبعض المدن الأخري موطناً لهم وبدأ هذا الخليط من الشعوب يندمج مع الشعب المصري ولكن مع احتفاظ هذا الشعب بعاداته وتقاليده ولغته أيضاً ،
- بالطبع ولكن الأمر قد اختلف مع الفتح العربي فقد تغيرت مع الوقت لغة المصريين وتحدثوا باللغة العربية ودخل معظمهم الديانة الإسلامية وشعر المصريون بأن المسلمين لا يعرفون العنصرية أو تغلب جنس علي جنس واحتقار جنس لجنس مثلما كان الرومان وغيرهم من الغزاة يحتقرون الشعوب التي تحت قيادتهم ، ويعتبرونهم اقل شأناً ( – – فكل مواطن مسلم في هذه الدولة يعد من أصحابها وله الحق في ولاية وظائفها العامة وقيادة جيوشها والاشتراك في وضع التشريع الخاص بها علي عكس ما كانت عليه الإمبراطورية الرومانية التي اعتبرت كل من هو غير روماني متبرراً أجنبياً عنها ولا يتمتع بحقوق المواطنة الرومانية التي تتيح لحاملها فقط تولي الوظائف العامة أو الإشتراك في الجيش –)[٢٩٧]

ويقول د محمود الحويري في كتابه الممتع مصر في العصور الوسطي ( – – ومما يجدر ذكره أن كلمة وطن في الدولة الإسلامية لم تكن معروفة بالمعني الذي نفهمه في الوقت الحاضر ، ونقصد أن الوطن روابط وجدانية بقدر ما هو أرض جغرافية وحدود سياسية ، فقد عبر مفهوم المواطنة في الدولة الإسلامية عن وحدة الشعوب المختلفة داخل الخلافة الإسلامية ، والوطن والخلافة الإسلامية كانا شيئاً واحداً يجتمع الولاء لهما ، وبذلك صار الوطن لا يعني أكثر من مكان يولد فيه المرء فحسب ، بل هو لجميع المسلمين ، ومما يدل علي ذلك أن المصادر الإسلامية عندما كانت تتناول سيرة شخصية ما ، كانت تقول علي سبيل المثال : فلان القاهري المولد ، الدمشقي الإقامة ، البغدادي الوفاة ، ولا يقال فلان المصري أو الشامي أو العراقي – -- – ومن ثم فإن دخول مصر أو غيرها في طاعة الإسلام لم يكن معناه أنها أصبحت ولاية خاضعة يحكمها جنس غالب ، كما كان الحال مع الإمبراطوريات

---

٢٩٦ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ٥٧

٢٩٧ مصر في العصور الوسطي " الأوضاع السياسية والحضارية " ( د محمود الحويري ) صـ ٦٩

المعروفة في التاريخ ، وإنما كان معناه أنها جزءاً من هذه الدولة العامة – – )[٢٩٨] ، وقد أبقي العرب علي النظم الإدارية التي وجدوها في مصر وغيرها من البلاد لفترة طويلة بل جعلوا للمصريين الوظائف الرسمية في الدولة واكتفي العرب بالقيادة العسكرية والدينية كإمامة الصلاة بالطبع ، ومن الأمور الجديرة بالذكر أن عبد العزيز بن مروان أحد ولاة مصر في العصر الأموي بني مدينة حلوان وجعلها مقراً له وبني مقياساً للنيل بها كما تم بناء مقياس كبير في الروضة في خلافة سليمان بن عبد الملك ، وكان اهتمام الولاة بالنيل وأنظمة الري اهتماماً كبيراً ،

- إن اهتمام أي نظام حاكم بتنظيم الري يؤكد مدي تفهمه لطبيعة مصر علي مر العصور
- وعملوا علي زيادة المحاصيل وتشجيع الزراعة والصناعة ، وكانت الجزية التي فرضها المسلمون علي أهل الذمة جزية عادلة كما ذكرنا وتم إعفاء غير القادرين من سدادها كالأطفال والشيوخ والنساء وهناك موقف غاية في الروعة حدث في خلافة عمر بن عبد العزيز بن مروان عندما كان والي مصر أيوب بن شرحبيل الذي أرسل إلي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز يشكو قلة قيمة الخراج ( المال الذي يتم جمعه في مصر ) وكان النقص ناتج عن زيادة عدد المصريين الذين أسلموا وبالتالي لم يعد بإمكانه فرض الجزية عليهم واستئذن الوالي الخليفة في أن يفرض جزية علي من أسلم حتي يحافظ علي دخل الدولة ، فرد عليه الخليفة عمر بن عبد العزيز رده المشهور ( – – قبح الله رأيك ، إن الله إنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً ، فضع الجزية عمن أسلم ولعمري لعمر أشقي من أن أجل الناس كلهم في الإسلام علي يديه – – )[٢٩٩] ، ومن الأمور المهمة التي حدثت في مصر خلال العصر الأموي أن عبد الله بن عبد الملك بن مروان أحد ولاة مصر في هذا العصر أمر الدواوين فنسخت باللغة العربية في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان وكانت تكتب حتي عهده باللغة القبطية[٣٠٠] وكان عمر بن عبد العزيز أول من أمر بأن يتولي المسلمون الوظائف الرسمية في الدولة[٣٠١] ،
- بالطبع هناك العديد من الأحداث التي تمت في مصر خلال العصر الأموي ولن يتسع المقام لذكرها ، لذلك فلنكتفي بأهم الأحداث فقط
- عموماً غاية ما يمكن أن يقال عن مصر في العصر الأموي أنها كانت تتمتع بمكانة خاصة عند خلفاء بني أمية حتي أن اختيار الوالي علي مصر كان يتم بعناية فائقة وقد ذكرنا أن الوالي أحياناً يكون ابن الخليفة أو أخوه أو أحد الموثوق بهم واستمر وضع مصر علي هذا المنوال حتي انهيار الدولة الأموية علي يد العباسيين وكان آخر خليفة أموي هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم وقد هرب إلي مصر

---

٢٩٨ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صـ ٦٩

٢٩٩ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ٦٥

٣٠٠ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صـ ٦٢

٣٠١ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صـ ٦٤

من العباسيين بعد هزيمة الجيش الأموي أمام الجيش العباسي ولاحقه العباسيون إلي مصر وقتلوه بها وانتهت بذلك الدولة الأموية في الشام ، حيث قام عبد الرحمن الأموي بعد ذلك بتأسيس دولة لبني أمية في الأندلس واستمرت لفترة طويلة من الزمن وكانت معاصرة للخلافة العباسية في بغداد بل وللخلافة الفاطمية بعد ذلك في القاهرة لفترة طويلة من الزمن ،

- إرجو إذا أمكن أن نستعرض إن شاء الله أسباب انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية وما واكب ذلك من أحداث وأهم السمات التي تميز كل دولة منهم وعلاقة مصر بكل هذا وكيف أصبحت ولاية عباسية وأحوالها خلال تلك الفترة ، لنتعلم من دروس التاريخ ، ولكن قبل ذلك ، أريد أن أعرف هل كان هناك ولاة علي مصر في العصر الأموي يمكن أن نتحدث عنهم كما تحدثنا عن عمرو بن العاص وعبد العزيز بن مروان وعبد الله بن عبد الملك وأيوب بن شرحبيل
- بالطبع هناك ولاة مشهورين في العصر الأموي غير هؤلاء كمسلمة بن مخلد وقرة بن شريك علي سبيل المثال
- حسناً فلتحدثني أولاً عن الوالي مسلمة بن مخلد ثم عن قرة بن شريك

## ١٢٢. الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري

- تولي مسلمة بن مخلد حكم مصر سنة ٦٦٧م في عهد الخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان، وأثناء ولايته خرج الأسطول المصري بقيادة عبد الله بن قيس سنة ٦٦٨م من ترسانة الإسكندرية لغزو جزيرة صقلية حيث وجد الحامية البيزنطية بصقلية من الضعف بحيث أحرزت أساطيل عبد الله بن قيس عدة انتصارات عليها ، غير أن عبد الله بن قيس قنع بما غنمه ولم يحاول البقاء بصقلية أو استثمار انتصاراته السابقة وعاد بأسطوله المظفر إلي مصر محملاً بالغنائم ، ورداً علي هذه الغزوة البحرية قام الأسطول البيزنطي بغارة علي السواحل المصرية عند البرلس سنة ٦٧٣م ، ونتيجة لهذا النشاط البحري المستمر أنشأ الوالي مسلمة بن مخلد داراً لصناعة السفن جديدة بجانب ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم وهي ترسانة بابليون سنة ٦٧٤م ،
- ثلاثة ترسانات لصناعة السفن في مصر ، يا لها من قوة في عصر الولاة
- ولقد توفي مسلمة بن مخلد والي مصر في عهد الخليفة الأموي يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد أن بني في الروضة مقياساً للنيل وداراً للصناعة وعامل القبط بالعطف وشملهم بالرعاية فقد سمح لهم بأن يبنوا كنيسة في الفسطاط وعني ببناء المساجد وإصلاحها ، فقد أمر سنة ٦٧٣م بهدم جامع عمرو بن العاص وبنائه من جديد بالآجر بعد أن كان مبنياً باللبن في عهد عمرو وكان يقيم الصلاة بنفسه طول مدة ولايته ، غير أن أعظم أعماله جميعاً هو استقباله لأهل بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وعلي رأسهم السيدة زينب بعد معركة كربلاء وقتل معظم أهل البيت ، فأخلي بيته ليقيموا فيه وهو البيت الذي

تحول إلي مسجد السيدة زينب بعد موتها ولا يزال[٣٠٢] ، ( وتشير معظم المراجع إلي دخول السيدة زينب رضي الله عنها مصر في مستهل شهر شعبان سنة ٦١هـ الموافق ٢٦ إبريل سنة ٦٨١م وما إن وصلت إلي مدينة بلبيس حتي كان في استقبالها مسلمة بن مخلد الأنصاري والي مصر ورهط من كبار الأمراء والعلماء وجمع من عامة المسلمين وبكي مسلمة وبكت السيدة زينب ويصل الموكب إلي مدينة الفسطاط ويخصص لها الوالي داره الشهيرة معززة مكرمة وكانت فيها موضع إجلال المصريين وتقديرهم ، وكانوا يغدون إلي دارها ملتمسين دعواتها ، مستمعين إلي ما ترويه من أحاديث نبوية شريفة وآداب رفيعة ، كما كان ديوان الحكم يعقد في هذه الدار ، والوالي والأمراء يستفتونها من خلف حجاب في أمور الدين والدنيا ، فاشتهرت عند العامة من أهل مصر حتي يومنا هذا بلقب رئيسة الديوان ، وإلي رحاب الله تنتقل السيدة الطاهرة يوم الأحد لأربع عشرة مضت من رجب سنة ٦٢ هـ الموافق ٢٧مارس سنة ٦٨٢ م فمهدت لها الأرض في خلوتها من دار مسلمة حيث أقامت ، وضريحها كان في الجهة البحرية من دار الوالي مسلمة بن مخلد مشرفاً علي الخليج الذي كان يخرج من النيل عند فم الخليج حالياً ، وفي عصر الدولة الطولونية كان المشهد الزينبي أحد مشاهد آل البيت التي أمر أحمد بن طولون بتجديدها وعمارتها ، وفي عصر الدولة الفاطمية كان المعز لدين الله أول من شيد عليه بناءاً أما الحاكم بأمر الله فقد اختص ضريحها بأوفر نصيب من الأوقاف ، وظل هذا الضريح موضع عناية جميع الدول التي تعاقبت الحكم ، وفي القرن السادس الهجري في زمن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب شهد هذا المسجد عمارة وتجديداً برعاية الأمير فخر الدين اسماعيل الجعفري نقيب الأشراف الزينبيين ، ويشير العلامة المؤرخ الجبرتي إلي أن الأمير عبد الرحمن كتخدا أعاد تشييد مسجد السيدة زينب ، وفي عهد الخديوي توفيق شهد المسجد تجديدات وعمارة شاملة واستمرت أعمال التجديدات حتي العصر الحالي)[٣٠٣]

- إذن فهذا سبب تسميته رضي الله عنها رئيسة الديوان ، ويبدو أن الوالي مسلمة بن مخلد كان من أفضل ولاة مصر في العصر الأموي ، فماذا عن الوالي قرة بن شريك ؟

## ١٢٣. الوالي قرة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلي المدن :

- تولي قرة بن شريك حكم مصر سنة ٧٠٩م في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك ، وقام ابن شريك باستصلاح بركة يطلق عليها بركة الحبش بظاهر الفسطاط وغرس بها القصب ، وظلت عامرة بالبساتين وأشجار الفاكهة حتي القرن الرابع الهجري ، ولقد تجلت في ولاية قرة بن شريك علي مصر

---

[٣٠٢] نقلاً باختصار عن كتاب هؤلاء حكموا مصر من مينا إلي مبارك إعداد حمدي عثمان – المراجعة العلمية د ناصر الأنصاري – الهيئة المصرية العامة للكتاب – الطبعة الثانية– صفحة ٢١٤–٢١٥

[٣٠٣] مقتطفات مختصرة نقلاً عن كتاب – القاهرة رحلة في المكان والزمان – تأليف عرفه عبده علي –تقديم الأديب الكبير جمال الغيطاني – الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٩

ظاهرة خطيرة وهي الهجرة من الريف إلي المدن للإفادة من إمكانيات الحياة الواسعة هناك ، والمشاركة في معالمها الحيوية ، ولقد اقترنت تلك الظاهرة الإجتماعية بأزمة اقتصادية ، إذ أدي تطلع الفلاحين إلي الحياة الإجتماعية الجديدة إلي حرمان الريف من السواعد الفتية وإصابة الإنتاج الزراعي بضربة قاسية فاتخذ والي مصر قرة بن شريك عدة إجراءات للحد من هذه الظاهرة والقضاء عليها وأنشأ هيئة خاصة لإعادة كل شخص إلي موطنه الأصلي فكان لا يسمح لأي شخص بتغيير محل إقامته إلا بإذن خاص ولمدة محدودة وعلي عهد قرة بن شريك استمر بمصر ثلاث دور كبري لصناعة السفن ، الأولي في الإسكندرية ، والثانية في القلزم والثالثة في بابليون ، وكان ابن شريك شديد الاهتمام بتزويد تلك الدور بما يلزمها ملزما حكام الأقاليم بتحمل تكاليف النقل البري في حالة الإهمال ، وكانت ترسانة الإسكندرية موجهة لحوض البحر المتوسط ، سواء دفاعاً أو هجوماً ،،أما ترسانة القلزم فكانت موجهة لحوض البحر الأحمر سواء لحماية السواحل المصرية أو تقديم المساعدة لسواحل الحجاز أما ترسانة بابليون فكانت لمعاونة كل من ترسانة الإسكندرية وترسانة القلزم

- وهل قامت غزوات بحرية في عهده ؟
- لقد خرج الأسطول المصري في غزوة علي جزيرة سردينيا ، وأثناء ذلك قام الخوارج بمؤامرة لمحاولة اغتيال قرة بن شريك وهو في الإسكندرية ، لكن المؤامرة فشلت وتم القبض علي المتآمرين وكان عددهم حوالي مائة شخص
- أنها معلومات جديدة تماماً بالنسبة لي ، فقد كنت أعرف القليل عن العصر الأموي وما حدث في مصر كولاية أموية ، والآن هل من الممكن أن نتناول الصراع بين الأمويين والعباسيين ، والخلفية التاريخية لهذا الصراع ؟

## ١٢٤. بنو العباس وبنو أمية

- عندما تكلمنا معاً عن بطون قريش واستعرضنا ما ذكره العقاد عنهم في كتابه عبقرية خالد رأينا أن أهم ثلاثة بطون في قريش هم هاشم وأمية ومخزوم ، بل إن هاشم وأمية يجمعهما جد واحد أقرب من الذي يجمعهما ببني مخزوم وهو عبد مناف وبالتالي يمكن إطلاق اسم بني عبد مناف علي هاشم وأمية معاً ، بل إن أكبر دليل علي ذلك ما كان يقوله أبو جهل وهو من بني مخزوم ومن ألد أعداء الإسلام ، عندما كان يأنف من مقارنة مخزوم بهاشم وحدها أو أمية وحدها فكان يتحدث عنهما معاً فيقول ما معناه ( – – تنازعنا نحن وبنو عبد مناف : أطعموا فأطعمنا وحملوا فحملنا – – – حتي كنا كفرسي رهان ، قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء – – فمتي ندرك هذه ) ومن هنا يتضح أن هاشم وأمية يمكن أن نطلق عليهما بني عبد مناف معاً ، وقد قام الكاتب علي أدهم في كتابه الرائع صقر قريش بتحليل وتوضيح هذه القبيلة العظيمة وخاصة بني عبد مناف فقال أن الشخصيات البارزة كانت أكثرها من بني عبد مناف ( ––– ويمكننا أن نرد أكثر ما نلمحه من تلك الشخصيات إلي بيتين لعبا

أكثر دور في تاريخ العرب السياسي وهما بنو أمية وبنو هاشم وهما الشعبتان النابعتان من صلب عبد مناف ، كان بنو هاشم في مكة سدنة الكعبة وأصحاب السلطة الدينية ، أما بنو أمية فكانوا أصحاب السيادة السياسية وذوي الجاه العريض والثراء الجم – – – وقد كانوا أقدر من بني هاشم علي تصريف الأحوال الدنيوية واحتمال أعباء الحكم وقد قوي فيهم نفوذهم ورحلتهم للشام حب الاستمتاع بلذات الحياة والميل إلي فاخر العيش – – – والحياة في نظرهم مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة – – )٣٠٤

- الحياة في نظر بني أمية مادة ملموسة وليست روحاً محسوسة ، يا له من تعبير
- ويقول أيضاً عن بني أمية ( – – والحياة في نظرهم ميدان لنفوذهم وبسط سلطتهم وتمديد شخصيتهم ومتسع للغلبة والاستعلاء وإحراز الغايات )٣٠٥ ويستمر علي أدهم في وصف بني أمية ومدي حبهم للسيادة وأهليتهم لها وقدراتهم القيادية فيقول ( – – وكانوا علي ما بهم من قسوة وصرامة كرماء خبراء باجتذاب القلوب وكأنهم خُلِقوا بطبيعتهم ليحكموا ويسودوا – – – إلي أن عقمت بطون نساءهم عن مثل معاوية ومروان وعبد الملك – – )٣٠٦ وعندما لم يعد هناك رجال من وزن معاوية وأمثاله في بني أمية بدأت سيطرة الأمويين تضعف مع زيادة الدعوة لبني العباس الذي يصفها علي أدهم فيقول ( – – وأصابت الدعوة العباسية التي نُظِّمَت بدقة عظيمة وفطنة ممتازة من ضعف أبناء الأمويين مجالاً للانتشار والاشتداد – – ) وفي الحقيقة بني العباس هم أبناء وأحفاد العباس بن عبد المطلب بن هاشم عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وبالتالي هم من بني هاشم التي أصبحت تنقسم إلي عباسيين وعلويين نسبة إلي علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم وهو كما نعلم ابن عم رسول الله صلي الله عليه وسلم ويمكن القول أن بني العباس الهاشميين وبني علي بن أبي طالب الهاشميين أيضاً يطلقون علي أنفسهم آل البيت نسبة للبيت النبوي الهاشمي ، وقد أصبح الصراع بين بني أمية وبين الهاشميين بفرعيهما عباسيين وعلويين واضحاً ، وكان شعار العباسيين اللون الأسود كما هو معروف وكانوا قد عقدوا العزم علي نزع أمر الخلافة من بني أمية وتم بالفعل مبايعة أبو العباس بالخلافة وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم ومشهور بلقب ( السفاح )

- وأين تمت مبايعته ؟
- تمت مبايعته بالكوفة وقد كان العباسيون في ذلك الوقت كما ورد في كتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي صفحة ٢٠٥ ( – – والله لقد أفضت الخلافة إلي بني العباس وما في الأرض أحد أكثر قارئاً للقرآن ولا

---

٣٠٤ صقر قريش ( علي أدهم ) صفحة ٧٥

٣٠٥ صقر قريش ( علي أدهم ) صفحة ٧٦

٣٠٦ صقر قريش ( علي أدهم ) صفحة ٧٧

أفضل عابداً ولا ناسكاً منهم ) ، ( – – قال ابن جرير الطبري : كان بدء أمر بني العباس أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أعلم العباس عمه أن الخلافة تئول إلي ولده ، فلم يزل ولده يتوقعون ذلك )٣٠٧ وكانت دعوة العباسيين شعارها ( الرضا من آل محمد " صلي الله عليه وسلم " ) وعندما تم مبايعة أبو العباس ( السفاح ) في الكوفة صعد أبو العباس علي المنبر في الكوفة وقال ( – – الحمد لله الذي اصطفي الإسلام لنفسه فكرمه وشرفه وعظمه واختاره لنا وأيده بنا وجعلنا أهله وكهفه وحصنه والقوّام به والذابين عنه – – – ثم ذكر قرابتهم من رسول الله " صلي الله عليه وسلم " في آيات القرآن – – إلي أن قال فلما قبض الله نبيه قام بالأمر أصحابه " أي الخلفاء الراشدين أصحاب الأمر والأحق به " إلي أن وثب بنو حرب ومروان فجاروا واستأثروا ، فأملي الله لهم حيناً حتي آسفوه فانتقم منهم بأيدينا ، ورد علينا حقنا ليمن بنا علي الذين استضعفوا في الأرض ، وختم بنا كما افتتح بنا ، وما توفيقنا أهل البيت إلا بالله – – )٣٠٨ وكان بنو أمية قد أصبحوا في حالة ضعف في ذلك الوقت بل إنهم في بداية الصراع لم يقدّروا الموقف تقديراً صحيحاً واعتقدوا أن هذه الدعوة العباسية لن يُقدّر لها النجاح حتي أن أحد قادتهم الذين حاربوا العباسيين طلب المدد من الأمويين فتأخر عليه كثيراً وتمت هزيمته وانسحابه وقيل أنه أنشد أبياتاً من الشعر تؤكد غفلة بني أمية عما يحدث من بني العباس ووصفهم أنهم نائمون رغم أن كل فعل علي حد قوله يسبقه كلام يدل علي قرب حدوثه وقد تبدو النار من خلال الرماد :

- فهل هذا الشعر متاح معك الآن ؟
- نعم فقد أنشد :

أري خلل الرماد وميض نار – – – ويوشك أن يكون له ضرام

فإن النار بالزندين توري – – – وإن الفعل يقدمه الكلام

وإن لم يطفها عقلاء قوم – – – يكون وقودها جثث وهام

أقول من التعجب ليت شعري – – – أأيقاظ أمية أم نيام٣٠٩

ومن هنا يتضح أن الدعوة العباسية ظلت تنتشر وتتوغل في ربوع الأمة الإسلامية دون أن يشعر بأهميتها وخطورتها بنو أمية حتي أطاحت بهم وبدولتهم وجاءت الرايات السود من خراسان لتقضي علي خلافة بني أمية

- ولكن ما هي أسباب انهيار الدولة الأموية في رأي المؤرخين ؟

## ١٢٥. أسباب انهيار الدولة الأموية

---

٣٠٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٠٥

٣٠٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صفحة ٢٠٦

٣٠٩ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج ٤ صفحة ٦

- عندما نتحدث عن أسباب انهيار الدولة الأموية في دمشق نجد أن هذه الأسباب قد تعود بدون قصد إلي معاوية بن أبي سفيان نفسه فقد كان بالرغم من أنه مؤسس الدولة الأموية إلا أنه قد وضع بذور الاختلاف ورواها وهذا ما فهمته من رأي العقاد رحمه الله الذي أكد أن معاوية كان يحب سياسة ( فرق تسد ) معتمداً علي أنه قادر علي احتواء أي موقف والسيطرة علي الجميع ويبدو أنه اعتقد أن كل من سيأتي بعده من خلفاء بني أمية لهم نفس قدرته علي السيطرة واحتواء الأزمات والحفاظ علي شعرة معاوية كما يُقال ،
- ولكن هذا لم يحدث بالطبع ، أليس كذلك ؟
- بلي ، فقد كان آخر عهد الأمويين يتسم بخلفاء ليسوا من نفس وزن سابقيهم وبالتالي ظهرت بوضوح نتائج التفرقة دون أن يستطيع أحد منهم احتوائها ومن هنا توغل الضعف في الدولة وقد وجدت الدعوة العباسية في هذا الضعف أرضاً خصبة لتنمو ،
- فماذا قال العقاد عن هذا الموضوع ؟
- يقول العقاد عن سياسة معاوية ( - - فليس أضل ضلالاً ولا أجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدي وأربعين هجرية بعام الجماعة لأنها السنة التي استأثر فيها معاوية بالخلافة فلم يشاركه أحد فيها ، لأن صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الأمة كما تفرقت في تلك السنة ، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها ، إذ كانت خطة معاوية في الأمن والتأمين قائمة علي فكرة واحدة هي التفرقة بين الجميع ، وسيان بعد ذلك سكنوا عن رضي منهم بالحال أو سكنوا عجزاً منهم عن السخط والاعتراض ، وكان سكونهم سكون أيام أو كان سكون الأعمار والأعوام - - - ولم يقصر هذه الخطة علي ضرب خصومه بعضهم ببعض كما فعل في العراق حيث كان يضرب الشيعة بالخوارج ويضرب الخوارج بالشيعة ويفرق بين العشائر العربية بمداولة التقريب والإقصاء لعشيرة منهم بعد عشيرة ، بل كان يفعل ذلك في صميم البيت الأموي من غير السفيانيين - - )[٣١٠] ،
- يبدو أن هذه السياسة لا يجرؤ علي مثلها سوي نوع خاص جداً من القادة من أمثال معاوية وعبد الملك بن مروان وبعض أولاده ،
- نعم ، أما آخر خلفاء بني أمية فلم يتمكن أحدهم من احتواء الخلافات التي هي ثمرة الأشجار التي رويت بذورها في بداية العصر الأموي
- لقد اشتقت لمعرفة ما دار من صراع

## ١٢٦. الصراع بين بني أمية وبني هاشم

٣١٠ معاوية بن أبي سفيان ( العقاد ) صفحة ١١٧

- وبدأ الصراع بين العباسيين والأمويين وكان صاحب الدعوة العباسية والمسئول عنها رجل اسمه ( عبد الرحمن بن مسلم وقيل عبد الرحمن بن عثمان بن يسار )٣١١ والمشهور بأبي مسلم الخراساني ودائماً يلعب هذا النوع من الرجال دوراً رئيسياً في المساعدة علي تأسيس الدول وإقامة الحكومات فهو شخصية قاسية وقوية يكاد يصل إلي مستوي شخصية الحجاج بن يوسف الثقفي الذي لم يعاصره بالطبع ،
- أي أصبح أبو مسلم سيف بني العباس كما كان الحجاج سيف بني أمية من قبل ،
- هذه الشخصيات بالرغم من أنها شخصيات تتسم بالقسوة والعنف مع خصومهم إلا أنها تأتي في أوقات معينة لتتغير علي يديها الأحوال وكل شئ بأمر الله سبحانه وتعالي ، وما هم إلا أسباب يسببها المولي عز وجل لانهيار دول وقيام دول أخري وسبحان مسبب الأسباب ، وكان أبو العباس أول خلفاء بني العباس يعرف إمكانيات أبو مسلم جيداً ويدرك أن هذا النوع من الرجال لابد منه في هذه المرحلة الحرجة في تأسيس الدولة بالرغم من أنه كان يحذر منه ولا يأمنه ،
- أريد أن نتوقف قليلاً جداً عند شخصية أبي مسلم الخراساني الذي أجمع المؤرخون علي أنه المؤسس الحقيقي للدولة العباسية وصاحب دعوتها
- ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الرجل ما يؤكد أنه كان شخصية غير عادية فمن ذلك مثلاً كان ( - - فصيحاً بالعربي والفارسي حلو المنطق راوية للشعر عالماً بالأمور لم ير ضاحكاً ولا مزحاً إلا في وقته ، ولا يكاد يقطب في شئ من أحواله ، تأتيه الفتوحات العظام فلا يظهر عليه السرور وتنزل به الفادحة فلا يري مكتئباً وإذا غضب لم يستفزه الغضب ولا يأتي النساء إلا مرة في السنة - - )٣١٢ وحتي لا أطيل عليك سأضرب لك مثلاً واحداً فقط يصف أبا مسلم عندما يعارضه أحد في قوله أو يضعه في موقف محرج أمام الجميع أو يناقشه في كلام لا يعجبه وربما يدل هذا المثل علي الكثير فقد يصل الأمر إلي القتل ، فعندما سأله رجل عن سر اللون الأسود الذي اتخذه شعاراً للدولة العباسية أجابه أبو مسلم بالسبب ثم أمر بقتله وإليك ما ورد في كتاب تاريخ الإسلام عن هذا الموقف ( -- - روي مصعب بن بشر عن أبيه قال : قام رجل إلي أبي مسلم وهو يخطب فقال : ما هذا السواد ؟ قال " أبو مسلم " : حدثني أبو الزبير عن جابر أن النبي "صلي الله عليه وسلم" دخل مكة يوم الفتح وعليه عمامة سوداء ، وهذه ثياب الهيبة وثياب الدولة ، يا غلام اضرب عنقه - - ) وكان أبو مسلم يردد هذين البيتين من الشعر :

ذروني ذروني ما قررت فإنني - - - متي ما أهج حرباً تضيق بكم أرضي

---

٣١١ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج ٤ صفحة ١٣١

٣١٢ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج ٤ صفحة ١٣٢

وأبعث في سود الحديد إليكم – – – كتائب سوداً طالما انتظرت نهضي[٣١٣]

ومن هنا يمكن أن نعرف ملامح شخصية هذا الرجل الذي كان القتل والإطاحة بالمعارضين من أهم صفاته الشخصية كما فهمت مما قرأت عنه وقد حمل هذا الرجل راية العباسيين بكل قوة ( – – وسار بجنده إلي الكوفة حيث بايع أبا العباس السفاح بالخلافة في سنة ١٣٢ هجرياً )

- فكيف كانت المعركة الفاصلة ؟
- وتقابل جيش العباسيين مع الجيش الأموي بقيادة مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية علي ضفاف نهر الزاب الأعلي بالقرب من الموصل ، ودارت المعركة الفاصلة في جمادي الآخرة سنة ١٣٢ هـ انتهت بانتصار الجيش العباسي وفرار مروان إلي مصر بعد هزيمته في الزاب ووجد أهل الحوف الشرقي والإسكندرية وأهل الصعيد وأسوان قد صاروا من أنصار العباسيين ، غير أن مروان ما كاد يدخل مصر حتي لحقت به جيوش العباسيين بقيادة صالح بن علي وأبي عون عبد الملك بن يزيد ، فلم يستطع مروان مقاومتهما ، وعبر إلي الجيزة بعد أن أحرق الفسطاط ، ثم فر إلي قرية بوصير بالأشمونين ( محافظة بني سويف ) فلحق به صالح بن علي وقتله في ذي الحجة سنة ١٣٢ هجرياً ( ٧٤٩ م ) وبعث برأسه إلي العراق
- وبذلك شهدت مصر نهاية آخر خليفة أموي
- وأصبحت ولاية تابعة للخلافة العباسية بالعراق[٣١٤] ، وقد كان من أسباب نجاح الدعوة العباسية أيضاً أنها كانت تدعوا إلي الرضا من آل محمد صلي الله عليه وسلم مما جعل المسلمين يقبلون علي المبايعة وكذلك ضمنت الدعوة عدم نفور العلويين منها والذين كانوا علي قوة لا يستهان بها وينتمون أيضاً إلي البيت الهاشمي الكبير ولكن بعد استقرار الأمور للعباسيين نشات الخلافات مع العلويين وحدثت بينهم أموراً ليس هذا مقام الحديث عنها
- وماذا حدث بعد ذلك ؟
- كان أبو العباس هو أول خليفة عباسي كما ذكرنا ثم جاء بعده أبو جعفر المنصور وكان أبو جعفر لا يأمن مكر أبي مسلم الخراساني وكان ينصح الخليفة أبو العباس دائماً بأن يتخلص منه بأي أسلوب ولكن لم يوافقه أبو العباس علي ذلك فلما مات أبو العباس استطاع أبو جعفر المنصور بعد توليته الخلافة أن يتخلص من أبي مسلم الخراساني بعد أن وضعه في اختبار للطاعة ففشل فيه وعارض الخليفة في ولايته علي ولاية أخري خلاف خراسان وبذلك أعطي للخليفة العذر والمبرر في التخلص منه لعدم طاعته لأوامره بعد أن قويت شوكته ، وقبل أن أنسي أريد أن أذكر لك موقف يدل علي مدي إحساس المنصور بخطورة أبي مسلم ، فقد أرسل أبو العباس أخيه المنصور إلي أبي مسلم في

---

٣١٣ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج ٤ صفحة ١٣٣

٣١٤ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٨٤

خراسان لأمر ما ثم عاد المنصور من عند أبي مسلم وتحدث إلي أبي العباس في شأنه ( – ولما رأي أبو جعفر عظمة أبي مسلم بخراسان وسفكه للدماء ورجع من عنده قال لأخيه أبي العباس : لست بخليفة إن تركت أبا مسلم حياً ، قال : كيف ؟ قال: والله ما يصنع إلا ما يريد ، قال: فاسكت واكتمها– )٣١٥ ،

- وبالطبع قام المنصور بعد أن أصبح خليفة بالتخلص من أبي مسلم وأعتقد أن ذلك تم ولكن بصعوبة شديدة فهذا النوع من الرجال ليس من السهل التخلص منه
- نعم فقد وضعه المنصور في اختبار للطاعة وأمره بولاية ولاية لا يرغب فيها وانتظر رد فعله ولكنه تأكد من أن هذا الرجل لا يهتم بأوامر الخليفة إذا كانت لا توافق رغبته والله أعلم ، وإلي هنا ينتهي الحديث عن انهيار الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية التي اتخذت من بغداد عاصمة لها وتوالي خلفاء بني العباس عليها ،
- وطبعاً بني أمية أسسوا دولتهم في الأندلس بعد ذلك بقليل علي يد صقر قريش ( عبد الرحمن الأموي )
- نعم ولكنه لم يُلقب نفسه أميراً للمؤمنين ولكن لقب نفسه أمير الأندلس ونشأت هناك حضارة عظيمة كما نعرف كما نشأت أيضاً حضارة عظيمة في بغداد التي أسسها أبو جعفر المنصور لتكون عاصمة له وللخلفاء العباسيين من بعده ،
- فمن كان أول والي علي مصر في العصر العباسي ؟

## ١٢٧. الوالي صالح بن علي أول والي علي مصر في العصر العباسي

- تولي صالح بن علي حكم مصر سنة ٧٥٠م بعد سقوط الدولة الأموية في عهد أبو العباس عبد الله أول خليفة عباسي والمعروف بالسفاح ( فعمل علي تثبيت دعائم الحكم الجديد في مصر فأمر بتوزيع العطايا وقسم الصدقات علي الأيتام والمساكين وأبناء السبيل وأسس مدينة العسكر إلي الشمال الشرقي من مدينة الفسطاط – – وبني دار إمارة ثانية بدلاً من دار الإمارة الأموية التي كانت بالفسطاط وبمرور الأيام اتصلت مدينة العسكر بمدينة الفسطاط وأصبحت مدينة كبيرة ثم نظر في زيادة مسجد عمرو بن العاص فوسعه من الجهة الشمالية "كانت أول زيادة علي يد مسلمة بن مخلد من جهتي الشرق والشمال ، والزيادة الثانية كانت علي يد عبد العزيز بن مروان من جهة الغرب ، ثم أمر عبد الله بن عبد الملك بتعلية سقف المسجد ، والزيادة الثالثة كانت علي يد قرة بن شريك من جهتي الجنوب والشرق وأنشأ محراباً مجوفاً وطلي الأعمدة بالذهب ، والزيادة الرابعة كانت علي يد صالح بن علي من جهة الشمال " وأدخل فيه دار الزبير بن العوام وبهذا أزال النتوء الذي نتج عن إدخال داري عمرو بن العاص وابنه عبد الله بن عمرو في المسجد ، وأنشأ لذلك باباً خامساً في الجهة الشرقية – – واستمال الكثير من وجوه أهل مصر وحملهم معه صحابة للخليفة أبي العباس – – وفي عهده خرج

---

٣١٥ تاريخ الإسلام ( الذهبي ) ج ٤ صفحة ١١

الجيش العباسي إلي شمال أفريقيا مصطحباً معه أشراف مصر للقيام بدور الدعاة – – – وقد تولي صالح بن علي حكم مصر مرة ثانية في سنة ٧٥٣م قبل وفاة الخليفة أبي العباس السفاح ، وظل والياً عليها حتي سنة ٧٥٥م في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وفي ولايته الثانية علي مصر امتد سلطانه إلي المغرب وإلي فلسطين ، ويُذكر أن صالح بن علي العباسي غزا الدولة البيزنطية في سنة ٧٥٦م تلك الدولة التي دأبت جيوشها علي مهاجمة أراضي الدولة الإسلامية ، وحدث في تلك السنة فداء بين إمبراطورية الروم وبين الخليفة أبي جعفر المنصور )[٣١٦] ،

- فهل لديك معلومات عن الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور ؟
- في عهد هذا الخليفة العباسي تم بناء بغداد ، وذكر السيوطي في كتابه تاريخ الخلفاء عن المنصور ما يلي ( – – وكان فحل بني العباس هيبة وشجاعة وحزماً ورأياً وجبروتاً –– ، تاركاً للهو واللعب ، كامل العقل ، جيد المشاركة في العلم والأدب ، فقيه النفس – – )[٣١٧] وتولي المنصور الخلافة في أول سنة ١٣٧ هجرياً ( – وفي سنة ١٤٧ توطدت الممالك كلها للمنصور وعظمت هيبته في النفوس ودانت له الأمصار ولم يبق خارجاً عنه سوي جزيرة الأندلس فقط فإنها غلب عليها عبد الرحمن بن معاوية الأموي المرواني لكنه لم يتلقب بأمير المؤمنين بل بالأمير فقط – – )[٣١٨] ويقول السيوطي أيضاً أن في عهد المنصور بدأت الدولة الأموية في الأندلس ( التي يسميها السيوطي جزيرة الأندلس ) ودامت إلي بعد سنة ٤٠٠ هـ ، وكان عبد الرحمن الأموي ( من أهل العلم والعدل )[٣١٩] ، ويعتبر المنصور من الشخصيات البارزة التي يندر وجودها في التاريخ فهو من مؤسسي الدول بالفعل وفي عهده بدأ اندماج الحضارة العربية مع باقي الحضارات والثقافات علي عكس الدولة الأموية التي كانت من قبل دولة عربية بحته إذا جاز التعبير وتبنت سياسة التعريب في الأمة الإسلامية ، أما العباسيين فقد تعرفوا علي باقي الحضارات المختلفة في ذلك الوقت كالحضارة الفارسية مثلاً ، وفي عهد المنصور تم ترجمة بعض الكتب العالمية من لغاتها الأصلية إلي اللغة العربية مثل كتاب كليلة ودمنة وكتاب إقليدس[٣٢٠] ونتيجة لاختلاط الثقافات في هذا العصر حدث تطور غير مسبوق في المجالات الثقافية والعلمية في الدولة العربية ، وقد مدح أحد الشعراء المنصور بأبيات من الشعر منها :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم – – – قوم لقيل : اقعدوا يا آل عباس

ثم ارتقوا في شعاع الشمس كلكم – – – إلي السماء فأنتم أكرم الناس

---

[٣١٦] مقتطفات مختصرة من صفحة ٢٢٦ ، ٢٢٧ من كتاب هؤلاء حكموا مصر لحمدي عثمان

٣١٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٠٨

٣١٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٠٩

٣١٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٠٨

٣٢٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢١٦

ويمكن أن نتعرف علي شخصية المنصور ومدي قوتها وإيمانها العميق وقدراتها العالية من خلال أقواله هو نفسه لابنه المهدي وهو ينصحه ، فمن كلام الرجل تعرف ملامح شخصيته ، حيث قال لابنه ( – – يا أبا عبد الله ، الخليفة لا يصلحه إلا التقوي ، والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولي الناس بالعفو أقدرهم علي العقوبة وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه – – – )٣٢١ ، ومن هنا يتضح أن المنصور كان يتحدي من هو في نفس قوته من المعارضين لحكمه حتي سيطر علي كافة أمور الخلافة

- بمناسبة الحديث عن تأسيس مدينة بغداد كعاصمة للخلافة العباسية ، هل يمكن تلخيص العصر العباسي بالكامل كما تعودنا ؟

## ١٢٨. ملخص العصر العباسي بالكامل

- يمكن تلخيص العصر العباسي من كتاب الدكتور ناصر الأنصاري كالآتي ( – – وأسس العباسيون مدينة بغداد الحالية علي ضفة نهر دجلة واتخذوها عاصمة لهم وكانت مركزاً تجارياً عظيماً ، وقد أحدث قيام الدولة العباسية تغيرات وتطورات سياسية واجتماعية وثقافية بعيدة الأثر في الدولة الإسلامية وبلغت الدولة العباسية أوجها في عصر هارون الرشيد وبانتهاء عصره زادت الفتن مما أدي إلي ضعف شأن الخلافة إلي أن غزاها المغول وقضوا علي الأسرة العباسية في ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م )٣٢٢ وحدث أن قامت دولتان في مصر تعترفان بالخلافة العباسية وهما الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية وسوف يأتي الكلام عنهما في حينه إن شاء الله ، وتولي حكم مصر في عهد الدولة العباسية بما فيها هاتين الدولتين (٩٦) والياً وكانت الفسطاط مقر لولاة مصر من عهد عمرو بن العاص إلي عهد أول والي من العباسيين لمدة ١١٣ سنة وسبعة شهور٣٢٣ وكان عدد الولاة بها من عصر الراشدين والأمويين ٢٩ والياً ومن العصر العباسي والي واحد فقط هو صالح بن علي بن عبد الله بن عباس ثم تم بناء عاصمة جديدة لمصر شمال الفسطاط أطلق عليها اسم ( العسكر )

- وما الدافع لبناء عاصمة جديدة ؟

- ربما كان اتخاذ الولاة العباسيين عاصمة جديدة لهم سببه يعود إلي الحريق الذي أصاب العديد من المباني في الفسطاط والذي أمر به آخر خليفة أموي مروان بن محمد أثناء هروبه إلي مصر ، وربما يكون السبب يرجع إلي العدد الضخم للجنود في الجيش العباسي الذين ضاقت بهم الفسطاط فاضطروا لبناء مدينة جديدة ، وربما يكون السبب أن ولاة بني العباس رفضوا أن يسكنوا نفس العاصمة القديمة للولاة السابقين لهم فكل دولة جديدة لابد لها في أغلب الأحيان من عاصمة جديدة ، وربما تكون كل

---

٣٢١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢١١ ، ٢١٢

٣٢٢ موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٦٦

٣٢٣ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صفحة ٤٢

هذه الأسباب مجتمعة أدت إلي بناء مدينة العسكر ( المعسكر) ، وظلت عاصمة مصر لمدة ١١٨ سنة وسكنها ٦٥ والياً٣٢٤ من ولاة الدولة العباسية حتي جاء أحمد بن طولون وأسس الدولة الطولونية وبني عاصمة جديدة وهي القطائع

- حدثتني عن أبو العباس السفاح وأبي جعفر المنصور فمن غيرهما من أشهر خلفاء بني العباس ؟

## ١٢٩. أشهر خلفاء بني العباس

- تولي الخلافة من بني العباس العديد من الشخصيات البارزة والتي توقف عندها التاريخ ليكتب الأمجاد والانتصارات التي حدثت في عهد كل منهم فقد كانوا سادة العالم كله ، فقد بلغت حدود الدولة الإسلامية ما لم تبلغه من قبل وكان هؤلاء الخلفاء من القادة المحنكين الأقوياء وشعر المسلمون بشكل عام بارتياح شديد عند تولي العباسيون الخلافة واستبشروا بعهد جديد يعمه الرخاء والأمان وكان من أشهر هؤلاء الخلفاء أبو العباس أول خليفة وأبو جعفر المنصور من بعده ثم توالي بعد ذلك خلفاء بني العباس ، ولن أستطيع هنا أن أذكر جميع أسماءهم أو جميع ولاة مصر في ذلك العهد ولكن سأكتفي بالكلام عن أشهر الخلفاء مثل أبو جعفر المنصور والمهدي وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهؤلاء سيكونون بالنسبة لك نماذج مختلفة ومشهورة من العصر العباسي وبالتأكيد قد سمعت هذه الأسماء من قبل أو علي الأقل بعضها ، ومن خلال الكلام عنهم سيتضح لك الكثير من المعلومات إن شاء الله عن هذا العصر ،
- لقد سمعت أن العصر العباسي منقسم إلي قسمين ، العصر العباسي الأول والعصر العباسي الثاني فما الفرق بينهما ؟
- أما العصر الأول فيتميز بأن الخلفاء كانوا يسيطرون سيطرة فعلية علي الأمة بالكامل ولهم القيادة السياسية والدينية والعسكرية وما إلي ذلك ، أما في العصر العباسي الثاني فقد تحولت الأمة إلي مجموعة من الدول التي يتولي أمرها بعض الملوك والأمراء إذا جاز التعبير وكانوا يحترمون الخليفة العباسي بالطبع ويدعون باسمه علي المنابر كل صلاة جمعة وأصبح لهم استقلال سياسي عن الخلافة ولا تربطهم بها إلا التقاليد الشكلية فقط واحترام المكانة الدينية لهذا الخليفة الذي أصبح رمزاً لاتحاد الأمة الإسلامية يستمدون من وجوده شرعيتهم في الحكم
- هل تقصد الاستقلال في المصطلح الاسلامي الذي حدثتني عنه من قبل ؟
- نعم وسوف نذكر أشهر الخلفاء العباسيين وأهم ما دار في مصر من أحداث في العصر العباسي الأول وأحوال المصريين خلاله وقد أشرنا إلي أبي العباس وأبي جعفر المنصور فلنتحدث عن الخليفة المهدي
- لقد مات أبو العباس السفاح ومات المنصور ومات المهدي ومات جميع خلفاء بني العباس ، وماتت الرعية دون أن يعرفوا ما سيحدث للخلافة العباسية من بعدهم فسبحان الحي الذي لا يموت

---

٣٢٤ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صفحة ٤٣

- وسوف نموت نحن أيضاً دون أن نعرف ما سيحدث ، لذلك يجب أن نستعد دائماً للقاء الله سبحانه وتعالي دون أن نشغل بالنا بما سيحدث لأن الله عز وجل هو مدبر الأمور
- لديك كل الحق ، فكل ما علينا هو أن نقف مع الحق بقدر استطاعتنا ونجتهد في العبادة والعمل ونتوكل علي الله عز وجل ، ولقد كانت معرفة التاريخ بالنسبة لي مفيدة جداً حيث أيقنت أن الجميع قد ماتوا دون أن يعرفوا ما سيحدث ، وأن الصراع بين الحق والباطل لا يتوقف وكم نصر الحق رجال وماتوا دون أن يروا نتائج هذا النصر في الدنيا ، وكم خذل الحق رجال وماتوا علي ذلك أيضاً ، وحتي من رأي بعض النتائج قبل أن يموت لم يعرف أن هناك دورة جديدة من الصراع بين الحق والباطل قد بدأت بعد وفاته ، فما أجمل قراءة التاريخ للعظة والاعتبار
- أراك قد فهمت واقتنعت بما قلته لك في بدء الحوار
- بالتأكيد فقد تخيلت نفسي أعيش في تلك العصور التي ذكرتها لي ووجدت أنه لن يكون ممكناً بالنسبة لي أن أعرف من علي الحق ومن علي الباطل في كثير من الأحيان فقد كانت تلك الفتن شديدة وتليق بقوة إيمان من عاصروها فالحمد لله الذي من علينا بما نطيق وقد قال تعالي : لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ۖ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا ۚ أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦) سورة البقرة

## ١٣٠. المهدي والرشيد والمعتصم

- سنستمر إن شاء الله في الحديث عن بعض خلفاء بني العباس كالخليفة المهدي وهارون الرشيد أما الخليفة المهدي فيقول عنه السيوطي ( - - وكان جواداً ممدحاً مليح الشكل محبباً إلي الرعية ، حسن الاعتقاد - - - وهو أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد علي الزنادقة والملحدين - - )٣٢٥ وسوف أذكر لك عزيزي القارئ موقفين اثنين فقط للمهدي قد يعبران عن الكثير من المعلومات عن شخصيته فقد كان عندما يسمع حديثاً شريفاً لرسول الله صلي الله عليه وسلم لا يسعه إلا الاقتداء به ويظهر تأثير ذلك عليه ويوضح مدي تقواه وورعه ( - - وأسند عن ابراهيم بن نافع أن قوماً من أهل البصرة تنازعوا إليه في نهر من أنهار البصرة فقال : إن الأرض لله في إيدينا للمسلمين ، فما لم يقع له ابتياع منها يعود ثمنه علي كافتهم وفي مصلحتهم فلا سبيل لأحد عليه ، فقال القوم : هذا النهر لنا بحكم رسول الله صلي الله عليه وسلم لأنه قال : " من أحيا أرضاً ميتة فهي له " وهذه موات ، فوثب المهدي عند ذكر النبي صلي الله عليه وسلم حتى ألصق خده بالتراب وقال : سمعت لما قال وأطعت - - )٣٢٦ أما الموقف الثاني الذي اخترته لك عزيزي القارئ من بين مواقف كثيرة فيدل علي مدي

---

٣٢٥ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢١٧ ، ٢١٨

٣٢٦ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صفحة ٢٢٢

سماحته وحلمه ( – – أسند عن أبي عبيدة قال : كان المهدي يصلي بنا الصلوات الخمس في المسجد الجامع بالبصرة لما قدمها ، فأقيمت الصلاة يوماً ، فقال أعرابي : لست علي طهر وقد رغبت في الصلاة خلفك ، فأمر هؤلاء بانتظاري ، فقال المهدي : انتظروه ، ودخل المحراب فوقف إلي أن قيل : قد جاء الرجل ، فكبر ، فعجب الناس من سماحة أخلاقه )٣٢٧

- لم أكن أعرف أي معلومات عن هذا الخليفة رحمه الله ، فماذا عن هارون الرشيد الذي نال شهرة واسعة بين الجميع ؟
- أما الخليفة العباسي هارون الرشيد فيقول عنه السيوطي ( – – وكان من أميز الخلفاء وأجل ملوك الدنيا وكان كثير الغزو والحج كما قال عنه أبو المعالي الكلابي :

فمن يطلب لقاءك أو يرده – – – فبالحرمين أو أقصي الثغور

وكان أبيض طويلاً جميلاً مليحاً فصيحاً له نظر في العلم والأدب وكان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلي أن مات لا يتركها إلا لعلة ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم وكان يحب العلم وأهله ويعظم حرمات الإسلام ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص – – قال عنه أبو معاوية الضرير : ما ذكرت النبي صلي الله عليه وسلم بين يدي الرشيد إلا قال : صلي الله علي سيدي ، وحدثته بحديثه صلي الله عليه وسلم " وودت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل ثم أحيي فأقتل " فبكي ( الرشيد ) حتي انتحب٣٢٨

- فما حقيقة ما يقال عن تمتعه وسهراته وما إلي ذلك ؟
- كل هذا من الخيال المريض لأعداء الأمة ، فقد كان الرشيد يحكم أكبر دولة في العالم مرهوبة الجانب أي دولة عظمي بالمفاهيم الحالية ، فتخيل العالم كله كيف يعيش أقوي رجل في العالم ولم يفهموا طبيعة الإسلام والمسلمين وكيف كان مجلس الخليفة حافل بالعلماء والأدباء والشعراء وقد كانت أيام الرشيد كلها خير كأنها من حسنها أعراس٣٢٩ ،
- لقد نتج عن هذا الخيال المريض قصص خرافية مثل ألف ليلة وليلة وغيرها
- نعم وكانت دول العالم تهاب الدولة العباسية وكانت هذه السيطرة تتمثل في دفع الجزية إلي الخليفة العباسي وتصب في صالح الأمة الإسلامية وهناك موقف واحد اخترته لك لتتعرف علي عزة المسلمين في ذلك العصر المرتبطة دائماً بمدي تمسك المسلمين بدينهم ، فالإسلام وحده هو الذي أعز الله عز وجل به هذه الأمة ولكن ليس الإسلام الذي يقتصر علي العبادات فقط وإنما الإسلام بمفهومه الشامل الذي يشمل العقيدة والعبادات والمعاملات ، فالمجتمع الإسلامي في ذلك العصر كان يطبق الإسلام في المعاملات كما كان يطبقه في العبادات ، فنجد ازدهار التجارة والصناعة واتقان العمل والتقدم العلمي

---

٣٢٧ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صفحة ٢٢٢

٣٢٨ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صفحة ٢٢٧

٣٢٩ تاريخ الخلفاء ( السيوطي )صفحة ٢٢٩

في جميع المجالات التي كانت موجودة في ذلك الوقت ، وقد نقل الغرب بعد ذلك أصول العلوم الدنيوية إليهم وقاموا بالاستفادة منها في بلادهم بعد ذلك ، وقد كان علماء الدولة العباسية وعلماء الدولة الأموية في الأندلس علي أعلي مستوي من الثقافة والحضارة والرقي في ظل تعاليم الإسلام الشاملة ، أما الموقف الذي أريد أن أذكره لك فعباره عن وصول ملك جديد للروم رفض أن يدفع المال المفروض عليهم كل سنة وأرسل إلي الرشيد رسالة تحتوي علي هذا المعني وكانت قبله ملكة تقوم بدفع هذه المبالغ المالية التي تعد رمزاً ومثلاً يؤكد قوة الدولة الإسلامية والتي كان يحتاجها العالم كله في ذلك الوقت ويعتمد علي علمها وبضائعها ،

- يبدو أن مسألة دفع جزية من الدول الضعيفة للدولة الأقوي في العالم كان مألوفاً منذ القدم حتي أنك قد حدثتني عن الملك تحتمس الثالث وما كان يأتيه من هدايا وأموال ، فالدول القوية لا تحتاج بالطبع كل هذه الأموال ولكنه مجرد رمز للعزة وفرض الهيمنة والسيطرة والمصالح ، والله أعلم
- الذي حدث أن ملك الروم أرسل هذه الرسالة ( – – " من نقفور ملك الروم إلي هارون ملك العرب أما بعد ، فإن الملكة التي كانت قبلي كانت أقامتك مقام الرخ وأقامت نفسها مقام البيذق ، فحملت إليك من أموالها أحمالاً وذلك لضعف النساء وحمقهن ، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها وإلا فالسيف بيننا وبينك " – – فلما قرأ الرشيد الكتاب استشاط غضباً حتي لم يتمكن أحد أن ينظر إلي وجهه دون أن يخاطبه ، وتفرق جلساءه من الخوف واستعجم الرأي علي الوزير ، فدعا الرشيد بدواة وكتب علي ظهر كتابه " بسم الله الرحمن الرحيم من هارون أمير المؤمنين إلي نقفور كلب الروم قد قرأت كتابك يا ابن الكافرة والجواب ما تراه لا ما تسمعه " ثم سار ليومه فلم يزل حتي نازل مدينة هرقل وكانت غزوة مشهورة وفتحاً مبيناً فطلب نقفور الموادعة والتزم بخراج يحمله كل سنة فأجيب )[٣٣٠]
- إن هذا الموقف يؤكد ما قلته عن خيال الغرب الذي رسم صور حياة هذا الخليفة ، فماذا عن المعتصم الذي نال شهرة كبيرة بسبب نداء وا معتصماه ؟
- الخليفة المعتصم ، هذا الخليفة الذي يقال عنه أنه نصر امرأة مسلمة عندما قالت ( وامعتصماه ) عندما تعرضت لظلم في أحد الدول الأجنبية ، فقد كانت الجيوش تتحرك لتنصر من يقع عليه الظلم من المسلمين في أي مكان ،
- كما يحدث حالياً عندما يتعرض شخص ما لظلم وهو يحمل جنسية دولة كبيرة مهابة ، والويل كل الويل لمن يؤذي مواطن يحمل جنسية دولة عظمي ،
- وفي عهد هذا الخليفة تم بناء مدينة جديدة في العراق وهي مدينة ( سر من رأي ) ( سامراء الحالية ) وهذه المدينة كانت رائعة الجمال أنفق عليها العباسيون أموالاً كثيرة وأبدع كل من شارك في بناءها ، وأصبحت فخراً للدولة من حيث النظام والجمال والنظافة ، وانبهر بها كل من زارها وأشاد بها وبالحضارة

---

٣٣٠ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٣٠

العربية الإسلامية في ذلك الوقت ، وكان المعتصم من أشد الخلفاء علي أعداء الدولة ، كما يبدو من هذا الموقف الذي يرويه السيوطي ( – – غزا المعتصم الروم فأنكاهم نكاية عظيمة لم يسمع بمثلها لخليفة ، وشتت جموعهم وخرب ديارهم وفتح عمورية بالسيف – – )٣٣١ وكان بعض المنجمين قد توقعوا هزيمة المعتصم في هذه المعركة فحدث خلاف ما توقعوا ، حتي أن الشاعر الشهير أبو تمام قال في ذلك قصيدة مشهورة يؤكد أن السيف أصدق من كلام المنجمين وكان مطلع القصيدة : السيف أصدق أنباءاً من الكتب – – – في حده الحد بين الجد واللعب

## ١٣١. وقفة تأمل للحروب في العصر العباسي

- فهل كانت هذه الحروب نوع من أنواع فرض السيطرة والمصالح وملء الفراغ حتي لا يشغله الظالمون والجبابرة والطغاة في العالم فيحكمون بقوانينهم البشرية وأهواءهم وعنصريتهم بعيداً عن منهج الله فتشقي بهم الشعوب أم أن هذه الحروب عدوان غير مبرر ؟
- لم يكن قتال الروم ومن شاكلهم عملاً من أعمال العدوان الغير مبرر أو لمجرد القتال للقتال أو لأن هؤلاء القوم يخالفون الأمة في الدين ولكن غاية ما يمكن أن يقال في هذا المقام عن حروب المسلمين مع غيرهم من الدول في هذه العصور الإسلامية الأولي ما قاله الدكتور محمد عمارة في كتابه الرائع الإسلام والحرب الدينية فقد توقف الدكتور عمارة عند بعض آيات الجهاد ليوضح أسباب كل موقف علي حدة وأسباب النزول الخاصة بهذه الآيات كالآتي ( "وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) "٣٣٢ يقول د عمارة ( – – فالمطلوب هنا ليس قتال " المخالفين " لنا في الدين وإنما قتال " الذين يقاتلون " بين هؤلاء " المخالفين " فحكمة القتال وسببه هو " قتال " هؤلاء المخالفين لنا " وعدوانهم " علينا وليس مجرد " الخلاف لنا في الدين " ذلك أن الإسلام لا ينهي فقط عن مقاتلة المخالفين لمجرد الاختلاف الديني معهم بل إنه يدعوا إلي مودتهم والقسط إليهم طالما هم لم يقاتلونا في الدين فإن هم قاتلونا واعتدوا علينا وانتهكوا الحرمات وجب علينا قتالهم – – )٣٣٣ ثم إن هذه الآيات قد نزلت في السنة السابعة من الهجرة ، عندما هم المسلمون أن يدخلوا مكة معتمرين " عمرة القضاء " تلك التي اتفقوا عليها في العام الماضي – عام الحديبية – مع مشركي مكة ( – – ويومها خشي المسلمون غدر المشركين وتوجسوا خيفة من أن

---

٣٣١ تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٢٦٦

٣٣٢ البقرة ١٩٠ – ١٩٣

٣٣٣ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صفحة ٧٤

يأخذهم المشركون علي غرة – – وأمام تحرج المسلمين من أن يضطروا إلي مقارفة المحظور " القتال في الشهر الحرام بالمسجد الحرام " نزلت الآيات الكريمة تأمرهم بالقتال في الشهر الحرام والمسجد الحرام إذا بدأهم المشركون بالقتال وحدث منهم العدوان ، ذلك أن مراد المشركين هو " فتنة المؤمنين عن دينهم وهي أشد من القتل وأعظم – – )٣٣٤ ، أما عن حروب الفتوحات فيقول عنها د عمارة ( – – فهي فتوحات لم تفرض عقيدة الإسلام وإنما امتدت بحدود الدولة السياسية إلي ما وراء شبه الجزيرة العربية وهي قد تركت لأهالي البلاد المفتوحة حريتهم في الاعتقاد ، مسيحيين كانوا أم يهوداً أم مجوساً بل لقد أتاحت لهم من الحريات الاعتقادية والدينية فوق ما كانوا يتمتعون به قبل هذه الفتوحات فقد فرضت علي بعضهم ضريبة زهيدة مقابل إعفائهم من ضريبة الجندية والقتال لأمر اقتضاه أمن الدولة الناشئة – – )٣٣٥ ويعود د عمارة إلي تاريخ الصراع السياسي في الشرق والغرب إلي عهد الإسكندر فيقول ( – – وكانت فتوحات الإسكندر قد حسمت إحدي جولات هذا الصراع لحساب الغرب والبيزنطيين وأصبح الفرس عاجزين عن قيادة الشرق في هذا الصراع وعن النهوض بعبء تحرير الشام ومصر والمغرب من سيطرة الروم فكان ظهور الإسلام بما أحدث من آثار سياسية وبما أقام من دولة فتية ، وبما أنجز من وحدة قومية حولت القبائل العربية إلي جيش باسل في القتال – – كان ذلك الظهور للإسلام إيذاناً بتولي الجماعة العربية زمام القيادة للشرق في هذا الصراع القديم المتجدد ومن ثم كانت تلك الفتوحات العربية حركة تحرير هذه البلاد المفتوحة من حاميات الروم البيزنطيين ، أعان العرب المسلمين فيها وساعدهم عليها أهل البلاد الأصليون ، مع احتفاظهم بدياناتهم القديمة – – وعلي الجانب الشرقي كان فتح العراق العربي تحريراً له من سيطرة فارسية ظالمة وكان فتح فارس ذاتها إنهاء لنظام اجتماعي فاسد غدا فساده ثغرة في جدار الشرق مكنت منه الغزاة وغدت مظالمه الاجتماعية والعرقية قيداً يحول دون أهل فارس ودون الإبداع الحضاري الذي أهلهم له التاريخ والتراث الذي يملكون – – )٣٣٦

- إنه تحليل أكثر من رائع كتبه الدكتور محمد عمارة ، والسؤال الذي يدور في ذهني حالياً كيف انفتحت الدولة العباسية علي باقي الثقافات والحضارات في العالم ؟ وكيف كانت أحوال مصر آنذاك ؟

## ١٣٢. نظرة عامة علي الخلافة العباسية وأحوال مصر كولاية عباسية

- اهتم خلفاء بني العباس بالعلم والثقافة الغير عربية ومما يؤكد ذلك انتشار أعمال الترجمة بشكل ملحوظ للعديد من المؤلفات الفارسية واليونانية إلي اللغة العربية ، كما كانوا يهتمون أيضاً ويحرصون علي أسباب القوة لإحكام السيطرة والدفاع عن الأمة وحفظ هيبتها ، وكانوا يتمسكون بالحكم بما أنزل

---

٣٣٤ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صفحة ٧٥

٣٣٥ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صفحة ٥٦

٣٣٦ الإسلام والحرب الدينية ( د محمد عمارة ) صفحة ٥٧

الله واتباع سنة نبيه صلي الله عليه وسلم والالتزام بتعاليم الإسلام فقد كانوا يدركون أن الإسلام هو سبب عزة المسلمين ومن يبتعد عن هذه الحقيقة ينحدر إلي مستوي الذل لباقي الدول والأمم الأخري في العالم ، وقد تناولنا في هذا الحوار بعض نماذج من شخصيات خلفاء بني العباس وتعرفنا علي مدي تأثير الدين في سلوكياتهم ، بالرغم من أنهم كانوا يستمتعون بحياتهم الدنيا ويعيشون في رفاهية الحكم ويشاركهم العلماء والندماء والشعراء مجالسهم وينعمون بما وهبه الله لهم من خير ، وهذا للأسف كل ما يذكره عنهم الحاقدون في هذه الأيام حتي أن البعض لا يعرف من أيام هؤلاء الخلفاء العظماء إلا مجالس الدنيا ونعيمها والتي كانت داخل الحدود التي أحلها الله ، وعلي العموم سنعود مرة أخري إن شاء الله لنتكلم معاً عن أحوال مصر في العصر العباسي

- **فما أهم ما تحقق في مصر في ذلك العصر ؟**
- زاد نشاط الحركة العلمية في مصر بشكل ملحوظ في العصر العباسي في مجالات عديدة علي رأسها بالطبع علوم الدين ، حتي أن مصر أصبح بها علماء علي أعلي مستوي مثل الإمام الليث بن سعد (– – وقد كانت تربط بين الإمام الليث والإمام مالك صلات من الود وثيقة وقد تبودلت الرسائل بين الرجلين لمناقشة كثير من المسائل الفقهية ، وقال الإمام أحمد بن حنبل عن الإمام الليث " ما في هؤلاء المصريين أثبت من الليث – – ما أصح حديثه – )٣٣٧ وكان الإمام الليث علي قدر كبير من الثراء ، وكان ينفق الأموال في أوجه الخير وكان كريماً جداً ( – – وكان الليث بعلمه وكرمه ذا شخصية فذة في المجتمع المصري فكان الأمراء يجلونه ويرجعون إلي رأيه دائماً وقد رشحه الخليفة أبو جعفر المنصور للقضاء فاعتذر – – )٣٣٨ ومن أقوي الأدلة علي نفوذ وشهرة الإمام الليث واجتماع الناس حوله في مصر ، أن أرسل أحد الحاقدين عليه إلي الخليفة المنصور يحذره من زيادة نفوذ الإمام الليث في مصر حتي أنه أصبح كما لو كان أميراً لها ووالياً عليها

أمير المؤمنين تلاف مصراً – – – فإن أميرها ليث بن سعد

- **فماذا عن انتشار اللغة العربية في مصر ؟**
- يعتبر انتشار اللغة العربية في مصر ظاهرة ملفتة للنظر كما يقول د محمود الحويري ( – – فإن الشعوب التي توالت علي مصر قبل العرب مثل الفرس والآشوريين والإغريق والرومان لم تستطع – كما ذكرنا من قبل – القضاء علي لغة المصريين وعاداتهم وتقاليدهم ، فقد كانت اللغة اليونانية قبل الفتح العربي واللغة التركية فيما بعد في العصر العثماني لغة البلاد الرسمية ولكن هذا لم يجعلها لغة الشعب المصري – – )٣٣٩ ومن هنا يتضح أن أي لغة يتم فرضها كلغة رسمية للبلاد لا يتقبلها الشعب

---

٣٣٧ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الأول صفحة ٨٣

٣٣٨ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الأول صفحة ٨٣

٣٣٩ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٧٠

المصري لمجرد أنها لغة رسمية وإنما تقبّل اللغة العربية لأسباب أخري ، فقد كان اليونانيون مثلاً يعيشون في مدنهم بمصر (- - كأنها جزر يونانية في وسط المحيط المصري الواسع وكذلك عاش العثمانيون في بيئات خاصة في مصر وعجزوا عن جعل لغتهم لغة البلاد الأصلية علي الرغم من أنهم كانوا مسلمين ودام ملكهم عدة قرون - - )٣٤٠

- أعتقد أن الإسلام هو أحد الأسباب الرئيسية لتعلم اللغة العربية حتي يستطيع الناس قراءة القرآن ومعرفة أحكام الدين ، فكيف كانت علاقة العرب بالمصريين ؟
- استمر العرب في مصر يعملون كجنود في الجيش الإسلامي يقومون بالفتوح الإسلامية حتي كثر عددهم وتوالت هجرتهم فاشتغلوا في الرعي ثم بالزراعة واختلطوا بالأهالي ( - - حتي كان عهد الخليفة العباسي المعتصم وكانت أمه تركية فاستكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة ثم لم يلبث أن أرسل كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر - - وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك - - ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي - - )٣٤١ ومن هنا تم الاختلاط الفعلي بين العرب والمصريين في جميع المجالات تقريباً (- - ولم يكد يبدأ القرن الرابع الهجري حتي كان في مصر شعب جديد – هو خليط من الشعبين العربي والقبطي يدين معظمه بالدين الإسلامي ويتكلم السواد الأعظم منه مسلمين وأقباط باللغة العربية -)٣٤٢ ، (- وبعد أن تم الاندماج بين العرب والمصريين أصبح الكل مصرياً عربياً إذ أن المصريين تعربوا والعرب تمصروا وفي خلال ذلك برزت كلمة قبط أو أقباط بمعني المصريين الذين ظلوا علي دينهم المسيحي أو المصريين المسيحيين ، وعلي أية حال وجدت مصر في الإسلام شخصيتها فانسابت في مجراه في هدوء ومارست شئون حياتها سواء من أسلم من أهلها ومن لم يسلم تحت جناح الحضارة العربية الإسلامية ولم يترك بها الرومان والبيزنطيون إلا صفحات من تاريخ انطوي واندثر - - )٣٤٣
- لاحظ معي أن ابتعاد العرب عن الجيش وكذلك المصريين سيؤدي إلي ظهور قادة في الجيش من العجم والموالي وبالتالي سيصبحون بعد ذلك أولي الأمر في العالم الإسلامي كله
- إنها ملاحظة غاية في الأهمية تؤكد قوة تركيزك معي منذ بدء الحوار فبالفعل سيصبحون ملوكاً وسلاطين أيضاً لقد تخلي العرب عن صدارتهم للعالم الإسلامي في مجالات عديدة ومنها المجال العسكري
- هذا عن العباسيين فماذا كان موقف العلويين من كل هذا ؟

---

٣٤٠ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٧٠

٣٤١ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الأول صفحة ٥٨

٣٤٢ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الأول صفحة ٦٣

٣٤٣ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٧٢ ، ٧٣

- ( – – من المعروف أن العلويين ناصبوا الأمويين العداء ، وأشعلوا ضدهم عدة ثورات ولم يكفوا عن المطالبة بحقهم في الخلافة ولما آلت الخلافة إلي العباسيين عارضهم العلويون واعتبروهم مغتصبين للخلافة شأنهم شأن الأمويين علي الرغم أن البيت العلوي والبيت العباسي ينتميان لبيت واحد وهو البيت الهاشمي – )٣٤٤ ، ( – ومما يستلفت النظر أن كثيراً من العلويين قد لجأوا إلي مصر فراراً من اضطهادات ومضايقات الخلفاء العباسيين ، ومن أتي إلي مصر في ذلك العهد السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبي طالب وقد أتت مع زوجها اسحق بن جعفر الصادق )٣٤٥ وتوفت سنة ٢٠٨ هجرياً ( ٨٢٣ م ) ، (– – وما زال العلويون بمصر ينعمون بالأمن بعيداً عن الخلافة العباسية في بغداد إلي أن جاءت خلافة المتوكل علي الله العباسي – – فأرسل كتاباً إلي والي مصر اسحق بن يحيي الختلي يأمره بإخراج آل أبي طالب من مصر إلي العراق – – أما من بقي في مصر من العلويين فقد اضطروا إلي الاختفاء بعيداً عن أنظار العباسيين – – )٣٤٦
- لقد كان المصريون وما زالوا من أكثر الشعوب الإسلامية حباً لآل البيت
- نعم فحب آل البيت في مصر ليس له علاقة بالتشيع
- فهل حدثت ثورات في مصر خلال العصر الأموي أو العصر العباسي ؟
- نعم ، وأول ثورة قامت في مصر بعد الفتح العربي الإسلامي كانت سنة ١٠٧ هجرياً في العصر الأموي (– – كان الوالي علي مصر من قبل الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك هو الحر بن يوسف وكان عامل الخراج هو عبيد الله بن الحبحاب فكتب إلي هشام أن أرض مصر تحتمل الزيادة فزاد علي كل دينار قيراطاً ، فانتقضت بعض كور مصر – –)٣٤٧ وتوجه الوالي إلي أماكن الثورة وقضي عليها أما الثورة الثانية فكانت في الصعيد فقط وكانت سنة ١٢١ هـ في ولاية حنظلة بن صفوان الثانية علي مصر من قبل هشام بن عبد الملك وتم القضاء عليها أيضاً٣٤٨ وآخر ثورة في العصر الأموي كانت سنة ١٣٢ هـ وقامت عند حضور آخر خليفة أموي إلي مصر ( مروان بن محمد ) وكان مقر الثورة في رشيد وأرسل مروان من قضي عليها ، كما حدثت بعض الثورات في العصر العباسي وكان أكبرها وأقواها الثورة التي كانت في عهد الخليفة المأمون
- نعم لقد أشرت إليها من قبل في بداية الحوار وتحدثت عن حضور الخليفة المأمون إلي مصر ، فهل حدثت مواقف أخري أثناء وجود الخليفة المأمون في مصر ؟

---

٣٤٤ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٨٤

٣٤٥ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٨٦

٣٤٦ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٨٦

٣٤٧ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ١ صفحة ٥٩

٣٤٨ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ١ صفحة ٦٠

- نعم لقد ورد موقف كتبه الدكتور شوقي ضيف عن المقريزي كالآتي : ( ومما يدل بوضوح علي رخاء مصر في عصر الولاة ومدي ما كان يتمتع به القبط من حسن المعاملة خبر رواه المقريزي وقع في أثناء زيارة – الخليفة – المأمون لمصر سنة ٢١٧ هـ إذ مر بقرية يقال لها وطاء النمل وكانت إقطاعية لقبطية عجوز تسمي مارية ، فتعرضت له تسأله أن ينزل في ضيافتها مع حاشيته ومن يرافقه من جنده ، وعجب لكثرة ما قدمت من أطعمة ، فلما أصبح جاءته ومعها عشر وصائف ، مع كل وصيفة طبق ، فظن أنها ستقدم له بعض هدايا الريف المصري ، فلما وضعت الوصائف الأطباق بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب ، فشكرها وأمرها برده ، فأبت إباء شديداً ، وتأمل الذهب أو الدنانير فإذا بها من ضرب عام واحد ، مما يدل علي ربحها من عام ، فقال : هذا والله أعجب ، – – وقال لها ردي مالك بارك الله لك فيه ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا الذهب من هذه الطينة التي تناولتها من الأرض ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندي من هذا الذهب شئ كثير ، فأخذه المأمون لبيت المال )[٣٤٩]

- بمناسبة ذكر هذا الموقف أود أن نلقي نظرة عامة علي عصر الولاة

## ١٣٣. نهاية عصر الولاة ( نظرة عامة )

- أطلق المؤرخون علي الفترة بين ولاية عمرو بن العاص لمصر وحتي تأسيس الدولة الطولونية فترة " عصر الولاة " سواء كان هؤلاء الولاة تم تعيينهم من الخلفاء الراشدين بالمدينة المنورة أو من الخلفاء الأمويين بدمشق أو من الخلفاء العباسيين ببغداد ، فبعد ذلك تم قيام دول مستقلة في مصر ولا يربطها بالخلافة سوي الانتماء الديني فقط تقريباً ، حيث كان حاكم مصر سواء كان أميراً أو ملكاً أو سلطاناً لا يتم عزله أو تعيينه بواسطة الخليفة وبالتالي فهو ليس والياً قابل للعزل بل أصبح في مصر دولاً مثل الدولة الطولونية والدولة الإخشيدية ثم جاء الفاطميون بعد ذلك واتخذوها مقراً لخلافتهم الشيعية ، ثم جاءت الدولة الأيوبية ثم المماليك وهكذا ، وبالتالي كانت تسمية عصر ما قبل الدولة الطولونية بعصر الولاة تسمية حقيقية ، وقد ذكرنا بشكل عام وموجز أهم الأحداث التي دارت في مصر خلال عصر الولاة والتغيرات الجوهرية التي أثرت في الشعب المصري ديناً ولغة وثقافة ويمكن أن ننهي الكلام والدردشة عن هذا العصر المسمي بعصر الولاة ببعض مقتطفات من كتاب الدكتور محمود الحويري أستاذ تاريخ العصور الوسطي بكلية الآداب بسوهاج ( جامعة جنوب الوادي ) حيث ذكر في كتابه مصر في العصور الوسطي الذي تناول فيه دراسة الأوضاع السياسية والحضارية ما يلي : ( – – وقد لقيت التجارة في مصر بعد الفتح العربي لها العناية اللازمة نتيجة لاهتمام العرب بالتجارة علي وجه الخصوص –)٣٥٠ ( – وقد ظهر في القرن الثاني الهجري مذهبا أبي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ

---

[٣٤٩] نقلاً عن كتاب ( تاريخ الأدب العربي ) عصر الدول والإمارات – مصر – تأليف د شوقي ضيف – دار المعارف صفحة ٤٥

٣٥٠ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٩١

"٧٦٧م" ومالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ "٧٩٥م" فانحاز إلي كل مذهب فريق من المسلمين وكذلك كان الحال في مصر - - - حتي وفد علي مصر الإمام محمد بن إدريس الشافعي وقد ولد الشافعي بغزه سنة ١٥٠ هـ "٧٦٧م" ونشأ بمكة وحفظ القرآن وهو ابن سبع والموطأ وهو ابن عشر ثم أتي إلي مصر وصنف بها كتبه وكون بها مذهبه الجديد وتوفي بها سنة ٢٠٤ هـ "٨١٩م" -)٣٥١ (- وكانت مصر رائدة التصوف في العالم الإسلامي فقد ظهر في عصر الولاة أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصري المعروف بذي النون ، وقد ولد ذو النون بأخميم " بمحافظة سوهاج " ويجعله كثيرون نوبي الأصل وروي عن الإمام مالك والليث بن سعد وابن لهيعة وغيرهم وكان أوحد وقته علماً وورعاً وحلماً وأدباً وهو أحد أقطاب الصوفية ومؤسسها في مصر - - - وقد أنكر عليه بعض أهل مصر ما جاء به من التعاليم الصوفية وقالوا : أحدث علماً لم تتكلم فيه الصحابة " وسعوا به لدي الخليفة العباسي المتوكل ورموه بالزندقة عنده ، فأحضره من مصر ، فلما دخل عليه في سامراء وعظه ، فبكي المتوكل ورده مكرماً ، وتوفي بالجيزة في سنة ٢٤٥هـ "٨٦٠م" -)٣٥٢ ، (- والواقع أن مصر في عصر الولاة قد شهدت نشاطاً علمياً بارزاً نهض به علماء مصريون وغير مصريين ، وصارت مصر مركزاً اجتذب إليه العلماء والطلاب من الأقطار المجاورة من بلاد المغرب والأندلس -)٣٥٣ ،

- وهكذا انتهي عصر الولاة الذين ماتوا جميعاً دون أن يعرفوا أن مصر ستتحول إلي دولة طولونية ، بعد ضعف العباسيين فما ظروف قيام الدولة الطولونية في مصر ؟

## ١٣٤. الدولة الطولونية

- بدأ ضعف العباسيين تدريجياً بعد خروج العرب من الجيش وظلت مصر تابعة للخلافة العباسية في بغداد حيث كان الخليفة العباسي رمز للأمة الإسلامية أكثر منه حاكماً لها ،
- لعل من أخطر الأحداث تأثيراً هو استبدال الجنود العرب بجنود أتراك وقد لاحظنا من قبل أن أي دولة تعتمد في حروبها علي عناصر أجنبية يصل بها الحال إلي سيطرة هذه العناصر عليها مع مرور الوقت وازدياد قوتهم وطبعاً مع فارق التشبيه يمكن أن نتذكر معاً ما حدث عندما استعان الفراعنة بالمرتزقة الليبيين والإغريق ، فبالرغم من دخول الليبيون والإغريق الديانة الفرعونية في ذلك الوقت إلا أنهم سيطروا علي مقاليد السلطة بالبلاد وصار مصيرها بين أيديهم ،
- هناك فرق كبير بين هذا المثال وبين ما نحن فيه ، لأن الجنود في الجيش الإسلامي كانوا مسلمين والإسلام دين شامل وللعالم أجمع ويستوعب جميع الجنسيات ،

---

٣٥١ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٩٥

٣٥٢ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٩٦

٣٥٣ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٩٧

- ولكن كان يُفضل الاحتفاظ بالجنود العرب كعنصر رئيس في الجيش الإسلامي طالما أن الدولة عربية في الأساس ، وقد اصطفي المولي عز وجل العرب من دون الناس ليبعث منهم نبيه صلي الله عليه وسلم ، وكذلك نزل القرآن الكريم بلغتهم وبالتالي أصبح العرب مسئولين عن الدعوة لهذا الدين والذود عنه ويساعدهم في ذلك من أسلم من الجنسيات الأخرى بالطبع ، وقد اقتضت الصراعات السياسية في ذلك الوقت الاستعانة بجنود غير عرب وخاصة ما حدث في عهد الخليفة المعتصم الذي استكثر من الجند الأتراك في عاصمة الدولة كما ذكرت ( -- ثم لم يلبث أن أرسل إلي كيدر نصر بن عبد الله واليه علي مصر"٢١٧هـ-٢١٩هـ " " وأمره بإسقاط من في ديوان مصر من العرب وقطع أعطياتهم ففعل ذلك " ومنذ ذلك الحين أصبح جند مصر من العجم والموالي
- علي أي حال نعلم جميعاً أن الخلافة العباسية بدأت بداية قوية علي يد خلفاء أشداء كأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد والمأمون والمعتصم وهو ما يسمي بالعصر العباسي الأول ثم بدأ الضعف تدريجياً إلي أن أصبح الوزراء والأمراء يسيطرون علي الدولة بل وصل الأمر إلي أن أصبح هناك ملوك وسلاطين يسيطرون علي كافة الأمور ولكن في ظل الخلافة العباسية التي كانت تمنحهم شرعية الحكم ، فلا يتم تقليد ملك أو سلطان إلا إذا رضي عن ذلك الخليفة في بغداد حتي ولو كان مجرد إجراء رمزي ولكن مهم جداً لأي حاكم في العالم الإسلامي ، بعد أن تنازل الخليفة العباسي عن معظم صلاحياته للقادة والملوك الذين يحكمون شتي بقاع العالم الإسلامي ،
- فهل لديك أمثلة علي مظاهر هذا الضعف ؟
- نعم لقد وصل الأمر بأحد الخلفاء العباسيين إلي أن أنشد شعراً يعبر عن أحواله كما ورد بكتاب تاريخ الخلفاء للسيوطي :

أليس من العجائب أن مثلي - - - يري ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا - - - وما من ذاك شئ في يديه
إليه تحمل الأموال طراً - - - ويمنع بعض ما يجبي إليه

- فكيف وصل ابن طولون لحكم مصر ؟
- في أحد المراحل التاريخية للدولة العباسية (- - كان الخلفاء يولون حكم مصر لبعض الأتراك في صورة إقطاع مقابل دفع جزية معلومة ، لكن هؤلاء المُقطَعين كانوا لا يفضلون الابتعاد عن بغداد والخلافة ، خشية إبعادهم عن مسرح الأحداث السياسية ويكتفون بإرسال من ينوب عنهم في حكم مصر ، ومن هؤلاء النواب الذين قدموا إلي مصر سنة ٢٥٤ هـ "٨٦٨م" أحمد بن طولون وهو من المماليك الأتراك الذين نشأوا في البلاط العباسي - -)[٣٥٤] ، ولما ولي أحمد بن طولون علي مصر

[٣٥٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٠١

**استكثر من العبيد في جيشه حتى بلغت عدة جنده زيادة علي أربعة وعشرين ألف غلام تركي وأربعين ألف أسود وسبعة آلاف حر مرتزق )[٣٥٥]**

- **أرجو أن تحدثني عن نشأة أحمد بن طولون مؤسس هذه الدولة**

[٣٥٥] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج١ صفحة ٥٨

## ١٣٥. أحمد بن طولون

- يُعد أحمد بن طولون من أبرز وأشهر الشخصيات في تاريخ مصر فهو من مؤسسي الدول ، (- - وقال عنه المقريزي : وكان قد نشأ نشوءاً جميلاً وطلب الحديث وأحب الغزو وخرج إلي طرسوس مرات ولقي شيوخ المحدثين وسمع عنهم ، وكتب العلم وحصل من ذلك قطعة كبيرة ، وصحب هناك جماعة من الزهاد وأهل الدين والورع فتأدب بآدابهم وحسنت طريقته وظهر فضله ، حتى تمكن له في قلوب الأولياء ، ما ارتفع به علي طبقته وبان فضله علي وجوه الأتراك وصار عندهم ممن يوثق به - )٣٥٦ واستطاع أحمد بن طولون التخلص من منافسيه وأصبح له السلطة المطلقة في مصر بلا منازع
- قد يكون القاسم المشترك بين كبار القادة الذين حكموا مصر هو الانفراد بالسلطة ، فهل هذا هو الأسلوب الأفضل لحكم مصر وتحقيق الإنجازات بها ؟
- رغم أن الانفراد بالسلطة هو ما كان يحدث في مصر دائماً ولكن لا يمكن القطع بأن هذا هو الأسلوب الوحيد لتحقيق الإنجازات بها فهي لم تجرب أسلوباً آخر في الحكم حتي نقرر ما هو الأنسب لحكمها
- لم تجرّب أم لم يُراد لها أن تجرّب ؟
- علي أي حال لم يحدث ، ونعود لابن طولون الذي كان وصوله للسلطة في مصر نهاية لما يسمي بعصر الولاة الذي تكلمنا عنه من قبل ، فقد قام ابن طولون بتوريث حكم مصر لأولاده من بعده وقام بإنهاء حالة الفوضى والاضطراب التي كانت موجودة في مصر (- - والوقع أن نظام الولاية في مصر قبل أن يتولى ابن طولون حكمها لم يكن كله قائماً علي الفوضى والاضطراب ، فقد شهدت مصر منذ الفتح العربي لها إلي قيام الدولة الطولونية ولاة معظمهم من الأكفاء ، عملوا علي إقامة مجتمع أساسه العدالة وفقاً لمبادئ الإسلام ، ولم يستهدف هذا المجتمع خدمة الحاكم أو طبقة معينة علي نحو ما ساد في العصرين الروماني والبيزنطي ، إنما انصرف المصريون لمزاولة شئون حياتهم اليومية ، لا يشكون في غالب الأحوال من ثقل ضرائب أو تعسف حكم أجنبي بغيض - -)٣٥٧
- وابن طولون قام بتأسيس عاصمة جديدة لمصر وهي مدينة القطائع ، أليس كذلك ؟
- بالتأكيد ، ويقول د جمال الدين الشيال عن القطائع ( - - لما ولي أحمد بن طولون علي مصر ، اتخذ لنفسه جيشاً كبيراً كان معظمه من السودانيين والروم والأتراك فضاقت بهم الفسطاط والعسكر فأراد أن يبني لهم عاصمة جديدة وبناها في الفضاء الذي كان بين العسكر وبين جبل المقطم - - وبني فيها قصره العظيم وشيد جامعه المعروف باسمه - وجعل بين القصر والمسجد ميداناً كبيراً لسباق الخيل وعرض الجند - )٣٥٨ وقد تم بناء القطائع وما بها من منشآت علي طراز مدينة سامراء التي بناها

---

[٣٥٦] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٠٢

[٣٥٧] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٠٣

[٣٥٨] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صفحة ٤٤

العباسيون في العراق ، حتي أن مئذنة الجامع الشهير الموجود إلي الآن تشبه مئذنة جامع مدينة سامراء ، وكان بالقطائع العديد من الأسواق والمساجد والطواحين والحمامات والأفران والقصور (- - وتزايدت العمارة حتي اتصلت بالفسطاط وصار كل بلداً واحداً -)[٣٥٩] ، وفي عهده استقلت مصر

- أما الاستقلال الذي قام به ابن طولون بمصر فهو ليس استقلالاً بالمعني الشائع لهذه الكلمة في هذه الأيام ، بل إنه استقلال من نوع خاص جداً سبق أن وضحناه بالطبع ،
- نعم ولقد كانت عاصمته الجديدة القطائع غاية في الفن الهندسي أنفق علي إنشائها كل ما غنمته جيوشه المظفرة في الشرق والغرب وكانت دورها واسعة وحدائقها أوسع ، ولما كانت القطائع تقع علي قمة تل يتوسط النيل والصحراء الشرقية فقد أقام لها قناطر شديدة الارتفاع ورفع الماء إليها عن طريق سواقي في المكان المعروف الآن بفم الخليج ، وقد ازدهرت الحالة الاقتصادية في مصر في عهد الدولة الطولونية ، وأجمعت المصادر علي اهتمام الطولونيين بتقدم أحوال مصر الاقتصادية وازدهارها ويدل علي ذلك وفرة الثروات التي خلفها الطولونيين ورخص الأسعار وتوفر السلع في سائر أنحاء مصر بصورة لم تشهدها من قبل ،
- شئ جميل أن يتمتع المصريون بخيرات وطنهم
- كما أن أحمد بن طولون كان يهتم بالطب وصحة المواطنين بشكل غير عادي حيث قام ببناء مستشفي كبير مجاني وألحق به صيدلية لصرف الأدوية مجاناً أيضاً دون تمييز بين الطبقات والأديان ، ويظل المريض تحت العلاج حتي يتم شفاءه وكانت دلالة شفاء المريض قدرته علي أكل رغيف ودجاجة وعندئذ يسمح له بمغادرة المستشفي وكان ابن طولون يتفقد المستشفي ويتابع علاج الأطباء ويشرف علي المرضي ،
- إنه نظام تأمين صحي كامل ورائع بلا شك
- كما اهتم ابن طولون بالجيش الضخم الذي كان يسيطر عليه سيطرة كاملة وكان لديه أسطول قوي وأنشأ مراكب حربية متقنة الصنع ، كما حدثت طفرة صناعية في مصر في هذا العصر وخاصة صناعة النسيج والزجاج والورق والأسلحة والصابون والسكر وقام ابن طولون ببناء دار لسك العملة ، حيث سكت الدنانير ذات المستوي الرفيع في النقاء ، وشهدت مصر في عهده نهضة تجارية عظيمة ، فكانت البضائع التي تصل من بلاد الهند والصين تسلك طريق البحر الأحمر إلي مصر ومنها إلي موانى إيطاليا وفرنسا وأسبانيا ،
- هذا ما يسمي حالياً بتجارة الترانزيت ، حيث تتواجد البضائع فترة قصيرة مؤقتة في مكان مؤقت ليتم إعادة بيعها

[٣٥٩] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) صفحة ٤٤

- كما كان في مصر في هذا العهد أيضاً العديد من العلماء والفقهاء والمؤرخين والأدباء والشعراء نبغوا في عهد الدولة الطولونية وغاية القول في هذا الموضوع أن مصر في هذا العهد شهدت فترة ازدهار في جميع المجالات وشاركت في النهضة الحضارية ، التي شهدها العالم الإسلامي في القرن الثالث الهجري ،

- فكيف كانت علاقة ابن طولون بالشعب المصري ؟

- اكتسب ابن طولون في مصر حب الجميع علي اختلاف دياناتهم ومذاهبهم المختلفة فقد كان كما يقول عنه ابن الأثير "عاقلاً حازماً ،كثير المعروف والصدقة متديناً يحب العلماء وأهل الدين، وعمل كثيراً من أعمال البر ومصالح المسلمين "٣٦٠ وعندما مرض مرضاً شديداً في آخر أيامه (- - خرج المسلمون بالمصاحف واليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل والمعلمون بالصبيان إلي الصحراء ودعوا له - -)٣٦١ مما يؤكد أن الستة عشر عاماً التي قضاها ابن طولون في حكم مصر حتي وفاته بها كانت من أفضل الأيام التي مر بها المصريون في ذلك الوقت ،

- رائع أنه كان كثير المعروف والصدقة

- نعم ولقد كانت صدقاته علي أهل المسكنة والستر وعلي الضعفاء والفقراء وأهل التجمل متواترة ، وكان راتبه لذلك في كل شهر ألفي دينار ... سوي ما يطرأ عليه من النذور وصدقات الشكر علي تجديد النعم ، وسوي مطابخه التي أقيمت في كل يوم للصدقات في داره وغيرها ، يذبح فيها البقر والكباش ، ويغرف للناس في القدور الفخار والقصاع ، علي كل قدر أو قصعة لكل مسكين أربعة أرغفة في اثنين منها فالوذج والاثنان الآخران علي القدر ، وكانت تعمل في داره وينادي : من أحب أن يحضر دار الأمير فليحضر وتفتح الأبواب ويدخل الناس الميدان ، وابن طولون في المجلس الذي تقدم ذكره ينظر إلي المساكين ويتأمل فرحهم بما يأكلون ويحملون فيسره ذلك فيحمد الله علي نعمته ، ولقد قال له مرة إبراهيم بن قراطغان وكان علي صدقاته : أيد الله الأمير ، إنا نقف في المواضع التي تفرق فيها الصدقة ، فتخرج لنا الكف الناعمة المخضوبة نقشاً والمعصم الرائع فيه الحديدة والكف فيها الخاتم ، فقال : يا هذا ، كل من مد إليك يده فأعطه ، فهذه هي اللطيفة المستورة التي ذكرها الله سبحانه وتعالي في كتابه فقال (يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ)(٢٧٣-سورة البقرة) ، فاحذر أن ترد يدا امتدت إليك وأعط كل من يطلب منك

- وكم من الوقت استمر حكم الدولة الطولونية ؟

---

[٣٦٠] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٠٩

[٣٦١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٠٩ ، ١١٠

- لقد حكم أحمد ابن طولون وأولاده مصر لمدة ٣٨ سنة تقريباً[٣٦٢] فكانت فترة حكم أحمد ابن طولون من سنة ٨٦٨ م إلي سنة ٨٨٤ م ثم جاء ابنه أبو الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون وحكم مصر من سنة ٨٨٤ م إلي سنة ٨٩٦ م ثم أبو العساكر جيش بن خمارويه بن أحمد بن طولون لمدة أيام قليلة ثم هارون بن خمارويه من سنة ٨٩٦ م إلي سنة ٩٠٤ م ثم شيبان بن أحمد بن طولون في ديسمبر ٩٠٤ م ولم يحكم إلا أياماً[٣٦٣] ، وستلاحظ معي أن فترة أحمد بن طولون وابنه خمارويه تقريباً هي الفترة المستقرة نسبياً في عصر الدولة الطولونية أما بعد ذلك فقد حدثت بعض الاضطرابات في الدولة الطولونية ويؤكد هذه الاضطرابات قصر فترة حكم باقي الطولونيين بل إن أحدهم تم خلعه من الحكم بواسطة الجيش ، كما انتهت حياة هارون بن خمارويه بالقتل ولم تدم فترة حكم شيبان بن أحمد بن طولون إلا أياماً معدودة وكل هذا يؤكد ما سبق ذكره من أن الملوك والقادة الأقوياء يؤسسون المُلك وأولادهم وأحفادهم الضعفاء يضيعونه

- حسناً فلنكمل الحديث ونتناول فترة حكم خماراويه بن أحمد بن طولون

## ١٣٦. خمارويه بن أحمد بن طولون

- أكد العديد من المؤرخين أن خمارويه لم يكن علي نفس مستوي أبيه من القوة والعظمة بل الفترة التي جاءت بعد ابن طولون كانت تشبه السير بالقصور الذاتي حيث أن العجلة التي أدارها ابن طولون بقوة لم يعد أحد بعده يديرها بل ظلت تدور تأثراً بقوة ابن طولون فقط إلي أن توقفت تماماً وانهارت الدولة ، ولأن ابن طولون أسس دولة قوية وأدار العجلة بقوة دفع ضخمة فقد ظلت تدور فترة ليست بالقصيرة حتي توقفت تماماً ، وغاية ما يقال عن خمارويه أنه كان مسرفاً إلي حد ما ( - - ولم يحسن خمارويه الاستفادة من الأموال الجمة التي تركها له أبوه فأخذ يسرف في البناء وأنواع الترف - - )[٣٦٤] ، وكان الخليفة العباسي المعتمد قد مات هو وأخوه الموفق وخلفه الخليفة المعتضد بالله بن الموفق ، واهتم خمارويه باكتساب ود الخليفة العباسي الجديد وعرض عليه (- - زواج ابنته أسماء التي تلقب بقطر الندي من ابن الخليفة ولكن الخليفة اختارها لنفسه فوافق أبوها علي ذلك وجهزها بجهاز يفوق الوصف مما أدي إلي إفلاس مصر وقد أفاضت المصادر في وصف جهاز العروس - - )[٣٦٥]

- قطر الندي التي يتردد ذكر اسمها في أغنية شعبية شهيرة حتي الآن ؟

- نعم ، ويقال أن خمارويه أمر ببناء قصر علي رأس كل مرحلة من مراحل المسافة بين مصر وبغداد لتقيم فيه ابنته أثناء سفرها إلي الخليفة ( - - مجهز بكل وسائل الراحة والرفاهية كأنها في قصر أبيها في مدينة القطائع إلي أن وصلت بغداد ودخل بها الخليفة المعتضد في ربيع الآخر سنة ٢٨٢ هـ (

---

[٣٦٢] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٧٨

[٣٦٣] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٧٩

[٣٦٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١١١

[٣٦٥] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١١١

مايو ٨٩٥ م )٣٦٦ وغاية ما يقال عن عصر خمارويه وما بعده وحتي انتهاء الدولة الطولونية ما قاله الكاتب محمود السعدني عن ابن طولون وأولاده (- - فلما مات ماتت دولته كذلك وإن بقيت أمام الناس فترة من الوقت ولكن الذي قام لم يكن دولة ابن طولون ولكن شبح الدولة وصدي الصوت القوي الذي كان يتردد في جنباتها يوماً ما غير بعيد - )٣٦٧ ،

- يا لها من فترة قصيرة في تاريخ مصر ، ويبدو أن أبناء أحمد بن طولون يصلحون كأمثلة للأبناء الذين لا يحسنون المحافظة علي ملك الآباء
- نعم وقد كتب الشعراء قصائد من الشعر حزناً علي سقوط الدولة الطولونية وإليك بعض أبيات من رثاء الدولة الطولونية من كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار للمقريزي :

قف وقفةً وانظر إلي الميدان والقصر ذي الشرفات والأيوان
والجوسق العالي المنيف بناؤه ما باله قفر من السكان
فانظر إلي ما شيدوا من بعدهم هل فيه غير البوم والغربان
أين الألي حفروا العيون بأرضه وتأنقوا فيه وفي البنيان
غرسوا صنوف النخل في ساحاته وغرائب الأعناب والرمان
والزعفران مع البهار بأرضه والورد بين الآس والريحان
كانوا ملوك الأرض في أيامهم كبراء كل مدينة ومكان
فتمزقوا وتفرقوا فهناك هم تحت الثري يبلون في الأكفان
والله وارث كل حي بعدهم وله البقاء وكل شئ فان

- فماذا حدث بعد ذلك ؟
- مات خمارويه ، وسادت الفوضي بعد موته وأصبحت مصر غير قادرة علي السيطرة علي ممتلكاتها في الشام وغيرها ، وجاء ثلاثة من الطولونيين حكموا مصر لمدة قصيرة ، بلغ فيها الضعف ما بلغه مما أدي إلي انهيار الدولة حيث كان الخليفة العباسي في ذلك الوقت يراقب ما يحدث في مصر ويتابع ما يدور بها وقرر استعادة السيادة الكاملة والسيطرة المطلقة علي مصر عندما وصل بها الحال إلي ما ذكرناه من ضعف وفوضي واضطرابات٣٦٨ ، وكان الخليفة العباسي الموجود في ذلك الوقت هو المكتفي بالله ابن المعتضد بالله وقام المكتفي بالله بإرسال جيش وأسطول إلي مصر بقيادة محمد بن سليمان الكاتب للقضاء علي الطولونيين حيث أوقع الهزيمة الساحقة بهم بحراً وبراً وقام القائد العباسي

---

[٣٦٦] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١١١

[٣٦٧] مصر من تاني ( محمود السعدني ) صفحة ٢٥

[٣٦٨] لاحظ معي عزيزي القارئ أهمية الحاكم القوي في استقرار الأمور ومدي تأثر البلاد بالحاكم الضعيف إلي درجة انعدام النظام فيها

محمد بن سليمان بحرق مدينة القطائع عاصمة الدولة الطولونية ما عدا الجامع الكبير بها والموجود إلي الآن والذي يُعتبر الشاهد الوحيد علي مدينة القطائع وحضارتها وجمالها

- مات ابن طولون إذن دون أن يعرف أن مدينته الرائعة ستحترق ، سبحان الله ، فماذا حدث بعد سقوط الدولة الطولونية وعود السيطرة الكاملة للعباسيين علي مصر ؟
- تولي حكم مصر (١١) والياً خلال ثلاثين سنة٣٦٩ وهي الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية (- - وكانت تجربة ابن طولون ودولته قد فتحت العيون علي ما يمكن أن تقدمه مصر لمن يتولاها من إمكانيات فهي قاعدة عسكرية اقتصادية كبري - لذلك حرص الأذكياء من الولاة أن يثبتوا أقدامهم فيها ولكن لم يتمكنوا من ذلك لحرص الخلفاء العباسيين ووزراءهم علي تغيير الولاة بكثرة في مصر في ذلك الوقت حتي لا يتمكن أحد الولاة من الاستقلال بها لذلك نجد عدد الولاة في مدة ٣٠ سنة ١١ والي وهو عدد كبير بالنسبة لهذه المدة القصيرة نسبياً إلي أن جاء الإخشيد عندما أسس في مصر دولة شبه مستقلة ذات قوة لا يستهان بها وأورثها لأربعة من ذريته - )٣٧٠ ، وكانت الفترة بين سقوط الدولة الطولونية وقيام الدولة الإخشيدية قد شهدت صراع مرير وعنيف بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية التي أسسها الفاطميون في المغرب ، ولم تسلم مصر من هذا الصراع بل إنها كانت مسرحاً للمعارك بين الجانبين ( - - ولا شك أن وقوع الصدام أكثر من مرة علي أرض مصر بين الخلافة العباسية السنية والخلافة الفاطمية الشيعية قد أنزل كثيراً من الأضرار بالمصريين وعرضهم لمتاعب قاسية من جانب الجنود فساءت أحوال البلاد وتعرضت مرافقها للإهمال - - )٣٧١ إلي أن قامت الدولة الإخشيدية ليعود الاستقرار إلي مصر مرة أخري ،
- وكيف قامت الدولة الإخشيدية في مصر ومن هو الإخشيد ؟

## ١٣٧. قيام الدولة الإخشيدية في مصر

- الإخشيد مؤسس هذه الدولة كان من المخلصين للخلافة العباسية وكلمة الإخشيد ليست اسمه ، ولكنها لقبه أما اسمه فهو أبو بكر محمد ابن طغج ، ولقب الإخشيد هو اللقب الذي يتلقب به ملوك أحد بلاد ما وراء النهر وتسمي فرغانة ، وكان محمد بن طغج من أصل فرغاني ولأنه أصبح أميراً كبيراً فكان من الطبيعي أن يلقب بلقب الأمراء والملوك في بلاده الأصلية ، وكان من أشجع القادة المقاتلين في الجيش العباسي وقد شارك والي مصر في قتال الفاطميين مما جعله ينال ثقة الخليفة العباسي " الراضي بالله " حتي أنه قام بتعيينه والياً علي مصر وأعطاه حق توريث حكم مصر لأولاده من بعده وهذا يؤكد قدرة الإخشيد علي السيطرة علي حدود الدولة العباسية المضطربة بفعل الفاطميين القادمين

---

[٣٦٩] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٨٢

[٣٧٠] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٨٢

[٣٧١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٢٥

من الغرب وبالفعل لم يتمكن أحد منهم من دخول مصر بالقوة إلا بعد انهيار الدولة الإخشيدية بوفاة كافور الإخشيدي كما سنري ، أما الراضي بالله فهو الخليفة رقم ٣٩ في قائمة الخلفاء٣٧٢ وفي عهد هذا الخليفة بلغت الدولة العباسية قمة الضعف بحيث أن الخليفة لم يعد يسيطر إلا علي بغداد فقط تقريباً ، وهذا ما فهمته من كلام الإمام السيوطي حيث ذكر في كتابه تاريخ الخلفاء ما يلي ( – – وفي سنة خمس وعشرين "٣٢٥هـ " اختل الأمر جداً وصارت البلاد بين خارجي قد تغلب عليها ، أو عامل لا يحمل مالاً ، وصاروا مثل ملوك الطوائف ، ولم يبق بيد الراضي غير بغداد والسواد ، – – – ولما ضعف أمر الخلافة في هذه الأزمان ووهت أركان الدولة العباسية ، وتغلبت القرامطة والمبتدعة علي الأقاليم ، قويت همة صاحب الأندلس الأمير عبد الرحمن بن محمد الأموي المرواني ، وقال : أنا أولي الناس بالخلافة وتسمي بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، واستولي علي أكثر الأندلس وكانت له الهيبة الزائدة والجهاد والغزو والسيرة المحمودة – – )٣٧٣ ،

- هل أصبح هناك أكثر من خليفة ؟
- نعم فقد أكد الإمام السيوطي أن ثلاثة في العالم كله في ذلك الوقت كانوا يلقبون بلقب أمير المؤمنين منهم طبعاً الراضي بالله وصاحب الأندلس والخليفة الشيعي الفاطمي بالقيروان ، وكما طلب ابن طولون من الخليفة العباسي الحضور إلي مصر واتخاذها مقراً له خوفاً عليه من مؤامرات الأتراك ، فعل الإخشيد نفس الشئ وطلب من أمير المؤمنين أن يحضر إلي مصر ( – – فالتقي به الإخشيد في الشام ، وأبدي له بالغ الاحترام والتقدير ودعاه إلي ترك بغداد والمجئ إلي مصر والإقامه فيها ، وقال للخليفة : " يا أمير المؤمنين أنا عبدك وابن عبدك وقد عرفت الأتراك وغدرهم وفجورهم ، فالله في نفسك ، سر معي إلي الشام ومصر فهي لك وتأمن علي نفسك " ولكن الخليفة فضل ألا يترك عاصمة ملكه ورفض عرض الإخشيد ، ولا شك أنه لو أتيح للإخشيد أن ينجح في جذب الخليفة إلي مصر لتغير – إلي حد ما – مستقبل الخلافة ومستقبل مصر ،
- ولكن الخلافة العباسية انتقلت إلي مصر فيما بعد في العصر المملوكي علي حد علمي
- نعم ، فإذا كان الإخشيد قد أخفق في جعل مصر مركزاً للخلافة العباسية ، فإن ذلك الأمر قد تم بالفعل فيما بعد علي يد السلطان المملوكي الظاهر بيبرس في سنة ٦٥٩ هـ " ١٢٦١م ")٣٧٤ ، ومن هنا يتضح أن الإخشيد كان حريصاً علي الخليفة العباسي ومخلصاً له أشد الإخلاص
- فما الملخص العام للعصر الإخشيدي ؟

---

[٣٧٢] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٠٨

[٣٧٣] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٠٩

[٣٧٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٠ ، ١٣١

- تولي حكم مصر من الإخشيديين بما فيهم الإخشيد وكافور خمسة أمراء وهم علي الترتيب أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد وأبو القاسم أنوجور ابن الإخشيد وأبو الحسن علي ابن الإخشيد وأبو المسك كافور خادم الإخشيد وأبو الفوارس أحمد ابن علي ابن الإخشيد حتي دخلها القائد جوهر الصقلي في شعبان ٣٥٨ هـ / يونيو ٩٦٩ م٣٧٥ وخطب للمعز الفاطمي علي المنابر بمصر وكانت فترة حكم الإخشيديين حولي ٣٤ سنة من أغسطس ٩٣٥ م إلي يونيو ٩٦٩م

- ومن هو كافور هذا ؟

- كان للإخشيد عبد أسود خصي اسمه كافور وكان كافور هذا مربي أولاد الإخشيد ومعلمهم وأستاذهم وكان شديد الإخلاص للإخشيد ولدولته ، كما كان قائداً لبعض المعارك التي خاضها جيش الدولة الإخشيدية وغاية القول عن هذا الرجل أنه كان رجل دولة وكان عبداً ولكنه كان فلتة من فلتات الزمن ونادرة من النوادر ، فبالرغم من أنه عبد إلا أنه كان يتميز بصفات تؤهله للقيادة والإمارة بلا مبالغة ، ويكفي أن أقول لك أن كافور هذا قد أصبح وصياً علي أولاد الإخشيد بعد موته وكان محافظاً علي الدولة بعد موت مؤسسها وبوفاة كافور انتهت الدولة الإخشيدية واقتحم الجيش الفاطمي مصر أي أن الدولة الإخشيدية كانت عبارة عن شخصين فقط هما الإخشيد نفسه ثم كافور وبوفاة آخرهما انتهت الدولة

- فلتحدثني عن الإخشيد نفسه فمن الواضح أنه كان أحد الشخصيات البارزة في تاريخ مصر ؟

## ١٣٨. أبو بكر الإخشيد

- قال المقريزي عن أبو بكر محمد ابن طغج الملقب بالإخشيد ما يلي ( – – وكان حازماً شديد التيقظ في حروبه ، حسن التدين ، مكرماً للأجناد ، شديد – لا يكاد يجر قوسه غيره ، حسن السيرة في الرعية ، نجيباً شهماً – – )٣٧٦ ( – – وشهدت مصر في عصر الدولة الإخشيدية رغم قصره نشاطاً حضارياً مزدهراً في ميادين الفنون والآداب والعلوم ، ويتضح ذلك من تشييد العمائر وإنتاج التحف والآثار الفنية التي تمثل شتي ميادين الفن الإسلامي – – )٣٧٧ ، ( – – وتميز عهد الإخشيديين بظهور عدد من أعلام الفقه من أبناء مصر كان لهم نشاطاً مرموقاً – )٣٧٨ ، ( – – واهتم الإخشيديون بانتعاش الأحوال الإقتصادية في مصر وأولوا عنايتهم بالزراعة والصناعة والتجارة ، أما الزراعة فكانت الحرفة الأساسية لمعظم السكان ، وتمثل المورد الرئيسي لدخل الدولة ، ولم يكن إيجار الأرض الزراعية مرتفعاً في العصر الإخشيدي ، إذ كان يتراوح بين دينار واحد وبين دينارين ونصف دينار للفدان في السنة حسب جودة الأرض – وقد بذل كافور الإخشيدي جهده لتنمية الزراعة ، حتي

---

[٣٧٥] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٨٥

[٣٧٦] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٢٧ ( نقلاً عن المقريزي )

[٣٧٧] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٣

[٣٧٨] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٤

زاد خراج مصر علي أربعة ملايين كل سنة وبلغ خراج الفيوم وحده سنة ٣٥٦هـ "٩٧٦م" في عهد كافور أكثر من ٦٢٠ ألف دينار)٣٧٩ ، ، أما عن الصناعة فيقول د محمود الحويري (- - وإلي جانب هذا كانت مصر بلداً صناعياً هاماً في العصر الإخشيدي ، فاشتهرت بصناعة النسيج الرقيق في تنيس ودمياط وشطا ودبيق ، وامتازت بصفة خاصة بالأقمشة ذات الخيوط الذهبية التي كانت تصدرها إلي العراق ، وقد ظل الخلفاء العباسيون في عهد الإخشيد يستمدون من مصر أكثر ما يلزمهم من المنسوجات النفيسة المحلاة بكتابات كوفية فيها العبارات والأدعية المعروفة - - وظهرت في العصر الإخشيدي صناعة الورق التي حلت محل البردي

- إنها معلومة مهمة جداً فمتي كان أول مرة يتم استخدام الورق العادي بدلاً عن ورق البردي ؟
- ترجع أول وثيقة حكومية من الورق إلي عام ٩١٢م ، كما ترجع آخر وثيقة حكومية من ورق البردي إلي عام ٩٣٥م ، يضاف إلي هذا اشتهار مصر حينئذ بصناعة الأسلحة والتحف الدقيقة المطعمة بالذهب والفضة والجواهر الثمينة - - واحتفظ نهر النيل بمكانته الهامة في نقل التجارة الداخلية بين شمال مصر وجنوبها في العصر الإخشيدي - )٣٨٠
- هل كانت الدولة الإخشيدية فقط هي التي قامت في ظل الخلافة العباسية في بغداد ؟
- لا بل كانت الدولة الحمدانية في حلب معاصرة للدولة الإخشيدية في مصر ، وتتبع أيضاً الخلافة العباسية في بغداد وكان حاكمها يُدعي سيف الدولة الحمداني وكان من أمراء هذه الدولة أيضاً أبو فراس الحمداني الشاعر والفارس الشهير وكان هناك صراعات للاسف بين الدولتين علي الحدود ومن هذا ما ذكره د الحويري ( - - ومن المصاعب الخارجية التي واجهت الإخشيد غارات الحمدانيين أصحاب الموصل وحلب علي ممتلكات الإخشيديين في الشام ، فقد سار سيف الدولة الحمداني نحو الشام ، وهزم جيشاً بقيادة كافور علي نهر العاصي ، فاضطر الإخشيد إلي أن يخرج بنفسه علي رأس جيش كثيف في نفس العام واستطاع ان يسترد دمشق ، وأوقع الهزيمة بجيش سيف الدولة في حمص وقنسرين - - )٣٨١ ومع ذلك فقد فضل الإخشيد عقد معاهدة صلح بينه وبين سيف الدولة رغم هذا الإنتصار الساحق وذلك يعود لسبب مهم جداً هو أن الإخشيد كان حريصاً علي بقاء قوة الدولة الحمدانية لتظل أحد العناصر التي تواجه الروم وتصد غاراتهم ، وكان الروم يخشون بطش الحمدانيين والإخشيديين ولذلك قرر الإمبراطور رومانوس ليكابينوس أن يقيم علاقة طيبة مع الخليفة العباسي والإخشيد أيضاً ، وكان يتبادل الرسائل الودية معهم ( - - وقد أورد القلقشندي نص الرسالة المطولة التي وجهها الإخشيد للإمبراطور رومانوس رداً علي رسالته ، ومن مضمونها يتبين لنا حرص

---

[٣٧٩] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٥

[٣٨٠] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٦

[٣٨١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٢٩

رومانوس علي إقامة علاقات ودية وتبادل الأسري وتعزيز التبادل التجاري ، وفي ذلك يقول ( – وأما ما أنفذته للتجارة فقد أمكنا أصحابك منه ، وأذنا لهم في البيع وفي ابتياع ما أرادوه وما اختاروه ، لأنا وجدنا جميعه لا يخطره علينا دين ولا سياسة – )[٣٨٢] ،

- أعتقد أن المتنبي الشاعر الشهير كان يعيش في ذلك الوقت في عصر سيف الدولة
- نعم فقد عاش المتنبي أفضل ايام حياته واكثرها عطاء في بلاط سيف الدولة الحمداني في حلب وكان أحد أعظم شعراء العرب، وأكثرهم تمكناً باللغة العربية وأعلمهم بقواعدها ومفرداتها، وله مكانة سامية لم تتح مثلها لغيره من شعراء العربية.
- المتنبي يوصف بأنه نادرة زمانه، وأعجوبة عصره، وظل شعره إلى اليوم مصدر إلهام ووحي للشعراء والأدباء. وهو شاعرحكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي .وتدور معظم قصائده حول مدح الملوك.
- بالتأكيد فقد مدح سيف الدولة كما عاتبه أيضاً في قصيدة شهيرة فيما يلي بعض مقتطفات منها :

يا أعدل الناس إلا في معاملتي "فيك الخصام وأنت الخصم والحكم
سيعلم الجمع ممن ضم مجلسنا " "باننـي خير من تسعى به قـدم
انا الذي نظر الأعمى إلى أدبـي " وأسمعت كلماتي من به صمم
إذا رأيـت نيوب الليـث بارزة " "فلا تظنـن أن الليـث يبتسم
الخيل والليل والبيـداء تعرفنـي " "والسيف والرمح والقرطاس والقلم
يـا من يعز عليـنا أن نفارقهـم " "وجداننا كل شيء بعدكم عدم
إن كـان سركم ما قال حاسدنا " "فما لجـرح إذا أرضاكـم ألـم

- فهل كانت هناك علاقة بين المتنبي والدولة الإخشيدية في مصر ؟
- بالطبع ، فعندما مات أبو بكر محمد بن طغج الإخشيد تأثر الناس بموته ورثاه المتنبي فقال :

هُوَ الزَّمَانُ مَنَنْتَ بِالَّذِي جَمَعَا فِي كُلِّ يَوْمٍ تَرَى مِنْ صَرْفِهِ بِدَعَا
لَوْ كَانَ مُمْتَنِعٌ تُغْنِيهِ مَنْعَتُهُ لَمْ يَصْنَعِ الدَّهْرُ بِالإِخْشِيدِ مَا صَنَعَا
ذَاقَ الحِمَامَ فَلَمْ تَدْفَعْ عَسَاكِرُهُ عَنْهُ القَضَاءَ وَلاَ أَغْنَاهُ مَا جَمَعَا
لَوْ يَعْلَمُ اللَّحْدُ مَا قَدْ ضَمَّ مِنْ كَرَمٍ وَمِنْ فَخَارٍ وَمِنْ نَعْمَاءَ لاَتَّسَعَا
يَا لَحْدُ طُلْ إِنَّ فِيكَ البَحْرَ مُحْتَبِسًا وَاللَّيْثَ مُهْتَصِرًا وَالْجُودَ مُجْتَمِعَا
يَا يَوْمَهُ لَمْ تَخُصَّ الفَجْعَ أُسْرَتَهُ كُلُّ الوَرَى بِرَدَى الإِخْشِيدِ قَدْ فُجِعَا

- فماذا تعرف عن كافور الإخشيدي ؟

[٣٨٢] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٣٠

## ١٣٩. أبو المسك كافور الإخشيدي

- في أواخر عصر الدولة الإخشيدية وعندما تولي أبو المسك كافور الأخشيدي حكم مصر ، وقعت في مصر هزة أرضية عظيمة خافوا الناس من ذلك وهربوا إلي الجبال وتشاءم الأمير كافور من الأمر واعتزل الناس ، حتي أخرجه من عزلته شاعر مصر الرسمي محمد بن عاصم ، إذ دخل عليه وألقي قصيدة عصماء بين يديه منها هذا البيت :

ما زلزلت مصر من خوفٍ يرادُ بها
لكنها رقصت من عـدلهِ طربا

- رقصت من عدله طربا ؟؟
- قصيدة دفع فيها أبو المسك كافور ألف دينار ذهباً ، وهذه الجائزة هي السبب الحقيقي الذي جعل المتنبي يشد رحاله إلي كافور ،
- بالطبع فإذا كان يدفع ألف دينار إلي شاعر مثل محمد بن عاصم فكم يدفع لشاعر في وزن المتنبي ؟
- وبالفعل حضر أبو الطيب المتنبي إلي مصر ومدح كافور في قصيدة شهيرة هذه مقتطفات منها

كفى بكَ داءً أنْ ترَى الموْتَ شافِيَا وَحَسْبُ المَنَايَا أنْ يكُنّ أمانِيَا
تَمَنّيْتَهَا لمّا تَمَنّيْتَ أنْ تَرَى صَديقاً فأعْيَا أوْ عَدُواً مُداجِيَا
إذا كنتَ تَرْضَى أنْ تَعيشَ بذِلّةٍ فَلا تَسْتَعِدّنّ الحُسامَ اليَمَانِيَا
حَبَبْتُكَ قَلْبي قَبلَ حُبّكَ من نأى وَقد كانَ غَدّاراً فكُنْ أنتَ وَافِيَا
خُلِقْتُ ألُوفاً لَوْ رَجعتُ إلى الصّبَى لَفارَقْتُ شَيبي مُوجَعَ القلبِ باكِيَا
وَلَكِنّ بالفُسْطاطِ بَحْراً أزَرْتُهُ حَيَاتي وَنُصْحي وَالهَوَى وَالقَوَافِيَا
قَوَاصِدَ كَافُورٍ تَوَارِكَ غَيرِهِ وَمَنْ قَصَدَ البَحرَ استَقَلّ السّوَاقِيَا
يُبِيدُ عَدَاوَاتِ البُغَاةِ بِلُطْفِهِ فإنْ لم تَبِدْ منهُمْ أبَادَ الأعَادِيَا
أبا المِسكِ ذا الوَجْهُ الذي كنتُ تائِقاً إلَيْهِ وَذا اليَوْمُ الذي كنتُ رَاجِيَا
أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه وَكلّ سَحابٍ لا أخُصّ الغَوَادِيَا
إذا كَسَبَ النّاسُ المَعَالِيَ بالنّدَى فإنّكَ تُعطي في نَداكَ المَعَالِيَا
وَغَيرُ كَثِيرٍ أنْ يَزُورَكَ رَاجِلٌ فَيَرْجِعَ مَلْكاً للعِرَاقَينِ وَالِيَا

- أبَا كُلّ طِيبٍ لا أبَا المِسْكِ وَحدَه
- ولكن لم يتحقق ما كان يتمناه المتنبي من كافور ، فهجاه بعد ذلك
- فهل كان كافور من الشخصيات البارزة في تاريخ مصر ؟
- سأتلو عليك ما كتبه الكاتب الساخر الكبير محمود السعدني عن كافور في كتابه الممتع مصر من تاني حيث كتب ما يلي : ( لقد كان عمنا كافور صاحب فضل وصاحب علم ، وكان لا يصاحب إلا أعلم أهل

زمانه ، وكان من حاشيته علماء النحو وعلماء الفقه وأعدل القضاة ، وكانت موائده العامرة مبذولة للجميع ، ودواره مفتوحة للفقراء قبل الأثرياء ، وكان لمطبخه في كل يوم ألفا رطل من اللحم البقري وسبعمائة رطل من اللحم الضأن ، ومائة طير أوز ، وثلاثمائة طير دجاج ، وثلاثمائة فرخ حمام ، وعشرون فرخ سمك كبار ، وعشرون جملاً رضع ، وثلاثمائة صحن حلوي ، وألف قفص من تفاح ، ومائة قربة من السكر ، وكان يحضر علي سماطه الخاص والعام )[٣٨٣]

- يبدو أنه كان شخص غير عادي
- وقد اضطربت أحوال مصر بعد وفاة كافور وأصبحت جاهزة تماماً للزحف الفاطمي من الغرب وقد كان المعز لدين الله الفاطمي ينتظر هذه اللحظة لينتزع مصر من الخلافة العباسية السنية ويضمها للمد الشيعي فكان يعد العدة لذلك ويقول عن ذلك د محمود الحويري ( – بدأ المعز لدين الله الفاطمي يعد العدة لفتح مصر ، فحفر الآبار علي الطريق من أفريقية إلي برقة ، وأنشأ النزل علي رأس كل مرحلة من هذا الطريق ، وعندما وصلته الأخبار بموت كافور الإخشيدي جهز جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائة ألف مقاتل أغلبهم من القبائل البربرية عهد بقيادته إلي قائده جوهر الصقلي ، وقد تجمع هذا الجيش في مدينة القيروان ، وهناك التفت المعز إلي المشايخ الذين وجههم مع جوهر وقال : والله لو خرج جوهر هذا وحده ليفتحن مصر وليدخلنها بالأرديه من غير حرب ----- ويبني مدينة تسمي القاهرة تقهر الدنيا – – )[٣٨٤]
- ألم يجرؤ المعز علي دفع هذا الجيش إلي مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور ؟
- ذكرنا أنه عند ظهور شخصية بارزة علي مسرح الأحداث تتغير الأحداث ، ولكن يبدو أن اختفاءه أيضاً يغير الأحداث ، فلم يقرر أو كما قلت لم يجرؤ المعز لدين الله أن يرسل جيشه بقيادة جوهر الصقلي إلي مصر إلا بعد أن تأكد من وفاة كافور وهكذا نري أن وفاة شخص واحد قد تغير مجري الأحداث تماماً ، فكل ما حدث أن كافور مات فقط ، ولم يحدث أي شئ آخر في مصر وكانت وفاته سبباً في سقوط مصر في أيدي الفاطميين ، إنه أمر يقودنا بالتأكيد لتذكر طبيعة الشخصيات البارزة في التاريخ
- ليس فقط يذكرنا بطبيعة الشخصيات البارزة ولكن أيضاً يذكرنا بطبيعة مصر كدولة يمثلها شخص واحد فتقوي بقوته وتضعف بضعفه وسبحان الله
- وهكذا وصلنا في حديثنا إلي الدولة الفاطمية
- لقد سمعت أن هناك عدة أنواع من الشيعة فهل تسمح لي أن أسأل عن هذه الأنواع ومن أي نوع كانت الدولة الفاطمية ؟

---

[٣٨٣] من كتاب ( مصر من تاني ) تأليف ( محمود السعدني ) صفحة ٢٧

[٣٨٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٤٥

## ١٤٠. الشيعة الجعفرية والشيعة الإسماعيلية

- كلمة شيعة ببساطة تُطلق علي كل من تشيَّع لآل البيت النبوي الشريف رضي الله عنهم أجمعين ، والتشيع هنا ببساطة شديدة مقصود به أن الخلافة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم يجب أن تكون مقصورة في الإمام علي كرم الله وجهه ونسله فقط ،
- فهل يعتقدون أن جميع الخلفاء من خارج نسل الإمام علي لا تصح خلافتهم علي الإطلاق بما فيهم سيدنا أبي بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان والأمويين والعباسيين ، ؟
- نعم ويجب أن تكون الخلافة بالوراثة داخل البيت العلوي فقط ويطلقون علي الخليفة لقب الإمام ، وهناك عدة فرق من الشيعة منها من هو قريب من السنة ومنها من هو بعيد عنها ومنها من هو متطرف جداً ، أما أكثر عدد من الشيعة حالياً فهم الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم أكثر أهل إيران وثلث سكان العراق وتوجد جماعات منهم في سوريا ولبنان واليمن وغيرهم من البلاد ،
- علي هذا تعتبر الشيعة الجعفرية الإثني عشرية أشهر أنواع الشيعة حالياً ،
- بالتأكيد ، وإليك بعض ما جاء في كتاب الدكتور علي عبد الواحد وافي عن الشيعة الجعفرية في كتابه " بين الشيعة وأهل السنة " ، وبالمناسبة الدكتور علي عبد الواحد هو عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع وعميد كلية الآداب بجامعة أم درمان وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر ووكيل كلية الآداب ورئيس قسم الاجتماع بجامعة القاهرة سابقاً ، وسوف يكون كلامي عن الشيعة بالكامل من كتاب الدكتور علي عبد الواحد عنهم ، فمثلاً يقول عن الشيعة الجعفرية ( بأنها تقصر الخلافة علي الإمام علي بن أبي طالب وأحد عشر إماماً متتابعين من نسله ، وهم : الحسن فالحسين فعلي زين العابدين فمحمد الباقر فجعفر الصادق فموسي الكاظم فعلي الرضا فمحمد الجواد فعلي الهادي فمحمد الحسن العسكري فمحمد المهدي ، والنص علي الإمام الأول وهو الإمام علي قد جاء في اعتقادهم بوصية من الرسول عليه السلام ، وأما الأحد عشر إماماً من بعده فقد استحق كل منهم الخلافة بوصية من الإمام السابق له ، وكان كل منهم الإبن الأكبر للإمام السابق ، ما عدا الحسين فإنه كان أخاً للإمام السابق له ، وهو الحسن ، وما عدا موسي الكاظم فإنه كان الإبن الثاني للإمام السابق له وهو جعفر الصادق ، واستحق الخلافة لموت أخيه الأكبر اسماعيل قبل وفاة أبيه – وقد بلغ كل إمام من هؤلاء سن الرشد وكانت له رسالة في قومه وانتقل إلي الرفيق الأعلي ، ما عدا الإمام الثاني عشر ، وهو الإمام محمد المهدي فإنهم يعتقدون أنه قد اختفي في مغارة في بلدة " سر من رأي " " سامراء من بلاد العراق " ولم يكن قد بلغ حينئذ سن الرشد " كان ابن سنتين أو أربع سنين " وأنه حي في مغارته وسيظهر آخر الزمان باسم المهدي المنتظر فيملأ الأرض عدلاً بعد أن ملئت جوراً – – )[٣٨٥]

[٣٨٥] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ٦ ، ٧

- **ما فهمته من كلامك أن الشيعة الجعفرية يعتبرون أن هناك اثني عشر إماماً فقط أولهم هو سيدنا علي وآخرهم هو المهدي المنتظر الذي يعتقدون أنه حي في أحد المغارات وسيظهر آخر الزمان ،**
- **وبمناسبة الكلام عن أبناء الإمام جعفر الصادق " اسماعيل وموسي الكاظم " فإن طائفة الإسماعيلية تختلف عن طائفة الجعفرية الإثني عشرية في أنها تعتقد أن أولاد اسماعيل هم الأئمة الحقيقيين رغم موت اسماعيل في حياة أبيه حيث يقول د علي عبد الواحد عن هذا الموضوع ( – – ولكن الفرقة الاسماعيلية تذهب إلي أن الخلافة قد انتقلت بعد جعفر الصادق إلي نسل ابنه الأكبر " اسماعيل " قياساً علي انتقال وظائف هارون إلي نسله بعد وفاته فقد مات هارون قبل أخيه موسي ولكن وظائفه الدينية لم تنتقل إلي أخيه بل انتقلت إلي نسل هارون – بينما تقف فرقة الجعفرية بالخلافة عند عدد معين من الإئمة " اثني عشر إماماً " ، تري الفرقة الإسماعيلية أن الإمامة لا تقف عند حد بل تتسلسل في نسل اسماعيل " ابن جعفر الصادق " إلي ما لا نهاية ، وكان الفاطميون أول من تولوا شئون الحكم وأول من دعوا لأنفسهم بالخلافة من هذه الفرقة ويطلق عليهم كذلك اسم " العبيديين " نسبة إلي جدهم الأول عبيد الله أول خلفائهم – – )[٣٨٦]**
- **حسناً ، لقد عرفت الآن أن الفاطميين من الشيعة الاسماعيلية وبالتالي فإن المعز لدين الله من نسل اسماعيل بن جعفر الصادق كما يقولون ، ولكن ماذا عن باقي فرق الشيعة الأخري ؟**
- **من فرق الشيعة أيضاً فرقة " الزيدية " ( وهم أتباع زيد بن علي زين العابدين وقد وافق زيد أخاه الباقر في أن الخلافة مقصورة علي الإمام علي كرم الله وجهه ونسله من فاطمة ، ولكنه خالفه في الشروط التي يجب توافرها في الخليفة )[٣٨٧] ومن هذه الشروط التي أقرها زيد بن علي أن يتم مبايعة الخليفة بالخلافة من عامة المسلمين وهذا المذهب هو أقرب ما يكون لمذهب أهل السنة[٣٨٨] ، ومن مذاهب الشيعة أيضاً الدروز ( – ويظهر أنها فرقة من الإسماعيلية ذهبت في عقائدها إلي تأليه الحاكم بأمر الله ثالث الخلفاء الفاطميين في مصر – – )[٣٨٩] ومن مذاهب الشيعة أيضاً " الكيسانية " نسبة إلي كيسان مولي محمد بن الحنفية وهي فرقة منقرضة تقريباً من الشيعة وفرقة " السبئية " وهم أتباع عبد الله بن سبأ الذي كان يذهب إلي ألوهية علي وأنه حي لم يمت[٣٩٠] ، وطبعاً هذه الفرق متطرفة جداً ومعظمها قد انقرض ولم يتبقي بشكل عام غير الشيعة الجعفرية الإثني عشرية وهم الأغلبية حالياً كما تتواجد فرقة من الإسماعيلية وبعض الدروز والزيدية والله أعلم**
- **فما هي أهم الاختلافات بين السنة والشيعة ؟**

---

[٣٨٦] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ١٤

[٣٨٧] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ١٢

[٣٨٨] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ١٣

[٣٨٩] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ١٦

[٣٩٠] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ١٩

## ١٤١. أهم الاختلافات بين أهل السنة والشيعة

- سأكتفي هنا بذكر أهم نقاط الخلاف دون الخوض في تفاصيل نقاط الخلاف الأخري ، فمثلاً أهل السنة يبايعون الخليفة الذي تنطبق عليه شروط الخلافة وقد يكون من البيت العلوي أو من غيره المهم أن يكون أهلاً للخلافة وهناك من يفضل أن يكون الخليفة من قريش عموماً أما الشيعة الجعفرية مثلاً فيعتقدون أنه لا تصح الخلافة لأي شخص من خارج نسل الإمام علي كرم الله وجهه ، ومن أبرز الاختلافات أيضاً أن أهل السنة يعتقدون أن الخليفة غير معصوم من الخطأ أما الشيعة فيعتبرون أن الخليفة "الإمام" معصوم من الخطأ ويتميز بصفات خاصة ، ويقول عن ذلك الدكتور علي عبد الواحد ( – – أنهم ينزلون الأقوال والآراء الثابتة عن أئمتهم منزلة السنة المروية عن الرسول عليه الصلاة والسلام ، ويحكمون بالفسق علي المكذبين لهذه الآراء والأقوال ، بل يري البعض أن التكذيب بها يفقد الشخص الإيمان ولا يفقده الإسلام فيعامل معاملة المسلمين ولكن لا يكون كامل الإيمان ، وهذا مبني علي أنهم يعتقدون العصمة والإلهام في أئمتهم ، أما اعتقادهم العصمة في هؤلاء الأئمة فاعتقاد غير سليم ، لأن العصمة لا تكون إلا للأنبياء عليهم الصلاة والسلام – – )[٣٩١]
- إن الشيعة الذين يعتقدون أن الإمام يعرف الغيب وأن منزلته تفوق منزلة البشر العاديين وبالإضافة إلي ذلك يسبون كبار الصحابة مثل أبو بكر وعمر ويتهمون السيدة أم المؤمنين عائشة التي برأها المولي عز وجل من فوق سبع سماوات ، لا يعتبرهم بعض العلماء قد جاؤوا بمذهب مختلف في إطار دين الإسلام كالمذاهب الأربعة مثلاً ولكن يعتبرونهم قد جاؤوا بدين مختلف والله أعلم
- ، وهناك اختلافات أخري أيضاً بين السنة والشيعة الجعفرية ( فمن ذلك مثلاً أنهم يجعلون سورتي الأنفال وبراءة سورة واحدة وكذلك سورتي الضحي وألم نشرح وسورتي الفيل وقريش ، فتكون سور القرآن عندهم مائة وإحدي عشرة سورة علي حين أنها مائة وأربع عشرة سورة عند أهل السنة وهذا مجرد خلاف في عدد السور لا في النص القرآني ، ومن ذلك أيضاً أنهم يذهبون إلي أن المتشابه من القرآن إنما يعد متشابهاً لغير أئمتهم ، أما بالنسبة لأئمتهم فإن الله قد أطلعهم علي تأويل المتشابه ، حتي الحروف المقطعة في أوائل السور فإنهم يعلمون تأويلها ، وأن للقرآن ظاهراً وباطناً ولا يعلم باطنه إلا أئمتهم وهم الأوصياء علي دين الله )[٣٩٢] ، ومن معتقدات الشيعة الجعفرية أيضاً الرجعة وهي عبارة عن رجوع الإمام الثاني عشر الذي لم يمت من وجهة نظرهم حتي الآن ، ومن معتقداتهم أيضاً ما يسمي بالتقية وهي ( أن يخفي الشخص ما يعتقده أو يصرح بغيره اتقاء للأذي أو للتمكين من الوصول إلي ما يريد من نصرة لدين الله أو للحق في ذاته )[٣٩٣] ، وطبعاً هناك اختلافات أخري لا أريد

---

[٣٩١] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ٤٨، ٤٩

[٣٩٢] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ٣٦

[٣٩٣] بين الشيعة وأهل السنة ( د علي عبد الواحد وافي ) صفحة ٦١

أن أثقل عليك بها ، وغاية ما يمكن أن يقال عن الشيعة في هذا الحوار هو ما يعنينا من الشيعة الإسماعيلية وهي الفرقة التي دخلت مصر وسيطرت عليها وكانت تسمي بالدولة الفاطمية وقد عرفنا ببساطة واختصار أهم ملامح هذه الفرقة واختلافها عن الشيعة المنتشرين بكثرة في هذه الأيام ويكفي أن تعرف أن الخليفة الفاطمي الذي يحكم مصر كان يعتقد هو وأعوانه أنه معصوم وملهم وإمام وصي علي الدين وأقواله وأفعاله لابد من التعامل معها كشخص غير عادي

- إن هذا أخطر ما في الموضوع أن يتواجد شخص ما يدعي أنه ملهم ومعصوم ولا يخطئ أبداً ويفرض علي الجميع طاعته وتقديسه ، فهذا يخالف ما أجمع عليه كافة أهل السنة من أنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ، مهما كان منصب أو وضع هذا المخلوق ، كما أن المولي عز وجل قد أتم دينه وأكمل نعمته سبحانه وتعالي فلا يحق لأحد أن يضيف أي شئ بحجة أنه معصوم أو ملهم السماء
- أنت محق بالطبع فكل المسموح به حالياً هو الاجتهاد فقط من علماء الأمة والبحث عن أدلة شرعية من الكتاب والسنة وليس من اختراعهم كما أنه ليس إصدار الأوامر التي تصبح مقدسة لمجرد أنهم قالوها
- ولكن بعد انتهاء عصر الأئمة الاثني عشر لمن يسمع الشيعة حالياً ويطيعون ؟
- لقد أصبح لديهم ما يسمونه المرجع الشيعي الأعلي وهو البديل الحالي للإمام ، الذي يجب عليهم طاعته حتي أنهم يعتقدون أن أحدهم بين يديه يعتبر نفسه كالميت بين يدي مُغسله ، أي في حالة استسلام تام ، أما أهل السنة فيعتقدون أن كل شخص يؤخذ من كلامه ويُرد عليه إلا رسول الله فقط صلي الله عليه وسلم ولا لأحد عصمة غيره صلي الله عليه وسلم
- لقد كان أبو بكر الخليفة الأول رضي الله عنه يقول أطيعوني ما أطعت الله ورسوله وكل خليفة من بعده كان لابد أن يلتزم بما التزم به أبو بكر رضي الله عنه
- بالتأكيد فإنه من الثابت في العديد من الكتب والمراجع أنه لما بويع أبو بكر بالخلافة بعد بيعة السقيفة تكلم أبو بكر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال" :أما بعد أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أريح عليه حقه إن شاء الله، والقوى فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم."
- هل من الممكن تلخيص العصر الفاطمي قبل أن نسترسل في الحديث عنه ؟ فالملخص العام في حد ذاته يعبر عن الكثير من المعاني ويكون مدخلاً للخوض في التفاصيل فيجعل من السهل استيعابها

## ١٤٢. ملخص العصر الفاطمي بالكامل

- تولي الفاطميون حكم مصر من سنة ٩٦٩ م إلي سنة ١١٧١ م٣٩٤ أي حوالي ٢٠٢ سنة وأسسوا عاصمة جديدة لمصر بل للخلافة الفاطمية كلها وهي مدينة القاهرة وسيطروا لفترة كبيرة علي معظم أنحاء الأمة الإسلامية مثل شمال أفريقيا والشام والحجاز واليمن ، وتولي القائد جوهر الصقلي حكم مصر وأعدها لاستقبال المعز لدين الله ويعتبر جوهر الصقلي أول حاكم لمصر في عصر هذه الدولة وحتي حضور المعز لدين الله أبو تميم " معد " في رمضان سنة ٣٦٢ هـ / يونيو ٩٧٣ م وتوفي المعز سنة ٩٧٥ م وخلفه ابنه العزيز لدين الله " نزار " أبو منصور إلي أن توفي سنة ٩٩٦ م وجاء بعده ابنه الحاكم بأمر الله المنصور أبو علي إلي أن قُتِل سنة ١٠٢٠ م ثم الظاهر لإعزاز دين الله ثم المستنصر بالله ثم المستعلي بالله ثم الآمر بأحكام الله ثم الحافظ لدين الله ثم الظافر بأمر الله ثم الفائز بنصر الله وأخيراً العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر وانتهت في عهده الدولة الفاطمية علي يد صلاح الدين الأيوبي حيث أعادها إلي المذهب السني وإلي ظل الخلافة العباسية مرة أخري ، ويمكن تلخيص العصر الفاطمي إلي عصرين أساسيين ، العصر الفاطمي الأول الذي سيطر فيه خلفاء أقوياء علي الحكم ثم العصر الفاطمي الثاني " عصر الاضمحلال " الذي زاد فيه نفوذ الوزراء وسيطروا علي مقاليد السلطة وكان خلفاء هذا العصر خلفاء ضعفاء ومعظمهم من الأطفال صغيري السن وقد حدث هذا التحول من العصر الأول إلي العصر الثاني في عهد الخليفة المستنصر بالله والوزير بدر الجمالي[٣٩٥]

- فماذا عن القاهرة عاصمة الفاطميين ، فقد سمعت أنها كانت في قمة الروعة في عهدها الأول ؟

- بالفعل ، فقد لبثت القاهرة منذ قيام الدولة الفاطمية في مصر عاصمة المُلك والخلافة ، وبلغت أيام الفاطميين من الضخامة والرونق والبهاء مبلغاً عظيماً بل إنه لم يمض نصف قرن فقط علي قيام القاهرة المعزية حتي كانت بقصورها ومرافقها تكون مدينة من أعظم مدن الإسلام وكانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت منذ أوائل القرن الخامس الهجري منتهي الضخامة والبذخ وكان القصر الخليفي الكبير أو القصر الشرقي يقع في وسط المدينة في منطقة خالية وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربي أو القصر الصغير وهو الذي أنشأه الخليفة العزيز بالله وخصص فيما بعد لإقامة ابنته الأميرة ست الملك ، وبين الصرحين ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير وهو الذي كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة أو الحرس الخليفي أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة وكان الجامع الأزهر وهو جامع القاهرة الرسمي ، يحتل مكانه الخالد ، الذي يقوم فيه حتي اليوم ، وسط المدينة فيما بين الشرق والغرب ، وقد وصف لنا الشاعر والرحالة الفارسي ناصري خسرو الذي زار القاهرة سنة ٤٣٨هـ -١٠٤٦م- القصر الفاطمي الكبير بقوله : إنه قصر شاسع تراه من خارج

---

[٣٩٤] موسوعة حكام مصر ( د ناصر الأنصاري ) صفحة ٨٦ ، ٨٧

[٣٩٥] ينسب إلي هذا الوزير اسم حي الجمالية حالياً بالقاهرة الفاطمية

المدينة كأنه جبل نظراً لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ، ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثني عشر ألف نفس ، ومن ذا الذي يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات ، وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة وله عشرة أبواب تفضي إلي الحرم ثم يقول ناصري خسرو إن القاهرة لها خمسة أبواب وهي ليست محصورة في رقعة محصنة ولكن المباني والمنازل مرتفعة جداً حتي أنها تبدو أعلي من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات ، وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهي العناية والترف حتي ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر أو الأحجار العادية والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة في أحدها لا تصل أغصانها إلي المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد ، وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مُعِزّية في الشهر والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة وهذه أيضاً كلها من أملاك الخليفة إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلاً أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه

- فماذا عن سيف المعز وذهبه وما أصل هذه المقولة ؟

## ١٤٣. سيف المعز وذهبه

- أثار موضوع نسب بني عبيد إلي البيت العلوي الكثير من الجدل في أوساط الأمة الإسلامية حتي أن المعز لدين الله عندما سأله أعيان مصر عن نسبه (- - وضع المعز يده علي مقبض سيفه وجذبه من جرابه إلي النصف وقال هذا " نسبي " ثم مد يده الأخري بمقدار من الذهب ونثره عليهم وقال هذا " حسبي "[٣٩٦] فأجابوه جميعاً بالسمع والطاعة - - - ثم ذكر ابن خلكان أن المصريين اعتبروا هذا التصرف فراراً من الجواب لأنه مدخول في نسبه - -)[٣٩٧] والطريف أيضاً في هذا الموضوع أن الخليفة الفاطمي أرسل كتاباً إلي صاحب الأندلس الأموي يسبه فيه ويهجوه فرد عليه يقول ( - أما بعد فقد عرفتنا فهجوتنا ولو عرفناك لأجبناك - -)[٣٩٨]
- أعتقد أن هذا الرد بالتأكيد أسوأ من السب والهجاء لأنه يعني أن الخليفة الفاطمي لا يعرف أصله أحد حتي يرد عليه وطبعاً صاحب الأندلس أموي قريشي ويعرف أصول قبيلة قريش جيداً بجميع فروعها العباسية والعلوية والأموية وغيرها من البطون ،

---

[٣٩٦] المقصود هنا أن الحسب والنسب هما القوة والمال ومن يمتلك القوة والمال يمتلك السلطة

[٣٩٧] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ( لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد ) صفحة ١١

[٣٩٨] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ( لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد ) صفحة ١١

- وكذلك أكد العباسيون في بغداد أن بني عبيد لا ينتمون بأي صلة من الصلات إلي آل البيت وأن لقب الفاطميون لا يصح إطلاقه عليهم بل إن هناك وثيقة تم كتابتها في بغداد أثناء حكم الحاكم بأمر الله الفاطمي في مصر وتؤكد هذه الوثيقة عدم انتماء الحاكم وأجداده إلي البيت العلوي والطريف أن من بين الذين وقعوا علي هذه الوثيقة أشخاص علويون بالفعل ، ولكن دعنا من أصل المعز ونسبه وحسبه ولنتحدث عن سيفه المعز وذهبه كما يقال ، لأنه علي أي حال أحد الشخصيات البارزة التي ظهرت في تاريخ مصر وفرضت نفسها علي كتب التاريخ ليس المصري فقط ولكن تاريخ العالم الإسلامي بشكل عام فعندما أكد المعز علي أن القوة والمال هما السبيل إلي السلطة وهما الحسب والنسب " سيف المعز وذهبه " تعامل المصريون مع حكامهم الجدد علي أساس السخرية مع عدم المواجهة وخصوصاً أن الأئمة الفاطميين ادعوا أن نسبهم يعود إلي السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها وبالطبع لم يصدق المصريون ذلك
- وهل صدق المصريون أن هؤلاء الأئمة معصومون بالفعل ؟
- لم يصدقوا بالطبع أن هؤلاء الأئمة معصومين ولديهم إمكانيات خاصة ويعلمون الغيب وسأذكر هنا موقفين يوضحان أسلوب تعامل المصريون مع الخلفاء الشيعة فمثلاً صعد أحد خلفاء الشيعة مرة علي المنبر فوجد بطاقة " ورقة " مكتوب فيها أبيات من الشعر :

إنا سمعنا نسباً منكراً - - - يُتلي علي المنبر في الجامعِ
إن كنت فيما تدعي صادقاً - - فاذكر أباً بعد الأب الرابعِ
أو فدع الأنساب مستورةً - - وادخل بنا في النسب الواسعِ

- هذا يدل علي أن المصريين لم يتمكنوا من مواجهة الفاطميين ولكنهم كانوا يسخرون منهم ومن عقيدتهم ويتركون هذه الأوراق التي تحمل آراء ساخرة ،
- وبالرغم من أن الفاطميين كانوا يتسمون بالتسامح الديني مع باقي المذاهب بل وباقي الأديان إلا أن المصريين (- - لم يقبلوا فكرة تقديس الأئمة وعصمة الإمام وهي الفكرة التي كانت تضفي نوعاً من القدسية الإلهية رفضها المصريون من قبل فيما يتعلق بألوهية فرعون أو الأباطرة الرومان فيما بعد ، وكان المصريون يسخرون كثيراً من هذا الجانب في المذهب الشيعي فعلي سبيل المثال صعد الخليفة العزيز بالله ذات جمعة فوجد ورقة-بطاقة- كُتِب فيها [٣٩٩]

بالظلم والجور قد رضينا - - - وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أُعطيت علم غيب - - فقل لنا من كاتب البطاقة

- فهل أمر المعز ببناء مدينة القاهرة ليستقر فيها في مأمن عن الشعب المصري لحين استقرار أمور دولته في مصر ؟

[٣٩٩] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٧٣ ، ١٧٤

- لقد تم بناء مدينة القاهرة لتكون عاصمة الفاطميين ونقل المعز كل كنوزه وكنوز أجداده إليها بل واتخذها عاصمة لمُلكه (- وأول ما بني في القاهرة القصر الكبير ليكون سكناً للخليفة وأتباعه ومقراً لدواوين الحكم وضع جوهر أساس هذا القصر ليلة نزل بالمناخ وفي يوم السبت لست بقين من جمادي الآخرة سنة ٣٥٩ هـ " ٥ مايو سنة ٩٧٠ م" اختطت القاهرة فنزلت كل قبيلة أو فرقة من فرق الجيش في مكان خاص بها وسميت خططها بالحارات ومنها حارة زويلة ونزلت بها قبيلة زويلة وحارة كتامة ونزلت بها قبيلة كتامة وحارة البرقية ونزل بها قوم من برقة وهكذا )[٤٠٠] وقد تم بناء قصراً آخر في القاهرة وسميت المنطقة المحصورة بين القصر الأول والثاني " بين القصرين "
- نعم فهو الإسم الشائع إلي الآن رغم عدم وجود القصرين حالياً ،
- وكان للقاهرة سور عظيم له أبواب موجود بعضها إلي الآن مثل باب زويلة وباب الفتوح وباب النصر كما يوجد جزء من سور القاهرة بجوار مسجد الحاكم بأمر الله
- فما هي مظاهر الحياة العامة في العصر الفاطمي ؟
- لم يترك الفاطميون عيداً إلا واحتفلوا به وكأن الاحتفال في حد ذاته هو المهم وليست المناسبة الخاصة به ، وكانوا يبالغون كثيراً في مظاهر هذه الاحتفالات واحتفلوا (- برأس السنة الهجرية وبليلة المولد النبوي الكريم وليلة أول رجب وليلة المعراج فيه وليلة أول شعبان ونصفه وغرة رمضان وعيد الفطر وعيد الأضحي ومولد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ومولد ولديه الحسن والحسين ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ويوم عاشوراء وهو اليوم الذي قتل فيه الحسين بن علي في كربلاء وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد – عدا يوم عاشوراء – في فيض من البهاء والبذخ - - أما يوم عاشوراء فكان يعتبر يوم حزن عام تغلق فيه الأسواق - - واحتفل الخلفاء الفاطميون بأعياد الأقباط بكثير من مظاهر الأبهة والعظمة ومن أهم تلك الأعياد ليلة الغطاس وخميس العهد - - كذلك اهتم الفاطميون بالاحتفال بوفاء النيل فقد كان الخليفة يخرج وفي ركبة عشرة آلاف فارس يمتطون الخيل المطهمة الملجمة ، ويلبسون الدروع المحلاة بالذهب والأحجار الكريمة المكسوة بديباج مطرز باسم الخليفة -)[٤٠١]
- يبدو أنه كان عصراً مختلفاً تماماً بين العصور الإسلامية الأخري
- وصف الكاتب الساخر محمود السعدني العصر الفاطمي بصفات كثيرة سأتلو عليك بعض المقتطفات منها : ( - - ولكن وأياً كان الأمر في أصل المعز وفصله ومهما قيل عن ثروته وذهبه وسيفه فالذي لا شك فيه أن كل العصور التي مرت في السابق كانت شيئاً والعصر الفاطمي شيئاً آخر فهذه بالفعل دولة الانفتاح والكذب والرشوة وهذا هو عصر الأقارب والمحاسيب والأنصار وستعود الدولة المصرية

---

[٤٠٠] تاريخ مصر الإسلامية ج ١ ( د جمال الدين الشيال ) صفحة ١٤٤

[٤٠١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٧١

الإسلامية إلي عصر فرعون الذي ولي ، دولة غنية وشعب من الفقراء وأسرة حاكمة تملك كل شئ وشعب لا يملك إلا صلاة النبي – – وسيصبح لمصر من الآن ولمدة أقل بقليل من ثلاثة قرون من الزمان دولة بكل ما في كلمة دولة من معني ، جيش مقاتل كل أفراده أجانب ومرتزقة ، وزارة يتولي أمرها القائد جوهر الصقلي وجهاز إعلام هو أخطر جهاز إعلامي أنشأه العرب في العصر الوسيط – – – وكانت مهمة الجهاز التقليدية هي نشر المذهب الفاطمي وتجنيد الأنصار ولكن مهمته الرئيسية كانت هي الحفاظ علي أمن الدولة والعمل علي استمرارها وجمع المعلومات أيضاً وشراء ذمم الناس – – )[٤٠٢]

- فهل لديك المزيد من الوصف لمظاهر الترف والبذخ في العصر الفاطمي ؟
- (– أسهب المؤرخون في وصف مظاهر الترف والبذخ والثراء التي عرفها العصر الفاطمي بصورة لا نجدها في مصر في سائر العصور ، ويتجلي بذخ الخلفاء في القصور التي بنوها ومن أشهرها القصر الشرقي الذي بناه جوهر الصقلي للخليفة المعز لدين الله الفاطمي والقصر الغربي الذي بناه الخليفة العزيز بالله – – ومما يدل علي مظاهر الثروة والأبهة عند الخلفاء الفاطميين الوصف الذي أورده المؤرخ الصليبي وليم الصوري رئيس أساقفة صور عند زيارة سفير عموري الأول ملك بيت المقدس – – في عهد الخليفة العاضد آخر خلفاء الدولة الفاطمية فقد جاء فيه " وقد استقبل السفيران بحفاوة ، فاجتازوا الردهات والأبواب التي يقف عليها حراس سودانيون أشداء بسيوفهم اللامعة وكذلك الحدائق المليئة بالحيوانات والطيور النادرة ، وأخذا يسيران من قاعة إلي أخري حتي ظهرت أمامهما قاعة العرش الذهبي ، وقد أسدل عليها ستارة من الحرير مرصعة بالذهب واللآلئ ، ومثلت عليها صور بشرية كثيرة وهيئات طيور وحيوانات تتألق بأحجار الزمرد والياقوت والأحجار الكريمة من كل نوع ، ثم فتحت الستارة فظهر الخليفة جالساً علي مقعد من الذهب والأحجار الكريمة وقد ارتدي ملابس فاخرة لم يتح لكثير من الملوك إذ ذاك لبسها –)[٤٠٣] ، وكان الصليبيون قد سيطروا علي بيت المقدس وأصبحت لهم مملكة صليبية فيه خلال العصر الفاطمي حيث كان بيت المقدس تحت سيطرة الفاطميين في ذلك الوقت
- أرجو أن تحدثني أيضاً عن الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي المثير للجدل

## ١٤٤. الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :

- يعتبر المعز لدين لله والحاكم بأمر الله والمستنصر بالله هم أشهر ثلاثة خلفاء في الدولة الفاطمية بالكامل علي الأقل بالنسبة لأي شخص عادي حالياً فالمعز مثلاً هو أول من ضم مصر لحكم الفاطميين وتم تأسيس مدينة القاهرة في عهده بل إن البعض يحلو له أن يقول ( قاهرة المعز ) ، أما

[٤٠٢] مصر من تاني ( محمود السعدني ) صفحة ٣٢

[٤٠٣] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٧٠

الحاكم بأمر الله فقد كان من الشخصيات التي أثير حولها الكثير من الجدل والشائعات حتي أن البعض يقول أنه منع الناس من أكل الملوخية وبالرغم من أن هذه الأقاويل قد تكون مبالغ فيها جداً إلا أنها تدل علي أن شخصية الحاكم بأمر الله بلا شك كانت غريبة الأطوار ونهايته أيضاً كانت غامضة ، ومما كتبه السعدني عن الحاكم بأمر الله ما يلي ( - - وهو واحد من أغرب شخصيات مصر علي الإطلاق ، فهذا الصبي الذي تولي السلطة وهو في الحادية عشرة والذي كان والده شيخ المذهب الفاطمي وأمه شقيقة بطريرك أقباط مصر ، جن جنونه فجأه وهو يقبع وحيداً في مغارة علي قمة جبل المقطم ، وشعر بأن صوتاً يناديه ويدعوه إلي التوفيق بين دين النصاري ودين المسلمين واستخراج دين جديد - - )[٤٠٤] وقد حدث قلق شديد في الأسرة الفاطمية بسبب أفعال وأقوال الحاكم بأمر الله فقرروا التخلص منه ( - - وكان أكثر أفراد الأسرة قلقاً " ست الملك " عمته وقال بعض المؤرخين أنها ليست ست الملك ولكنها ست النصر أخته وأن ست الملك ماتت في عهد ولاية المعز وأياً كانت السيدة التي تآمرت ضد الحاكم بأمر الله وهل هي ست الملك أو ست النصر فهي علي كل حال ست والسلام - - )[٤٠٥] ( وذات مساء خرج الحاكم بأمر الله من قصره كالعادة يركب حماره الأشهب ويضع بردته علي كتفيه وبينما كان صاعداً إلي جبل المقطم هجم عليه عدد من العبيد السود الأشداء فقتلوه ولم يعرف بقتله حتي عاد حماره الأشهب ذات صباح إلي القصر وعليه بردة الحاكم بأمر الله وقد تلطخت بالدم - - )[٤٠٦]

- القصة تذكرنا إلي حد ما بالمؤامرة التي تمت ضد اخناتون في الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية عندما حاول عمل انقلاب ديني مع الفارق في التفاصيل
- نعم فقد ذكرنا أن النظام الحاكم هو أول من يتخلص من الحاكم الذي يشكل خطر علي استقرار النظام
- فهل لديك معلومات عن ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي ؟

## ١٤٥. الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية

- في عهد هذا الخليفة حدث ما يسمي بالشدة المستنصرية في العصر الفاطمي ( - - وكان من مظاهرها الغلاء الشديد وانتشار الأوبئة التي أدت بحياة الألوف في ريف مصر ومدنها واقترنت هذه الشدة بقيام الفتن والاضطرابات في مصر - - )[٤٠٧] ، وقال المقريزي ( - - ثم وقع في أيام المستنصر بالله الغلاء الذي فحش أمره وشنع ذكره وكان أمده سبع سنين وسببه ضعف السلطنة ، واختلال أحوال المملكة واستيلاء الأمراء علي الدولة ، واتصال الفتن بين العربان وقصور النيل[٤٠٨] -

---

[٤٠٤] مصر من تاني ( محمود السعدني ) صفحة ٣٤

[٤٠٥] مصر من تاني ( محمود السعدني )

[٤٠٦] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٣٤

[٤٠٧] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٦٦

[٤٠٨] قصور النيل معناه قلة الماء فيه

– وكان ابتداء ذلك سنة سبع وخمسين وأربعمائة –هجرية – ، فنزع السعر وتزايد الغلاء وأعقبه الوباء حتي تعطلت الأراضي من الزراعة وشمل الخوف ، وخيفت السُبُل براً وبحراً – – وأُكِلت الكلاب والقطط حتي قلت الكلاب فبيع كلب ليؤكل بخمسة دنانير وتزايد الحال حتي أكل الناس بعضهم بعضاً وتحرز الناس – – ثم آل الأمر إلي أن باع المستنصر بالله كل ما في قصره من ذخائر وثياب وأثاث وسلاح وغيره وصار يجلس علي حصير وتعطلت دواوينه وذهب وقاره وكانت نساء القصور تخرجن ناشرات شعورهن تصحن : الجوع الجوع تردن المسير إلي العراق فتسقطن عند المصلي وتمتن جوعاً – – واحتاج المستنصر حتي باع حلية قبور آباءه – – )٤٠٩

- فهل حدثت شدة أخري في العصر الفاطمي ؟
- يذكر المقريزي أيضاً غلاء وقع في أيام الخليفة الآمر بأحكام الله وغلاء آخر وقع في أيام الحافظ لدين الله وكان الوزير هو الأفضل بن وحش ووقع غلاء في أيام الفائز بوزارة الصالح طلائع بن رزيك٤١٠ ( – – وقد دفع سوء الأحوال في مصر الخليفة المستنصر بالله إلي استدعاء الوزير بدر الجمالي من فلسطين لإعادة الأمور إلي نصابها– فلما ولي الوزارة سنة ٤٦٦ هـ " ١٠٧٣ م " قضي علي المفسدين وعناصر الشدة فاستقرت الأمور وعاد الرخاء تدريجياً -- )٤١١ ( – وصار وزير السيف من عهد أمير الجيوش بدر –الجمالي – إلي آخر الدولة – الفاطمية – هو سلطان مصر ، وصاحب الحل والعقد ، –)٤١٢ ، ويقول ابن الأثير ( – كانت الوزارة في مصر لمن غلب والخلفاء وراء الحجاب والوزراء كالمتكلمين وقل أن وليها أحد بعد الأفضل " الوزير الفاطمي " إلا بحرب وقتل وما شاكل ذلك – )٤١٣ ، (– وكان أن اخترقت الحملة الصليبية الأولي آسيا الصغري ومنها زحف الصليبيون نحو مدينة بيت المقدس التي كانت خاضعة للفاطميين آنذاك فسقطت في أيديهم في ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ م وهناك لم يتورعوا عن ارتكاب أفظع الأعمال الوحشية فقتلوا عشرات الألوف من المسلمين أطفالاً ونساءاً ورجالاً وشيوخاً مما ترك أثراً سيئاً عميقاً في جميع أنحاء العالم الإسلامي ولم تمض سنوات قليلة حتي أسس الصليبيون ثلاث إمارات كبري في الرها وانطاكية وطرابلس فضلاً عن مملكة بيت المقدس الصليبية ، وبعبارة أخري ، صار في أيدي الصليبيين الجانب الأكبر من فلسطين وساحل الشام وموانيه لتأمين الاتصال البحري بأوروبا الغربية –)٤١٤ ،
- ولكن كيف تفوق الصليبيون بهذا الشكل ؟

---

[٤٠٩] إغاثة الأمة بكشف الغمة ( المقريزي ) صفحة ٥٢ ، ٥٣

[٤١٠] صاحب مسجد الصالح طلائع المواجه لباب زويلة بالقرب من الغورية والخيامية

[٤١١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٦٦

[٤١٢] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٧ ( نقلاً عن المقريزي )

[٤١٣] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٧ ( نقلاً عن ابن الأثير )

[٤١٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٦٠

- سأوضح لك سبب نجاح الحملات الصليبية من وجهة نظر الدكتور محمود الحويري حيث قال : يعتبر نجاح الصليبيين في تأسيس كيان لهم ببلاد الشام ( – – لا يرجع إلي تفوق جيوشهم في العدد والعدة ولا إلي كفاءتهم الحربية ، وإنما يرجع أساساً إلي انعدام المقاومة الإسلامية وتراخي المسلمين في الذود عن أراضيهم بسبب تبعثر قواهم وافتقارهم إلي الوحدة والتماسك ، فأمراء السلاجقة لم يكن من بينهم بعد وفاة أعظم سلاطينهم " ملكشاه " سنة ٤٨٥ هـ " ١٠٩٢ م" من يستطيع أن يتولي قيادتهم ويوجه جهودهم لقتال الصليبيين ، في الوقت الذي انكمشت فيه الخلافة الفاطمية في مصر ولم تكن في حال يسمح لها بأن تنهض بدور فعال في إنقاذ بلاد الشام من براثن الصليبيين – – وإذا كان من الثابت أن الفاطميين اشتبكوا مع الصليبيين ببلاد الشام ، ولكن الفاطميين ظهروا أمامهم في صورة العاجزين ، وأخفقوا في استرداد بيت المقدس – )١ ، وهكذا لم يعد في الأمة الإسلامية قائد من الوزن الثقيل حتي ظهرت شخصية قوية وهو عماد الدين زنكي ( – الذي وضع نصب عينيه أن التغلب علي الصليبيين وطردهم من بلاد الشام لا يمكن أن يتم إلا بتوحيد الجبهة الإسلامية وهي المهمة التي بدأها بنفسه وأتمها ابنه نور الدين محمود ومن بعده صلاح الدين الأيوبي – )

- وماذا حدث بعد ذلك ؟

- استمرت مملكة بيت المقدس تحاول الاستيلاء علي مصر إلي أن اتفقت الدولة الفاطمية مع الصليبيين علي دفع جزية قدرها مائة وستون ألف دينار٤١٥ من الفاطميين للصليبيين مقابل عدم غزو مصر ، وكان صراع الوزراء علي السلطة هو الشغل الشاغل في مصر والقتال الدامي

- فكيف انتهي حكم الفاطميين في مصر ؟

## ١٤٦. العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر

- في عهد الخليفة العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي فقد حدث في عهده أكبر النزاعات علي منصب الوزراة في مصر ودار الصراع بين رجلين مهمين من رجال الدولة وهما " شاور " و " ضرغام " وقد لجأ كل منهما إلي قوة خارجية لتدعم موقفه في الصراع ، أما شاور فقد لجأ إلي نور الدين محمود حاكم الشام القوي ، وطلب منه أن يرسل معه جيشاً إلي مصر ليستعيدها من ضرغام مقابل ( ثلث إيرادات مصر وأن يدين له بالولاء إن عادت إليه مقاليد الحكم والوزارة – )٤١٦ ، وكان نور الدين محمود علي المذهب السني بالطبع أما شاور وضرغام والفاطميين جميعاً علي المذهب الشيعي فقد كانت صفقة غريبة بين طرف شيعي وطرف سني ليس من وراءها إلا الوصول للسلطة بأي أسلوب ،

- هذا عن شاور فإلي من لجأ ضرغام ؟

---

[٤١٥] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٨٥

[٤١٦] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٤

- أما ضرغام فقد لجأ للصليبيين وقوتهم في صراعه مع شاور وكان موقف نور الدين محمود علي ما يبدو يؤكد أنه يريد أن يتدخل في مصر بأي اسلوب أو أي صورة كي يتم له مستقبلاً إزالة الشيعة من مصر ووجد أن مساعدة شاور في خطته فرصة لوضع يده علي مصر والسيطرة عليها كخطوة لتوحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين ، وكما فكر نور الدين محمود في هذا فقد فكر أيضاً الصليبيون في مساعدة ضرغام وبالتالي يكون لهم نفوذ في مصر وقوة علي أرضها
- وطبعاً هناك فرق بين تفكير نور الدين محمود ونواياه ، وبين تفكير الصليبيين ونواياهم ،
- وبالمناسبة كان ملك بيت المقدس في ذلك الوقت اسمه الملك "عموري" أو هكذا تم درجه في كتب التاريخ العربي ، وقرر نور الدين محمود إرسال جيش بقيادة أسد الدين شيركوه إلي مصر بصحبة شاور ، ( – وعلم ضرغام بخروج هذا الجيش وقرب وصوله إلي مصر فأصابه الفزع إذ لم يكن الجيش الفاطمي في ذلك الوقت في حالة تمكنه من المقاومة أو إحراز النصر – )[٤١٧] وأرسل ضرغام رسائل إلي عموري ملك بيت المقدس لينقذه ولكن كان قد فات الأوان فقد قام أسد الدين شيركوه وجيشه بهزيمة ضرغام هزيمة ساحقة انتهت بقتل ضرغام وتفرق أعوانه وتم تعيين شاور وزيراً في مصر في الدولة الفاطمية ، ثم قرر شاور الغدر بأسد الدين شيركوه ورفض إعطاءه ما تم الاتفاق عليه وطلب منه العودة إلي الشام هو وجيشه، فرفض أسد الدين شيركوه وقرر أن يتحصن هو وجيشه في مدينة بلبيس ولم يغادر مصر
- فماذا فعل شاور ؟
- ولأن شاور ومن قبله ضرغام كل ما يهمهما هو السلطة ، أرسل شاور إلي ملك الصليبيين عموري لينقذه من جيش أسد الدين شيركوه وبالفعل حضر عموري بنفسه علي رأس جيش قوي إلي مصر ليقف بجوار شاور ضد أسد الدين شيركوه وكان عموري بالطبع علي علم بأن الدولة الإسلامية الموجودة في الشام علي خلاف مع الدولة الموجودة في مصر
- ولذلك لم يكن يعتبر نفسه محاصراً من الشمال والجنوب من دولة إسلامية واحدة قوية ،
- وهكذا اجتمع في مصر جيش إسلامي سني وجيش إسلامي شيعي وجيش صليبي ، وكان ملك الصليبيين يخشي أن يسيطر نور الدين محمود علي مصر فيصبح خطره من الشمال والجنوب ويتم حصار الصليبيين بدولة إسلامية واحدة علي مذهب واحد وتحت قيادة واحدة ، وحاصر عموري بلبيس بمن فيها من جيش أسد الدين شيركوه لمدة ثلاثة أشهر وهنا أيقن نور الدين محمود خطر وجود عموري في مصر وأن جيش أسد الدين ليس بالقوة الكافية لمواجهة الصليبيين في بلبيس ، فقرر أن يجبر ملك الصليبيين علي الانسحاب وذلك بمهاجمة قواته في الشام مما جعل عموري يقلق علي مملكته وهو غائب عنها وقرر أن الأولوية للمملكة وليس لحصار بلبيس ،

---

[٤١٧] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٥

- وكان هذا بالطبع تصرف حكيم من نور الدين محمود يؤكد أنه قائد علي مستوي عالي من الحنكة ، ويعرف كيف يضغط علي الأعداء ويفتح جبهات أخري للقتال لتخفيف الضغط علي الجبهات الضعيفة ،
- نعم ووصلوا في النهاية إلي حل وسط وقاموا بالاتفاق علي أن ( – – ينسحبا معاً وفي وقت واحد من مصر – )[٤١٨] وهكذا ترك أسد الدين شيركوه وجيشه مصر وترك أيضاً عموري وجيشه مصر وكان نور الدين محمود يهدف إلي توحيد الجبهة الإسلامية ضد الصليبيين واعتبر أن ضم مصر وسيلة مهمة لتحقيق هذا الهدف وكان مقتنعاً تماماً أن أسد الدين شيركوه كان يقود جيشاً صغيراً قليل العدد والعدة ولا يكفي لإتمام هذه المهمة ولم يكن يتوقع أن يذهب عموري بنفسه إلي مصر علي رأس جيش بهذه القوة ، بل لم يكن يتوقع أن شاور سيستنجد بعدو مشترك لهما ، فأرسل نور الدين محمود القائد أسد الدين شيركوه للمرة الثانية إلي مصر ولكن بجيش أقوي من الجيش السابق خوفاً من عودة الصليبيين إلي مصر ، وللمرة الثانية أيضاً أرسل شاور إلي عموري ليأتي لمحاربة جيش أسد الدين شيركوه وتكرر المشهد ولكن لم يحدث قتال في بلبيس هذه المرة ولكن في المنيا حيث قام أسد الدين شيركوه بهزيمة شاور وعموري وأجبرهما علي الانسحاب إلي القاهرة ثم حدث بعد ذلك اتفاق علي مغادرة الجيشين لمصر ،
- كما حدث في المرة السابقة
- ولكن ترك عموري حامية صليبية في القاهرة للدفاع عنها عند الضرورة ، وهكذا استعان الوزير شاور بقوة صليبية علي أسوار القاهرة للدفاع عن مركزه ، وحضر الملك عموري ملك بيت المقدس إلي مصر بجيشه للمرة الثالثة
- ومن دعاه للحضور هذه المرة ؟
- لقد حضر هذه المرة بدون دعوة من شاور ، ولكن لاحتلال مصر ، مما أدي إلي إصابة شاور بالرعب الشديد وأعد العدة للدفاع عن مصر ، (– وأمر بإخلاء مدينة الفسطاط وإحراقها فظلت النار تعمل فيها وفي منشآتها ومبانيها أربعة وخمسين يوماً وأدرك الخليفة الفاطمي العاضد خطورة الموقف – )[٤١٩] وكان الخليفة الفاطمي العاضد كمن سبقه من الخلفاء الفاطميين في أواخر عهد الدولة الفاطمية ليس له علاقة بالحكم لسيطرة الوزراء علي مقاليد الحكم ، ولكنه استشعر الخطر وأرسل العاضد بنفسه هذه المرة إلي نور الدين محمود لينقذ مصر من الاحتلال الصليبي ومن التصرفات الحمقاء التي يقوم بها وزيره ، فأسرع نور الدين محمود بإرسال أسد الدين شيركوه بجيش قوي إلي مصر وكانت قوة الجيش

[٤١٨] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٥

[٤١٩] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٨

هذه المرة كافية لأن يرتد عموري ويعود إلي الشام (- بعد أن يئس من الاستيلاء علي مصر يأساً تاماً -)[٤٢٠]

- وماذا فعل شاور ؟
- حاول شاور الغدر بأسد الدين شيركوه وقتله فقد علم أن الخليفة العاضد يثق بأسد الدين شيركوه ومنحه كافة الصلاحيات تقريباً ، كما أن شيركوه يسيطر علي الأمور ومعه جيش قوي متواجد في مصر للدفاع عنها بناءاً علي طلب الخليفة الفاطمي ، فتم التخلص من شاور وإراحة الناس من شره وغدره وخيانته ، وقام العاضد بتعيين أسد الدين شيركوه وزيراً له فأصبح الخليفة شيعي ووزيره سني موالي للخليفة العباسي في بغداد ولكن سرعان ما مات أسد الدين شيركوه بعد شهرين فقط من توليه الوزارة ، فاختار العاضد لهذا المنصب صلاح الدين الأيوبي الذي كان يصاحب عمه أسد الدين شيركوه عند حضوره إلي مصر وقاتل معه الجيش الصليبي بقيادة عموري ، وكان صلاح الدين يوسف الأيوبي بصحبة عمه أسد الدين شيركوه وأحد قادة جيشه وشهد معه المعارك التي دارت في مصر مع الصليبيين وكان يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، وقد أصبح صلاح الدين الأيوبي وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي (العاضد لدين الله) وكما نعلم أن منصب الوزير في ذلك الوقت يعني أنه أصبح الرجل الأول في مصر ولديه جميع الصلاحيات
- وكان هذا تمهيداً لقيام الدولة الأيوبية في مصر؟
- نعم والتي واجهت الصليبيين بعد ذلك وحررت بيت المقدس ، ولكن قبل أن نترك الفاطميين ونتحدث عن الإيوبيين ، دعنا نلقي نظرة أخيرة علي العصر الفاطمي
- كم أود أن أعرف انطباعاتك عن ذلك العصر

## ١٤٧. الدولة الفاطمية لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية

- عندما يتحدث أي شخص عن الخلافة الإسلامية فلا شك أن الخلافة الفاطمية لا تصلح كنموذج لذلك حيث أنهم خارجين علي الخليفة العباسي السني في بغداد كما أنهم شيعة اسماعيلية وأيضاً مشكوك في نسبهم إلي آل البيت وبالتالي فإن أي مسلم سُنّي عندما يتكلم عن الخلفاء في الإسلام يجب أن لا يقع في هذا الخطأ ويتكلم عن الفاطميين علي أساس أنهم من الخلفاء السنة بل يجب أن يوضح للجميع أنهم بعاداتهم وأفعالهم قد أساءوا للإسلام وللمسلمين ولم يتركوا في مصر سوي العادات التي نعاني منها حتي الآن ولا أجد لهم شيئاً جيداً تركوه لنا سوي المباني الأثرية الإسلامية العديدة والرائعة ، وأسوأ ما في العصر الفاطمي هو أنهم لم يستطيعوا المحافظة علي المقدسات الإسلامية وضاعت القدس من المسلمين لأول مرة منذ دخلها عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث اقتحم الصليبيون المدينة بحملة شرسة لم تتمكن الدولة الفاطمية من صدها نتيجة لحالة الضعف والتفكك التي وصلت

[٤٢٠] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٨

إليها الأمة في ذلك الوقت وليس نتيجة لتفوق الصليبيين علي المسلمين ، ( – – فعلي امتداد ستة عقود " ٢٩٨-٣٦١ هـ " حكموها في المغرب ولأكثر من قرنين حكموها في مصر – فقد نشروا من الخرافات والبدع ما لا أصل له لا في كتاب ولا في سنة ولجئوا – هم وعاداتهم – إلي ضروب من الحيل والدجل لإقناع الناس بهم وبدعواهم وهي ضروب لا يمكن أن تصدر عن ناس ينتسبون إلي أهل البيت – – )٤٢١ ، ( – – وقد كانت لهم جرأة كبيرة علي التنكيل بمخالفيهم بأفظع الوسائل كما أنهم كانوا من أجرأ الناس – وبأقبح الأساليب – علي سب صحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم – – )٤٢٢ ، ( – – وكيف يطمئن المسلمون إلي حكام يزعمون أنهم خلفاء مسلمون وأنهم من نسل علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – ومع ذلك يحتضنون كما فعل المعز لدين الله – شاعراً زنديقاً هو " محمد بن هانئ الأندلسي " الذي يقول لخليفتهم متحدياً مشاعر المسلمين وضارباً بها عرض الحائط٤٢٣ :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار – – – فاحكم فأنت الواحد القهار

( – – ومن الغريب في أمر الفاطميين : إيثارهم لليهود والنصاري في أخطر منصب لديهم وهو منصب الوزارة بحيث ارتبط هذا المنصب الخطير بهم – )٤٢٤

- **ولكن كيف كانت أحوال العباسيين في بغداد أثناء حكم الفاطميين في القاهرة**

## ١٤٨. العباسيون أثناء الحكم الفاطمي لمصر

- كانت الدولة الفاطمية تسيطر علي معظم أنحاء العالم الإسلامي أو قل أهم بقاع العالم الإسلامي مثل شمال أفريقيا بالكامل والشام والحجاز واليمن وكان في هذه الفترة الفاطمية يوجد خلفاء لبني العباس في بغداد ، وكما ذكرنا من قبل فإن الأئمة الفاطميين يعتبرهم أهل السنة خارجين علي الخلافة العباسية في بغداد ، وكان عدد خلفاء بني العباس في بغداد خلال فترة الدولة الفاطمية ( ١١ ) خليفة عاصروا (١١) خليفة فاطمي شيعي في مصر فمثلاً نجد أن المعز لدين الله الفاطمي ضم مصر لحكمه في عهد الخليفة العباسي المطيع لله حيث ذكر الإمام السيوطي في الصفحات التي تتناول فترة خلافة أمير المؤمنين المطيع لله العباسي ما يلي ( – – فجاء العبيديون٤٢٥ فأخذوها٤٢٦ وقامت دولة الرفض في الأقاليم : المغرب ومصر والعراق وذلك أن كافوراً الإخشيدي صاحب مصر لما مات اختل النظام وقلت الأموال علي الجند فكتب جماعة إلي المعز يطلبون منه عسكراً ليسلموا إليه مصر فأرسل مولاه

---

[٤٢١] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ١١

[٤٢٢] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٥

[٤٢٣] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٦

[٤٢٤] أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم لأبي عبد الله محمد بن علي بن حماد صفحة ٢٧

[٤٢٥] العبيديون مقصود بهم الفاطميون

[٤٢٦] الضمير عائد علي مصر أي أخذوا مصر

جوهراً في مائة ألف فارس فملكها – – )٤٢٧ ثم جاء بعد الخليفة المطيع لله ابنه الخليفة الطائع لله وفي عهده مات المعز لدين الله الفاطمي وتولي الخلافة الفاطمية في مصر العزيز بالله ، ثم بويع الخليفة العباسي القادر بالله بعد الطائع لله ويقول عنه السيوطي ما يلي : ( – – وكان القادر من الستر والديانة والسيادة وإدامة التهجد بالليل وكثرة البر والصدقات وحسن الطريقة علي صفة اشتهرت عنه وعرف بها كل أحد مع حسن المذهب وصحة الاعتقاد – – وقد صنف كتاباً في الأصول ذكر فيه فضائل الصحابة – – )٤٢٨ وفي عهده مات العزيز بالله الفاطمي وقام بالأمر بعده الحاكم بأمر الله وكان الحاكم بأمر الله الشيعي في القاهرة علي عكس القادر بالله السني في بغداد فيما يتعلق بموقف كل منهما من الصحابة فنجد القادر بالله يؤلف كتاباً في فضائل الصحابة كما ذكرنا بينما ( – قتل الحاكم جماعة من الأعيان صبراً وأمر بكتب سب الصحابة علي أبواب المساجد والشوارع وأمر العمال بالسب – – )٤٢٩ ، وتولي الخلافة العباسية بعد القادر بالله ابنه القائم بأمر الله ويقول عنه السيوطي أنه كان ( – – ورعاً ديناً زاهداً عالماً قوي اليقين بالله تعالي كثير الصدقة والصبر ، له عناية بالأدب ومعرفة حسنة بالكتابة مؤثراً للعدل والإحسان وقضاء الحوائج ، لا يري المنع من شئ طلب منه – – )٤٣٠

- **ولكن للأسف كان خلفاء بني العباس في ذلك الوقت علي الرغم من صفاتهم الحميدة كانوا مغلوبين علي أمرهم وكانت السلطة الفعلية في يد الأمراء والقادة**
- وفي عهد الخليفة العباسي القائم كان المستنصر بالله الفاطمي هو الذي يحكم الدولة الفاطمية وظل فترة طويلة جداً في الحكم٤٣١ وحدث أن ضعف حال الخلافة العباسية في بغداد نفسها ووصل الأمر إلي قتال الخليفة العباسي لمدة حوالي شهر ( – – ودعي لصاحب مصر المستنصر بجامع المنصور وزيد في الأذان "حي علي خير العمل" ثم خطب له في كل الجوامع إلا جامع الخليفة ودام القتال شهراً – – )٤٣٢
- **بغداد نفسها سيطر عليها الشيعة وتم تحويل الأذان فيها في الجوامع من الأذان السني إلي الأذان الشيعي ؟**
- نعم ، وشعر الخليفة العباسي أمير المؤمنين القائم بأمر الله بالهوان الشديد ولجأ إلي المولي عز وجل حتي أنه كتب كتاباً وأرسله ليعلق في الكعبة ومما جاء فيه (– إلي الله العظيم من المسكين عبده ،

---

[٤٢٧] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣١٧

[٤٢٨] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٤

[٤٢٩] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٥

[٤٣٠] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٨

[٤٣١] أقام المستنصر في الخلافة الفاطمية لمدة ستين سنة وأربعة أشهر كما ذكر السيوطي في تاريخ الخلفاء صفحة ٣٢٩

[٤٣٢] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٨

اللهم إنك العالم بالسرائر ، المطلع علي الضمائر ، اللهم إنك غني بعلمك ، وإطلاعك علي خلقك ، عن إعلامي ، هذا عبد قد كفر نعمك وما شكرها ، وألغي العواقب وما ذكرها ، أطغاه حلمك حتي تعدي علينا بغياً وأساء إلينا عتواً وعدواً ، اللهم قل الناصر ، واعتز الظالم ، وأنت المطلع العالم ، المنصف الحاكم ، بك نعتز عليه ، وإليك نهرب من بين يديه ، فقد تعزز علينا بالمخلوقين ، ونحن نعتز بك وقد حاكمناه إليك وتوكلنا في إنصافنا منه عليك ورفعنا ظلامتنا هذه إلي حرمك ووثقنا في كشفها بكرمك ، فاحكم بيننا بالحق وأنت خير الحاكمين - - )٤٣٣

- ومن قام بفعل كل هذا في بغداد ؟
- كان المقصود في دعاء الخليفة هو أحد القادة الشيعة الموالين للمستنصر بالله الفاطمي في مصر وكان اسمه " البساسيري " وكان البساسيري قد هزم الخليفة العباسي وقبض عليه وسجنه ، ثم حدث أن جاء أحد القادة السلاجقة السنة واسمه ( طغرلبك ) وهزم البساسيري وأفرج عن الخليفة (- ولما رجع الخليفة إلي داره لم ينم بعدها إلا علي فراش مصلاه ولزم الصيام والقيام وعفا عن كل من آذاه - - )٤٣٤
- فمن جاء بعده في الخلافة العباسية ؟
- ثم جاء الخليفة العباسي المقتدي بأمر الله الذي في عهده عادت الأمور شيئاً فشيئاً إلي طبيعتها وأصبحت الخلافة العباسية وافرة الحرمة علي حد تعبير الإمام السيوطي ففي عهده ( - - خطب للمقتدي بدمشق وأبطل الأذان "بحي علي خير العمل" وفرح الناس بذلك - )٤٣٥ ويقول عنه السيوطي أنه كان قوي النفس عالي الهمة من نجباء بني العباس وقد عاصر أيضاً المستنصر بالله في مصر ، ثم جاء بعد المقتدي بالله في الخلافة ابنه المستظهر بالله وكان لين الجانب كريم الأخلاق ومحباً للعلماء والصلحاء ( - ولم تصف له الخلافة بل كانت أيامه مضطربة كثيرة الحروب - - )٤٣٦ وفي عهده مات المستنصر بالله وقام بعده المستعلي بالله وفي عهده حدثت أولي الحملات الصليبية واستطاع الصليبيون الاستيلاء علي بيت المقدس ويقول السيوطي عن ذلك ( - فكان هذا أول مظهر الفرنج بالشام ، قدموا في بحر القسطنطينية في جمع عظيم وانزعجت الملوك والرعية وعظم الخطب - وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً منهم جماعة من العلماء والعباد والذهاد وهدموا المشاهد وجمعوا اليهود في الكنيسة وأحرقوها عليهم - - )٤٣٧

---

[٤٣٣] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٩

[٤٣٤] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٢٩

[٤٣٥] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٣٢

[٤٣٦] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٣٤

[٤٣٧] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٣٥

- كان من الطبيعي أن ينهش الصليبيون جسد الأمة الممزقة التي انقسمت إلي عدة فرق متحاربة وفقدت روح القتال والجهاد وسيطر فيها الشيعة علي معظم البقاع بما فيها الشام وبيت المقدس فلم يتمكنوا من الدفاع عنها وفقدت الأمة الإسلامية لأول مرة بيت المقدس منذ أن دخلها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يسبه ويشتمه الشيعة علي المنابر في القاهرة الفاطمية ، ولكن كيف بدأت فكرة الحملات الصليبية ؟

## ١٤٩. كيف بدأت الحملات الصليبية ؟

- أصل الغزو الصليبي للأمة الإسلامية يعود إلي شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني٤٣٨ وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (- وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك )٤٣٩ ، وهكذا أصبح هناك عدو آخر للأمة بالإضافة إلي الروم أعداءها التقليديين
- وكيف انتهت الدولة الفاطمية تماماً وقامت الأيوبية ؟

## ١٥٠. صلاح الدين يسيطر علي مصر

- لقد ظهر علي مسرح الأحداث قائد من أبرز الشخصيات في تاريخ مصر والعالم الإسلامي وهو صلاح الدين الأيوبي فهنا يتوقف التاريخ ليكتب ويسجل ويشير بجميع أصابعه إذا كانت له أصابع إلي شخصية بارزة طال انتظار ظهورها لتصل إلي قمة الأحداث ، إنه صلاح الدين يوسف الأيوبي الكردي السني الذي يدين بالولاء لنور الدين محمود حاكم الشام وللخليفة العباسي السني ، والذي الوقت نفسه أصبح وزيراً للدولة الفاطمية في عهد آخر خليفة فاطمي ( العاضد ) ، ولقد واجه صلاح الدين العديد من التحديات والمشاكل في الداخل والخارج قبل أن يستطيع تأسيس الدولة الأيوبية في مصر والعالم الإسلامي ، ولا أريد أن أطيل عليك بذكر تفاصيل ما دار بين صلاح الدين وبين أعداءه في الداخل والخارج ولكن يمكن تلخيص الموضوع ببساطة شديدة في عدة نقاط محددة ، ولكي نعرف الأعداء لابد

---

[٤٣٨] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٩

[٤٣٩] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٩

أن نعرف هدف صلاح الدين أولاً لأن الأعداء بطبيعة الحال هم كل من يريد فشل صلاح الدين في تحقيق هذا الهدف ،

- فماذا كان يريد أن يحققه صلاح الدين وما الفرق بينه وبين نور الدين محمود ؟
- كان توحيد الأمة الإسلامية في مواجهة الصليبيين هو هدف كلا الرجلين صلاح الدين ونور الدين ولكن وجهات النظر كانت تختلف في الأسلوب وقاعدة الانطلاق لتحقيق الهدف ، لأن نور الدين محمود كان يري أن الشام هي المكان المناسب لتكون قاعدة انطلاق ضد الصليبيين[٤٤٠] كوضع طبيعي لكونها ميدان القتال المتلاحم معهم ، أما صلاح الدين فقد اعتبر أن مصر هي القاعدة التي يجب الانطلاق منها لتوحيد الأمة الإسلامية والقضاء علي الحملات الصليبية والله أعلم لأنه نظر إليها النظرة التي نتحدث عنها من بداية الحوار والتي هي جديرة بها ، وقدر لها قدرها وعرف إمكانياتها وثقلها وفضلها والله أعلم ، ، كما أن صلاح الدين لا يريد القوة فقط لتحقيق الأهداف بل كان يعتبر الحكمة والتروي لا بد أن يسيران جنباً إلي جنب بجوار القوة فرأي أن الأمة قد تعددت فيها المذاهب وانحرف الكثيرون عن أصل العقيدة الإسلامية وابتعدوا عن كتاب الله وسنة نبيه صلي الله عليه وسلم ، فوجد أن أفضل اسلوب هو إعادة المذهب السني وتقويته في مصر واليمن وغيرها من بلاد الأمة لتمضي وتسير علي منهج الله وبالتالي تستحق نصر الله
- فماذا كان موقف نور الدين محمود رحمه الله ؟
- أصر نور الدين محمود علي أوامره لصلاح الدين بالغاء الخطبة للخليفة الفاطمي العاضد وإقامتها للخليفة العباسي المستضئ دون أي مقدمات أو تمهيد ولم يستطع صلاح الدين مخالفة أوامر نور الدين محمود رغم إحساسه بمدي خطورة إلغاء الخلافة الفاطمية بهذا الأسلوب المفاجئ بل كان يري أن نشر المذهب السني أولاً في مصر والدعوة إليه وتقويته هو السبيل إلي سقوط الخلافة الفاطمية بهدوء وبدون مشاكل من أي نوع بل وعن قناعة وليس قهراً ،
- إذن فقد قام صلاح الدين بتنفيذ أوامر نور الدين محمود وألغي الأذان الشيعي وأعاد الأذان السني ودعا للخليفة العباسي المستضئ بأمر الله علي المنابر
- نعم ، ولكنه في نفس الوقت أنشأ مدرسة علي المذهب الشافعي[٤٤١] وعين قضاة شافعيين في كافة الأنحاء والطريف أن هذه الإجراءات لم تتناطح عند حدوثها شاتان كما يقال بل إن المصريين المسلمين فرحوا بعودة المذهب السني الذي لم يخرجوا منه أساساً علي ما يبدو ، وكان الخليفة العاضد مريضاً مرضاً شديداً حتي قيل أنه مات دون أن يعرف بإلغاء الخلافة الشيعية في مصر ولم يخبره أحد بذلك ،

---

[٤٤٠] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٣

[٤٤١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٢

ويموت أيضاً نور الدين محمود[٤٤٢] ويخلفه ابنه الذي لا يتعدي عمره (١١) سنة[٤٤٣] وأصبح هذا الطفل مطمعاً للقادة والأمراء الذين حوله (- ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمل هؤلاء الأمراء علي مصالحة الصليبيين في بيت المقدس في ذلك الوقت العصيب الذي تمر به الأمة الإسلامية الأمر الذي أثار سخط صلاح الدين -)[٤٤٤] وهنا شعر صلاح الدين أن من واجبه أن يكمل ما بدأه نور الدين محمود لأنه لم يجد فيما يبدو أحد يريد استكمال مسيرة جهاد نور الدين رحمه الله بل علي العكس من ذلك فقد وجد بعض الأمراء يريدون وضع أيديهم في أيدي الصليبيين

- لقد كثر إذن أعداء صلاح الدين

## ١٥١. أعداء صلاح الدين

- من هنا يتضح أن المخاطر التي واجهت صلاح الدين كانت تتمثل في العديد من المؤامرات الداخلية والخارجية وكانت هناك عدة محاولات لاغتياله غدراً في مقره ، وكانت المؤامرات الداخلية تتمثل في قيام بقايا الفاطميين بعد وفاة العاضد بالاتصال بملك صقلية وملوك الفرنجة وطلبوا منهم الاتحاد في مواجهة صلاح الدين والقضاء عليه (- فظهر في ذي الحجة ٥٦٩هـ " يوليو ١١٧٤م" أسطول ضخم أمام الإسكندرية أرسله وليم الثاني النورماني ملك صقلية وحاصر المدينة كما دمر بعض السفن التجارية الراسية في الميناء ، غير أن شجاعة الجيش الأيوبي ومقاومة أهل الإسكندرية الباسلة خيبت آمال وليم الثاني وحملت أسطوله علي أن يقلع من الإسكندرية في مستهل أغسطس من نفس العام -)[٤٤٥] ، كما حاول أيضاً الفاطميون بالاتحاد مع السودانيين إعادة الدولة الفاطمية وباءت المحاولة بالفشل حيث أرسل صلاح الدين أخاه " العادل " لمحاربتهم وهزمهم بالفعل ، وغاية ما يمكن أن يقال عن أعداء صلاح الدين أنهم كل من لا يريد عودة الأمة إلي وحدتها ويفضل تمزقها وخضوعها لأمم أخري

- فمن كان الخليفة العباسي أثناء ذلك ؟

- كان الخليفة العباسي أمير المؤمنين المستضئ بأمر الله الذي في عهده تم عودة مصر إلي الخلافة العباسية فعندما تولي الخلافة (- قال ابن الجوزي : فنادي برفع المكوس ورد المظالم وأظهر العدل والكرم ما لم نره في أعمارنا وفرق مالاً عظيماً علي الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط ، وكان دائم البذل للمال ، ليس له عنده وقع ، ذا حلم وأناة ورأفة -)[٤٤٦] ، (- وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد ، وخطب له بمصر وضربت السكة باسمه وجاء البشير بذلك فعلقت الأسواق ببغداد

---

[٤٤٢] وسبحان الحي الذي لا يموت

[٤٤٣] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٥

[٤٤٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٥

[٤٤٥] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٦

[٤٤٦] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٤٨

وعملت القباب – – وقال الذهبي : في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهي وأمن الناس ورزق سعادة عظيمة في خلافته وخطب له باليمن وبرقة وتوزر ومصر إلي أسوان ودانت الملوك بطاعته – – وقال العماد الكاتب : استفتح السلطان صلاح الدين بن أيوب سنة سبع بجامع مصر كل طاعة وسمع وهو إقامة الخطبة في الجمعة الأولي منها بمصر لبني العباس ، وعفت البدعة وصفت الشرعة وأقيمت الخطبة العباسية في الجمعة الثانية بالقاهرة وأعقب ذلك موت العاضد في يوم عاشوراء –)٤٤٧

- وبهذا عادت مصر إلي المذهب السني وإلي الخلافة العباسية رسمياً ؟
- نعم ، وقرر صلاح الدين بناء سور حول القاهرة وباقي العواصم الإسلامية الأخري السابقة لها كالفسطاط والقطائع وقد أصبحوا كما لو كانوا مدينة واحدة كبري لها سور كبير ليس مقتصر علي القاهرة الفاطمية كما شرع في بناء قلعته الشهيرة الموجودة إلي الآن ومعروفة باسمه ولكنه مات قبل أن يتم بناءها بالكامل
- وكيف قام صلاح الدين بتوحيد الأمة تحت قيادته ؟
- استطاع صلاح الدين أن يقضي علي جميع المؤامرات الداخلية في مصر بفضل الله آخذاً بأسباب القوة وكان ينجوا بأعجوبة من محاولات قتله غدراً[٤٤٨] وبعد أن استقرت له مصر تماماً قرر أن يخوض حرباً ضد كل من تحالف مع الصليبيين في الشام وتوحيد الأمة الإسلامية وكان بالطبع يجد مقاومة شرسة أحياناً ولا يجد مقاومة تذكر أحياناً أخري وبعد عدة معارك استطاع صلاح الدين فرض سيطرته وأمسك بعجلة القيادة في الأمة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية ووجد أن الوقت قد حان لمواجهة الصليبيين وكسر شوكتهم ، وليس معني هذا أن صلاح الدين لم يحاربهم طوال تلك الفترة بل إنه اكتفي بحروب دفاعية صغيرة حتى يتمكن من توحيد الجبهة الإسلامية أولاً ، ثم التفرغ التام لهم ووراءه أمة قوية آخذه بأسباب القوة والعلم وفوق كل هذا قوية بعقيدتها السليمة الخالية من البدع والخرافات ، وكان حول صلاح الدين رجال أشداء وأعوان مخلصين من بينهم بالطبع أخوته مثل العادل وتورانشاه وكذلك رجل آخر قوي اسمه الأمير بهاء الدين قراقوش الذي أشرف علي بناء السور الذي أمر ببناءه صلاح الدين ، وطبعاً كان قراقوش رجلاً مهاباً يضرب بحسمه المثل إلي الآن ، وبالإضافة إلي كل هؤلاء كان هناك أهل الذمة من اليهود والمسيحيين الذين كانوا ينعمون بالحكم العادل والبيئة الخصبة لممارسة شعائر دينهم فالدين الإسلامي هو الدين الذي لا ينكر الأديان السماوية الأخري والذي في ظله يمكن أن تنعم باقي الأديان بمقدساتها وخصوصيتها
- حسناً ، قبل أن نسترسل في الحديث عن الدولة الأيوبية هل يمكن تلخيص العصر الأيوبي كما تعودنا ؟

## ١٥٢. ملخص العصر الأيوبي

---

[٤٤٧] تاريخ الخلفاء ( السيوطي ) صفحة ٣٤٩

[٤٤٨] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٦

- أول من تولي الحكم من الأسرة الأيوبية بالطبع هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب إلي أن توفي سنة ١١٩٢ م ثم تولي حكم مصر بعده الملك العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين إلي أن توفي سنة ١١٩٨ م ثم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز بن صلاح الدين وكان صغير السن وعمره تسع سنوات مما أدي إلي سيطرة عمه الملك الأفضل علي بن صلاح الدين الأيوبي إلي أن تم حسم الموقف تماماً وتولي الملك العادل سيف الدين أبو بكر من سنة ١٢٠٠ م إلي سنة ١٢١٨ م وهو أخو صلاح الدين وتولي الحكم لمدة ١٩ سنة ثم جاء بعده الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل إلي أن توفي سنة ١٢٣٨ م وكان أول من سكن القلعة التي شرع في بناءها صلاح الدين[٤٤٩] وجاء بعده ابنه الملك سيف الدين أبو بكر ثم توفي سنة ١٢٤٠ م ثم جاء الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل لمدة تسع سنوات وتوفي في المنصورة سنة ١٢٤٩ م وجاء بعده الملك توران شاه ابنه الذي تولي حكم مصر لمدة شهرين فقط إلي أن قتله مماليك أبيه ثم تولت الحكم عصمة الدين أم خليل شجرة الدر زوجة الملك الصالح نجم الدين ولم تستمر في الحكم أكثر من ثمانين يوماً وبهذا انتهت الدولة الأيوبية علي يد المماليك[٤٥٠] وأشهر ملوك بني أيوب هم الملك الناصر والملك العادل والملك الكامل والملك الصالح ، وكان الصليبيون هم قدر الدولة الأيوبية منذ نشأتها وحتي آخر يوم في تاريخها فقد كان الأيوبيون في جهاد مستمر مع الصليبيين ويواجهون الحملات الصليبية المختلفة الواحدة تلو الأخري
- كأنهم تواجدوا في هذه الحقبة من تاريخ الأمة الإسلامية خصيصاً لهذا الغرض
- نعم وأكبر دليل علي ذلك أن الصليبيين أيقنوا أن الطريق إلي بيت المقدس يبدأ من مصر ( فقد كان هدف الحملات الصليبية التالية هو القضاء علي الدولة الأيوبية في مصر باعتبارها مركز المقاومة الأول -)[٤٥١] ، وكان ملوك بني أيوب يفضلون السلام مع الصليبيين ويعتبرون أن الجهود الدبلوماسية قد توقف كل هذه الحروب الدامية ويحاولون تجنبها ولكن للأسف الشديد كان الصليبيون لا يكفون عن مهاجمتهم مما اضطرهم إلي الوقوف أمام هذه الحملات بقوة وشجاعة (- ومع أن ملوك الأيوبيين قد بذلوا الجهد الأكبر في مقاومة هذه الحركة فإننا نلاحظ أن معظم هؤلاء الملوك قد جنحوا إلي مسالمة الصليبيين وإلي اصطناع السياسة في علاقتهم معهم كلما أمكن ذلك - - ومع أنهم نجحوا في هذه السياسة بعض النجاح فإن هذا لم يحل بين الحملات الصليبية وبين تطورها الطبيعي الذي انتهي بها إلي تحول الاتجاه عن الشام إلي مصر -)[٤٥٢]

---

[٤٤٩] جدير بالذكر أن كل من حكم مصر بعد ذلك سكن القلعة حتى عهد الخديوي إسماعيل من أسرة محمد علي والذي نزل من القلعة وأقام بقصر عابدين واتخذه مقراً له

[٤٥٠] تم كتابة أسماء ملوك الدولة الأيوبية من كتاب موسوعة حكام مصر للدكتور ناصر الأنصاري صفحة ٨٩ ، صفحة ٩٠

[٤٥١] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٧٨

[٤٥٢] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٧٨

- **هل يمكن تلخيص جميع الحملات الصليبية من البداية ؟**
- **من الممكن بالطبع وقد ذكرنا أنه قد بدأت فكرة الغزو الصليبي للأمة الإسلامية في شهر نوفمبر سنة ١٠٩٥ م حيث تم عقد مجمع كلير مونت بإقليم أوفيرون بفرنسا بواسطة البابا أوربان الثاني[٤٥٣] وفي هذه الأوقات كانت الكنيسة في أوروبا مسيطرة علي الأمور بشكل غير عادي وكانت هناك حروب طاحنة بين الأمراء المسيحيين فقررت الكنيسة أن تشغل هؤلاء الأمراء عن حروبهم بعضهم لبعض بحرب مقدسة من أجل الصليب ويقول عن ذلك الدكتور الحويري (- وكانت البابوية في الغرب الأوروبي قد ارتفع شأنها وصارت لها السيادة علي كل الكنائس الأوروبية بفضل سلسلة من الباباوات الأقوياء فأخذت تشجع أمراء الإقطاع علي نبذ حروبهم الداخلية وتوجيهها ضد المسلمين بغية إشباع نزعتهم القتالية ووعدت البابوية بمنح الغفران لكل من يقاتل من أجل الصليب ورحبت المدن التجارية الإيطالية مثل بيزا والبندقية وجنوة بالحروب الصليبية لما رأوا فيها من تحقيق أمنية ثمينة كانت تراودهم وهي الاستئثار بتجارة الشرق وإقامة مراكز تجارية لها في بلاد الشام وجني الأرباح من وراء ذلك )[٤٥٤] ، وهذه كانت الحملة الصليبية الأولي**
- **فمتي جاءت الحملة التالية ؟**
- **جاءت الحملة الصليبية الثانية بعد أن استطاع عماد الدين زنكي تحرير مملكة الرها من الصليبيين ، ثم جاءت الحملة الثالثة التي قامت باحتلال عكا ومدن الساحل بعد أن تم تحرير بيت المقدس علي يد الملك الناصر صلاح الدين وانتهت بتوقيع معاهدة مع ريتشارد قلب الأسد وعاد إلي بلاده ، وبعد هذه الحملات كانت الحملة الرابعة بعد موت صلاح الدين والتي كانت بسبب البابا أنوسنت الثالث ولكنها باءت بالفشل حيث تم تحويلها عن اتجاهها الرئيسي إلي القسطنطينية والطريف أن هناك حملة أخري اسمها حملة الأطفال قام بها (- صبي من الرعاة وادعي أن المسيح أمره بقيادة حملة صليبية من الأطفال لإنقاذ بيت المقدس - - - وقد غرر بهم بعض التجار وأصحاب السفن فحملوهم إلي الثغور الإسلامية وباعوهم في الإسكندرية وغيرها من البلدان الإسلامية بيع الرقيق -)[٤٥٥]**
- **سبحان الله وقد أسلموا بالطبع**
- **وبعد ذلك جاءت الحملة الصليبية الخامسة بقيادة جان دي بريين ثم الحملة الصليبية السادسة بقيادة الإمبراطور فردريك الثاني وأخيراً الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع والتي كانت في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وابنه توران شاه وانتهت بهزيمة ساحقة للصليبيين وتم أسر ملكهم لويس التاسع كما نعرف جميعاً وتم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة ، وبالتالي فإن كل هذه**

---

[٤٥٣] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٩

[٤٥٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٥٩

[٤٥٥] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٨٠

الحملات جاءت في عهد الدولة الأيوبية عدا الحملتين الأولي والثانية فقط بالإضافة إلي حملات صغيرة لم يتم ذكرها لصغرها ،

- وكان من نصيب الدولة الأيوبية أن تواجه كل هذه الحملات الشرسة علي الرغم من محاولات تجنب هذه الحروب إلا أنها لم تتوقف طوال فترة حكم الدولة الأيوبية وانتهت تقريباً بانتهاء الدولة الأيوبية ، سبحان الله

- والجدير بالذكر أنه لم تقم في مصر ثورة واحدة طول عصر الدولة الأيوبية[٤٥٦] مما يؤكد اهتمام الأيوبيين بتوفير الرخاء والازدهار للشعب المصري[٤٥٧] علي الرغم من كثرة حروبهم مع الصليبيين طوال فترة قيام دولتهم ، كما اهتم الأيوبيون بإنشاء المدارس ونشر العلم وازدهرت الحركة الدينية والأدبية والأبحاث العلمية وبرز في مصر علماء في الرياضيات والطب وغيره من العلوم واهتم ملوك بني أيوب بإنشاء المكتبات العديدة واعتنوا بها عناية شديدة وهناك العديد من الأمثلة التي تدل علي مدي التقدم العلمي في مصر أيام الأيوبيين فمثلاً (- في بعض الأحيان كانت تعترض فردريك الثاني مشكلة علمية فكان يبعث إلي أصدقائه من ملوك المسلمين ويطلب أن يعرضوها علي من لديهم من علماء للإجابة عليها وعلي سبيل المثال أرسل فردريك مسألة إلي الملك الكامل حلها العالم الرياضي المصري قيصر الأصفونى فإنه كان المشار إليه في ذلك -)[٤٥٨]

- هذا يدل عن اهتمام الأيوبيين بالتعليم والمدارس

- عن مكانة المدرس في العصر الأيوبي وتحت عنوان المدارس في العصر الأيوبي كتبت الأستاذة الدكتورة عفاف سيد محمد صبره أستاذ التاريخ الوسيط كلية الدراسات الإنسانية جامعة الأزهر – فرع البنات ، كتبت ما ملخصه : ( احتل سلاطين الأيوبيين مكانة بارزة بين الحكام المسلمين في الاهتمام بالعلم والتعليم ، حتي أصبح لهذا العصر سمة خاصة ميزته عن غيره من العصور الإسلامية الأخري ، فقد شهد نهضة فكرية وثقافية وأدبية ودينية ، ولا أدل علي ذلك من النتاج العلمي والمؤلفات الكبيرة التي تذخر بها المكتبات الإسلامية إلي جانب الشخصيات البارزة التي تألقت ونالت حظها في ميدان الفكر والدين والسياسة - - - وبلغ من سمو ومكانة التدريس في مصر أنه كان يصدر بها تقليد أو مرسوم من السلاطين ، واعتبرت هي والقضاء من درجة واحدة ، وكثيراً ما جمع الشخص الواحد بين الوظيفتين معاً ، - - -وكانت المرتبات التي تمنح للمدرسين إما نقداً وإما عيناً كما تأثرت بظروف متعددة منها مقدار الوقف علي المدرسة ومكانة المدرس وسمعته ، وقد كان هناك مدرسون يتناولون مرتباتهم المنتظمة من الخزينة العامة للبلاد ، هناك مثل للمرتب الذي منحه صلاح الدين للشيخ نجم

---

[٤٥٦] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢١٩

[٤٥٧] حدثت مجاعة واحدة في العصر الأيوبي بسبب نقص شديد في مياه النيل وكانت في عهد السلطان العادل وتبع ذلك غلاء ووباء

[٤٥٨] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٢٥

الدين الخبوشاني عندما عينه علي التدريس والنظر في المدرسة الصلاحية فقد أورد السيوطي "أن صلاح الدين شرط له من المعلوم في كل شهر أربعين دينار معاملة ، صرف كل دينار ثلاثة عشر درهماً وثلث درهم عن التدريس" ، وقد بني صلاح الدين مدرسة أخري سماها السيوفية وقرر في تدريسها الشيخ مجد الدين محمد بن محمد الجبتي ورتب له في كل شهر أحد عشر ديناراً وباقي ريع الوقف يصرفه علي ما يراه لطلبة الحنفية المقررين عنده علي قدر طبقاتهم[٤٥٩]

- مما سبق يتضح أن ملوك الدولة الأيوبية لم تشغلهم الحروب عن أحوال الشعب ورفاهيته وتعليمه ، فهل يمكن أن تحدثني عن حروب السلطان الناصر صلاح الدين ؟

## ١٥٣. معارك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي

- (– توالت انتصارات صلاح الدين علي الصليبيين في سرعة مذهلة بحيث لم يعد الصليبيون يلاحقون تحركاته –)[٤٦٠] (– ونتيجة للضربات المتلاحقة التي كالها صلاح الدين للصليبيين طلب بلدوين الرابع وكبار باروناته الصلح من صلاح الدين في مايو ١١٨٠م فوافق وعقد معهم هدنة مدتها سنتين – )[٤٦١] ولكن كان هناك شخص متطرف جداً اسمه " ريجنالد شايتون " صاحب حصن الكرك ومشهور باسم " أرناط " في كتب التاريخ العربي ، قام أرناط بنقض الصلح بل حاول إرسال أسطول وجيش قوي لاحتلال الحرمين الشريفين (– ولا شك أن وصول تلك الحملة الصليبية الجريئة إلي شواطئ الحجاز يوضح لنا مدي الخطورة التي كانت تهدد المسلمين في أعظم مقدساتهم ، ولكن يقظة الدولة الأيوبية في تلك المرحلة من تاريخها ردت اعتداء الغزاة الصليبيين إلي نحورهم فلم ينالوا مغنماً مما أرادوه – )[٤٦٢] وبالرغم من الهدنة التي احترمها صلاح الدين مع الصليبيين إلا أن أرناط (– انقض علي قافلة كبيرة قادمة من مصر إلي دمشق وقتل الجند المكلفين بحراسة القافلة وحمل التجار أسري إلي حصنه ، ولما وصل خبر ما حدث للقافلة إلي صلاح الدين أرسل إلي أرناط يطلب إطلاق سراح الأسري ورد ما نهبه فامتنع ورد علي رسل صلاح الدين قائلاً " قولوا لمحمد يخلصكم " ورفض تسليم الأسري ، وهكذا لم يبق أمام صلاح الدين إلا الحرب فأعلن الجهاد –)[٤٦٣] (– وخرج علي رأس جيوشه وهزم الصليبيين في معركة شرسة بالقرب من " صفورية " (– وسقط معظم الجيش الصليبي بين أسري وقتلي ثم قام بمهاجمة مدينة طبرية ولم يلبث أن استولي علي المدينة في يوليو سنة ١١٨٧ م –

---

[٤٥٩] نقلاً عن كتاب تاريخ المدارس في مصر الإسلامية – إعداد د عبد العظيم رمضان – الهيئة المصرية العامة للكتاب – مكتبة الأسرة ٢٠٠٠

[٤٦٠] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٩

[٤٦١] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ١٩٩

[٤٦٢] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٠

[٤٦٣] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠١

)٤٦٤ ثم وقعت معركة حطين الشهيرة الحاسمة التي هزم فيها صلاح الدين الصليبيين هزيمة ساحقة ووقع في الأسر ملك بيت المقدس بلدوين الرابع وأرناط صاحب الكرك الذي حاول من قبل غزو الكعبة ، ويذكر التاريخ عن هذه الواقعة أن صلاح الدين عامل الأسري معاملة طيبة (- فيما عدا أرناط الذي قتله صلاح الدين بسيفه جزاء له علي غدره ومكره لأنه تجاوز الحد وتجرأ علي الأنبياء -)٤٦٥ واضطر الصليبيون إلي عقد معاهدة تقضي بإخلاء بيت المقدس من الصليبيين بدون إراقة دماء ووافق صلاح الدين علي أن يسمح لهم بالخروج سالمين وتم تسليم المدينة (- في ٢٧ رجب سنة٥٨٣ هـ "٢أكتوبر ١١٨٧م" - - ولا شك أن ما فعله صلاح الدين جاء متناقضاً تماماً لما فعله الصليبيين عندما استولوا علي بيت المقدس سنة ٤٩١ هـ "١٠٩٧م" قتلوا به أكثر من سبعين ألفاً)٤٦٦ وقد ظل بيت المقدس في أيديهم حوالي ٩٠ سنة

- **وبالطبع غضب ملوك أوروبا غضباً شديداً بسبب هزيمة الصليبيين في فلسطين أمام صلاح الدين ، وخاصة موقف تحرير بيت المقدس ؟**
- نعم ، فقام ثلاثة من ملوك أوروبا الأقوياء بتزعم حملة ضخمة لإعادة احتلال بيت المقدس وهم فردريك بربروسا إمبراطور ألمانيا وفيليب أغسطس ملك فرنسا وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا حيث قاموا بقيادة حملة صليبية جديدة معروفة بالحملة الصليبية الثالثة واستطاعوا احتلال عكا لتكون قاعدة القتال ضد المسلمين وقتلوا حوالي ثلاثة آلاف أسير مسلم٤٦٧ ثم أوقع المولي عز وجل الخلاف بين قادة هذه الحملة وانتهي الأمر إلي قيام ريتشارد قلب الأسد فقط بقيادة الحملة بعد مغادرة باقي القادة نتيجة للاختلافات واستمر ريتشارد يقاتل المسلمين ولكن لم يصل إلي نتيجة مرضية بل إنه قرر أن يدخل في معاهدة صلح مع صلاح الدين بعد أن تأكد أن صلاح الدين لا يرفض حضور المسيحيين للحج في أي وقت إلي بيت المقدس كما أن صلاح الدين كان حريصاً علي مقدسات جميع الأديان وليس فقط المقدسات الإسلامية ، فعاد ريتشارد إلي بلاده مطمئناً في ٩ أكتوبر سنة ١١٩٢م٤٦٨

- **ومتي مات صلاح الدين ؟**
- مات صلاح الدين الأيوبي ( في ٢٧ صفر سنة ٥٨٩ هـ " أوائل مارس سنة ١١٩٣م" - - مخلفاً وراءه دولة متحدة الأركان - - وقد قال المؤرخ السيوطي في صلاح الدين " فرحمة الله عليه في سائر

---

[٤٦٤] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠١

[٤٦٥] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٢

[٤٦٦] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٣

[٤٦٧] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٤

[٤٦٨] مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٥

الأوقات فلقد كان إماماً عادلاً وسلطاناً كاملاً لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده –)٤٦٩ ، وإليك بعض مقتطفات من قصيدة كتبها أسامة بن منقذ في صلاح الدين ٤٧٠

ملك يمن علي أساري سبيه – – – فيعيدهم في الأسر بالإحسان

ملأ القلوب محبة ومهابة – – – فخلت من البغضاء والشنآن

يا ناصر الإسلام حين تخاذلت – – – عنه الملوك ومظهر الإيمان

بك قد أعز الله حزب جنوده – – – وأذل حزب الكفر والطغيان

لما رأيت الناس قد أغواهم – – – الشيطان بالإلحاد والعصيان

جردت سيفك في العدا لا رغبة – – – في الملك بل في طاعة الرحمن

وغضبت لله الذي أعطاك فضل – – – الحكم غضبة ثائر حران

- كما رثاه العماد الأصبهاني في كتابه " البرق الشامي " بقصيدة يبلغ عدد أبياتها مائتين واثنين وثلاثين بيتاً جاء فيها ٤٧١ :

بالله أين الناصر الملك الذي – – – لله خالصة صفت نياته

أين الذي مازال سلطانا لنا – – – يُرجي نداه وتُتقي سطواته

لا تحسبوه ممات شخص واحد – – – فممات كل العالمين مماته

دفن السماح فليس ينبش بعدما – – – أودي إلي يوم النشور رفاته

من لليتامي والأرامل راحم – – – متعطف مفضوضة صدفاته

- فمن أيضاً من ملوك الدولة الأيوبية يمكننا الحديث عنه ؟

## ١٥٤. الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :

- عندما وصل للحكم في الدولة الأيوبية الملك الكامل كان محباً للسلام وكان الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك الصقليتين محباً للسلام أيضاً وقررا العيش في سلام ( – – وكان كلاً منهما لا يلجأ إلي السيف إذا استطاع أن يحل مشكلاته بالسياسة والطرق السلمية ، وقد أحسن " كانتوروفتر " مؤرخ فردريك الثاني في وصف الرجلين حين قال : كان الملك الكامل صورة شرقية من الإمبراطور إن لم يكن أقرب إلي الصحة أن نقول إن الإمبراطور كان صورة غربية من السلطان الملك الكامل – – )٤٧٢

- فماذا حدث في عهده ؟

---

٤٦٩ مصر في العصور الوسطي ( د محمود الحويري ) صفحة ٢٠٦ ( نقلاً عن السيوطي )

٤٧٠ صلاح الدين الأيوبي ( د جمال الدين الرمادي ) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صحفة ٨٠ ، ٨١

٤٧١ صلاح الدين الأيوبي ( د جمال الدين الرمادي ) العدد ٢٥ من كتاب الشعب سنة ١٩٥٨ صفحة ١٠٥

٤٧٢ تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٨٩

- حدثت الحملة الغريبة والطريفة جداً والتي لا مثيل لها وهي الحملة الصليبية السادسة التي تزعمها الإمبراطور فردريك الثاني وكانت تتكون من ستمائة فارس فقط وهي حملة سلمية وكان الغرض منها تنفيذ معاهدة السلام التي تمت بين فردريك الثاني والملك الكامل وفيما يلي بنود المعاهدة كاملة كما وردت في الجزء الثاني من كتاب " تاريخ مصر الإسلامية " للدكتور جمال الدين الشيال وتحديداً في صفحة (٩٠)

( ١ ) أن تسلم بيت المقدس للإمبراطور باعتبارها ملك الدولة الصليبية بشرط ألا يقيم فيها حصوناً أو قلاعاً

( ٢ ) أن يعطي للصليبيين بيت لحم والناصرة وطريق الحاج من بيت المقدس إلي يافا علي الساحل

( ٣ ) أن يبقي في أيدي المسلمين من بيت المقدس منطقة المسجد الأقصى علي ألا يحمل المسلمون في تلك المنطقة سلاحاً

( ٤ ) أن يطلق الكامل سراح من عنده من الأسري

( ٥ ) أن يتعهد فردريك بمحالفة الكامل ضد جميع أعدائه حتي ولو كانوا مسيحيين صليبيين

( ٦ ) أن يضمن الإمبراطور عدم وصول إمدادات صليبية إلي الإمارتين الصليبيتين في إنطاكية وطرابلس

( ٧ ) أن تسري هذه المعاهدة لمدة عشر سنوات

وبالطبع غضب بعض المسلمون من الملك الكامل لتوقيعه هذه المعاهدة التي تسمح للصليبيين بالتواجد في بيت المقدس ولو كمملكة رمزية دون قوة تحميها كما سخط أيضاً المسيحيون علي فردريك لأنه سالم المسلمين دون قتال وظل الطرفين ينعمون بالسلام والأمن لفترة من الوقت استطاع فيها الملك الكامل أن يحقق رغبة الصليبيين في تكوين مملكتهم المحببة في بيت المقدس ولكن منزوعة السلاح مع سيطرة المسلمين علي كل مقدساتهم الإسلامية في المنطقة سيطرة كاملة مع السماح للحجاج المسيحيين بالتوجه بحرية إلي أماكنهم المقدسة[٤٧٣]

- **فماذا حدث بعد ذلك ؟**
- عندما تولي الملك الصالح حكم مصر قام باستعادة بيت المقدس سنة ١٢٤٤ م وقد تزامن ذلك مع وصول إحدى الحملات الصليبية الصغرى إلي الشام وأدى استعادة بيت المقدس مرة أخري في أيدي المسلمين إلي قيام حرب صليبية جديدة قوية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، والطريف أن هذه الحملة كانت ضد المسلمين وضد فردريك الثاني في نفس الوقت أي أنهما كانتا حملتان واحدة ضد المسلمين والثانية ضد الصليبيين المتحالفين مع المسلمين باعتبارهم خارجين علي الكنيسة ( – ولعل ذلك كان عاملاً من أهم العوامل التي أدت إلي توثيق الصداقة بين فردريك الثاني والملك الصالح نجم

[٤٧٣] نقلاً عن كتاب ( تاريخ مصر الإسلامية ) تأليف ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني

الدين فأرسل فردريك في السر رسولاً يحمل إلي الصالح أنباء خروج حملة لويس في طريقها إلي مصر – )٤٧٤ وكان من الطبيعي أن تبدأ الحملة بقتال الدولة الأيوبية في مصر لأنه لا يمكن الوصول إلي بيت المقدس إلا إذا سقطت الدولة الأيوبية في مصر أولاً فيصبح بذلك الطريق سهلاً إلي تحقيق الهدف الرئيس من الحملة

- وصلنا للحديث عن الملك الصالح والملك لويس التاسع ، فماذا حدث بينهما ؟

## ١٥٥. الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة

- جاءت الحملة الصليبية السابعة بقيادة الملك لويس التاسع ملك فرنسا والتي اتجهت إلي دمياط ، واستولت عليها بطريقة ليس لتفوقهم دخل فيها ، فقد كان السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب مريضاً مرضاً شديداً وعندما وصلت السفن الفرنسية ( – أرسل الأمير فخر الدين الحمام الزاجل يحمل النبأ إلي السلطان ، وتعددت رسائله دون أن يتلقى رداً فأدرك أن السلطان قد مات ، فانتظر حتي وافي الليل وانسحب بجيشه كله من الشاطئ الغربي إلي دمياط ثم تركها وسار جنوباً – – – ونظر أهالي دمياط فوجدوا الجيش الذي أتي لحمايتهم قد غادر المدينة فخافوا علي أرواحهم وخرجوا في الليل تاركين مدينتهم – – )٤٧٥ ، أما الملك لويس فعندما أصبح وجد المدينة خالية من الجند ومن الأهالي فظن أنها مكيدة وقام بإرسال من يستكشف الموقف فتأكد من خلو المدينة بالفعل
- يا له من سعيد الحظ ، ولكن كيف يتم ترك المدينة والانسحاب بالجيش لمجرد الاعتقاد بوفاة الملك
- لقد كان مخطئاً بلا شك ، ولكن بشكل عام هذا مثال علي أهمية الحاكم في مصر ،
- كما سقطت مصر من قبل في أيدي الفاطميين لمجرد وفاة كافور ، سبحان الله
- ودخل الجيش الفرنسي دمياط بلا مقاومة وبلا أدني مشقة أو عناء نتيجة لقرار خطأ اتخذه الأمير فخر الدين والطريف أن لويس التاسع ورجاله وجدوا المدينة عامرة بالأقوات والذخائر
- بالتأكيد فالمدينة بالطبع كانت تستعد لحصار طويل فاستولي لويس علي كل ذلك وفرح به ،
- ومكث بالمدينة ستة شهور كاملة ، فكان تأثير خبر وفاة الملك في هذه الفترة في منتهي الخطورة حتى لو كان خبر غير صحيح ، ورغم مرضه الشديد وحزنه علي انسحاب حامية دمياط إلا أن الملك الصالح استطاع أن يحشد الجيش بالمنصورة واتخذها قاعة لقتال الصليبيين وقام بتحصينها واستعد للمعركة الكبرى معهم ، كما أن المجاهدين قاموا بأعمال إغارة علي معسكر الصليبيين بدمياط والعودة في كل يوم بعدد من الأسري٤٧٦ ، وفي وسط كل هذه الأحداث مات الملك الصالح في ليلة الاثنين النصف من شعبان سنة ٦٤٧ هـ " ٢٢ نوفمبر سنة ١٢٤٩ م " في أدق مراحل القتال ضد الصليبيين ، وكانت

---

[٤٧٤] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٩٤

[٤٧٥] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٩٧

[٤٧٦] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٩٨

شجرة الدر زوجة الملك الصالح سيدة قوية وحازمة وشعرت بأن هذا الخبر قد يؤدي إلي ضعف معنويات الجيش وقد يحدث ما حدث في دمياط عندما كانت مجرد شائعات عن وفاة الملك فما بالك بخبر مؤكد يصل إلي الجيش فقررت إخفاء خبر وفاته ، (- وعهدت للأمير فخر الدين بقيادة الجيش وكان الأطباء يدخلون كالعادة إلي حجرة السلطان كل يوم وكأنهم يعودونه كما كانت الأوراق الرسمية تدخل إلي نفس الغرفة وتخرج ممهورة بإمضاء الملك وعلامته بخط يشبه خطه كل الشبه وأرسلت الرسل إلي الملك المعظم تورانشاه ابن الملك الصالح -)[٤٧٧]

- يا لها من إمرأة تتسم بالحكمة وحسن التصرف
- واحتدم القتال وبرغم كل هذه الإجراءات تسرب نبأ وفاة السلطان إلي الأعداء ، ثم بوصول تورانشاه ابن الملك الصالح تولي قيادة المعركة فقام بقطع الإمدادات بين معسكر الصليبيين المواجه للمنصورة وبين مدينة دمياط التي تأتيهم الإمدادات منها حتى ضاق الحال بلويس التاسع ، فشعر بأن حملته ستفشل قبل أن تحقق أهدافها فطلب من تورانشاه أن يسلمه بيت المقدس مقابل الانسحاب من مصر[٤٧٨] فرفض تورانشاه ، واشتعل لهيب المعركة وانقض جيش المسلمين علي الأعداء وقتلوا وأسروا أعداداً ضخمة منهم ، ووقع في الأسر الملك لويس التاسع الذي تم حبسه في دار ابن لقمان بالمنصورة وكان الموكل بحراسته شخص اسمه الطواشي صبيح ، وكان نصراً عظيماً بفضل الله سبحانه وتعالي ، ثم بعد ذلك تم فداء الملك لويس بمبلغ كبير من المال وتم انسحاب الفرنجة من مصر دون قيد أو شرط بعد أن بقي العديد منهم في المنصورة واعتنقوا الإسلام ، والطريف أن أحد الشعراء في مصر في ذلك الوقت اسمه جمال الدين بن مطروح[٤٧٩] ودع جنود فرنسا المنسحبين وأشار إلي أن دار ابن لقمان ستظل موجودة وبها الطواشي صبيح إذا فكر الملك في العودة مرة أخري فقال الشاعر :

قل للفرنسيس إذا جئته - - - مقال نصح عن قؤول فصيح
أتيت مصر تبتغي ملكها - - - تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلي أدهم - - - ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أودعتهم - - - بحسن تدبيرك بطن الضريح
سبعون ألفاً لا يري منهم - - - إلا قتيل أو أسير جريح
وقل لهم إن أضمروا عودة - - - لأخذ ثأر أو لفعل قبيح
دار ابن لقمان علي حالها - - - والقيد باق والطواشي صبيح

---

[٤٧٧] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) ج ٢ صفحة ٩٨

[٤٧٨] كانت تتم عادةً هذه المراسلات بين الملوك والقادة خلال المعارك بشكل طبيعي مع تأمين الرسل تماماً أثناء قيامهم بمهامهم وهو عُرف قديم ومعروف

[٤٧٩] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني ١٠٢

والجدير بالذكر أن الملك الصالح كان يعتمد علي المماليك في هذه المعركة الذين أكثر من شرائهم ليستعين بهم علي حروبه

- أي أن المعركة كانت بين المماليك والجيش الفرنسي
- نعم ولكن المماليك بقيادة أيوبية وكان الملك الصالح يعامل المماليك معاملة خاصة لاسيما الأمراء منهم والقادة ولكن ابنه توران شاه علي ما يبدو وكما تشير المراجع التاريخية كان يتعامل مع مماليك أبيه بأسلوب غير لائق ولا يعطي قادتهم القدر الكافي من الاحترام وخاصة بعد ما حققوه من نصر علي الحملة الصليبية السابعة مما أدي إلي شعورهم بأن هذا الملك سوف يتخلص منهم في أي لحظة فقرروا التخلص منه قبل أن يتخلص منهم والله أعلم (- ولم يكن المعظم توران شاه كأبيه ثباتاً واتزاناً وحكمة بل كان شاباً أهوج فلم يقدر لزوجة أبيه شجرة الدر تدبيرها ولا للمماليك البحرية جهدهم - )[٤٨٠] وبعد أن تم قتل توران شاه قام المماليك بتكليف شجرة الدر بإدارة شئون البلاد وتزوجت أحد قادة المماليك ثم قامت بعد ذلك دولة المماليك في مصر

[٤٨٠] تاريخ مصر الإسلامية ( د جمال الدين الشيال ) الجزء الثاني صفحة ١٠١

## ١٥٦. المحتويات

## Contents


١. مقدمة..... ٢

٢. الأخبار المحيرة..... ٤

٣. بدء الحوار ..... ٥

4. الصراع بين الحق والباطل..... ٥

5. أخلاق الدول تختلف عن أخلاق الأفراد..... ٨

6. أمثلة علي خطورة الجهل بالموقف الدولي..... ٩

7. المصالح الاستعمارية أقوي من مبادئ الديمقراطية ..... ١١

8. كي تعيش شعوب في رفاهية تعيش شعوب أخري في بؤس..... ١٢

9. المطرقة والسندان ..... ١٣

10. هرم الحاجات المختل..... ١٥

11. الغباء الجماعي ..... ١٨

12. لم يحكم المصريين مصر لمدة حوالي ٢٢٩٤ سنة..... ٢١

13. السيولة السياسية في العالم الإسلامي ..... ٢٢

14. الاستقلال في المصطلح الإسلامي ..... ٢٤

15. إبعاد المصريين عن الجيش..... ٢٥

16. فكرة الاعتماد علي المماليك..... ٢٦

17. ملخص العصر الفرعوني ..... ٢٩

18. الملك مينا..... ٣٢

19. علاقة البيئة الفيضية بنظام الحكم في مصر القديمة..... ٣٤

20. أول حكومة في التاريخ كانت في مصر ..... ٣٥

٢١. النقطة السوداء في الاستمرارية المصرية ..... ٣٦

22. أهمية الشخصيات البارزة في التاريخ..... ٣٩

٢٣. الملك بيد الله سبحانه وتعالي ..... ٤١
24. ملوك أقوياء يخلفهم ملوك ضعفاء ..... ٤٢
٢٥. دور الآباء في إعداد الأبناء للحكم ..... ٤٣
26. وصف الشعب المصري ..... ٤٥
٢٧. العاطفيون ..... ٤٧
٢٨. خصائص الشخصية المصرية في رأي د جمال حمدان ..... ٤٩
٢٩. الطبيعة المصرية في رأي العقاد ..... ٥٢
٣٠. أكذوبة الاستبداد الشرقي في رأي جمال بدوي ..... ٥٣
31. أهم مصادر التاريخ الفرعوني ..... ٥٦
32. الملك زوسر ..... ٥٨
33. بناء قبر جيد في الدنيا يضمن لك حياة جيدة في الآخري (اعتقاد فرعوني) .... ٥٨
34. الاحتفال بالعيد الثلاثيني عند الفراعنة ..... ٦٠
35. الفراعنة والحياة الآخرة (الآثار مقابر ومعابد فأين قصورهم)؟ ..... ٦١
36. آلهة الفراعنة ..... ٦٢
37. أسئلة محاكمة الميت من وجهة نظر الفراعنة ..... ٦٣
38. الأنبياء في مصر ..... ٦٥
39. الملك سنفرو ..... ٦٦
40. الملك خوفو والهرم الأكبر ..... ٦٨
41. الأسرة الخامسة ومتون الأهرام ..... ٧٠
٤٢. ثورة الجياع في العصر الفرعوني ..... ٧١
43. قصة القروي الفصيح ..... ٧٤
٤٤. نصائح الملك خيتي الرابع لابنه ..... ٧٥
45. منتوحتب الثاني وبداية الدولة الوسطي ..... ٧٦
46. رسائل الكاهن الماكر ..... ٧٨

٤٧. الملك امنمحات الأول مؤسس الأسرة الثانية عشرة الفرعونية ..... ٧٩
٤٨. عندما انبهر المؤرخ اليوناني هيرودوت بمشروعات الملك امنمحات الثالث .... ٨٠
٤٩. في عهد الملك سنوسرت الثالث أبحرت السفن المصرية في الجرانيت ..... ٨٢
50. نهاية غامضة للأسرة ١٢ وعصر الاضمحلال الثاني ..... ٨٣
٥١. من هم الهكسوس ؟..... ٨٦
52. بني اسرائيل وعلاقتهم بالفراعنة ..... ٨٧
٥٣. الملك أحمس الأول وطرد الهكسوس وبداية الدولة الحديثة الفرعونية ..... ٩٤
54. الفرق بين التحديث والتغريب ..... ٩٦
٥٥. ماذا بعد أحمس ؟..... ٩٨
56. الملكة حتشبسوت(ماعت كا رع) ..... ٩٩
٥٧. أول إمبراطورية في التاريخ كانت في مصر ..... ١٠٠
٥٨. تحتمس الثالث والإمبراطورية..... ١٠١
٥٩. امنحتب الثاني يؤكد سيطرته ..... ١٠٥
٦٠. الملك امنحتب الثالث وزوجته الملكة ( تي ) ..... ١٠٧
٦١. امنحتب الرابع ( اخناتون )..... ١٠٨
٦٢. توت عنخ آمون يصل للحكم ..... ١١٠
٦٣. قوانين حور محب آخر ملوك الأسرة ١٨ ..... ١١١
٦٤. الأسرة ١٩ الفرعونية..... ١١٢
٦٥. رمسيس الثالث أبرز ملوك الأسرة رقم ٢٠ ..... ١١٦
٦٦. عصر الاضمحلال الأخير ونهاية الفراعنة ..... ١١٨
٦٧. مملكة بني إسرائيل..... ١١٩
٦٨. الحكم النوبي لمصر ..... ١٢٠
٦٩. بسماتيك الأول يحرر البلاد ..... ١٢١
٧٠. وأصبحت مصر ولاية فارسية سنة ٥٢٥ ق م ..... ١٢٣

71. نهاية العصر الفرعوني ..... ١٢٦
٧٢. التاريخ حوار بين الماضي والحاضر ..... ١٢٨
٧٣. عندما قيل للخليفة المأمون عن مصر (فما ظنك بشئ دمره الله هذا بقيته ) ١٣٠
٧٤. الإسكندر والبطالمة يسيطرون علي مصر ..... ١٣١
٧٥. الملك بطليموس الأول (سوتير) Ptolemy I Soter ..... ١٣٤
76. عصر البطالمة بعد بطليموس الأول..... ١٣٧
٧٧. عندما كانت تتوقف الحروب بسبب الألعاب الأوليمبية في العصر الهيلنستي ١٣٨
78. الاسكندرية في عصر البطالمة مدينة إغريقية..... ١٣٩
٧٩. معركة رفح تلهب الحماس وتبعث الروح مرة أخري في الشعب المصري..... ١٤١
٨٠. بطليموس الثاني عشر (الزمار) يتذلل لروما ..... ١٤٤
٨١. الملكة كليوباترا السابعة وقصة نهاية دولة البطالمة في مصر ..... ١٤٥
82. وأصبحت مصر ولاية رومانية ..... ١٤٦
٨٣. الإمبراطور كاليجولا ومؤامرة اليهود علي الوالي الروماني بالإسكندرية ..... ١٤٩
٨٤. الإمبراطور تراجانوس وإعادة القمح إلي المصريين ..... ١٥٠
٨٥. الإمبراطور ماركوس أوريليوس واندلاع ثورة عارمة في مصر..... ١٥١
٨٦. الملكة زنوبيا تسيطر علي مصر وتتحدي الإمبراطورية الرومانية ..... ١٥٢
٨٧. الديانة المسيحية في مصر..... ١٥٣
٨٨. الإمبراطور دقلديانوس وعندما كانت مصر أتعس ولاية في الإمبراطورية الرومانية ١٥٤
٨٩. العصر البيزنطي..... ١٥٧
٩٠. العصر القبطي ..... ١٥٩
٩١. الإمبراطور البيزنطي هرقل..... ١٦٢
٩٢. أفضل العناصر البشرية علي الأرض ..... ١٦٥
٩٣. أهمية دراسة سيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم..... ١٦٧

٩٤. ثاني اثنين ..... ١٦٨
٩٥. الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه ..... ١٧٣
٩٦. كيف أقنع عمرو بن العاص أمير المؤمنين عمر بفتح مصر ..... ١٧٥
٩٧. أحداث فتح مصر علي يد القائد عمرو بن العاص رضي الله عنه ..... ١٧٦
٩٨. الأنبا بنيامين يجلس علي كرسي بطركيته الذي كان مغتصب من قِبَل الرومان ١٧٨
99. ما كتبه المؤرخ البريطاني ستانلي لين بول عن فتح مصر ..... ١٧٨
١٠٠. عصر الولاة ..... ١٧٩
١٠١. مقتل أمير المؤمنين والخلافة من بعده ..... ١٨٤
١٠٢. ذو النورين ..... ١٨٦
١٠٣. بداية الفتنة..... ١٨٧
١٠٤. أمير المؤمنين محاصر في داره..... ١٨٨
١٠٥. اقتحام الدار ..... ١٨٨
١٠٦. الخيارات التي كانت أمام الخليفة..... ١٨٩
١٠٧. الإمام علي كرم الله وجهه ..... ١٩٠
١٠٨. الصراع سياسي وليس ديني ..... ١٩٢
١٠٩. العدسة التي تري الأحداث ..... ١٩٥
١١٠. فتش عن اليهود..... ١٩٧
١١١. محمد بن أبي حذيفة يسيطر علي مصر ..... ١٩٧
١١٢. موقف عمرو بن العاص من الأحداث..... ١٩٩
١١٣. موقعة المسناة..... ١٩٩
١١٤. نشأة الدولة الأموية ..... ٢٠٢
١١٥. معاوية بن أبي سفيان :..... ٢٠٣
١١٦. ملخص العصر الأموي :..... ٢٠٤

١١٧. عمر بن عبد العزيز ..... ٢٠٥
١١٨. أهم الأحداث في العصر الأموي ..... ٢٠٥
١١٩. مقتل الحسين بن علي رضي الله عنه ..... ٢٠٦
١٢٠. عبد الله بن الزبير أميراً للمؤمنين ..... ٢٠٨
١٢١. أحوال مصر في العصر الأموي : ..... ٢١٠
١٢٢. الوالي مسلمة بن مخلد الأنصاري ..... ٢١٣
١٢٣. الوالي قرة بن شريك يقاوم هجرة الفلاحين إلي المدن : ..... ٢١٤
١٢٤. بنو العباس وبنو أمية ..... ٢١٥
١٢٥. أسباب انهيار الدولة الأموية ..... ٢١٧
١٢٦. الصراع بين بني أمية وبني هاشم ..... ٢١٨
١٢٧. الوالي صالح بن علي أول والي علي مصر في العصر العباسي ..... ٢٢١
١٢٨. ملخص العصر العباسي بالكامل ..... ٢٢٣
١٢٩. أشهر خلفاء بني العباس ..... ٢٢٤
١٣٠. المهدي والرشيد والمعتصم ..... ٢٢٥
١٣١. وقفة تأمل للحروب في العصر العباسي ..... ٢٢٨
١٣٢. نظرة عامة علي الخلافة العباسية وأحوال مصر كولاية عباسية ..... ٢٢٩
١٣٣. نهاية عصر الولاة ( نظرة عامة ) ..... ٢٣٣
١٣٤. الدولة الطولونية ..... ٢٣٤
١٣٥. أحمد بن طولون ..... ٢٣٧
١٣٦. خمارويه بن أحمد بن طولون ..... ٢٤٠
١٣٧. قيام الدولة الإخشيدية في مصر ..... ٢٤٢
138. أبو بكر الإخشيد ..... ٢٤٤
139. أبو المسك كافور الإخشيدي ..... ٢٤٧
١٤٠. الشيعة الجعفرية والشيعة الإسماعيلية ..... ٢٤٩

١٤١. أهم الاختلافات بين أهل السنة والشيعة..... ٢٥١
١٤٢. ملخص العصر الفاطمي بالكامل ..... ٢٥٢
١٤٣. سيف المعز وذهبه ..... ٢٥٤
١٤٤. الحاكم بأمر الله من أشهر الخلفاء الفاطميين :..... ٢٥٧
١٤٥. الخليفة الفاطمي المستنصر بالله والشدة المستنصرية ..... ٢٥٨
١٤٦. العاضد لدين الله آخر خليفة فاطمي حكم مصر ..... ٢٦٠
١٤٧. الدولة الفاطمية لا تصلح كنموذج للخلافة الإسلامية..... ٢٦٣
١٤٨. العباسيون أثناء الحكم الفاطمي لمصر ..... ٢٦٤
١٤٩. كيف بدأت الحملات الصليبية ؟..... ٢٦٧
١٥٠. صلاح الدين يسيطر علي مصر ..... ٢٦٧
١٥١. أعداء صلاح الدين ..... ٢٦٩
١٥٢. ملخص العصر الأيوبي ..... ٢٧٠
١٥٣. معارك الملك الناصر صلاح الدين الأيوبي ..... ٢٧٤
١٥٤. الملك الكامل ومعاهدة سلام في العصر الأيوبي :..... ٢٧٦
١٥٥. الملك الصالح نجم الدين أيوب والحملة الصليبية السابعة..... ٢٧٨
١٥٦. المحتويات ..... ٢٨١